

وجهات نظر
الكتب
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 2 - Issue 22 - November 2000

مجلة شهرية . العدد الثانى والعشرون . السنة الثانية . نوفمبر ٢٠٠٠ . الثمن عشرة جنيهات

سياحة صيف فى الوثائق الإسرائيلية

مياه.. وقنابل ذرية!

محمد حسنين هيكل

اعترافات يهودية : تدمير فلسطين شرط قيام إسرائيل

سلمان أبو سنة

ظاهرة تلبيس الطواقى بين رجال الأعمال!

محمود عبد الفضيل

أزمة الإنسان والكتاب فى العالم العربى

قاسم عبده قاسم

اعادة تفسير السقوط السوفيتى

جلال أمين

سلام يقتل السلام

سلامة أحمد سلامة





الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثانية
العدد الثانى والعشرون
نوفمبر ٢٠٠٠

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

كتاب العدد:

- أبو زيد راجح .. رئيس الهيئة العامة لبحوث الإسكان والبناء والتخطيط العمرانى سابقا
- جلال أمين .. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية
- حسين الواد .. أستاذ الأدب العربى بجامعة تونس
- حسين عبدالبصير .. مساعد مدير منطقة آثار الجيزة
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى
- سلمان أبو ستة .. باحث فلسطينى
- عبدالرءوف الريدى .. سفير مصر الأسبق فى واشنطن
- عمرو كمال حمودة .. مدير مركز الفسطاط للدراسات بالقاهرة
- قاسم عبده قاسم .. أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الزقازيق
- كولين ماكجين .. أستاذ الفلسفة بجامعة رتجرز
- محمد حسنين هيكل .. صحفى
- محمد فخرى الوصيف .. أستاذ فى التاريخ الأندلسى
- محمد يوسف عدس .. باحث فى الشئون السياسية والتاريخية مقيم فى إنجلترا
- مرفت عبدالناصر .. أستاذ الطب النفسى بجامعة ليستر فى إنجلترا
- وديع فلسطين .. صحفى وعضو مجمعى اللغة العربية بدمشق والأردن

رسوم العدد للفنانين: محمد حجى - نبيل تاج - سعد الدين شحاتة

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٢٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٢٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

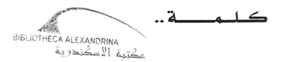
الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا. باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٢ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦. e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



كلمة..

ما يجرى.. وما جرى

«أسمع عجيجا ولا أرى طحناً» .. لربما كان المثل العربى القديم - وهو «عربى» لأنه جدير بأن يكون كذلك - ينطبق اليوم على كثير مما يجرى حولنا. إذ نسمع .. ولانرى أثراً على الأرض . ففى غياب آليات واضحة لترجمة «الكلمات»، تفقد حتى الكلمات - فضلاً عن قداستها الأزلية - تعريفها الإجرائى الذى ينحصر بالضرورة فى «الفهم.. والوصف.. والقرار». وتبقى فى النهاية فقاعات فى الهواء، أو زَبداً فى بحر مائج.

لهذا كان العرب القدامى يفرقون دائما بين الكلام - الذى له علم مختص به - وبين العجيج الذى هو مجرد صوت. أو حسب الفيروزابادى، صاحب القاموس: «الصياح والصخب والغبار والدخان..».

وكما يخفى الدخانُ عادةً حجمَ النار ونقطةَ اشتعالها، تضيعُ فى غبار الصخبِ وضجيج الصياح، حقائقُ الأشياء وجذورُ كل ما يبدو أعلى الركامَ من فروع. وفى قصَتنا - أو ملحمتنا الشرق أوسطية - تمتد بعض الجذور، فى الحقيقة والأسطورة، إلى آلاف السنين. كما يعود بعضها الآخر، فى التاريخ والسياسة، إلى أكثر من نصف قرن من هذا الزمان القريب.

وإذا كانت الصحيفة اليومية تقدم الحدث «متابعة»، والأسبوعية تقرأه «وصفا وفهماً وتحليلاً»، فإن «تأصيل» مايجرى، والبحث المتمهل فى جذوره وأبعاده، ربما كان المهمة التى يجب أن تضطلع بها شهرية مثل «وجهات نظر».

وفى تلك الأيام التى تموج فيها المنطقة بأحداث و«محاولات» .. ودماء. اخترنا فى «وجهات نظر» - بعد نقاش وتحاور - أن نقف على مسافة «مناسبة ومطلوبة» من الحدث وتفصيلاته. لنميزَ قدر المستطاع، ما قد تختلط ألوانه على «العابرين» من قريب. فنبدأ «قراءة فى التاريخ». ونتابع «قراءة فى الوثائق».

سلمان أبو ستة، الباحث الفلسطينى المتخصص، يقدم «عرضا ورؤية» لكتاب يحكى فيه كاتبه - الإسرائيلى هذه المرة - ميرون بنفينستى كيف قام الإسرائيليون قبل نصف قرن بأكبر عملية تطهير عرقى لم تجد حظها أبدا فى إلقاء الضوء أو الاهتمام التاريخى.

يحكى الكتاب الإسرائيلى وقائع النزوح القسرى للفلسطينيين قبل خمسة عقود. يومها - كما هو معروف - أصدرت الأمم المتحدة توصيتها بتقسيم فلسطين إلى دولتين: يهودية على ٥٤٪ من مساحة فلسطين مُنحت لمن يملكون ٥٪ فقط منها، ودولة عربية على مساحة ٤٦٪ تركها القرار لمن يملكون فعلياً ٩٥٪ من الأرض. ويومها استقبل العرب القرار «الظالم» بالاحتجاجات والتظاهرات، فى حين استقبله اليهود، الذين صار اسمهم «الإسرائيليون»، بعملٍ منظم، وتنفيذٍ لخطة كانت تفاصيلها بين أوراق «بن جوريون» قبل سنواتٍ. وقد لا يكون مصادفة - فالتاريخ لا يعرف المصادفة عادة - أن الأسلوب لم يختلف كثيرا عن ما نراه اليوم على شاشات الفضائيات. يومها حاصروا القرى الصغيرة، ونسفوا المنازل العربية فى أبو كبير ودير أيوب تطبيقاً «لمبدأ الردع بالترويع» الذى دأب الإسرائيليون ومازالوا على انتهاجه. ويومها - وليس فى الأمر أيضاً مصادفة - لم يكن اسم «إريل شارون» بعيداً عن ما يجرى.

ويمضى المؤلف الإسرائيلى ليحكى وقائع الأيام الستة والثلاثين، والتى كان على اليهود أن ينهوا فيها الجزء الأكبر من عمليتهم، قبل أن ينهى البريطانيون انتدابهم فى ١٥ مايو ١٩٤٨. وكيف نجح بن جوريون فى طرد ٤١٠,٠٠٠ من سكان القرى الفلسطينية. ويصف المذابح التى كان الإسرائيليون يقومون بها لترويع سكان القرى. وكيف كان المستوطنون والجنود يقتلون الشباب الفلسطينى بعد اعتقالهم فى مجموعات بحيث تدفن المجموعة التالية من سبقها «قبل أن تقتل بدورها». وكيف شحنوا النساء والأطفال فى سيارات لرميهم - كدرع بشرى على خطوط القوات العربية - ثم كيف أجلسوهم فى منتصف الطريق على أكوام حصيد القمح الناشف، وصبوا عليهم بنزيناً .. وأحرقوهم.

على الناحية الأخرى من النهر، والنهر هنا هو «التاريخ» الذى - لأسباب جغرافية - يموج مجراه الشرق أوسطى عادة، بوقائع وأحداث متلاحقة متسارعة، يتابع الأستاذ محمد حسنين هيكل قراءته للوثائق الإسرائيلية. والتى هى فى الوقت ذاته للكثيرين «قراءة للحاضر فى ضوء الوثائق الإسرائيلية».

نقرأ فى هذا الجزء (الثانى) كيف يتعاطى الإسرائيليون مع «القمم العربية»، وكيف تمكنت «الموساد» من التسجيل الكامل، بالصوت والصورة، لمناقشات ومساجلات قمة دار البيضاء (سبتمبر ١٩٦٥). وتفصح الوثائق عن الكثير مما رتبته إسرائيل على ما سمعته وعرفته من داخل جلسات هذا المؤتمر (الأخير قبل حرب ١٩٦٧).

وتشرح الوثائق أيضاً كيف يرى بن جوريون أن «العرب، المثقلين أصلاً بتناقضاتهم الداخلية، نفسهم قصير.. فهم قد يستطيعون تعبئة جهودهم لفترة زمنية محدودة، لكنهم إذا طال الوقت تراخت تعبئتهم، وضعفت حماستهم، وأخذتهم شواغل أخرى غير تلك التى جمعت بينهم..».

ويحكى هيكل حواره مع الرئيس الفرنسى «فرانسوا ميتران» حول اتفاق أوسلو بعد أسابيع من إعلانه عام ١٩٩٣ والذى عبر فيه الرئيس الفرنسى - رغم أجواء التفاؤل الاحتفالية وقتها - عن اعتقاده بأن الطرفين لن يصلا إلى حل قبل خمس أو ست سنوات «رغم كل ماقدمه عرفات يومها» لأن الإسرائيليين سيلجئون إلى تدويخ الفلسطينيين حتى يخفضوا سقف توقعاتهم قبل الدخول فى التفاوض الجاد. وذلك بإضاعة الوقت و«الجهد» كليهما فى الاقتراب من مائدة المفاوضات ثم «الابتعاد» عنها.. وطرح الصيغ الواسعة المطاطة، التى تصبح كفيلة بإضاعة وقت إضافى فى تفسيرها. فضلاً عن إغراق المفاوض الفلسطينى فى بحر من الأفكار والمقترحات، والوسطاء والوساطات.. ثم الالتفاف حول كل شىء للعودة دائماً لنقطة البداية.

المثير أن الوثائق الإسرائيلية تكشف عن المنابع الأصلية للتكتيك الإسرائيلى الذى أشار إليه ميتران. والقائم على «التدويخ والاستنزاف السياسى»، والذى يعرفه جيدا الصحفيون الذين تابعوا عن قرب مباحثات طابا الماراثونية، والتى ازدحمت ملفاتها فى حينه بعدد لانهائى من القضايا الجانبية. بدءاً من المعاملة التى يلقاها مهرب المخدرات الإسرائيلى يوسف طحان فى سجنه، وحتى نوع الطلاء المخصص لمقبرة «أبى حصيرة» فى دمنهور.

إذن فالقراءة فى التاريخ، كما فى الوثائق «القديمة» - إن كان التعبيرُ جائزاً - لاتكون بالضرورة عودة إلى الماضى. «فبعض القراءة» إنما يكون فى حقيقته محاولة «لفهم مايجرى.. فى ضوء ماجرى».

وجهات نظر

سياحة صيف فى الوثائق الإسرائيلية



محمد حسنين هيكل



مياه .. وقنابل ذرّية!

ساءلت نفسى مع موسم العودة من الشواطئ: لماذا كان استغراقى إلى درجة الغَرَق مع الوثائق الإسرائيلية أسابيع صيف مُمتدَّة على سواحل البحر الأبيض جنوباً وشمالاً؟ كان داعِيً إلى مُساءلة نفسى أن أستوثق من أنَ وقتى لعدَّة أسابيع من هذا الصيف لم يكن مجرد تَعَلُّق بالماضى لسبب من الأسباب التى تدعو الناس للعودة إليه، وهى مختلفة:

- ذلك أن هناك الحنين بالطبيعة إلى ما مَضى حتى إذا كانت العودة إليه مُرهقة، فالعودة إلى الماضى هى فى نفس الوقت عودة إلى زمن .. أى عودة بالحَنِين إلى سنوات من عُمر كان يملك قُدرَة الشباب على كل شيء، بما فى ذلك احتمال الأزمات.

- بعد ذلك فإن هناك العودة إلى الماضى بقصد إجراء نوع من ترميمه، أو تلوينه، وربما إعادة رسمه بأثر رجعى ثم تكون من ذلك، بتصميم أو بمصادفة، خِدمة لسياسة أو لموقف.

- وأخيراً فهناك عودة إلى الماضى بقصد الهرب أو التَهَرُّب من الحاضر، لأن الكلام عن الماضى ميسورٌ بينما الحاضر خطر، والمستقبل مجهول! وبعد تفكيرٍ طال، وتأمُّل ألزَمْته بالإنصاف أو جَرَّبتُ حازِماً - فإن أياً من هذه الأسباب الثلاثة لم يكن ضمن أسبابى لمساحة الزمن التى صَرَفتها فى قراءة الوثائق الإسرائيلية. بعد تفكير وتأمُّل وَجَدتُ عندى نوعين من الأسباب، أولهما موضوعى، والثانى مبدئى:

☐ بالنسبة للأسباب الموضوعية فقد وَجَدتُ أن القراءة فى الوثائق الإسرائيلية ليست من الأصل عودة إلى الماضى، وإنما هى وقوف مع الحاضر بذاته وصفاته وباعتبارِ أن كل مَخفى عندما يظهر حَدَثٌ، وكل سرٍ عندما يُذاع خَبَرٌ، وكل حقيقة تضافَ إلى ما نعرف - صالحة للنشر ومن ثم للقراءة فى أى وقت من الأوقات، وتلك كلها من الناحية الصحفية قواعد مهنية سليمة.

وضمن نفس الأسباب الموضوعية أن قراءة الوثائق الإسرائيلية تستكمل الدائرة فى الإلمام بوقائع الصراع العربى الإسرائيلى، وهو حياة هذه الأمة العربية طوال نصف قرن، وأكثر. والحاصل أننا على امتداد هذه المسافة من السنين كنا نعرف من جوانب الصورة ما تقول به الوثائق العربية بقدر ما تَيَسَّر منها، وما تقول به مصادر أخرى خارجية كالوثائق البريطانية والأمريكية والفرنسية بقَدرِ ما حصلنا عليه - لكننا لم نكن نعرف شيئاً مما تحويه وثائق الطرف الآخر أمامنا فى هذا الصراع الذى شغل الأمة واستحوذ على الجزء الأكبر من طاقتها. وبالتالى فإن قراءة الوثائق الإسرائيلية تقفل الدائرة، ومن ثم تخلق تكامُلاً وتوازناً فى الصورة العامة كلاهما كاشفٌ ومُبَيِّنٌ.

☐ أما بالنسبة للأسباب المبدئية فإنه يخطر ببالى أن قراءة الوثائق الإسرائيلية بدليل المبدأ لا تقل أهمية عن قراءتها بدليل الموضوع، لأن الأسباب المبدئية تندَرِج جميعاً تحت مطلب «المعرفة» بكل ما تعطيه «المعرفة» لأصحابها من إضافات:

- بينها أن معرفة الناس بما جرى حولهم - وما زال يجرى - تُحَرِّكهم إلى المشاركة فيه ولو بالتفكير، وهذه خطوة نحو الديمقراطية.

- ثم إن تَحَرُّك الناس إلى التفكير فيما جرى حولهم - وما زال يجرى - كفيل بأن يدفعهم إلى الحوار معه، وهذه خطوة ثانية.

- وأخيراً فإن حوار الناس مع ما جرى حولهم - وما زال يجرى - وعلى أساس من المعرفة يمنح هذا الحوار شرعية التأثير فى مجرى الحوادث، وهذه خطوة ثالثة.

وتلك كلها إضافات إلى الحيوية العامة للأمة تستحق!

....

....

وربما أذكُر بأننى بدأت تسجيل وقائع هذه السياحة فى الوثائق الإسرائيلية - فى العَدَد الماضى من «وجهات نظر» - عارضاً لمراجعى التى استندت إليها، ثم ماشياً مع الوثائق من إعلان إقامة الدولة اليهودية فى فلسطين (١٩٤٨) - إلى معركة السويس (١٩٥٦) - ثم واصلاً بعد السويس إلى مداخل معركة ١٩٦٧ كما وَرَدَت فى الوثائق الإسرائيلية، ومن الموقع الذى تَبَدَّت منه الحوادث أمام صانع القرار الإسرائيلى، ومن زاوية النظر التى رآها وتَصَرَّفَ بمُقتضاها.

ولقد أشرتُ فى التقديم لهذا الحديث إلى الأسلوب الذى اتخذته فى قراءة الوثائق الإسرائيلية من حيث:

١ - اعتماده بالكامل على الوثائق الإسرائيلية.

٢ - والتوقف فى سياقه عند بعض المواقع الفارقة لتكون منها «بانوراما» أو صورة عريضة وعميقة لمشهَد كامل.

٣ - والاهتمام بالدرجة الأولى بمصر ودورها المركزى الذى كان فى ذلك الصراع وفى الفترة التى تغطيها الملفات الإسرائيلية التى جرى الإفراج عن بعضها، مع أن الأكثر خطورة ما زال مكتوماً.

٤ - ثم التَمَسُّك فى كل الأحوال بأن يكون الحديث قراءة فى السياسة وفى التاريخ أكثر منه كتابة فيهما.

وفى الجزء الأول من الحديث «سياحة صيف فى الوثائق الإسرائيلية» - فإننى قلت وأعَدتُ القول بأن رؤية صورة أحداث التاريخ الكبرى من الضفة الأخرى تجربة مفيدة ومثيرة رغم أنها قد تكون فى بعض المواقف تقليباً للمواجع، هذا مع اقتناعى أن «المواجع» لا بد أن تُواجَه بما هو أنجع من المسَكِّنات وعقاقير الألَم .. فذاكرة الأمم ينبغى أن تظل يقظى، وأن تتحمل مواجعها بإرادة المعرفة وليس بحُقَن التخدير! وذلك تمهيد لحديث اليوم ..



١ الاستنزاف

■■ فى تفاصيل عشرات الوثائق الإسرائيلية خصوصاً بعد معركة السويس ١٩٥٦ - وفى أعقابها حتى سنة ١٩٥٨ - إشارات تظهر ولمحات تُومِئ إلى إستراتيجية من نوع «خاص» - يجرى اعتمادها وتقنين العمل بها يوماً بعد يوم. وكان بين ما لفت نظرى أثناء قراءة الوثائق إلى هذه الإستراتيجية من «نوع خاص» - تلك الحوارات الضَيِّقة والمحصورة التى دارت فى دوائر صنع القرار الإسرائيلى، والتى شاركت فيها جهات وهيئات مسئولة ومتنفذة - ظاهرة وخفية:

□ وعلى سبيل المثال فإن بعض هذه الحوارات الضَيِّقة والمحصورة دار فى وكالة الطاقة النووية الإسرائيلية «I. A. E. C. (Israel Atomic Energy Commission)» التى عَهَدَ بها رئيس الوزراء الإسرائيلى الأول والأكبر «دافيد بن جوريون» إلى العالِم اليهودى الألمانى «دافيد بيرجمان».

□ وبعضها الآخر دار بين هذه الوكالة ومؤسسات أخرى منها رئاسة الدولة الإسرائيلية نفسها (والقائم عليها فى ذلك الوقت «حاييم وايزمان»، وهو بالمهنة ومن قبل السياسة «عالِم كيمياء» مرموق).

□ وبعضها الثالث دار بين - ومع - لجان فى الكنيست وفى أحزاب كبرى مثل حزب الـ«ماباى»، حِزب «بن جوريون» وقتَها، وهو حِزب كان يعتقد - واعتقاده صحيح إلى حَدٍّ كبير - أنه تَحَمَّلَ بالمسئولية الكبرى فى إقامة الدولة، وذلك يعطيه أكثر من غيره حقاً فى مناقشة قراراتها المصيرية.

□ وأخيراً فإن بعض هذه الحوارات دار بين عُلماء من إسرائيل وعُلماء من خارجها أثناء أخذٍ ورَدّ، ولومٍ ودَفْع، مدعاته أن الضمير العلمَى العام كان ما زال تحت تأثير عُقدة الذَنب فى أعقاب مأساة استعمال السلاح النووى - لأول مرة - على «هيروشيما» و«ناجازاكى» لإرغام اليابان على الركوع أمام قوة جَبَّارة وَظَّفت عناصر الطبيعة ذاتها فى خدمة صراعٍ إمبراطورى! وفى جميع هذه الحوارات الضَيِّقة والمحصورة فقد بدا من الوثائق أن عُلماء من داخل هيئة الطاقة النووية الإسرائيلية، وأن رئيس الدولة الإسرائيلية بنفسه، وأن رؤساء لجان مُهِمَّة فى الحزب الحاكم وفى الكنيست، وأن عُلَماء خُبَراء فى شئون الطاقة النووية - عرفوا بما وَصَلَ إليهم مباشرة، أو أحَسُّوا به أو استنتجوه من الإشارات الطائرة فى الريح - أن إسرائيل على وشك الدخول خِفيَة فى مشروع يصل بها إلى صنع سلاحٍ نووى.

ثم إن ذلك الذى عَرَفَه هؤلاء جميعاً أو أحَسُّوا به أثار لديهم مَخاوف تَتَعَدَّد مصادرها:

□ مخاوف مادية من تَحَسُّب أن مشروعاً نووياً تقوم به دولة جديدة مُؤَدٍّ على وجه اليقين إلى إرهاق لمواردها يرغمها مهما حاولت على قبول أولويات فى تخصيص الموارد يتراجع معها الاجتماعى لصالح الحربى.

□ ومخاوف أخلاقية من فكرة أن تَتَوَرَّط الدولة التى تَدَّعى تمثيل شعب أفلتَ من المحرقة النازية Holocaust بمعجزة - فى امتلاك قوة شِرِّيرة هى الأعنف والأعتى من أى سلاح آخر عَرَفَه تاريخ الحروب بين المجتمعات أو بين الدول.

□ ومخاوف أمنية من احتمال أن تُصبح محاولة إسرائيل لصنع السلاح النووى دعوة لسباقٍ على هذا النوع من ترسانات الدمار الشاملَ فى الشرق الأوسط، ذلك أن بعض الدول العربية سوف تكتشف فى يوم قريب خبيئة ما تحاوله إسرائيل، ومن ثم تُقَرِّر مجاراتها على الأقل. وكان التقدير يومها أن التسابُق إلى سلاح نووى هو جزء من الطريق إلى استعماله. وفيما تقول به الأوراق فإن الدكتور «دافيد بيرجمان» تلقى من بعض زملائه وأصدقائه داخل إسرائيل وخارجها ما يُعَبِّر عن استغرابهم لأن يَقبَل رَجُل مثله بوَضعِ كفاءته العِلمية فى خدمة مشروع سلاح نووى.

ولكى يريح ضميره ويتمكن من الرَدِّ على زملائه وأصدقائه فقد ذَهَبَ «بيرجمان» يحمل هواجس الجميع وهواجسه تاثراً بهم إلى «بن جوريون»، وتَوَلى «بن جوريون» إقناعه مُركِّزاً على حُجَّتين:

□ الحجة الأولى أن خطر إبادة الشعب الإسرائيلى بحصار وسلاح أعداء محيطين بدولة إسرائيل من كل ناحية - يفرض على «الدولة» أن تُرَتِّب لنفسها «قوة ردع تقدر على كبح نزعات العدوان».

ولعل مَقدرة «بن جوريون» على الإقناع هى التى أمْلَت علَى الدكتور «بيرجمان» أن يكتب خطابه السرِّى الهام إلى صديقه «مائير يارى»، وهو واحد من أبرز قادة حزب الـ«مابام» (وكان زعيم الجناح اليسارىَ فيه) - يقول له بالنص:

«إننى مُندَهش أن رَجُلاً مثلك على استعداد لأن يُغمض عينَيه عن الحقائق العملية، ويفكر فى الدنيا كما يَتَمَناها وليس كما نراها أمامنا. واعتقادى أنه ليس هناك شخص فى هذا البلد لا يأمل ولا يدعو - على عكس المنطق الذى يحكم العالم اليوم وغداً - أن لا تدعو الحاجة إلى شىء لا نحبه جميعاً ولا نريده. لكنه يا عزيزى ليس مسموحاً لأى منا أن يستبدل المعرفة اليقينية لديه بتَصَوُرات لا تسندها غير الأوهام. إننى لا أستطيع أن أنسى الـ«هولوكوست» وكيف انقضت على شعبنا مفاجاة وعلى غير انتظار. واعتقادى أن الشعب اليهودى لن يسمح بأن تتكرر المفاجاة - أو الوَهْم - مرة ثانية!»

□ وكانت الحجة الثانية التى تمكن بها «بن جوريون» من إقناع «بيرجمان» هى قوله له (كما يُسَجِّل العالم الإسرائيلى - وزير العلوم فيما بعد - «يوفال نيمان» - وكان حاضراً فى اجتماع «بن جوريون» و«بيرجمان»):

- «لك أن تطمئن إلى أن «القنبلة» عندما نصنعها لن

عندما سألت ميتران إذا كان يتوقع قريباً نتائج تتوافق مع كل هذه الآمال المعلقة على اتفاق «أوسلو»؟ ردَّ بما مؤداه «أنه سوف يكون راضياً إذا توصل الطرفان إلى حل خلال خمس أو ست سنوات وليس شهور» !

تُستعمَل ، لأن مجرد معرفة العرب أو شكهم فى أنها عندنا سوف يفرض عليهم أن يَتَعَقَّلوا ويلزموا الحَذَر. وإذا خابت تقديراتنا واستبد بهم الجنون ، إذن فإننا نكون فى حلٍ من حماية أنفسنا ضد الإبادة. هذه هى المسألة.» ويزيد «بن جوريون» على ذلك فى حديثه للدكتور «بيرجمان» (بشهادة «يوفال نيمان»):

ـ «إننى أتعهد لك وللجميع بأن القواعد التى سنضعها لاستعمال القنبلة سوف تَفرِض على أى مسئول إسرائيلى يكون فى السلطة يومها أن لا يلجا إلى هذا السلاح إلا عند اللحظة الأخيرة.»

ثم أضاف «بن جوريون» بالعبرية : «ميكرع ها كول» ـ أى عندما يكون «كل شىء مُهَدَّداً بالضياع». وفى الوثائق الإسرائيلية فقد أصبح احتمال استعمال القنبلة هو سيناريو «ميكرع ها كول» (سيناريو «قبل ضياع كل شىء»)!

وفى اجتماعٍ لـ«بن جوريون» مع الدكتور «دافيد بيرجمان» حضره «شيمون بيريز» ـ المساعد السياسى لرئيس الوزراء فى متابعة تنفيذ برنامج «ميكرع ها كول» ـ كان «دافيد بن جوريون» أكثر صراحة فى شرح سياسته ، ويظهر أنها تَبَلوَرَت فى ذهنه بالفكر بعد أن طبقها بالفعل من زمن سبق. وطبقاً لرواية «شيمون بيريز» عن هذا الاجتماع ـ فإن «دافيد بن جوريون» قال للدكتور «بيرجمان» وقد أحَسَّ أن الهواجس ما زالت تُراوده عن أخلاقية ما يفعله تحت استمرار إلحاح زملاء له بين العُلماء ظَلَّ يُؤرقهم أن يُوضَع العِلم فى خدمة سياسة قد تكون غير ناضجة أخلاقياً ـ ماَ يكاد نصه أن يكون على النحو التالى :

ـ «أريدك أن تعرف ـ يا عزيزى البروفيسور ـ أن ما أطلبه منك هو أن تساعد على أن يكون لهذا البلد (إسرائيل) رادعٌ نهائى، وأنا أريده بالدرجة الأولى رادعاً نفسياً وليس رادعاً حربياً.

وأطمئنك إلى أننا لا ننوى الإعلان عنه إذا توصلنا إليه ، والسبب أننا إذا أعلنا فسوف يُهَروِل العرب على نفس الطريق ، وهُم يملكون من الموارد ما يزيد كثيراً عما نملكه ، ثم إن السوفييت قد يتقدمون لمساعدتهم كما حَدَثَ فى حالة السلاح التقليدى. ونحن لا نريد أن يصل هذا السلاح إلى يَدِ العرب بأى ثمن ، لأنه سوف يغريهم باستعماله غير مُقَدِّرين للعواقب وخصوصاً أنهم لم يتأهلوا لثقافة الردع.

إسرائيل تفهم بشكل أفضل. تعرف أن وجود هذا السلاح ـ يغنى عن استعماله. ثم إن شك العرب فى وجوده لدى إسرائيل مفيد أكثر من يقينهم أنه هناك. الشك يوقعهم فى حيرة خصوصاً إذا تذكروا حجم الجهد المطلوب عِلمياً ـ وحجم الموارد المطلوبة مالياً».

ويستطرد «بن جوريون» فى محاولته للتغلب على ما بَقى من هواجس الدكتور «بيرجمان»ـ وحسب ما ينقله «شيمون بيريز» الذى كان حاضراً مُشاركاً فى اجتماعهما ـ ليقول مُوَجِّهاً كلامه للعالِم الألمانى اليهودى :

ـ «أريد أن أطمئنكَ أكثر ـ يا عزيزى البروفيسور ـ إلى أن إسرائيل لا تفكر من الأصل فى حل عسكرى حاسم ينهى عداء العرب لها.

سوف أقول لك لماذا ؟

الحقيقة الأساسية فى أوضاعنا أننا لا نستطيع توجيه ضربة قاضية للعرب لأن لديهم ميزتين لا تملك إسرائيل أيتهما !

الميزة الأولى عند العرب أننا إذا ضربناهم بكل قوة تراجعوا إلى أعماق أوطانهم ـ ولاحظ أن العكس ليس صحيحاً فى حالتنا لأن إسرائيل بلا عمق.

والميزة الثانية عند العرب أننا لو قتلنا من جنودهم عشرات ألوف ـ حتى مئات ألوف ـ فإنهم قادرون على تعويض خسائرهم من البشر فى ظرف شهور ـ وإذا حدث ذلك لإسرائيل .. (وخاف «بن جوريون» من نذير الشؤم فيما يبدو فاضاف : «حماها الله») ـ فإن هذا البلد ليس فيه فائض بشرى يمكن التضحية به ـ يهود العالم كلهم كما تعلم أقل عدداً من سكان بلد عربى واحد مثل سوريا.

مُحَصِلَة ذلك ـ لكى تكون الحقائق ماثلة فى فكرك وضميرك طول الوقت :

١ ـ أننا لا نستطيع هزيمة العرب بضربة قاضية ـ وهُم يستطيعون إذا تمكنوا.

٢ ـ أن لدى العرب موارد هائلة خصوصاً من البشر ـ ونحن فى الدم أمام حساب عسير لأن الدَمَ اليهودى نادر !

وإذن ففكرة معركة عسكرية حاسمة بالأسلحة النووية يجب أن تخرج من كل التقديرات.

نحن مُعَرَّضون لها ، ويجب ألا نسمح للعرب بفرصة تمكنهم منها.

وهُم يَقدِرون عليها ، بينما نحن لا نستطيع فرضها عليهم مهما حاولنا.» ويصل «بن جوريون» إلى نوع الحرب التى يراها ممكنة مع العرب فيقول :

ـ «نحتاج مع العَرَب إلى «مفهومٍ فى الحرب جديد» ، ورأيى أنه يجب أن يكون حرب استنزاف متواصلة ونشيطة فى كافة المجالات. وهذه الحرب يجب أن تكون سياسية ، ونفسية ، واقتصادية ـ وعسكرية إذا اقتضى الأمر، شرط أن نعرف أن للسلاح حدوداً فى حالتنا مع العرب.

العرب بالطبيعة نَفَسُهُم قصير ، وهُم يستطيعون تعبئة جهودهم لفترة زمنية محدودة ، لكنهم إذا طال الوقت تراخت تعبئتهم ، وضعفت حماستهم ، وأخذتهم شواغل أخرى غير تلك التى جَمَعَت بينهم.

هناك حقائق أخرى (السياسى ما زال يفضى إلى البروفيسور) تخص العرب. تناقضاتهم الداخلية بينهم وبين بعضهم عميقة. علاقاتهم بالعالم حولهم سيئة خصوصاً مع القوى الكبرى. هُم فى مشاكل مع الإمبراطوريات القديمة التى خرجوا بالكاد من مجال سيطرتها. وهُم على خلاف مع القوة الإمبراطورية الجديدة (الولايات المتحدة) يتهمونها بالرغبة فى السيطرة عليهم. وهُم برغم علاقاتهم العملية المهِمَّة مع الاتحاد السوفيتى لا يعرفون الروس ولا يحبونهم ، لأن الحكام العرب يخشون على مصالحهم من الشيوعية ، ثم إن الفقراء العرب يخشون على دينهم من الإلحاد. وفى الإجمال فإن بعض الحكام العَرَب يعتقدون أن موسكو تُعَبِّئ لهم الثورة ، وبعضهم الآخر يظنون أنها تُعَبِّئ لهم الكُفر ـ داخل صناديق الأسلحة.

هذه الأحوال كلها تساعدنا على حرب استنزاف متواصلة ونشيطة.

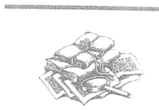
وتَرتيباً عليها فإن الأفضل لنا أن نَصِل بهم إلى حيث يسقطون من الإعياء ما دمناَ لا نستطيع أن نفرض عليهم بالسلاح قبول وجودنا.

فى نفس الوقت فإن سقوطهم من الإعياء سوف يتولى تحييد معظم أسباب قوتهم مالية أو سياسية أو معنوية. لأنهم فى حالة السقوط من الإعياء سوف «يَغلَطون» مع الجميع ـ يوجهون المسئولية إلى كل الأطراف ، ويُجَنِّبوا أنفسهم أى نصيب منها ، وهذا يكفل ألا يكون سقوطهم من الإعياء لمجرد الإرهاق المادى ، ولكنه فى هذه الحالة الإرهاق المعنوى وهو أقرب وسيلة إلى فقدان الثقة بالنفس ـ وذلك أفضل الأوضاع بالنسبة لنا !

حرب استنزاف متواصلة ونشيطة ـ هذا هو الحل ، وهذا هو النوع المطلوب من الحرب.»

ثم يصل «بن جوريون» إلى بيت القصيد فيقول لـ«بيرجمان» :

ـ «هذا النوع من الحرب لا يحتاج إلى ما يمكن أن تعطيه (يا سيدى البروفيسور) لإسرائيل ـ لكن ما يمكن لك أن تعطيه يساعدها من حيث هو يُطمئنها ويريح بالها ضد أية مفاجآت لم تكن قد تاهبت لها. تلك سياسة إسرائيل شرحتها لك ، لم أخف عنك شيئاً !»



٣ الصدى!

....

....

قد أضيف هنا أننى سمعت بنفسى تاكيداً مباشراً لإستراتيجية حرب استنزاف العرب.

كان ذلك فى نهاية عام ١٩٩٣ ـ أى بعد أسابيع من إعلان اتفاق أوسلو.

أيامها كانت آمال القيادة الفلسطينية فى السماء ، مُتَصَوِّرة أنها أخيراً أمسكت فى يدها بزمام قضيتها ، وتَوَلَّت بنفسها إدارتها بعد عهود ناب عنها غيرها فى تصريف الشأن الفلسطينى.

ثم حَدَث أثناء لقاء مع الرئيس الفرنسى «فرانسوا ميتران» ـ تلك الأيام ـ فى قصر «الإليزيه» فى «فوبورج سانت أونوريه» ـ أننى سألته إذا كان يتوقع قريباً نتائج تتوافق مع كل هذه الآمال المعلقة على اتفاق «أوسلو»؟ ـ ورد «ميتران» بما ملخصه أن ذلك يتوقف على ما أعنيه بكلمة «قريباً»؟ ـ وقلت : «إننى لا أتحدث عن غد أو بعد غد ، ولكن عن شهور خمسة أو ستة». وردَّ «ميتران» بتؤدة بما مؤداه «أنه سوف يكون راضياً إذا توصل الطرفان إلى حل خلال خمس أو ست سنوات وليس شهور» !

واضاف «ميتران» بنبرة أقرب إلى التساؤل منها إلى السؤال : «فهمت أن عرفات متفائل بنتائج سريعة.. ؟»

....

....

وكان الرئيس «ميتران» يعرف الكفاية عن صداقة قديمة تربطنى بـ«ياسر عرفات». فقد كان لى حظ أن أقدم الرجلين أحدهما للآخر فى مكتبى أوائل سنة ١٩٧٤ ، ووقتها كان «ميتران» ـ بوصفه رئيس الحِزب الاشتراكى ـ ضيفاً علينا فى مصر ، وكان قادماً إلىّ نهارٍ بأكمله معى فى الوقت الذى كنت أوَدِّع فيه «ياسر عرفات» الذى كان زائرى فى الصباح الباكر قبله. وقَدَّمتُ كليهما للآخر ،

ملاحظـــــة:

■ تفضل مدير تحرير «وجهات نظر» وسألنى إذا كنت أنوى الكتابة عن صدام «الحقوق» و«الحقائق» الذى دهم أجواء المنطقة بوهج حريق حاول بعضهم إطفاءه بخراطيم دم. ثم جرب غيرهم «إنقاذ عواقبه» بمؤتمرات «إسعاف» هرولت على عجل تجرب طبا ينقصه العلم وتنقصه الوسائل. وفى بعض الأحيان تنقصه الإرادة!

وقد جرى ذلك كله على مرأى من جموع عربية راحت مأخوذة تطل على ما يحدث أمامها منقسمة حتى على نفسها ما بين ساخط بالغضب، أو ساكت على مضض، أو متفهم لـ«الضرورات» بالأمر الواقع؟

....

....

وكان ردى على سؤال «وجهات نظر»: «اننى مستمر فى سياحة صيف مع الوثائق الإسرائيلية»، ومنطقى كما عرضته:

١ - ان هذه المجلة - وإذا سمحت لى هيئة تحريرها - ليست مطبوعة مشغولة بمتابعة الشئون الجارية أولا بأول، فهكذا فهمت من فلسفة إصدارها، والذنب على إذا كنت أسأت الفهم.

٢ - أن هذه المجلة بطبيعتها - بصرف النظر عن فلسفتها - مطبوعة شهرية، والإيقاع الشهرى ليس مهيأ لملاحقة الحوادث - مع توقيت وقوعها - وإلا قطع أنفاسه فى سباق مستحيل.

٣ - إن قراءة الوثائق - وضمنها الوثائق الإسرائيلية - تظل فى تقديرى - إذا توافرت لها الشروط - أكثر اتصالا بالحقيقة مما يجرى الآن ظاهرا على مسرح الحوادث، ومعظمه تداعيات لأسباب نسيناها أو آثرنا أن ننساها، وظنى أن قراءة الوثائق هذه اللحظة - عودة إلى أصول الصراع أعتبرها الآن لازمة، فالفروع فيما أخشى ألهتنا عن الجذور، وخليط الأصوات والألوان وتضارب الصور أنسانا جميعا أن هناك أسسا وقواعد محددة - وحاكمة - وأن العودة إلى هذه الأسس والقواعد مطلوب، والوعى بها حيوى، وإلا تواضع المعنى وتنازلت القيمة وأصبحت القدس أرضا عقارية متنازعا عليها، وتحول الأقصى إلى مسجد آخر بناه أحد طلاب التوبة - على تلك الناصية هناك! ■

وحين أحسست أن «ياسر عرفات» وجدها فرصة ليتحدث ولو لدقائق مع «ميتران» عُدتُ بالاثنين إلى المكتب لفرصة تجعل اللقاء أكثر من تعارف بالمصادفة، وتسمح للرجلين بحديث مُباشِر ولو لربع ساعة. وذلك ما كان.

ومضت سنوات وأصبح «ميتران» رئيساً لفرنسا، ثم حَدَثَ قرب نهاية سنة ١٩٨٨ أن أعلنت منظمة التحرير الفلسطينية اعترافها بقرارى مجلس الأمن رقمى ٢٤٢ و ٣٣٨.

....

....

وعلى سبيل الاستطراد والتّذكرة فلعلى أقول أننى لم أكن مُتَحَمِّساً لاعتراف منظمة التحرير بقرارى مجلس الأمن رقمى ٢٤٢ و٣٣٨، فكلا القرارين لا يخص المنظمة، ثم إن كليهما مُثقَلٌ بأعباء عشرين سنة من ١٩٤٧ إلى ١٩٦٧ لم يكن للفلسطينيين فيها رأىٌ مُؤثر فى شئونهم وقضاياهم، وفى أحسن الأحوال فقد كان هناك مَن يستوحى مواقفه من فلسطين على ما يَتَصَوَّره صالحاً للشعب الفلسطينى، وذلك لم يكن كافياً ولا عادلاً.

وفى اجتماع مع قيادة منظمة التحرير فى تونس فى بداية شهر أكتوبر ١٩٨٨ وبدعوةٍ من السيد «ياسر عرفات» وبطلَبه أبديتُ رأيى أمام قادة المنظمة جميعاً، وقد تَلَخَّصَ فى نقطتين:

١ - أن ما تستطيعه المنظمة الآن هو الاعتراف بقرار التقسيم (القرار ١٨١ الصادر فى نوفمبر ١٩٤٧) فهذا هو القرار الذى يَخصُّها والمعَبِّر - رغم ما ينطوى عليه من ظلم - عن نوعٍ ما من مرجعية الشرعية الدولية (إذا صَدَقَ التعبير!) - وتأسيساً عليه فإنها تستطيع إعلان قيام دولة فلسطينية.

٢ - أن المنظمة الآن، وعلى أساس ما حققته الانتفاضة من تعاطف دولى هائل مع قضايا الشعب الفلسطينى، فى موقف يسمح لها، بل ويعطيها الحق فى مطلب مراقبين دوليين يتواجدون فى الأرض الفلسطينية المحتلة. وكان ظنى أن هذا الاقتراح، فوق كونه وسيلة لرقابة دولية على التصرفات الإسرائيلية، من شأنه أن يخلق سابقة وجود للأمم المتحدة على الأرض الفلسطينية، لأن الأمم المتحدة التى أنشأت إسرائيل بقرار منها عليها مسئولية سياسية وتاريخية لكى تكون على الأقل شاهداً على تنفيذ قراراتها.

....

....

وأتذكر أن القائد الفلسطينى الشهيد «أبو إياد» وهو المسئول يومها عن «الرصد»، والقائد الفلسطينى «أبو مازن» وهو المكلف بالتفاوض مع إسرائيل من يومها وحتى الآن - قاما بمناقشتى طويلاً فى حضور السيد «ياسر عرفات» وقيادة المنظمة مُجتمِعة..

وكانت القيادة الفلسطينيَة أيامها شديدة الثقة بالولايات المتحدة الأمريكية، وراغبة بكل سبيل فى كسب تأييدها. وكان قرار المنظمة أن تعترف بالقرارين ٢٤٢ و ٣٣٨.

....

....

وقد تم هذا الاعتراف ضمن محادثات جَرَت فى جنيف بين رئيس منظمة التحرير «ياسر عرفات» ووزير الخارجية الأمريكية «جورج شولتز» - وبعدها اتصل بى السيد «ياسر عرفات» وظنه أن الوقت قد حان الآن لمقابلة رسمية بينه وبين الرئيس الفرنسى، وبينه وبين رئيسة الوزراء البريطانية فى ذلك الوقت «مرجريت ثاتشر». وتصادف فى ذلك الوقت قرب نهاية سنة ١٩٨٨ أننى كنت فى زيارة عَمَل للندن واتصل بى السيد «ياسر عرفات» يسألنى - رمزاً - إذا كان فى مقدورى أن أساعد فى ترتيب موعد بينه وبين الرجل الذى التقاه فى مكتبى قبل سنين طويلة؟ - وفهمت قصده بعد تلميحات إضَافية تكاملت بها الرموز لتنقل إشارة مفهومة!

وكان أن اتصلت بالرئيس «ميتران» من لندن، ووافقَ، وربما أضيف - للأمانة - أن طلب لقاء بينه وبين «عرفات» وَصَلَ إليه من مَصدَر آخر - فى نفس الوقت - أظنه «مدام منديس فرانس» زوجة السياسى الاشتراكى الكبير الذى سبق «ميتران» إلى رئاسة الحزب الاشتراكى، وكان «منديس فرانس» يهودياً، وكذلك كانت زوجته التى نشطت بعده فيما كانت تقوم به الجالية اليهودية فى فرنسا تلك الأيام.

....

....

والآن - سنة ١٩٩٣ - كان «فرانسوا ميتران» الذى تقابل مرات من قبل مع «ياسر عرفات» - يرى أن الذين يتوقعون نتائج قريبة لـ«أوسلو» عليهم أن ينتظروا سنوات وليس شهوراً.. خمس سنوات أو ستا.

ويومها قلت للرئيس الفرنسى مندهشاً: «إننى لا أتصور أن عرفات بعد كل هذا الذى قدمه قادر على الانتظار خمس أو ست سنوات».

ورَدَّ هو بسرعة قائلاً: «وهذا بالضبط ما يريدونه».

ثم راح يروى لى طرفاً من تفاصيل حوار بينه وبين «شيمون بيريز» قبل أيام.

قال لى إنه بنفسه سال «بيريز»: «هل لديكم ما تقدمونه لعرفات بعد هذه المخاطرة التى أقدم عليها باتفاق «أوسلو»؟» - ورد عليه «بيريز» بـ«أنهم لم يفكروا بعد!» - ولم يُصَدِّق «ميتران» أن ذلك يمكن أن يكون صحيحاً، فسأل «بيريز» بما معناه: «ألم يكن لكم تَصَوُّر لمشروع تطرحونه على الفلسطينيين عندما دخلتم معهم فى مُفاوضات سرية فى أوسلو؟»

ورَدَّ «بيريز» بأن كل «تَصَوُّرهم كان أن يتعاملوا مع قيادة منظمة التحرير نفسها، وليس مع وفد يحمل ورقة تفويض «بالكلام» نيابة عنها فى مدريد أو واشنطن».

وأضاف «بيريز» إيضاحاً قال فيه: «إننا شعرنا أن الفلسطينيين يتحتم عليهم تخفيض سقف توقعاتهم، وأن أى وفد يحمل تعليمات من القيادة الفلسطينية لن يستطيع القيام بهذه المهمة، وعلى فرض أن وفداً فلسطينياً فهم هذه الضرورة وتَصَرَّف بالتجاوز مع تعليماته، فأسهل الحلول تغييره بوَفد آخر. وأما إذا كانت القيادة نفسها هى المفاوِض فمعنى ذلك أن الجالس أمامنا هو الذى يملك القرار، وحينئذ يكون الباقى علينا». وطبقاً لرواية الرئيس «ميتران» فإنه حين طلب من «شيمون بيريز» مزيداً من الشرح، سمع من «بيريز» ما معناه «أنهم يحتاجون وقتاً طويلاً يأخذون فيه الفلسطينيين إلى مائدة المفاوضات ثم يعودون بهم من قرب المائدة، ويطرحون عليهم صيَغاً واسعة مفتوحة لكل الاجتهادات، ثم يأخذونهم معهم إلى تمارين فى الصياغة قد تكون مفيدة فى تعليمهم دون أن تكون بالضرورة مؤدية إلى اتفاق معهم، ثم إنهم سوف يعرضون عليهم وساطات ووُسَطاء يذهبون بأفكار ومقترحات ويجيئون بأفكار ومقترحات، ويتركونهم يذهبون إلى واشنطن ونيويورك ويعودون من واشنطن ونيويورك، ثم يكون من هذا الجهد كله أن يُؤقلم الطرف الفلسطينى نفسه تدريجياً على كيفية تخفيض سقف توقعاته.»

....

....

وحين لاحظ الرئيس «ميتران» أننى أسمعه باستغراب، اختصر الطريق ليقول بسرعة: «اعترف لى بيريز صراحة أن علينا جميعاً أن نعطيهم فرصة لعملية «تحضير» سياسى يؤدى إلى تخفيض سقف توقعات الطرف الفلسطينى». ثم وضعها «على بلاطة» كما يقولون ليضيف: «كيف أقولها لك؟.. هُم يريدون عملية تدويخ قبل الدخول فى الكلام الجَدّ!»

وكان المعنى واضحاً، وقد جاء إلىّ ناطقاً وفصيحاً وبلسان رئيس الجمهورية الفرنسية - لكنى نَسَبتُ «التخطيط» فيه - وقتها - إلى سوء نوايا «شيمون بيريز»، وكان علىّ أن أنتظر سنوات طويلة حتى أعرف أثناء «سياحة صيف فى قراءة للوثائق الإسرائيلية» أن المصَمِّم الحقيقى لهذا الأسلوب فى إدارة الصراع مع العرب كان «بن جوريون»، وكل ما فَعَلَه «بيريز» أنه استلهم تنويعة منه وطبقها فى إدارته للمفاوضات مع الفلسطينيين: التدويخ عن طريق الاستنزاف السياسى!

أى أن «التلميذ» (شيمون بيريز) كان مجرد صدى لصوت «الأستاذ» (دافيد بن جوريون). ■



٣ ثــــــوابـــــت

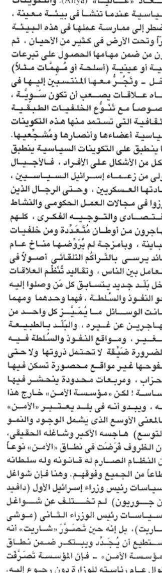
■ ■ يَشعُر أى قارئ للوثائق الإسرائيلية طول الوقت بأن سياسة الدولة اليهودية تمشى على خطوط ثابتة مُحَدَّدة لا تتأثر بتغيير الحكومات، ولا بحلول مسئول خلفاً لمسئول سبقه فى منصب من المناصب الكبرى فى الدولة. ثم يستنتج قارئ الوثائق الإسرائيلية من كل ما يراه أمامه أن هذه الخطوط السياسية الثابتة



إن قراءة الوثائق - وضمنها الوثائق الإسرائيلية - تظل فى تقديرى - إذا توافرت لها الشروط - أكثر اتصالا بالحقيقة مما يجرى الآن ظاهرا على مسرح الحوادث، ومعظمه تداعيات لأسباب نسيناها أو آثرنا أن ننساها

والمحَدَّدة ليست فى اختصاص الأحزاب المتصارعة على الساحة السياسية فى إسرائيل ، ولكنها مَوكولة إلى قوى أخرى يَتَجَلَّى نفوذها واضحاً فى كل موقف ، وتَظهَر بصمات أصابعها على كل قرار. ثم يَصل قارئ الوثائق الإسرائيلية إلى مُحَصِّلة تظل مَحسوسة فى إدراكه طول الوقت ، وهى أن «مؤسسة الأمن» - وليست الحكومات أو الوزارات المتعاقبة على الحكم - هى صاحبة القول الأول والأخير فى الطريقة التى تَتَصَرَّف بها إسرائيل سواء فى ممارسة إدارة شئون الأمن كل يوم ، أو عندما تقع الأزمات أو المخاطر. الساسة فى إسرائيل - كما يبدو من الوثائق - مثلهم مثل الساسة العرب دون حاجة إلى قراءة وثائق !! - يكرهون بعضهم إلى درجة أن كثيرين منهم حتى فى مجلس الوزراء الواحد لا يطيقون الجلوس فى ذات المكان مع زملاء لهم. إلى جانب ذلك فإن رباط الحزبية بين أعضاء الحزب الواحد هو اشتباك مُستَمر بين مجموعات مُتَفَرِّقة ومُتَناحِرة ، بل إنَ إطار الحزب الواحد المحيط بالكل هو فى الواقع سور حول حلبة مصارعة هدفه مَنع الآخرين من التدخل لإنقاذ المصابين أو تخليص المتشابكين ، أو حتى تهدئة الخواطر بينهم إلى حين يُفرِغ كل منهم شحنة ما لديه من كراهية وعُنف إزاء رفيقه أو زميله فى الحِزب الواحد ! وعلى سبيل المثال فقد كان شَعور «دافيد بن جوريون» تجاه خلفه على رئاسة الوزارة عندما تركها أول مرة (سنة ١٩٥٤) - وهو «موشى شاريت» - مُتَجاوِزاً الكراهية إلى درجة من الاحتقار ، وكان شعور «دافيد بن جوريون» تجاه خلفه عندما ترك الوزارة للمرة الثانية (سنة ١٩٦٣) - وهو «ليفى أشكول» - نوعاً من الاستخفاف واصلاً إلى حَدِّ الازدراء. وعلى نمط ساسة إسرائيل كان جنرالات إسرائيل : «موشى ديان» لم يكن يطيق «إسحاق رابين» والعكس صحيح. و«ييجال يادين» يكره «ييجال آللون» والعكس صحيح. و«حاييم بارليف» سَيِّئ الظن فى قدرات «دافيد إليعازر» والعكس صحيح .. وهكذا ، وهكذا.

والراجح أن التفسير المعقول لهذه الظاهرة على مستوى الجماعات وعلى مستوى الأفراد فى إسرائيل كامِنٌ فى ظروف وملابسات نشأة الدولة اليهودية وقيامها. وهذا التفسير المعقول لهذه الظاهرة مُؤداه أن الأحزاب السياسية العاملة بعد قيام الدولة كانت كلها فى الأصل وعند الجذور الأولى جماعات نشأت فى أوطان بعيدة ، ونشأت بطريقة سرِّية ، وكان عملها الرئيسى تجنيد وشحن الرِجال والنساء والأطفال المستعدين للهجرة إلى الوطن اليهودى المأمول ، وهذه العملية تقتضى جَمع التَبَرُّعات والحصول على الأموال بكل سبيل للصرف على التنظيمات وعلى رحلات العودة إلى أرض الميعاد «عاليا» (Aliya). والتكوينات السياسية عندما تنشأ فى بيئة معينة ، وتضطر إلى ممارسة عملها فى هذه البيئة سِراً وتحت الأرض فى كثير من الأحيان ، ثم يَكون من ضمن مهامها الحصول على تبرعات مالية أو عينية (أسلحة أو مُهِمَّات مثلاً) تدخل - وتَجُرُّ معها المنتسبين إليها فى اتجاه علاقات يصعب أن تكون سَوِيَّة ، خصوصاً مع تَنَوُّع الخلفيات الطبقية والثقافية التى تستمد منها هذه التكوينات السياسية أعضاءها وأنصارها ومُشجِّعيها. وما ينطبق على التكوينات السياسية ينطبق بشكل من الأشكال على الأفراد ، فالأجيال الأولى من زعماء إسرائيل السياسيين ، وقادتها العسكريين ، وحتى الرجال الذين برزوا فى مجالات العمل الحكومى والنشاط الاقتصادى والتوجيه الفكرى ، كلهم مهاجرون من أوطان مُتَعَدِّدة ومن خلفيات مُتباينة ، وبأمزجة لم يُرَوِّضها مناخ عام سائد يرسى بالتَراكُم التلقائى أصولاً فى التعامل بين الناس ، وتقاليد تُنَظِّم العلاقات داخل بَلَد جديد يتسابق كل مَن وصلوا إليه نحو النفوذ والسُلطة ، فهما وحدهما ومهما كانت الوسائل ما يُمَيِّز كل واحد من المهاجرين عن غيره ، والبَلَد بالطبيعة صغير ، ومواقع النفوذ والسُلطة فيه بالضرورة ضَيِّقة لا تحتمل ذروتها ولا حتى سفوحها غير مواقع محصورة تسكن فيها الأحزاب ، ومربعات محدودة ينحشر فيها الساسة ! لكن «مؤسسة الأمن» خارج هذا كله ، ويبدو أنه فى بلد يعتبر «الأمن» (بالمعنى الأوسع الذى يشمل الوجود والنمو والتوسع) هاجسه الأكبر وشاغله الحقيقى، فإن الظروف فَرَضَت فى نطاق «الأمن» نوعاً من النظام الصارم له قانونه وله سلطانه مُطاعاً من الجميع وفوقهم. وهنا فإن شواغل وسياسات رئيس وزراء إسرائيل الأول (دافيد بن جوريون) لم تختلف عن شواغل وسياسات رئيس الوزراء الثانى (موشى شاريت)، بل إنه حين تَصَوَّرَ «شاريت» أنه يستطيع أن يُجَدِّد ويبتكر ضمن نطاق «مؤسسة الأمن» - فإن المؤسسة تَصَرَّفت طوال عام رئاسته للوزارة دون رجوع إليه، واكتشف «شاريت» أنه يحتل مقعد رئيس الوزراء دون أن يمسك بسَلطة رئاسة الوزارة، وفى ظرف شهور كان مُعتَزِلاً فى بيته، مجروحاً فى كبريائه ، ومَمروراً حتى قتله الكمد ! وعندما جاء «ليفى أشكول» (رئيس الوزراء الثالث فى تاريخ إسرائيل) فقد كان عارفاً بحدوده مُلتزماً بها (ولعله كان مُتَّعظاً أيضاً بدرس ما جرى لـ«موشى شاريت»).





٤ المياه

لعل التجديد الرئيسى الذى أسهم به «ليفى أشكول» فى شواغل وسياسات إسرائيل - وكما يبدو من قراءة الملفات - هو الأولوية التى أعطاها لقضية «المياه». وقد بدا «أشكول» منطقياً فى تقرير هذه الأولوية لقضية «المياه» :

□ من ناحية فإن خبرته السابقة وعمله كانا فى مجال توفير المياه اللازمة «للبلد» ، وفى وقت من الأوقات كان «أشكول» مديراً لمشروع المياه الكبير «ميكوروت» (Mekorot)، وكذلك كانت العبارة المتكررة دائماً على لسانه فى كل اجتماع حَضَرَه قبل رئاسته للوزارة وبعدها هى قوله إنه «بدون مياه فإن الحلم الصهيونى لا يمكن تحقيقه. فمن غير مياه لا تتسع زراعة ، وبدون اتساع الزراعة لا يمكن أن يكون هناك أساس لحياة الشعب اليهودى فى أرض إسرائيل».

ولم تكن «مؤسسة الأمن» على خلاف مع «أشكول» ، بل إن قضية «المياه كانت على رأس قائمة اهتماماتها» ، وكان مما يساعد على ربط الأمن مباشرة بالمياه فى بداية رئاسة «أشكول» للوزارة أن فيض بحيرة «طبريا» بدأ يَصل إلى منطقة النقب حاملاً معه الكثير من إيراد أنهار عربية عديدة مثل «الأردن» و«الليطانى» و«الوزانى». وكان ذلك - على الأقل نفسياً - عُنصُراً مُساعِداً يؤدى إلى رفع درجة التوتر على الحدود إلى درجة التَحَرُّش مع دول عربية يعنيها الأمر مباشرة وأولها سوريا.

□ ومن ناحية أخرى فإن «أشكول» - كما تُظهِر قراءة الوثائق - لمح أمامه نتائج ملموسة لما اعتمده «بن جوريون» من إستراتيجية الاستنزاف السياسى للعرب. وبشكل إجمالى فإن العرب جميعاً راحت تَظهَر عليهم فى ذلك الوقت مع بداية رئاسة «أشكول» للوزارة الإسرائيلية (١٩٦٣) أعراض الإرهاق :

● أول العرب وأكبرهم وهى مصر ظَهَرَت - من المنظور الإسرائيلى - مُثقَلة بالهموم : كبرياؤها مُهتَزَّة بعد الانفصال بينها وبين سوريا (١٩٦١) - وجهدها مُشَتَّتٌ فى معارك وسط جبال اليمن الذى ذَهَبَت لمناصرة ثورته (١٩٦٢) - وهى فى خُطاها السياسية تبدو حائرة بين نظامين «ثوريين» فى دمشق وبغداد - والتقدير الإسرائيلى يرى العلاقة بينها (مصر) وبين المملكة العربية السعودية شديدة التوتر بسبب تمويل المملكة للعناصر المعادية للثورة اليمنية - يُضاف إلى ذلك أن إسرائيل تُتابِع خلافاً بين القاهرة وبين موسكو بسبب الأحوال فى العراق وما يَظهَر هناك من محاولات الشيوعيين للاستيلاء على السلطة فى بغداد - وفوق ذلك كله تعرف إسرائيل وتُتابع مباشرة خلافاً بين القاهرة وواشنطن لأن الولايات المتحدة الأمريكية راحت تطالب برقابة على برامج التسليح المصرى فى المجالات غير التقليدية ، وخصوصاً فى مجال إنتاج الأسلحة الكيماوية والجرثومية ، إلى جانب رغبة أمريكية فى احتواء مُبَكِّر لأى احتمالات نووية تَلوح فى مصر .

....

....

وكانت واشنطن قلقة من ظهور كادر إنسانى مُؤهَّل فى المجال النووى ، وقد حاوَلَت أن تسأل عن القصد ، ولم تسترح عندما كان رَدُّ القاهرة هو الإشارة إلى ما يَجرى فى إسرائيل. ومع أن الولايات المتحدة الأمريكية ذهَبَت إلى القول بأنها تطلب فى تل أبيب نفس ما تطلبه فى القاهرة ، فإن التمييز الأمريكى لإسرائيل كان مرئياً للعيان وكان ذلك يُسَبِّب حالة ضيق فى القاهرة تضاف إلى الشعور بالإرهاق.

....

....

لكن الوثائق الإسرائيلية كما يبدو من قراءتها كانت تلاحظ - وتَتَخَوَّف من أن فى مصر شيئاً آخر غير الشعور بالإرهاق ، وهو يتمثل فى شواهد من القُدرة على الإنجاز مرئية فى مواقع بناء السد العالى فى أسوان ، وفى عمليات واسعة لإصلاح الأراضى الصحراوية ، وفى مراكز للتصنيع لافتة للنظر ، إلى جانب تَوَسُّع ملحوظ فى التنمية الاجتماعية وبالذات مجالات التعليم والصحة والثقافة. وكان حساب إسرائيل على أى حال أن كل حقيقة لهَا وجه آخر ، بمعنى أن هذه البرامج المصرية فى التنمية - ومهما كان ما تثيره من حماسة - تَتَطلَّب مَجهودات ومَوارِد تراها إسرائيل أثقل مما تستطيع مصر احتماله دون عَناء وإرهاق ! ولم تكن مصر - من مُطالعَة الملفات الإسرائيلية - هى وحدها المرهَقة ، وإنما كان ذلك حال كل البلاد العربية وإن اختلفت الأسباب :

● السعودية تبدو مُتَوَجِّسة من انفراط الحلف التقليدى بينها وبين مصر بسبب انفراد مصر بقرار تأميم قناة السويس وما سببه ذلك من إحراج للمملكة فى علاقاتها بشركات البترول - ثم زاد الانفراط بسبب الوحدة بين مصر وسوريا ، وقد وجدتها السعودية انقلابا فى موازين النفوذ الإقليمى - ثم كانت السعودية ضِمنَ من سعوا إلى

كان «ليفى أشكول» يتصوَّر أن المسرح أصبح جاهزاً لكى تتقدَّم إستراتيجية المياه على غيرها من أولويات «الأمن» الإسرائيلى وكان تقدير «أشكول» بعموم أن نقطة الماء فى الشرق الأوسط لا تقِل قيمتها عن نقطة الدَم!

مُقاوَمة الوحدة والترحيب بالانفصال. وبلَغ انفراط الحلف المصرى السعودى ذروته بالتوجهات الاجتماعية التى تَبَدَّت ملامحها فى مصر بشكل لافت بعد معركة السويس (وكان من أثر هذه التوجهات أن المملكة اضطرت لأول مرة إلى إصدار قانون بتحرير العبيد، وكانت العبودية مُقَنَّنة فيها حتى أواخر الخمسينات من القرن العشرين) ـ وفوق ذلك كله جرى ما جرى فى اليمن.

ولم تكن السعودية ـ من منظور الوثائق الإسرائيلية ـ مُرهَقة فقط ولكن مُهَدَّدة ـ فقد كان التقدير أن الأسرة الحاكمة فى الرياض على حافة انقسام خطير، إذ وَقَفَ الأخ ضدَّ أخيه ـ أى «سعود» ضدَّ «فيصل» ـ وبظَنٍّ يَتَأكَّد كل يوم بأن المَملكة لم تَعُد تَتَّسِع للاثنين، وأن أحدهما يجب أن يذهب (وبالفعل فقد ذَهَبَ «سعود»!)

● ومن المنظور الإسرائيلى فإن العراق كان أكثر من مُرهَق، لأن (عاصمة الحضارة العباسية) ـ كانت تعيش حالة فوضى بنظام «عبد الكريم قاسم»، وفوضى بعد سقوط نظامه.

● وأما سوريا (وعاصمتها الواقعة تحت المراقبة الإسرائيلية المباشرة) فقد كانت الأمور فيها هى الأكثر تَعقيداً، بكَونها الموقع الأكثر حساسية فى العالم العربى، ثم بدرجة التَوَتُّر والتَرَبُّص التى استحكمت فيها بعد سلسلة من الانقلابات صامتة أو صاخبة!

● وفى الأردن تَبَدَّت عَمَّان على أطراف أصابعها من القلق والشك لأن الملك «حسين» فوجئ بأن سلاح الطيران الأردنى ـ بطائراته وضباطه وقياداته ـ لجأ إلى القاهرة عندما تلقى أمراً بمساعدة الملكيين فى اليمن استجابة لطلب سعودى ـ وتَنَبَّه الملك «حسين» ذات يوم وإذا سلاح الطيران الأردنى ـ أو الجزء الأكبر منه ـ يُقلِع من عَمَّان ويَحُطُّ فى القاهرة منحازاً إلى قوى التغيير فى العالم العربى.

وكانت تلك بالضبط هى الظروف التى أرهقت الملك «حسين» إلى درجة اعتلال صحَّته، وقد ذَهَبَ للعلاج فى لندن. وهناك اقترح عليه أحد أطبائه، وهو الدكتور «إيمانويل هربرت»، دَواءً رآه شافياً، والتركيبة «السحرية» فيه هى لقاء سرِّى مع مبعوث إسرائيلى تَتَجَدَّد به العلاقات المباشرة وبدون وُسَطاء بين الأسرة الهاشمية وبين قادة إسرائيل، ووافق الملك على الوَصفة. وكان «ليفى أشكول» سَعيداً بـ«حالة إرهاق عربى عام» دَعَت ملكاً عربياً إلى الموافقة على لقاء مبعوث إسرائيلى حتى وإن كان اللقاء سرًا (كما حَدَثَ فى تجربة جدِّه الملك «عبد الله»). واختار «أشكول» مدير مكتبه الدكتور «ياكوف هيرتزوج» لكى يقابل الملك باسمه ويسمع منه. وقد روى الملك وقائع هذا اللقاء بصوته وعلى شريط سَجَّلَه الدكتور «آفى شلايم» (كتاب «الجدار الحديدى» صفحة ٢٢٠) قائلاً لـ«هيرتزوج» ما نصه:

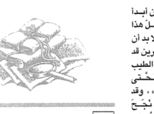
«كان علىّ أن أكسر الحاجز وأن أبدأ حواراً «معكم» (الإسرائيليين) سواء وَصَلَ هذا الحوار إلى نتيجة أو لم يصل. كان لا بد أن ألتقى «معكم» مباشرة دون وُسَطاء آخرين قد يتلاعبون بنا. وبالمصادفة فإن صديقى الطبيب الدكتور «هربرت»، وهو الذى يرعى صَحَّتى هنا، اقترح علىّ فكرة لقاء مباشر «معكم»، وقد رددت عليه بالترحيب قائلاً Fine، وقد نَجَحَ الدكتور «هربرت» وأثبَتَ لى قُدرَتَهُ على الوصول إلى مراكز التأثير فى إسرائيل، وعَقَدنا ذلك اللقاء». ومن ناحية أخرى ـ وكما يَظهَر فى الأوراق ـ فقد روى الدكتور «هيرتزوج» فى تقرير قدمه لرئيسه ورئيس وزراء إسرائيل «ليفى أشكول» ـ وقائع لقائه مع الملك «حسين» فى عيادة الدكتور «إيمانويل هربرت» فى لندن على النحو التالى:

«إننى أبلغت الملك حرص حكومة إسرائيل على سلامة وسيادة مملكة الأردن وعلى مصالحها، وطمأنتُه إلى أن لدينا من الأسباب ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن «ناصر» (جمال عبد الناصر) يأخذ فى حسابه أن نشوب أزمة بينه وبين الأردن قد يؤدى إلى تدخل إسرائيلى فى صَفِّ الملك!»

وبدا الملك «حسين» ـ على نحو لافت ـ مُتَفهِّماً للإستراتيجية الإسرائيلية، فقد قال (لـ«هيرتزوج»): «إن التوصل إلى تسوية نهائية بين العرب وإسرائيل سوف يأخذ زمناً طويلاً، ولهذا فإن الواجب التاريخى يَفرِض على حكومتَىّ الأردن وإسرائيل أن تحتفظا وتُطَوِّرا علاقات من التعاون الوثيق إلى حين تَتَهَيَّأ الظروف».

وقال «هيرتزوج» فى تقريره لـ«أشكول» إن «الملك حسين طلب منه نقل شكره وعرفانه إلى حكومة إسرائيل لمساعدات قدمتها له فى الماضى حين أوصلت إليه عن طريق أصدقاء مُشتَرَكين ـ معلومات وتحذيرات عن مؤامرات تُحاك ضده وضد نظامه!». كان العرب بالفعل فى حالة إرهاق، وقد تفاوتت ردود فعلهم تجاهه، وأفلتت بعض ردود الفعل حتى ظهرت آثارها فى عيادة طبيب يهودى فى لندن!! وهكذا كانت «إستراتيجية الاستنزاف» على المدى الطويل والمتواصل تفعل فعلها وبنجاح ملحوظ!

ومع نجاحها كان «ليفى أشكول» يَتَصَوَّر أن المسرح أصبح جاهزاً لكى تَتَقَدَّم إستراتيجية المياه على غيرها من أولويات «الأمن» الإسرائيلى ـ والهدف ضمان أكبر قدر من مياه الأردن ومنابعه وفروعه للدولة اليهودية، ويَتَّصِل بذلك ضرورة منع أية محاولات عربية ـ سورية بالذات ـ من إقامة مشروعات تنتقص مما يمكن أن تحصل عليه إسرائيل. وكان تقدير «أشكول» بعموم أن نقطة الماء فى الشرق الأوسط لا تَقِل قيمتها عن نقطة الدَم!



٥ قمم

كان مَجرى الماء المتَدَفِّق من سوريا إلى بحيرة «طبريا» وإلى نهر الأردن هو بنفسه مَجرى الدم الذى سال فى معارك سنة ١٩٦٧. والوثائق الإسرائيلية هنا شديدة الوضوح وقاطعة!

....

....

كانت الحكومة السورية فى ذلك الوقت تبدى اهتماما بمشروعات تفكر أو تحاول تنفيذها لبناء سدود تحجز المياه النابعة أو الجارية فى أراضيها كى تُستَخدَم فى الزراعة السورية بدلاً من ذهاب هذه المياه إلى إسرائيل ـ لكن حكومة دمشق وَجَدَت أن المدفعية الإسرائيلية تُغَطِّى بقذائفها معظم المواقع التى تريد أن تعمل فيها، هذا فى الوقت الذى يظهر على الجانب الآخر ـ الجانب الإسرائيلى للخطوط ـ نشاط كَثيف يُرى بالعين المجرَّدة وهو يُسابق الأيام لإقامة مشروعات إسرائيلية مقابلة تختزن المياه السورية وتقوم بتوزيعها. وهكذا لجأت سوريا إلى تقديم طلب لبحث الموضوع فى جلسة خاصة يعقدها مجلس الدفاع المشترك فى جامعة الدول العربية.

وحين انعقد المجلس تقدمت القيادة السورية بمشروع يقضى بأن تقوم الجيوش العربية بمهاجمة المشروعات الإسرائيلية وتدميرها.

ووَجَد مجلس الدفاع المشترك أن هذا المطلب السورى يَتَعَدَّى اختصاصه، ومن ثم أوصى بانعقاد مؤتمر استثنائى لرؤساء أركان حرب الجيوش العربية.

وبدوره انعقد هذا المؤتمر الاستثنائى (أكتوبر ١٩٦٣) وبحث إمكانيات الجيوش العربية وقدرتها على شن هجوم ضد مواقع المشروعات الإسرائيلية، وتبين أن هذه الجيوش ليست مستعدة لمثل هذا العمل!

وحَدَثَ أن الرئيس «جمال عبد الناصر» اطّلع على مُداولات مؤتمر رؤساء أركان حرب الجيوش العربية وتوصياتهم، وقام بالفعل بدعوة بعض رؤساء الأركان ليسمع منهم، وكان رأيه فى النهاية «أن أى عمل هجومى على إسرائيل لا منطق له إذا كانت الجيوش العربية غير قادرة على حماية مشروعات تقوم بها داخل حدودها». وكان تقديره بعد ذلك أن توفير حرية العمل للحكومات العربية داخل حدودها هو الأولوية التى تستحق الاهتمام، وغير ذلك ضَربٌ من المغامرات الخطرة لا لزوم له».

وكان من هنا أنه دعا إلى أول مؤتمر عربى على مستوى القمة فى مقر جامعة الدول العربية فى القاهرة لبحث مسألتين:

١ ـ مسألة مساعدة الدول العربية على تصميم وتنفيذ أكفأ المشروعات الممكنة للاستفادة بمواردها المائية.

٢ ـ مسألة حماية المشروعات العربية داخل حدود الدول العربية المعنية.

وانعقد المؤتمر على مستوى القمة فعلاً فى مقر جامعة الدول العربية بالقاهرة فى الفترة ما بين ١٣ إلى ١٧ يناير سنة ١٩٦٤.

....

....

ومن المفاجآت التى تطل على أى قارئ للوثائق الإسرائيلية ـ حجم الاهتمام الذى أعطته إسرائيل لمؤتمرات القمة العربية وقتها: أولها الذى انعقد فى القاهرة يوم ١٣ يناير ١٩٦٤ ـ والثانى الذى انعقد فى الإسكندرية يوم ٥ سبتمبر ١٩٦٤ أيضاً ـ ثم المؤتمر الثالث الذى انعقد فى الدار البيضاء يوم ١٢ سبتمبر ١٩٦٥.

كان المؤتمر الأول قد أحدث دهشة فى إسرائيل لمجرد انعقاده، فقد كانت كل التقديرات الصادرة عن وزارة الخارجية وجهاز الـ«موساد» ـ كما يَظهَر من الملفات ـ قاطعة فى أنه «من غير المحتمل فى المناخ العربى السياسى الراهن أن ينعقد مؤتمر عربى على مستوى القمة تلبية للدعوة التى وَجَّهَها «ناصر» ـ وإذا انعقد مثل هذا المؤتمر فإن عَدَداً من الدول العربية لن تشارك فيه، وأولها المملكة العربية السعودية، والسبب أن الخلافات بين القاهرة والرياض اتسعت طولاً وعَرضاً وأصبحت «جرحاً» يصعب دواؤه أو شفاؤه، وإضافة إلى ذلك فإن صراع القوة بين الملك «سعود» ووَلِىِّ عهده الأمير «فيصل» بلغ أشده، والملحوظ أن الميزان فى هذا الصراع يميل إلى «فيصل» لأن الولايات المتحدة تعتقد أنه أقدر على قيادة المملكة فى الأجواء العاصفة للعالم العربى من الملك «سعود» الذى «حَرَقَ أصابعه فى مؤامرة لاغتيال «ناصر» لكى تَسقط دولة الوحدة بين مصر وسوريا». ومعنى ذلك أن «سعود» لن يترك العاصمة خالية لـ«فيصل» ويَتَغَيَّب أسبوعاً على الأقل فى القاهرة ـ كما أن «فيصل» لن يسمح للملك بسهولة أن يذهب ويُقَوِّى مركزه بالاشتراك فى مؤتمر قمة عربى، ولمصالحة سوف تَستوجبها الظروف بينه وبين «ناصر»، وهذا بدوره تدعيم لقوة «سعود» لا يَقبَل به «فيصل»». وأخيراً «لأن الأمير «فيصل» لا يريد مؤتمراً يَجمَع مَلك السعودية مع رئيس مصر، لأن مثل هذا المؤتمر قد يكون فرصة تَتَجَمَّع فيها على السعودية وساطات عربية تفرض عليها تسوية مع المصريين

الغريب أن الوثائق الإسرائيلية كان فيها ما يُطمئن إسرائيل - بالحقائق العملية - إلى أن قلقها من بيانات القمة العربية مُبالغ فيه، إذ تشير الوثائق وتؤكد الشهادات أن الملك «حسين» مَلِك الأردن الذي غادر الإسكندرية بعد مؤتمر القمة الثاني قاصداً باريس في زيارة عَمَل قصيرة كان في حقيقة الأمر على مَوعد مع «جولدا مائير» وزيرة الخارجية الإسرائيلية



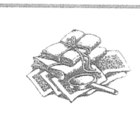
في اليمن ، بينما الأمير «فيصل» من رأيه أن يستمر «تَوَرُّط الجيش المصري في اليمن» لأن ذلك يربك السياسة الثورية للقاهرة من الناحية السياسية والأمنية - المالية والنفسية ، ثم إن استمرار الوجود العسكري المصري في اليمن كفيل بتنبيه شركات البترول العاملة في السعودية وفي الخليج بصفة عامة إلى أن شبه الجزيرة العربية مُعَرَّض لمخاطر لا بد أن تُواجَه عند المنبع في القاهرة ، وليس عند المَصَبّ في صنعاء!».

لكن القمة العربية انعقدت ، وأحدث انعقادها دهشة في إسرائيل ، ثم تَحَوَّلَت الدهشة - كما تقول الملفات - إلى نوع من القلق يطلب على الأقل مراجعة للمسلَّمات التي اعتمدت عليها التقديرات الإسرائيلية السابقة.

وضاعف من أهمية مراجعة التقديرات السابقة أن مؤتمر القمة العربي تَوَسَّع في قراراته ، بمعنى أنه تَوَصَّلَ - كما لاحظت وزارة الخارجية ورئاسة الأركان في إسرائيل - إلى إقرار خطة لتحويل مياه نهر الأردن ، ومياه الشبكة المائية المتصلة به في سوريا ولبنان والأردن ، ثم عَهَدَ بهذه الخطة إلى هيئة عليا تُحَوِّلها إلى مشروعات مُفَصَّلة رُصِدَت لها اعتمادات شاركت فيها الدول العربية القادرة وأولها المملكة العربية السعودية (التي مَثَّلها الملك «سعود» والذي انتهزها فرصة - كما كانت التقديرات الإسرائيلية تشك (وتَستَبعد) - لمصالحة مع «جمال عبد الناصر». كما أن بعض التلميحات أشارت إلى جهود تُبذل وراء الستار بغية التَّوَصُّل إلى تسوية تعيد السلام الأهلي بدلاً من الحرب الأهلية لليمن ، وبالتوازي مع ذلك كله فإن الوفد السعودي إلى القمة انتهزها فرصة لشَنّ حملة علاقات عامة مع بقية القادة والزعماء العرب ، هدفها تقوية مركز «سعود» في مواجهة «فيصل»).

فوق ذلك (مما رَصَدَتهُ الوثائق الإسرائيلية) فإن ضرورات حماية مشروعات المياه العربية - كما رآها مؤتمر القمة العربي - اقتضت الاستعداد بقوات عربية ، وهكذا أنشئت قيادة مُوَحَّدة تحت قيادة ضابط مصري كبير هو الفريق «علي علي عامر» ، ثم عُيِّنَت لهذه القيادة العامة هيئة أركان حرب - وهيئة عمليات - وهيئة تسليح - رَصَدَت لها معظم الدول العربية قوات بحجم مُعَيَّن تُوضَع في اختصاص القيادة المُوَحَّدة وتتحرك بأوامر منها.

ولَفَتَ نظر الجهات الأمنية في إسرائيل، وبالذات جهاز الـ«موساد» ، أن المؤتمر أنشأ كياناً سياسياً مستقلاً باسم «منظمة التحرير الفلسطينية» (تَوَلَّى رئاسته الأستاذ «أحمد الشقيري») ليكون رمزاً لوجود الشعب الفلسطيني ، وليكون لفلسطين مقعد مستقل في كل مؤسسات الجامعة العربية ، بما في ذلك مؤسسة القمة. ■



٦ تحـولات

■ لكن الذي أثار التَّوَجُّس وإلى حَدٍّ مبالغ فيه (من قراءة الوثائق الإسرائيلية) كان مُقَدِّمة إعلان بيان القمة العربية الأولى الذي وَقَّعَه الملوك والرؤساء العرب جميعاً ، وكانت هذه المقدِّمة - في الترجمة المعتَمَدة لوزارة الخارجية الإسرائيلية - تقول «إن قيام إسرائيل هو التهديد الرئيسي الذي يواجه الأمة العربية ويتطلب جهدها لمواجهته. إن إقامة إسرائيل خطر على الأمة العربية ، وسوف يضاعف من هذا الخطر أن ينهض العرب مُصمِّمين على حماية مياه الأردن حمايةً للوجود العربي ذاته ، وعلى هذا الأساس فإن الدول العربية ينبغي لها أن تكون مستعدة بالخطط الضرورية للتعامل مع الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية بحيث تكون جاهزة لمواجهة أية عراقيل تقوم بها إسرائيل ، وأن تكون جاهزة بالقوة العسكرية مُتأكدة أن استكمال هذه القوة يمثل الوسيلة الوحيدة لتحقيق الهدف النهائي بتصفية إسرائيل». وكان من المصادفات أن هذا البيان صَدَرَ بعد خمسة عشر يوماً فقط من تولي الجنرال «إسحاق رابين» منصب رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلي (١ يناير ١٩٦٤). وفي اجتماع لمجلس الوزراء الإسرائيلي لمناقشة بيان مؤتمر القمة العربي ، لاحظت وزيرة الخارجية الإسرائيلية «جولدا مائير» أن «هذه أول مرة يعلن فيها القادة العرب أمام الدنيا كلها وصراحة أن هدفهم النهائي تدمير إسرائيل» ، ورَدَّ الجنرال «إسحاق رابين» الذي كان حاضراً الجلسة ومُشاركاً في المناقشة العامة بأنه «أخذ علماً بذلك» ، وهو يعتقد أن «هذا الإعلان نقطة تَحَوُّل رئيسية في الصراع العربي الإسرائيلي». وعندما انعقد مؤتمر القمة العربي الثاني في الإسكندرية يوم ٥ سبتمبر ١٩٦٤ وبحضور الأمير «فيصل» وَلِيّ عهد السعودية (وكان في ذلك الوقت قد أتَمّ عملية تطويق الملك «سعود» تمهيداً لعزله ، ثم تَوَجَّهَ إلى الإسكندرية يحضر القمة العربية الثانية نائباً عن الملك ، ليكون ذلك إعلاناً صامتاً لكل العرب ولكل الدول أن السُلطة في المملكة قد انتقلت رسمياً إليه رغم أن أخاه الأكبر كان ما يزال رسمياً جالساً على العرش !) - بدا ذلك في الوثائق الإسرائيلية - على الأقل - مُوحياً بأن العرب (ربما) كانوا على وشك ترتيب أولوياتهم وتسوية خلافاتهم تمهيداً لتوحيد جهودهم ، ونتيجة ذلك أن إمكانيات العمل العسكري ضد إسرائيل اتسعت واستحوذت على الجزء الأكبر من وقت المؤتمر (وكانت القيادة السورية لحزب البعث يومها هي قائدة تصعيد النبرة العسكرية فيما صَدَرَ عن المؤتمر) - وكذلك فإن البيان النهائي له أشار إلى «أهمية تحرير فلسطين من الاستعمار الصهيوني» ، ولم يكتف بـ«التأكيد على مهام حماية مشروعات المياه العربية».

ويَظهَر في الوثائق الإسرائيلية أن مجلس الوزراء الإسرائيلي في جلسته العادية رأى تقديم مُذكِّرة إلى مجلس الأمن تُلفت نظره إلى «أن ثلاث عشرة دولة عضواً في الأمم المتحدة اتخذت قراراً بأن تمحو من الوجود دولة أخرى عضو في الأمم المتحدة ، وتلك مخالفة خطيرة لميثاق الأمم المتحدة ترفضها إسرائيل ، وتُعتَبر رفضها واجباً تلقيه عليها مبادئ ميثاق الأمم المتحدة».

ثم اجتمع مجلس الوزراء الإسرائيلي على هيئة «لجنة أمن» لبحث الموقف (يوم ١٢ مارس ١٩٦٤) ، وتَعَدَّدَت الآراء ، ولكنها كانت جميعاً تسابقاً إلى نوع من المواجهة - كما تُصَوِّر الوثائق.

كان رأي «ليفي أشكول» رئيس الوزراء أن الموقف العربي تَحَوَّلَ بسرعة من بيانات جوفاء إلى خطط عملية ووراءها مشروعات وقوات وأسلحة وأموال ، وذلك تَحَوُّلٌ لا يمكن أن تَسكُت عليه إسرائيل.

ووضع «ديان» النقط على الحروف أكثر قائلاً : «إن هذه المشروعات لا يوقفها إجراء أقل من الحرب الشاملة».

وطلب «رابين» (رئيس الأركان) إذناً بشن غارات جوية متواصلة على مواقع المشروعات العربية ، وخصوصاً على حشد كبير من المعدَّات الهندسية يَتَجَمَّع «الآن» وراء الحدود السورية. والغريب أن الوثائق الإسرائيلية كان فيها ما يُطمئن إسرائيل - بالحقائق العملية - إلى أن قلقها من بيانات القمة العربية مُبالَغٌ فيه ، إذ تشير الوثائق وتؤكد الشهادات أن الملك «حسين» مَلِك الأردن غادر الإسكندرية بعد مؤتمر القمة الثاني قاصداً باريس في زيارة عَمَل قصيرة يلتقي فيها بمسئولين فرنسيين بينهم الرئيس «شارل ديجول» ورئيس وزرائه «جورج بومبيدو» ووزير خارجيته «كوف دي مورفيل». لكن الملك في حقيقة الأمر كان على مَوعد مع «جولدا مائير» وزيرة الخارجية الإسرائيلية.

وبشهادة الملك «حسين» مُسَجَّلة بصوته أمام الدكتور «آفي شلايم» - فإن الملك تَحَدَّث عن لقائه بـ«جولدا مائير» قائلاً:

«لقد كان اجتماعاً طيِّباً. وبحق فإنه اجتماع كَسَرنا فيه كل الثلوج حتى يعرف بعضنا البعض عن قرب. ولقد تَحَدَّثنا عن أحلامنا وآمالنا أن نرى أبناءنا وأحفادنا يعيشون في الإقليم عهداً من السلام. وقد قلت لها إنني واثق أنه سوف يجيء يوم نلقى فيه جميعاً أسلحتنا ونصنع تمثالاً للسلام نقيمه في القدس ليُعَبِّر عن رفضنا لصراع عقيم..».

ولم يقل الملك أكثر من ذلك ، لكن وثائق إسرائيلية أخرى تُظهر أن هذا الاجتماع مع «جولدا مائير» كان بداية لاتفاقيات تعاون بين المخابرات المدنية والعسكرية في البلدين ، تضمن ضمن تَعَهُّدات أخرى - أن تتولى المخابرات الإسرائيلية مُتابعة أعداء الملك داخل المملكة وخارجها، وإبلاغه بما لديها من معلومات تمس أمنه وأمن العرش ، وتساعده على إفشال خططها العدائية. وقد أضيف إلى ذلك اتفاق «جنتلمان» بأن الملك مهما كان من أمر مشروعات تحويل مياه الأردن المقررة في بلاده - لن يتجاوز حصته المقررة من مياه الأردن طبقاً لمشروع «جونستون».

....

وكان مشروع «جونستون» واحداً من المشروعات التي قدمتها الولايات المتحدة الأمريكية ابتداء من سنة ١٩٥٠ - بدعوى الرغبة في المساعدة على حَلّ مشاكل الشرق الأوسط وفتح الفُرَص لتنميته ، وكان أولها ما عُرِفَ باسم مشروع «كلاب» الذي يسمح بترحيل اللاجئين الفلسطينيين المشَرَّدين بعد حرب فلسطين، وإعادة توطينهم في سيناء ، وقد عرضه الدبلوماسي الأمريكي المكلف به وهو المستر «إدوارد كلاب»، ورَفَضَتهُ مصر فور تقديمه في العصر المَلَكي وخصوصاً أن بريطانيا لم تكن مُتَحَمِّسة له لأنه - كما هو واضح في الوثائق البريطانية - كان يخلق أوضاعاً قلقة وراء ظهر القاعدة البريطانية في قناة السويس ذلك الوقت. وكان مشروع «جونستون» هو الثاني بين المشروعات الأمريكية ، وكان هَدَفُه تَعاوُن دول المشرق العربي ، وبالذات سوريا ولبنان والأردن ، وإسرائيل بالطبع ، لاقتسام مياه نهر الأردن وشبكة موارده المائية بغَرَض التَّوَسُّع في الإعمار (تحضيراً لمناخ السلام) ، وكان لإسرائيل النصيب الأوفر من مياه الأردن طبقاً لهذا المشروع. ولم تقبل الدول العربية بمشروع «جونستون»، لكن إسرائيل بدأت في تخطيط وتنفيذ سياستها المائية على أساسه.

....

وتشير وثيقة أخرى إلى أن الملك «حسين» في ذلك الاجتماع مع «جولدا مائير» طلب سلاحاً من إسرائيل ، وحين سألته وزيرة الخارجية الإسرائيلية عما إذا لم يكن ما تعطيه له الولايات المتحدة ، وآخره صفقة دبابات ، يكفي ؟.. كان رَدُّ الملك «حسين» بما مؤداه «أن الاتفاق العسكري الذي حصلت به مملكته على ثمانين دبابة أمريكية يرافقه تَعَهُّد مكتوب ومُوَقَّع منه شخصياً بأن «الحكومة الأردنية لا يحق لها استعمال هذه الدبابات في الضفة الغربية»!».

....

كان بين ما نشرته (نقلاً عن هذه التصريحات والتقارير فى الصحافة الإسرائيلية) سماح الملك «الحسن» لجهاز الـ«موساد» الإسرائيلى بتركيب ميكروفونات تسمع وعدسات ترى كل شىء داخل قاعات اجتماع القمة العربية فى الرباط

والـلافت للنظر أن هذا الحوار بين الملك «حسين» وبين وزيرة خارجية إسرائيل وَرَدَ بالفاظه تقريباً ونُشر فى دراسات جادة : دراسة «شاهام» عنَ «تاريخ نصف القرن الأول من حياة إسرائيل» (صفحة ٢١٥) ـ وتَكَرَّر نشره مرة أخرى فى دراسة الدكتور «آفى شلايم» (صفحة ٢٢٨)!

....

....

ويتصل بذلك ويلفت النظر أكثر ما وَرَدَ فى المذكرة النهائية التى قدمها الجنرال «إيلى زائيرا» رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلية فى السنوات من ١٩٦٩ وحتى سنة ١٩٧٣ ـ إلى الكنيست الإسرائيلى فى رده على تقرير لجنة التحقيق الخاصة برئاسة رئيس المحكمة العليا القاضى «أجرانات» . وذلك أنه فى صفحة ١٣٦ من «الترجمة العربية المحدودة» لهذه المذكرة الضافية كَتَبَ ما يلى بالنص :

«لسنوات طويلة كنا نعقد بين الحين والحين اجتماعات منتظمة مع شخص رفيع المستوى وذى مكانة مُحترَمة فى منطقتنا ، وسوف أسميه هنا «المشار إليه» (الرجل المرموق) . وفى الحقيقة فإنه لم يكن يعطينا معلومات بالمعنى المعروف للكلمة . ولكنه بسبب مكانته الرفيعة كان مَصدَراً مستمراً لمتابعة التَوَجُّهات والنوايا على المستويين السياسى والأمنى . وكانت ثقتنا فيه عالية بسبب مكانته الرفيعة . وكان فى مقدورنا عن طريقه أن نفهم ما يجرى فى العالم العربى . والواقع أنه كان مَصدَراً حيوياً لزعماء إسرائيل الذين يهمهم إيجاد سُبُل للتفاهم والتعايش مع العرب المحيطين بإسرائيل.» ومع أن الجنرال «إيلى زائيرا» أخفى اسم المصدَر العربى الرفيع المستوى ورَمَزَ إليه فى كلامه عنه (صفحة ١٣٦ من الترجمة العربية للتقرير) ـ فإن مدير المخابرات العسكرية السابق على صفحتى ١٤٠ و ١٤٤ قام بتسميته صراحة بصفته «الملك حسين» ، وكان ذلك بالإحالة إلى شهادة السيدة «جولدا مائير» أمام لجنة «أجرانات» وبخصوص لقاءاتها مع مَلك الأردن أثناء رئاستها للوزارة . وقبل أيام من حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣.

....

....

وكان هذا اللقاء بين الملك «حسين» وبين «جولدا مائير» قبل أيام من حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ مَوضع أخذ ورَدّ فى تحقيقات لجنة «أجرانات» ، وداعيه اتهام «جولدا مائير» بأنها لم تاخذ جَداً بدرجة كافية تحذيرات الملك «حسين» عن استعداد مصر وسوريا لشن حرب على إسرائيل فى ظرف أسابيع ، ولو أنها أخَذَتها جَدّاً لما كانت مفاجاة قيام الحرب ظهر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣.

....

....

وفيما أورده الجنرال «زائيرا» فإن عدداً مَحدوداً من صُنّاع القرار فى إسرائيل (رئيس الوزراء ، ووزير الدفاع ، ورئيس هيئة أركان الحرب ، ومدير المخابرات العسكرية ، ورئيس الـ«موساد») كانوا يعقدون جلسات مُنتَظمة مع الملك «حسين» تتم فى أماكن مُؤَمَّنة مُختارَة على جانبى الحدود ، وفيها يسمعون من الملك «حسين» تقييماً عاماً لرؤيته للأحوال ، ثم يقومون بعد ذلك بتوجيه أسئلة مُحَدَّدة إليه ، وكان الملك يجيب ! .. (مُعتَبِراً أن ذلك داخلٌ فى نطاق التنسيق الأمنى المُتَّفق عليه مع إسرائيل)! ■

....

....



٧ خبايا

■ ■ كان مؤتمر القمة العربى الثالث ـ فى الدار البيضاء يوم ١٢ سبتمبر ١٩٦٥ ـ هو آخر سلسلة «القمَم» فى الفترة التى سبقت معركة يونيو ١٩٦٧. وربما أن هذا المؤتمر كان الأخطر فى السلسلة رغم أنه كان الأقل جَدِّيَة بينها ! وبشكل ما فإن الوثائق الإسرائيلية ـ فى حدود ما رأيت وقرأت ـ تَتَجَنَّب الإشارة إلى هذا المؤتمر بالتفصيل وكأنها تُحاذر الاقتراب منه رغم أن أجهزة الأمن الإسرائيلية كلها وأولها الـ«موساد» كانت موجودة فى قاعة المؤتمر مُراقبة لما يجرى فيه ومُستَمِعة لمناقشاته ومُسَاجلاته وقد وَصَلَت أحيَاناً إلى دَرَجَة المشادة !

....

....

وكنتُ قد نَشَرتُ (فى عَدَد «وجهات نظر» ـ أكتوبر ١٩٩٩) تفاصيل عن هذه الواقعة الخطيرة فى مقال لهذه المجلة استندت فيه إلى تصريحات وتقارير فى الصحافة الإسرائيلية فى رثاء الملك «الحسن» وتكريمه ـ عندما ذَهَبَ إلى رحاب الله.

وكان بين ما نَشَرتُه (نقلاً عن هذه التصريحات والتقارير فى الصحافة الإسرائيلية) سماح الملك «الحسن» لجهاز الـ«موساد» الإسرائيلى بتركيب ميكروفونات تَسمَع وعَدَسات ترى كل شىء داخل قاعات اجتماع القمة العربية فى الرباط ـ لكننى حتى بعد النشر ظللت حائراً فى الطريقة التى أمكن بها إتمام هذه المهمَّة بنجاح ، ودون أن يلحظها أحد من المدنيين أو العسكريين المغاربة من خارج الدائرة الضيقة التى تحيط بالملك «الحسن» ، ثم أن تَتَواصَل هذه المهمَّة من أوَل المؤتمر حتى نهايته ـ دون مُقاطعَة ؟!

لكنه من يوم أن نَشَرتُ ما نَشَرت (عَدَد «وجهات نظر» ـ أكتوبر سنة ١٩٩٩) وحتى الآن (نوفمبر ٢٠٠٠) أتيح لى أن أعرف ما ينهى الحيرة ويبطل سؤالها.

والحقيقة أن الخطة التى اعتمدت بالفعل لتمكين الـ«موساد» من المتابعة بالصُورة والصوت ، وحتى بالإشارة والإيماءة . لمؤتمر عربى على مستوى القمة ـ كانت خطة بالغة الذكاء ، شديدة البساطة.

كانت فترة منتصف الستينات هى الفترة التى بلغ فيها التعاون بين المخابرات المغربية والمخابرات الفرنسية (وغيرهما من أجهزة الأمن) ـ ذروته. وقبلها وبعدها كان الجنرال «محمد أوفقير» وزير الداخلية الدَمَوى فى حكومة الملك «الحسن» وموضع ثقته ومأمن سره ـ هو المسئول بالطبع عن هذا التعاون الحميم خصوصاً فى مُطاردة أعداء الملك «الحسن» وأولهم فى ذلك الوقت الزعيم الاَشتراكى الأسطورى «المهدى بن بركة». وفى باريس . وفى أحد أيام الأسبوع الأول من مايو ١٩٦٥ (أربعة شهور قبل مؤتمر القمة فى الدار البيضاء) عُقِدَ فى باريس اجتماع أمنى على مستوى عالٍ فى إطار التنسيق بين أجهزة الأمن السرى الفرنسية والمغربية ، وانضم إليه مندوب من المخابرات الإسرائيلية ، وهو فى الغالب الجنرال «مائير آميت» مدير الـ«موساد» الذى تَوَلى منصبه قبل شهور. وفى هذا الاجتماع طرح مدير الـ«موساد» فكرة أن إسرائيل يهمها أن تعرف معرفة يقين نوايا الدول المعادية لها (مصر وسوريا بالذات) ـ ويَتَّصل بذلك أن اكتفاء إسرائيل بمعلومات مكتوبة تصلها من «الأصدقاء» أو حتى بنُسَخ من مَحاضر جلسات القمة ليس كافياً ، لأنه فى معرفة النوايا فإن «تعبيرات الوجوه تقول أكثر مما تفصح عنه الأوراق ، كما أن نبرات الصوت تُعَبِّر بأكثر مما يمكن أن تعرضه محاضر الجلسات».

وكان معنى ذلك أن إسرائيل تطلب ترتيباً يَسمَح لها بأن ترى وتَسمَع ما يهمها مباشرة، لا تنتظر فيه «بوح» صديق. وكان ذلك أكثر مما يستطيع أن يَبِتّ فيه الجنرال «محمد أوفقير» أو مُساعده اللواء «أحمد الدليمى» الذى شارك فى الاجتماع الأمنى إلى جواره.

وطلب «أوفقير» أن تُترَك له «المسألة» يرجع فيها إلى «جلالة الملك». وفى اجتماع تالٍ فى نهاية شَهر مايو ١٩٦٥ عُقِدَ اجتماع أمنى آخر فى ميناء «مارسيليا» الفرنسى ، وفيه أبلغ الجنرال «أوفقير» زملاءه «بأنهم «فى المغرب» لا يعرفون كيف يمكن تدبير الطلب الإسرائيلى دون أن يؤدى ذلك إلى انكشاف فى موقف الملك تكون له عواقب لا يستطيع الملك قبولها». والغريب أن مدير المَخابرات الإسرائيلى وبموافقة مسئول هيئة الأمن الخارجى الفرنسى المكلف بحضور الاجتماع ـ هو الذى عَرَضَ اقتراحا لتذليل العقبات بما يدرأ العواقب ، وكانت الخطوط الرئيسية فيما عُرِضَ على النحو التالى :

ـ أنه فى الأعراف المعمول بها فى الجامعة العربية فإن جهاز الأمانة العامة لجامعة الدول العربية هو الذى يتولى الإجراءات الإدارية الخاصة بعَمَل المؤتمرات ، وتنظيم الجلسات ، بما فى ذلك كتابة المحاضر وصياغة مشروعات القرارات.

ـ لكنه فى مؤتمر القمة العربى الأول فى القاهرة ، ونظراً لعدم كفاية جهاز الأمانة العامة للجامعة العربية للخدمات المطلوبة منه لمؤتمر على مستوى القمة (لأول مرة) شارك فيه جميع ملوك ورؤساء الدول العربية ـ فإن الدولة المضيفة وهى مصر (وقد تصادف أنها أيضا دولة المقر) ـ تَوَلَّت عن الأمانة العامة للجامعة العربية وبواسطة مسئولين من رئاسة الدولة ووزارة الخارجية مُهِمَّة توفير الخدمات الإدارية المطلوبة للقمة.

ـ وفى ذلك الوقت ومع غَلَبة الشك وسوء الظن على السياسة العربية فإن وزارة الخارجية المصرية اقترحت على الأمانة العامة للجامعة العربية (وزيادة فى التأكيد على سلامة صياغة المحاضر وحُسن تعبيرها بأقصى قدرٍ من الدِقَّة عن المناقشات) أن يتم تسجيلها صَوتاً وصَورة ، وبشكل سِرِّى (وإن يكن رسمياً).

....

....

وبالفعل فإنه فى ذلك الوقت ، وأثناء التمهيد لانعقاد مؤتمر القمة العربى الأول ، قال السيد «محمود رياض» وزير الخارجية المصرى للسيد «عُمَر السَقَّاف» القائم بأعمال وزير الخارجية السعودى أن فكرة تسجيل الجلسات صوتاً وصورة هى الطريقة الحديثة لضمان دِقَّة المحاضر بما لا يَحتَمل ذَرَّة شك ، ثم إن السِرِّيَّة ممكنة إذا كانت أجهزَة الدولة (وِحدة خاصة فى التليفزيون المصرى) ـ هى التى ستقوم بالعَمَل. وحين لاحظ «محمود رياض» أن نظيره السعودى يبدى تَرَدُّداً قال له (طبقاً لتقرير كَتَبَه «محمود رياض») ما مُؤَدَّاه : «لا داعى لأن تَشُكُّوا وأن تَتَصَوَّروا أن هَدَفَنا مجرد تسجيل الجلسات ـ لو كان ذلك ما نريد ففى مَقدورنا أن نضع الميكروفونات خفيَة فى قاعة الاجتماعات ، وأظنكم أيضاً تُقَدِّرَون احتمال أن غيرنا وغيركم من الوفود سوف يدخلون قاعة المؤتمر وفى حقائبهم أو فى جيوبهم أجهزة تسجيل مُخَبَّأة فى حقائب أوراقهم أو فى جيوبهم ، ونحن لا نستطيع أن نضع نظام تفتيش يمس الملوك والرؤساء أو يقترب من رجالهم المشاركين معهم فى وفودهم ، وإلا فهى أزمة.

لذلك ولصالح الجميع ـ ولمصلحة الحقيقة ـ فإنه من الأفضل أن تكون الميكروفونات فوق الموائد وليس تحتها ، وأن تكون الكاميرات أمام عيوننا جميعاً وليس خلف ظهورنا». وبعد مُشاورات ومُداولات

الذى يستوجب الملاحظة ويستحقها هو وجود اختلاف فى السياسات المتبعة إزاء مصر وتلك المتبعة إزاء سوريا - بينما كلاهما مجاور لإسرائيل - بالالتصاق - وكلاهما معاد لها - بالمبادئ والتصرفات

جرى قبول الاقتراح المصرى وعلى أساس أن تتلقى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية نُسَخاً من شرائط التسجيل «صورة وصوتاً» بعدد الملوك والرؤساء المشاركين فى القمة، وفوقها نُسخة للمحفوظات السرِّية للأمانة العامة لجامعة الدول العربية. وهكذا تكون «الوثيقة الكبرى» للاجتماع محفوظة لدى الجميع، مرجعية يمكن الاطمئنان بالكامل إلى أمانتها على كل قول وكل نص - وحتى كل تعبير!

وكان ذلك بالفعل ما جرى تنفيذه بالنسبة لمؤتمر القمة العربى الأول فى يناير ١٩٦٤ - وبعده فى مؤتمر القمة العربى الثانى بالإسكندرية فى سبتمبر ١٩٦٤.

....

والآن وفى «مارسيليا» أواخر شهر مايو سنة ١٩٦٥ - كان رئيس الـ«موساد» الإسرائيلى يعرف تفاصيل الإجراءات التى اتفق عليها فى اجتماعات القمم العربية - وعليها رتَّبَ مقترحاته التى راح يعرضها على زملائه من الأمن الفرنسى والأمن المغربى. وهكذا (مايو ١٩٦٥) يستطرد رئيس الـ«موساد» فى عرض الخطوط الرئيسية لفكرته: «- إن الحكومة المغربية - وهى المضيف الرسمى لمؤتمر القمة الجديد - تستطيع أن تأخذ بالسوابق التى جرى إقرارها والعمل بها فى مؤتمرات القمة فى القاهرة والإسكندرية وتطلب - ولن يعارضها أحد - أن تكون هى المسئولة عن الإجراءات المطلوبة لخدمة مؤتمر القمة، بما فى ذلك تنظيم الجلسات وكتابة المحاضر وصياغة القرارات. وهى فى هذا الصدد تستطيع ودون منازعة أن تتولى بأجهزتها الرسمية عملية تسجيل وقائع الاجتماعات صوتاً وصورة، وترسل نُسَخاً منها - كما فعلت مصر قبلها - وبعدد الملوك والرؤساء، بالإضافة إلى نُسخة إضافية برسم الأمين العام لجامعة الدول العربية).

- وبما أن التليفزيون المغربى مؤسسة وليدة - لا يملك الوسائل الفنية ولا المهارات الضرورية لأداء العمل بكفاءة (تليق بمقام اجتماع يُشارك فيه الملوك والرؤساء العرب) - فإن الحكومة المغربية من حقها وحدها وبدون اضطرار إلى إخطار غيرها - تستطيع مُبكِّراً - يُساعدها أصدقاؤها! - تأليف شركة خاصة لخدمات التليفزيون تكون جاهزة - بمُعداتها وخبراتها - للمهمة قبل الموعد المحدد.».

....

وهكذا كان. وبالفعل تألفت وسُجِّلت شركة فى مدينة «ليون» الفرنسية - تحت اسم «أطلس» - وكانت الواجهة فيها مغربية، ولكن ما وراء الواجهة كان شيئاً مختلفاً تماماً - وعلى أية حال فإن الشركة الجديدة انشغلت وانهمكت من أول يوم (مُستعينة بالتلفزيون المغربى للدولة أحياناً) فى وضع مُعداتها وتدريب خُبرائها على دخول القاعات والخروج منها، وتركيب الميكروفونات وتمرير أسلاكها، وتوجيه الكاميرات وفتح زواياها. ومنذ اللحظة التى بدأ فيها الملك «الحسن» خطابه فى القمة قائلاً: «بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين..» - كانت الميكروفونات تعمل والعدسات تُضاء بينما عناصر من الـ«موساد» والأمن الفرنسى وزملائهم من المغاربة جالسون باطمئنان فى غرفة التحكم control room يرون ويسمعون باعتبارهم «موظفين فى الدولة»، وتحت اختصاص الجنرال «أوفقير» الذى كان المسئول العام عن نظام وتامين المؤتمر. وقد ظلت شركة «أطلس» تواصل عملها حتى جرت تصفيتها وإنهاء وجودها القانونى فى وقت ما من سنة ١٩٩١!

....

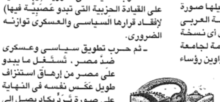
وكان مؤتمر القمة العربى الثالث فى الدار البيضاء فى ١٢ سبتمبر ١٩٦٥ هو المؤتمر الذى عُرضت عليه بضغط وإلحاح من القيادة السورية البعثية وقتها «خطة عسكرية لتصفية إسرائيل»، ولم يكن هناك من أبدى اقتناعه بالخطة أو بكفاءتها، أو بإمكانية تنفيذها بالقدرات العربية الراهنة، أو فى ظل الأوضاع الدولية القائمة.

والملاحظ فى الجلسة الثانية من جلسات هذا المؤتمر الثالث على مستوى القمة العربية أن «جمال عبد الناصر» تدخَّل فى المناقشات مُبدياً استغرابه لأن «الوفد السورى» الذى كان يرأسه الفريق «أمين الحافظ» «يجرُّنا إلى مُزايدات قد تؤدى إلى مغامرات لا تأخذ فى حسبانها الطاقات الحالية للأمة».

ولقى ما قاله «جمال عبد الناصر» استجابة من الملك «فيصل». وكان أن اقترح رئيس وزراء السودان السيد «أحمد محمد محجوب» ترك موضوع الخطة العسكرية التى تصوَّرها رئيس الدولة السورى وقتها (الفريق «أمين الحافظ») لتصفية وجود إسرائيل - والانتقال إلى جدول الأعمال، واعترض الفريق «أمين الحافظ»، لكن القمة وافقت على اقتراح رئيس وزراء السودان.

وإذن فإن إسرائيل كانت تعرف كل الحقيقة فيما دار داخل مؤتمر القمة الثالث فى الدار البيضاء سنة ١٩٦٥.

ومن المدهش أن حكومة المغرب احتفظت عندها بكل الشرائط التى تم تسجيلها صورة وصوتاً لوقائع جلسات مؤتمر القمة العربى الثالث فى الدار البيضاء، ولم تصل أى نسخة منها إلى القاهرة باسم الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، ولا إلى مكاتب أو دواوين رؤساء الدول العربية المعنية. وحدث أن قامت وزارة الخارجية المصرية باستعجال الشرائط، وردَّت أمانة الجامعة العربية بأنها لم تتسلمها بعد، ولكنها بعثت إلى الرباط تطالب بها لأن عواصم عربية أخرى شاركت فى المؤتمر مثل القاهرة تريد أن تكون محفوظاتها كاملة - وذلك هو الوضع حتى هذه اللحظة!



٨ الصواريخ

لا تحتوى الوثائق الإسرائيلية على تفاصيل كثيرة عن مؤتمر القمة العربى فى الدار البيضاء، لكنها تُفصح عن الكثير مما رتَّبته إسرائيل على ما عرفته وسمعته سواء من داخل جلسات هذا المؤتمر أو من كافة مصادرها القوية والمنتشرة فى كل أرجاء العالم، سواء على مستوى السياسة والدبلوماسية، أو على مستوى المخابرات والأمن، أو على مستوى النفوذ والنفاذ إلى مواقع التأثير بواسطة جالياتها القوية المناصرة و«التنظيمات المتعصبة» وسط هذه الجاليات. وفى مجمل ما يبدو من الوثائق الإسرائيلية خصوصاً سنة ١٩٦٥ أن إسرائيل:

١ - ماضية فى تنفيذ مشروعاتها للحصول على أكبر قدر من مياه الأردن.

٢ - وهى لا تعتبر التهديدات السورية خطرة أو حالَّة، وتعتبر أن النظام السورى كما هو وقتها «عصبى» من ناحية منه، «ومخترَق» من ناحية أخرى خصوصاً من مخابرات صديقة (تبيَّن فيما بعد أنها المخابرات البريطانية الخارجية «M.I.6»، وكان الاختراق على أعلى مستوى فى القيادة العسكرية الحزبية (الحزب القومى السورى) وهى وقتها الأقرب من المسئولية السياسية داخل قيادات وتشكيلات الجيش السورى).

٣ - أن مصر بكل ما تُمثِّله وتتحصَّل عليه فى ذلك الوقت ما زالت هى الخطر الذى يمكن أن تخشى منه. وهكذا فإن الوثائق الإسرائيلية فى ذلك الوقت تظهر من خلالها خطة حركة:

- حرب نفسية على سوريا (وبالتحديد على القيادة الحزبية التى تبدو عصبية فيها) لإفقاد قرارها السياسى والعسكرى توازنه الضرورى.
- ثم حرب تطويق سياسى وعسكرى ضد مصر، تستغل ما يبدو على مصر من إرهاق استنزاف طويل عكس نفسه فى النهاية على صورة تردد يكاد يصل إلى حد المواجهة مع الولايات المتحدة الأمريكية (التى أوقفت بالفعل فى ذلك الوقت مبيعات القمح إلى مصر بمقتضى القانون ب. ل. ٤٨٠) - تحت ضغط شديد من الكونجرس الأمريكى بمجلسيه، وفى عهد رئيس أمريكى لا يحتاج إلى من يُحرِّضه على مصر وهو «ليندون جونسون» (الذى خلف «جون كنيدى» بعد اغتياله أواخر سنة ١٩٦٣) - ثم فاز فى انتخابات سنة ١٩٦٤ دون اعتماد على بريق عصر «كنيدى» وأحلامه الواسعة!

....

....

وكان «ليندون جونسون» نوعاً من الرجال يختلف عمن سبقوه من رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية، فهو لم يكن القائد المنتصر فى الحرب مثل «أيزنهاور»، ولا كان الحالم بآفاق إنسانية جديدة مثل «كنيدى»، وإنما كان سياسياً أمريكياً محلياً - وعملياً - وفلاَّحاً من تكساس كما يقول، يفهم فى مشاكل استزراع الأرض وتوفير المياه، ويعرف حسابات الانتخابات المحلية والفيدرالية على أطراف أصابعه. ثم إنه فى واشنطن وأثناء رئاسته للكونجرس أصبح الصديق الذى تعتمد عليه جماعات الضغط (اللوبى) اليهودى، وفوق ذلك فإن دائرة الأصدقاء الأقرب إلى قلب «جونسون» كانوا من اليهود (وبينهم «إيب فورتاس» وهو قانونى مشهور وله تأثير واسع فى الأجواء السياسية لـ«جورج تاون» (عاصمة القوة السياسية فى واشنطن) - ثم إن هوى «جونسون» ومشاعره كانت مع سيدة مجتمع يهودية، ذكية وجميلة هى «ماتيلدا كريم».

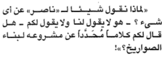
....

وتشير الوثائق الإسرائيلية إلى معرفة سابقة بين «أشكول» وبين «جونسون» عندما كان نائباً للرئيس (مع «كنيدى») وقام بزيارة لإسرائيل التقاه فيها وسمع منه وتأثر به، ووجد نفسه مُستريحاً له أكثر مما استراح لرئيس وزراء إسرائيل فى ذلك الوقت «دافيد بن جوريون» الذى بدا له «شخصية من شخصيات التوراة المتوعِّدة والمنذرة بالعذاب الأليم»! ومن المفارقات - كما يتضح من قراءة الملفات - أن «جونسون» أعطى لـ«أشكول» فرصة تمنَّاها «بن جوريون» ولم يحصل عليها، وهى القيام بـ«زيارة دولة» إلى الولايات المتحدة - خلافاً لـ«زيارة رسمية»، أو «زيارة عمل». وأهمية «زيارة الدولة» أن رئيس الولايات المتحدة يكون هو المرافق للضيف الممتاز فى كل تحركاته واتصالاته. وكانت «زيارة الدولة» دفعة تأييد قوى لـ«أشكول» قبل الانتخابات العامة القادمة فى إسرائيل.

....

كانت زيارة «أشكول» للولايات المتحدة «زيارة دولة» - تالية فى التوقيت لمؤتمر القمة العربى الأول، وسابقة على مؤتمر القمة العربى الثانى. وفى الاستعداد للزيارة فإن «أشكول» عقد اجتماعا مع مجلس الأمن القومى، وكان أمام المجلس تقرير من

كان من المثير بالنسبة لى أن أقابل نفسى مرة أخرى فى الوثائق الإسرائيلية، فقد وجدت ضمن ملفاتها عن تلك الفترة تقارير وتعليقات مستفيضة عن مقالات كتبتها فى التنبيه إلى مشروع إسرائيل النووى



الجنرال «موشى ديان» ملخصه أن «مشروعات تحويل مياه الأردن لا سبيل إلى وقفها إلا بالحرب». وكما يَبِين من الأوراق فإن «إيزر وايزمان» قائد سلاح الطيران الإسرائيلى الذى حَضَرَ اجتماع مجلس الأمن القومى عرض إلى دور «سلاحه» فى أى مواجهة قادمة دون دخول فى التفاصيل الكاملة لخطة أطلق عليها الاسم الرمزى «موكد» (الموقد) - وقد ظَهَرَ فيما بعد أن أساس الخطة (التى انفرد فيها الطيران وحده بـ: ٥٢٪ من جُملة الاعتمادات المقَرَّرة للدفاع) هو «توفير قوة جوية إسرائيلية تستطيع تدمير كل الأسلحة الجوية فى الدول الملاصقة لإسرائيل (مصر وسوريا) - بضربة واحدة» - وكانت قائمة طلبات «وايزمان» لتحقيق هذا الغرض على النحو التالى :

□ ٤٥ طائرة من طراز «فانتوم» (أ.٦٠) - مع العلم أن سلاح الطيران الإسرائيلى كانت لديه بالفعل ثلاثون طائرة من هذا الطراز.

□ ١٦٥ طائرة من طراز «سكاى هوك» المقاتلة - مع العلم أن سلاح الطيران الإسرائيلى كانت لديه بالفعل ١٢٠ طائرة من هذا الطراز. أى أن المجموع الإجمالى كان ٢١٠ طائرات هى الأحدث فى جيوش العالم فى ذلك الوقت. وفى الحقيقة - وكما يَرِد فى الأوراق بالنص - فإن «وايزمان» كان يريد أن يجرى «عملية تجديد كاملة لسلاح الجو الإسرائيلى الذى كان حتى وقتها يعتمد على الطائرات الفرنسية من طراز «ميستير» ثم طراز «ميراج»..». وكان الجنرال «إسرائيل تال» قائد سلاح المدرعات يطلب ٣٢٠ دبابة من طراز «م ٤٨»، وكانت ميزتها فى حسابه أنها تقدر على العَمَل دون حاجة للتَزَوُّد بالوقود لمدى يزيد مرتين عن مَدى عَمَل دبابة الـ «سنتوريون» البريطانية التى كانت معروضة على إسرائيل ! وهكذا تَوَجَّه «أشكول» إلى زيارة صديقه «جونسون» (رئيس الولايات المتحدة) وفى «زيارة دولة» - ومعه قوائم الطلبات التى أعَدَّها جنرالاته.

وقد أضاف «أشكول» إلى هذه القوائم طلباً من رئاسة أركان حرب الجيش الإسرائيلى تسأل فيه عن إمكانية الحصول على صواريخ. وفى مَحاضر ذلك اللقاء بين «أشكول» و«جونسون» يَرِد حوار يقول فيه «أشكول»:

«إن إسرائيل تريد أن تكون لها قوة فى الصواريخ توازى القوة التى بَنَتها مصر. فـ«ناصر» لديه مائتا صاروخ ، وإسرائيل على استعداد لأن تتوقف عن طلب صواريخ أمريكية إذا تَمَكَّنَت الولايات المتحدة من إقناع «ناصر» بتدمير صواريخه». ثم يُضيف «أشكول» عبارة فى الحوار تستحق الاهتمام قال فيها بالحرف الواحد مُوَجِّهاً كلامه لـ «جونسون»:

«إن إسرائيل على استعداد لأن تنتظر سنة أو سنتين على أكثر تقدير ، ولكن الحاصل أمامها أن «ناصر» يواصل تَجاوُز العَقَبات التى ما زالت تُؤَثِّر على فاعلية صواريخه (مشكلة جهاز التوجيه) - لكنه على وجه اليقين سوف يَتَمَكَّن من حَلّ هذه المشكلة فى سنتين أو ثلاث، وحينئذ فإنه يُصبح فى وَضع يمكنه من الهجوم على إسرائيل. وإذا حَدَثَ أن مصر هاجَمَت إسرائيل فإن بقية البلاد العربية سوف تحذو حذوها».

ثم يَضَع «أشكول» فى صوته أقصى ما يستطيع من حرارة التأثر ، ويقول بالحرف - طبقاً لمحضر الاجتماع بينه وبين «جونسون» :

«إن إسرائيل لا تحتمل أن تخسر معركة واحدة أمام العرب يا سيدى الرئيس. وإذا حَدَث ذلك فسوف تكون نهاية التاريخ اليهودى. والشعب اليهودى لديه رسالة مازال يؤديها للعالم المتحَضِّر ، وإذا نظرت ياسيدى الرئيس إلى التاريخ الإنسانى وعَدَدتَ ما قدمه اليهود للحضارة الإنسانية لتَبَيَّنَ لك على الفور أن هذه الحضارة الإنسانية تحتاج إلى اليهود ، وذلك ما أتمنى أن يكون واضحاً أمامك !»

وطبقاً لمحضر الجلسة فإن «ماك جورج باندى» مستشار الأمن القومى للرئيس الأمريكى (وكان «كنيدى» هو الذى عَيَّنَه فى منصبه ، وطلب «جونسون» إليه أن يواصل الخدمة العامة معه وفى نفس منصبه) - أبدى ملاحظة قال فيها ما مؤداه أن «ناصر يضغط بشدة فى استكمال برنامج الصواريخ المصرية لأنه يعلم أن إسرائيل لديها مشروع نووى يراه خطراً عليه ، وهو لا يريد أن يفاجأ يوماً بأن إسرائيل تَمَكَّنَت من تحقيق اختراق نووى وهو أمامها بغير سلاح ردع».

ورَتَّبَ «ماك جورج باندى» على ذلك سؤالاً وجهه إلى «أشكول» عما «إذا لم يكن مفيداً أن تقول الولايات المتحدة لـ «ناصر» - بموافقة إسرائيلية - بأن مشروع إسرائيل النووى فى «ديمونة» مدنى فى كل تطبيقاته وليس مُوَجَّهاً إلى صنع سلاح نووى ، ثم إنه قد لا يكون ضرورياً أن يعرف «ناصر» أن «هذا الإخطار يُقَدَّم إليه بموافقة إسرائيلية حتى لا يكون فى ذلك شِبْه تعهد من حكومة إسرائيل»..» وطبقاً لمحضَر الجلسة - أيضاً - فإن «أشكول» رَدَّ على هذا الاقتراح بغضب قائلاً بالحرف:

«لا أستطيع أن أوافق على إخطار «ناصر» بأى شىء عن «ديمونة». إن «ناصر» عَدُوٌّ لنا. ومادامت الجمهورية العربية المتحدة عدواً لإسرائيل فإنها سوف تظل مُلتَزِمة بتدميرها. ولذلك فإن إسرائيل تُعارض تقديم أى تأكيدات ولا حتى بالوساطة فى مثل هذه الموضوعات (يقصد الموضوعات النووية).

وبالإضافة إلى هذا فإن «ناصر» يُكَرِّس الجهود منذ سنوات لكى يجعل من مصر قوة نووية ، وسوف يواصل تكريس الجهود. وأى شىء تقولونه له عن مفاعل «ديمونة» لن يكون له أثر من أى نوع».

واستطرد «أشكول» طبقاً للمحضر :

«لماذا نقول شيئا لـ«ناصر» عن أى شىء ؟ - هو لا يقول لنا ولا يقول لكم - هل قال لكم كلاماً مُحَدَّداً عن مشروعه لبناء الصواريخ؟»!

....

....

وكان من المثير بالنسبة لى أن أقابل نفسى مرة أخرى فى الوثائق الإسرائيلية، فقد وَجَدتُ ضمن ملفاتها عن تلك الفترة تقارير وتعليقات مُستَفيضة عن مقالات كتبتها فى التنبيه إلى مشروع إسرائيل النووى. وكان التركيز فى الملفات الإسرائيلية على مقال (فى ٢٠ أغسطس ١٩٦٥) قلتُ فيه «إن إسرائيل سوف تكون جاهزة فى سنتين أو ثلاث سنوات لصُنع قنبلة ، وهى عندما تقترب من هذا الحد سوف تقترح على مصر أن تَدخُل معها فى اتفاق لحظر الأسلحة النووية فى البلدين ، وبطبيعة الأحوال فإن مصر لن تقبل الدخول فى اتفاق من هذا النوع مع إسرائيل ، وحينئذ يكون هذا الرفض ذريعة لمشروعية صُنع قنبلة نووية إسرائيلية». وبعد شهرين تعود التقارير الإسرائيلية فتُرَكِّز على مقال آخر كتَبتُه فى ذلك الوقت (١٥ أكتوبر ١٩٦٥) - وتُظهِر الوثائق الإسرائيلية أن هذا المقال وُضِعَ تحت دراسة عميقة ومُفَصَّلة ، خصوصاً فقرة منه تقول : «إن إسرائيل تحاول أن تبنى لنفسها قدرة نووية تستطيع أن تُعطيها قنبلة فى ظرف سنتين أو ثلاث سنوات ، وعلى الدول العربية أن تكون مُستَعِدَّة بطريقة جماعية لمواجهة هذا الخطر. لأنهَ فى مواجهة إمكانية صنع سلاح نووى فإن الدول لا تنتظر حتى تجىء اللحظة الحرجة ، وإنما هى مُطالبة بأن تُعَبِّئ مواردها استعدادا لهذه اللحظة مسبقاً». ثم يُسَجِّل أحد التقارير الإسرائيلية وبإلحاح أن «هيكل» طالب بإنشاء قيادة جوية عُليا مُوَحَّدة ، وبجهد مُرَكَّز ونشيط فى المجال النووى.

....

....

ومن اللافت أن هذه الملفات الإسرائيلية فى تلك الفترة حافلة بأخبار وبيانات سورية رسمية تقول «إن الأسلحة النووية ليست مُهِمَّة لنوع الحرب الذى لا بد للعرب أن يشنوه لتحقيق هدف إزالة إسرائيل ، وهو حرب التحرير الشعبية !»

وتَتَضَخَّم هذه الملفات بتقارير عن لقاءات عربية شارك فيها زعماء بعثيون سوريون كبار ، وضباط عسكريون ينتمون إلى الحزب القومى السورى ، وأهم ما فيها شكوى هؤلاء جميعاً إلى زملاء لهم فى العالم العربى مؤداها «أن مصر تتحدث عن أهمية صُنع قنبلة نووية عربية لأنها تريد أن تجعل ضرورات المواجهة مع إسرائيل صعبة ، وبذلك تعفى نفسها من المسئولية مادامت هذه المواجهة شِبْه مُستَحيلة !»

٩ الصيد

هناك ظاهرة تَستَوقف النظر ، ولا بد أن يلاحظها كل قارئ مُهتَم يمسك بالملفات الإسرائيلية ويقرأ فيها قراءة تحقيق وتدقيق.

خلاصة هذه الظاهرة أن لإسرائيل تجاه العالم العربى أكثر من سياسة ، وهذا مفهوم فى جزء منه ، بمعنى أن إسرائيل يمكن أن تكون لها سياسة مع دول عربية ليست لها حدود مباشرة معها - وتكون هذه السياسة مُختلفة عن سياستها مع دول ملاصقة لها - وبالتالى فإن إسرائيل مع دول مثل السعودية وغيرها من دول الخليج تستطيع أن تتخذ سياسة حرص من بعيد عارفة حَق الفواصل الجغرافية ومُحَدَّداتها. كذلك فإن إسرائيل يمكن أن تكون لها سياسة خاصة لها اعتباراتها وخلفياتها مع بلد مثل الأردن رغم ملاصقته لها فى الجوار. لكن الذى يَستَوجِب الملاحظة ويَستَحقها هو وجود اختلاف فى السياسات المتَّبَعة إزاء مَصر وتلك المتَّبَعة إزاء سوريا - بينما كلاهما مُجاوِر لإسرائيل - بالالتصاق - وكلاهما مُعاد لها - بالمبادئ والتصرفات.

ومع أن عَداء إسرائيل للبلدين - مصر وسوريا - مُحَقَّقٌ ومُؤكَّد ، إلا أن التعبير الإسرائيلى عن العَداء فى الحالتين مُتَباين : ففى حالة سوريا يُعَبِّر العَداء عن نفسه بأسلوب ، بينما هو فى حالة مصر يَتَّخذ أسلوبا غيره. وفى بعض الأحيان يبدو الخَلاف فى السياسات الإسرائيلية إزاء مصر وسوريا مُوحياً بأن مَطالب إسرائيل فى الجنوب ، غير مطالَبها فى الشمال. ومن ثم فإن طريقة مواجهتها للطرف العربى - الجنوبى الأفريقى فى مصر - مختلفة عن مواجهتها للطرف العربى - الشمالى الآسيوى فى سوريا.

والحاصل أنه مع سوريا فإن العداء الإسرائيلى يَعتَمد أسلوباً يكاد تركيز ضغطه أن يكون على الأعصاب ، بحيث يستثيرها ويُفقدها التوازن. وإزاء مَحدوديَّة القُدرة على رَدّ الفعل فإن الضغط على الأعصاب - كذلك التقدير - يُحَوِّل كل التفاعلات إلى احتقان يَرتَدّ أثره إلى الداخل السورى قبل أن يَنفَجِرَ ناراً على الحدود.

وأما مع مصر فإن العداء الإسرائيلى يَظهَر منذ اللحظة الأولى تصميماً على القتل ، فالعَداء على الجبهة المصرية باستمرار حرب لسفك الدَم دون أى اعتبار أخلاقى أو إنسانى ، ولكسر الإرادة وليس لمجرد استثارة الأعصاب أو الاعتماد على احتقان داخلى !

ثم لا يلبث القارئ المحقق المدقق أن يكتشف أن وراء اختلاف

هنـــاك إدراك إســـرائيلى عميــــق يـرى أن مصــــر بحَجمهــــا ومواردهــــا هى مفتـــاح الحرب لأنه بغيرها لا يمـلك العـرب إمكانية القتـال ـ وأما سوريا فهى بموقعها وبدورها مفتـاح السـلام ، وبغير توقيعها على صكـه النهـائى تظـل بـؤرة الصـراع ومحيطهـــا فى حــــالة توتـــر وقـلــق

التعبيرات عن العداء فى الحالة المصرية عنها فى الحالة السورية أسباباً منطقية تكشف عن نفسها دون عناء كبير :

١ ـ عداء إسرائيل لمصر يهدف إلى إبعادها وإخراجها من الصراع العربى الإسرائيلى ، ويُعَزِّز ذلك اعتقادٌ بأن عودة مصر إلى ما وراء حدودها فى أفريقيا هدَفٌ ممكن.

وأما فى الحالة السورية فإن سوريا موجودة بالجغرافيا والتاريخ داخل البؤرة المباشرة للصراع العربى الإسرائيلى ـ حتى تكاد فلسطين أن تكون جزءاً من سوريا (وقد كانت فلسطين بالفعل هى سوريا الجنوبية (الشام الجنوبى) بفعل الحقائق الجغرافية فى الإقليم ، وتلك حقائق أكَّدَت نفسها لزَمَنٍ طويل فى تاريخ هذا الإقليم. وإذن فإن سوريا ـ على عكس مصر ـ لا يمكن إخراجها ـ وإذا كان ذلك فهى باقية ـ مهما حَدَث ـ جزءًا من جسمه الحى).

٢ ـ وعلى هذا الأساس فإن أقصى العنف ضرورى مع مصر لأن الهدف هو قطع اتصالها بالمشرق العربى ـ وإذن فهى الجراحة دَمَوِيَّة وحتى بدون تطهير للجَرح أو تضميد. وأما مع سوريا فإن الجراحة ليست ضرورية ، والجَرح ليس مَطلوباً ـ وإذن فالترويض أنفع من العُنف ، والتطبيب أنجَع من الجراحة ، إلا فى الحالات القصوى وفى أضيق الحدود.

٣ ـ يتصل بذلك أن إسرائيل لا تَدَّعى لنفسها مَطالب من أى نوع (أسطورى ، أو تاريخى) فى مصر ، وكل ما تريده من مصر هو أن تَحلّ عنها وتُرَتِّب حياتها ومُستقبلها بعيداً عَنها فى أفريقيا.

وأما سوريا فإن مَطالب إسرائيل على أجنابها ، كما أن بعض المطَالب فى أطرافها مباشرة خصوصاً مَطلب المياه.

٤ ـ ومعنى ذلك أن إسرائيل لا تُمانع أن تقطع كل الصلات مع مصر إذا هى انعَزلت ، لكنها لا تستطيع أن تقطع صلاتها بسوريا وهى قلب الشام ، بينما فلسطين فى الواقع الجغرافى والتاريخى جزء من هذا الشام ـ لأنها بالضبط جنوبه.

وهكذا فإن إسرائيل جاهزة لاستعمال أقصى درجات العنف لإبعاد مصر حتى وإن خَلَقَت ثارات فى الدَم تَستوجب القصاص ـ لكنها مع سوريا لا تريد لثار الدَم أن يَتعَمَّق ـ وقصارى ما تَسمَح به ـ من جانبها ـ مع سوريا عُقَد نَفسيَّة مُستَحكَمَة يمكن حلها ذات يوم إذا انسلَخَت الأجواء (كذلك يُقَدِّرون؟!).

٥ ـ وأخيراً فإنه مما يُزَكّى هذا التباين فى السياسات الإسرائيلية بين أسلوب التعامل مع مصر وأسلوب التعامل مع سوريا ـ وجود إدراك إسرائيلى عميق يرى أن مصر بحَجمها ومواردها هى مفتاح الحرب لأنه بغيرها لا يملك العرب إمكانية القتال ـ وأما سوريا فهى بموقعها وبدَورِها مفتاح السلام ، وبغير توقيعها على صَكِّه النهائى تظل بؤرة الصراع ومحيطها فى حالة تَوَتُّر وقلق.

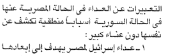
وفى سياق الحوادث المؤدية إلى ظروف سنة ١٩٦٧ وملابساتها فإن الجنرال «أهارون ياريف» مدير المخابرات العسكرية الإسرائيلية («أمان») كان هو الأدق فى تصوير الفارق بين تعبيرات السياسة الإسرائيلية فى عدائها لسوريا ، وبين تعبيراتها فى عدائها لمصر. وقد وَرَدَ وصف الجنرال «ياريف» فى مذكرة ضمن أوراقه التى أودعَت فى مركزٍ للدراسات الإستراتيجية أطلقَ عليه اسمه بعد وفاته. ويَظهَر أن الجنرال «ياريف» قَدَّمَ مذكرته إلى اجتماعٍ سياسى على مستوى عالٍ فى أوائل سنة ١٩٦٦ ، وفى هذه المذكرة حاول «ياريف» أن يطرح تقديراته للموقف على ضوء التطورات التى أعقبت مؤتمر القمة العربى الذى عُقد فى الرباط فى ١٢ سبتمبر ١٩٦٥. وفى مقَدمة ورقته ذكر «ياريف» أن اللواء «أمين الحافظ» كان أعلى الأصوات المنادية بحرب إسرائيل إلى النهاية فى مؤتمر «كازابلانكا» ـ فى حين أن الرئيس «ناصر» رَدَّ عليه بنبرة تَعَقُّل أوضح فيها أن سوريا ينبغى عليها أن تراعى فى تصرفاتها أقصى درجات الحَذَر لأن العرب فى اللحظة الراهنة عليهم أن يزيدوا من دَرَجة استعدادهم ومن إمكانية التنسيق بينهم ليكونوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم وعن مشروعاتهم داخل حدودهم».

ثم يمضى الجنرال «ياريف» ليقول فى الخُلاصة :

«مع أن دمشق هى نداء الحرب فى هذه اللحظة والقاهرة هى صوت الحَذَر ـ فإن تقديرات إسرائيل لتصرفاتها لا بد أن تقوم على أساس أن الخطر الرئيسى على إسرائيل من الجنوب وليس من الشمال» ! وفيما بعد (بسنين طويلة) شارك الجنرال «ياريف» فى مؤتمر خاص رَتَّبَته كلية الدفاع والأمن القومى الأمريكية الشهيرة «ليفنورث» (سنة ١٩٧٥) ، وكان موضوع المؤتمر هو «مستقبل الصراع فى الشرق الأوسط» ـ وأثناء إحدى مُداخلاته فى مَسار المناقشة طَرَحَ الجنرال «ياريف» تقديراته مرة أخرى فى تَشبيه مُعَبِّر وحَىّ كأنه صورة مُلَوَّنة ، فقد قال ما مُؤدَّاه إن «السلام سوف يُداوى كل جراح الحروب السابقة بيننا وبين العرب. وصحيح أننا لجانا إلى العنف مع المصريين أكثر من غيرهم ، لكنكم تعرفون أنهم الطرف الأقوى والأخطر ، ولقد كان أسلوبنا فى الحرب مع العرب إذا أخذنا بفنون الصيد فى البحر وتَنَوُّعها هو :

ـ فى الشمال ـ مع سوريا ولبنان ـ كنا نصطاد بالشَبَكة ـ تحاول الإمساك بالسَمَكة دون أن تجرحها.

ـ أما فى الجنوب ـ مع مصر ـ فلم يكن مأموناً أن نصطاد «الوَحش» بالشَبَكة ، ولذلك كان ضرورياً أن نستعمل الـ«هاربون» Harpoon (الرُمح أو الحَربة المُثَبَّت على بندقية قاذفة والذى يُستَعمَل للصيد فى الأعماق ، وهو يلحق جراحاً غائرة ـ وأحياناً قاتلة ـ بالسَمَك الكبير الذى يصيبه). والحقيقة أن التجاء الجنرال «ياريف» فى التشبيه إلى فنون الصيد : الصيد بالشَبَكة أو الصيد بالحَربَة (الـ«هاربون») ـ دقيق ، وهو قادر على شرح الكثير من تصرفات إسرائيل على الساحات السياسية وميادين العَمَل العسكرى. ■



١٠ خطـــــوط

■■ تكشف قراءة الوثائق الإسرائيلية حتى نهاية سنة ١٩٦٦ (وهى الفترة التى جرى الإفراج عن عَدَدٍ لا بأس به من وثائقها) أن القيادة الأمنية (سَياسية وعسكرية) فى إسرائيل تَتَوَقَّع مع بداية عام جديد ـ وقوع تَطَوُّرات لا يظهر شكلها واضحاً فى التقديرات كما تعكسها الأوراق ـ لكن بعض الإشارات هنا وهناك تُنبىء عن عَدَدٍ من الخطوط يمكن مُتابعتها :

١ ـ خط تجاه الأردن يعترف بأن هناك مشكلة مع الملك «حسين» بسبب غارة قامت بها القوات الإسرائيلية ضِدَّ قرية «السموع» ، وقد أفلتت السيطرة علىَ هذه العملية فجاءت أكثر «فظاظة مما كان مطلوباً منها». ولقد شعر الملك «حسين» بالإحراج ، وعندما قيل له بأن إسرائيل وَجَدَت نفسها مُضطرة إليها بسبب نشاط جماعات من الفدائيين تجاوز حَدَّه واقتضى ضربة ردع ـ فإن الملك رَدَّ بقوله إن «إسرائيل أول من يعرف أنه لا يستطيع ضبط بعض العناصر فى بلاده بنفس ما أن إسرائيل لا تستطيع أن تَمنَع عملياتهم وهى محدودة». وقد قال الملك إنه «لا يفهم أن تَرُدَّ إسرائيل بهذه الطريقَة على قنبلة خائبة تحت جسرٍ صغير أو طلقة هاون طائشة على طريق مُنعَزل».

وكان هناك توجيه سياسى وأمنى (يَظهَر جَلِيّاً فى الملفات الإسرائيلية) مُلحّاً على ضرورة إصلاح ما فَسَد مع الملك بسبب غلاظة الغارة على «السموع» ، وأن المحافظة على العلاقة معه «ضرورية» ، وعلى إسرائيل أن تفكر فى نوعٍ من التعويض أو شكلٍ من أشكال الاعتذار تستريح به أعصاب الملك.

٢ ـ أنه تجاه سوريا فإن التَوَتُّرات العَصَبِيَّة سوف تستمر ،لأن إسرائيل عليها استكمال مشروعاتها لمياه الأردن ، والآن فإن الجزء الأقرب منها إلى الحدود (فى منطقة «الحولة») على وشك الانتهاء. لكن بعض الضرورات ، وأولها ضرورة الاستيلاء على بعض المواقع المنزوعة السلاح (من هُدنَة سنة ١٩٤٩) لا بد أن يستمر حثيثاً ، ولكن فى تَؤُدَة وهدوء ، ودون داعٍ لفرقعات على الحدود تُؤدى إلى تَعاطف أو تَضامُن عربى أوسع مع النظام السورى.

(وكان من رأى الجنرال «إسحاق رابين» رئيس الأركان ـ ومعه الجنرال «دافيد إليعازر» قائد الجبهة الشمالية ـ أنه من الأفضل تحقيق ما تريده إسرائيل فى المنطقة المنزوعة السلاح بخُطى أسرع لأن «النظام فى دمشق لا يحظى بأى تأييد له قيمة فى العالم العربى ، ثم إن هذا النظام ـ وهو يعرف أنه معزول ـ لن يستطيع المغامرة باحتمال مواجهة ، وإنما سوف يضطر إلى التراجع والتخفيف من صُراخِه الدعائى المزعِج» !

ومن المفارقات أن يقول وزير الدفاع الإسرائيلى فى جلسة مناقشة أمنية عامة تعليقاً على رأى «رابين» أن «رئيس الأركان لديه غيظٌ شخصى من سوريا ، وهو لا يَستَلطِف السوريين» !).

٣ ـ وكانت التقديرات ـ تجاه ما يمكن تَوَقُّعه على الجبهة المصرية فى الشهور القادمة ـ مما يمكن تلخيصه بسرعة فى «ضرورة الحَذَر».

وكانت دواعى الحَذَر الضرورى كما يبدو من الأوراق الإسرائيلية مختلفة :

□ أهمها أن إسرائيل كانت بقرب المرحلة الهامة من مشروعها النووى. وطبقاً لوَصف وَرَدَ على لسان «روبرت كومار» أحد مستشارى الرئيس «جونسون» فإن «الحَمْل (حَمْل الخطيئة !) وَصَلَ إلى شهره السابع أو الثامن ـ وأعراض نمُوّه فى بطن دَيْمونَة لن تعود بعد قليل قابلة للإنكار أو الإخفاء».

□ وفى هذا الصَدَد فإن القيادة الأمنية لإسرائيل فى ذلك الوقت (أواخر سنة ١٩٦٦) كانت أمامها ولا زالت فى ملفاتها وأوراقها تقارير أمريكية بعضها مما كتبه «ماك جورج باندى» مستشار الرئيس «جونسون» للأمن القومى، وفى أحد هذه التقارير قال «جورج باندى» بالحرف :

«إن ناصر أوضح لسفرائنا أكثر من مرة أنه لا يستطيع أن يقف ساكتاً إذا تأكَّد من أن إسرائيل على وشك أن تحصل على سلاحٍ نووى ، وأنه فى هذه الحالة قد يلجأ إلى شَنْ حَربٍ وقائية.

وطبقاً لتقديرات «لوك» (يقصد السفير الأمريكى فى القاهرة وقتها لوشيوس باتل) ـ فإن ناصر قد لا يحارب بالضرورة بسبب مشروعات نهر الأردن ، لكنه إذا تأكَّد من حصول إسرائيل على سلاح نووى فإنه سوف يكون فى وضعٍ يُحَتِّم عليه التدخل العسكرى حتى لو بَدا له التدخل عملية خَطِرة وإلى دَرَجَة انتحارية !»

....

....

والوثائق الإسرائيلية ما زالت تبوحِ ، وفيها الكثير مما يستحق التفكير والتأمُّل رغم انتهاء سياحة الصيف معها ، وظهور طلائع من السُحُب على الأفُق تُؤذِن بأن موسم الخريف جاء إلينا ، وأن موسم الصيف سافر جنوباً ! ■



ظاهرة تلبيس الطواقي بين رجال الأعمال

أزمة البنوك

مخاطر الائتمان أم مخاطر الفساد؟

محمود عبد الفضيل

١ الجهاز المصرفي في أى بلد هو جهاز حسّاس للغاية، ويمثّل أحد مكوّنات الجهاز العصبي للاقتصاد القومي. فهو يشكل حلقة الوصل بين المدّخرين، من ناحية، والمستثمرين من ناحية أخرى. وهو المسئول عن ضخ السيولة في عروق الاقتصاد القومي، بما يساعد على تحريك دولاب الحالة الاقتصادية من خلال تمويل حركة رأس المال الثابت ورأس المال العامل. كما تتعدد الأدوات الائتمانية التي يتحكّم فيها القطاع المصرفي مثل خطابات الضمان، وفتح الاعتمادات المستندية، التي تؤثر بدورها على دورة النشاط الاقتصادي.

وبإيجاز، فإن وحدات القطاع المصرفي، وعلي رأسها البنك المركزي، تمثل إحدى ١ أهم القمم المسيطرة "Commanding Heights" التي تشرف من علِ علي ساحة الاقتصاد القومي وتراقب حركة «الدورة الدموية» للاقتصاد القومي في صعودها وهبوطها. ونتيجة هذا الوضع المتميز للقطاع المصرفي في بنية الاقتصاد الوطني، يكون القطاع المصرفي أكثر حساسية لنبض الاقتصاد واتجاهات الركود والانكماش والنمو والتوسع.

وقد لا نغالي كثيرًا إذا قلنا أن الذى يجلس علي رأس أجهزة الائتمان في البنوك الكبرى، يكاد يرى أحشاء الاقتصاد الوطني، وكأنها ماثلة أمامه في إناء زجاجي.

وعادة ما تدور السياسات التوظيفية لأموال البنوك حول ثلاثة محاور رئيسية:

أ ـ السياسات التوظيفية المتعلقة «بمحفظة القروض»، أى تلك المتعلقة بسياسات الإقراض، وما هي فروع النشاط الاقتصادى التى تحظى بتفضيلات البنوك في مجال الإقراض ومنح التسهيلات الائتمانية بأنواعها.

ب ـ السياسات الاستثمارية المتعلقة بتكوين «محفظة الاستثمارات المالية»، التى تقوم علي الموازنة بين الأوراق المالية الحكومية والأوراق المالية التى تصدرها الشركات الخاصة، من ناحية، وبين الأوراق المالية المحلية والأجنبية، من ناحية أخرى.

جـ ـ المساهمات المباشرة في الشركات والمشروعات الجديدة. ويرتبط هذا النشاط بعمليات «ترويج الاستثمارات وتحفيزها» لتحقيق مزيد من التنمية في الاقتصاد الوطني.

ومن الواضح، أن سلامة السياسات المتبعة من قبل البنوك في كل محور من هذه المحاور الثلاثة له انعكاسات وتأثيرات مهمة علي سلامة أداء الاقتصاد الوطني في مجمله. ولذا فإن جودة أو سوء أداء «القطاع المصرفي» سوف ينعكس علي مجمل أداء الاقتصاد الوطني، سواء في مجال تجميع المدخرات (الودائع) أو سياسات التوظيف والاستثمار.

وهكذا فإن سياسات «توظيف الودائع» وأموال البنوك يمكن أن تلعب دورًا مهمًا في تمويل عمليات الاستثمار الحقيقى التي تؤدى إلي التطوير والتحديث للاقتصاد المصرى. كما يمكن أيضًا أن تنزلق سياسات الإقراض والاستثمار للبنوك إلي توظيفات ليس لها عائد إنمائى أو «منافع عمومية»، علي حد تعبير الراحل العظيم «طلعت حرب».

ولقد تعددت مؤخرًا ردود الفعل حول تعثّر عملاء البنوك وتوقّف العديد منهم عن سداد فوائد القروض خلال السنوات الثلاث الأخيرة. وحاول البعض رد كل ما حدث من مخالفات وتجاوزات وضياع للأموال إلى المخاطر التقليدية للائتمان المصرفي، فكل ما حدث ـ وفقًا لهذا الرأى ـ لا يخرج عن كونه مسألة عادية وطبيعية في عمليات التسليف ومنح الائتمان المصرفي، وأن كل بنوك العالم إنما هى عرضة لمثل هذه المخاطر نتيجة إعسار بعض العملاء الكبار، ورغم ذلك، فكل الوقائع تلقى ظلالاً من الشك حول أساليب منح ومتابعة «حدود الائتمان المصرح به» لدى معظم بنوك القطاعين العام والخاص خلال السنوات الأخيرة.

وليس هناك من شك أن هناك ضرورة لإعادة نظر شاملة في أوضاع الجهاز المصرفي وأسلوب منح الائتمان لرجال الأعمال في ظل الظروف الراهنة للاقتصاد المصرى، فالكل يعلم أن هناك خللاً بينًا في طبيعة العلاقة بين الجهاز المصرفي ومجتمع رجال الأعمال، وذلك يستدعى بدوره إعادة النظر في مجمل العلاقة بين أنشطة الاستثمار وأساليب الإقراض المصرفي وسلوكيات رجال الأعمال عمومًا.

وفي تقديرنا أن أسباب الأزمة الراهنة لتعثر رجال الأعمال في سداد القروض المصرفية وبعض حالات الهروب أو تصفية النشاط لبعض رجال الأعمال الذين تضخمت مديونياتهم للقطاع المصرفي خلال الآونة الأخيرة، تحتاج إلي وقفة تأملية ونظرة تحليلية لعناصر ومسببات تلك الأزمة، وكيف يمكن معالجتها لتصحيح عناصر الخلل التي نشهدها.

ويمكن لنا إرجاع جذور تلك الأزمة إلى أسباب عديدة، يجئ علي رأسها:

أولاً: التوسع الزائد في أنشطة رجال الأعمال المقترضين من القطاع المصرفي، حيث أغرت ظروف الرواج والكسب السريع التى سادت في بعض مجالات النشاط (مثل بعض الأنشطة التجارية والعقارية) إلي التوسع الشديد في العديد من الأنشطة بما يفوق طاقة رجال الأعمال علي تمويل وإدارة تلك الأنشطة دون سابق خبرة. إذا اتسمت سلوكيات بعض رجال الأعمال بالتنقل من نشاط إلي آخر،

وبشكل يأخذ أحيانًا طابع المغامرة، جريًا وراء الربح السريع.

وقد أدى هذا بدوره إلي التوسع في الاقتراض من القطاع المصرفى، دون أن يلعب القطاع المصرفى دوره في ترشيد سلوكيات رجال الأعمال والتدقيق في فرص نجاح الأنشطة التي تم التوسع فيها. إذ أن نجاح أحد رجال الأعمال في نشاط بعينه له معرفة وثيقة بدخائله، ليس معناه أنه يستطيع النجاح عندما يقحم نفسه فى أنشطة أخرى رائجة، ليس لديه الخبرة الكافية لكى يتعامل معها بنجاح.

ويؤدى هذا بدوره إلي ما يسميه رجال الاقتصاد «بالمغالاة في المتاجرة» (Over - Trading)، حيث يسيء رجال الأعمال تقدير أوضاع السوق وحجم الطلب المتوقع علي السلع والخدمات التي يتاجرون فيها، وبالتالى عندما تخفق التوقعات ويصعب تصريف الإنتاج (أو السلع المستوردة)، يتراكم المخزون الراكد وتضعف قدرة هؤلاء علي سداد مديونياتهم للقطاع المصرفى.

ثانيًا: عدم كفاية الضمانات للقروض المصرفية. إذ تشير العديد من التقارير والتحقيقات إلي أن العديد من عمليات الإقراض المصرفى تمت دون وجود ضمانات كافية، ولا سيما الضمانات العينية في شكل أصول ملموسة وبضائع مرهونة رهنًا حيازيًا لدى البنك، إذ إنه في العديد من الحالات، تم الاكتفاء بما يسمى «بسمعة العميل الجيدة في السوق»، والاكتفاء بتحرير شيكات وكمبيالات لتكون بمثابة ضمان للقرض. ومن المعروف أنه إذا تعثرت أحوال العميل تصبح هذه «الشيكات والكمبيالات» غير قابلة للدفع، وينكشف مركز العميل تمامًا.

وتشير بيانات الجدول (١) إلي أن نسبة القروض «بدون ضمانات عينية» بلغت نحو ٦٤٪ من جملة القروض والسلفيات لدى البنوك التجارية في نهاية يونيو ١٩٩٨، ولا شك أن تلك النسبة قد ارتفعت خلال السنتين الأخيرتين.

والأدهى من ذلك، أنه حتى في حالة استيفاء الضمانات العينية للقروض، يتم التلاعب في عملية تقييم الأصول والبضائع المقدمة علي سبيل الضمان، ففى أحوال كثيرة تم تقييم الأصول والعقارات (الضامنة للقرض) بأعلى من قيمتها بالتواطؤ مع مديرى الائتمان في فروع البنوك مقابل عمولة نقدية أو عينية.

وكل ذلك يؤدى إلي انكشاف مراكز العملاء، وعدم كفاية الضمانات لتغطية مديونياتهم، مما يؤدي إلي ارتفاع حجم الديون الرديئة والمشكوك في تحصيلها من جملة محافظ القروض لدى البنوك.

٢ ولعل المشكلة الأكبر تكمن في تركز جانب مهم من القروض في القطاع المصرفى بين مجموعة محدودة من كبار العملاء، مما يزيد من مخاطر الائتمان نتيجة عدم توزيع المخاطر فيما بين قاعدة أوسع من العملاء، وحيث تكون السقوف الائتمانية أدنى.

وتشير حالات كبار العملاء المتعثرين الذين انكشفت مراكزهم المالية مؤخرًا مثل: (حاتم الهوارى، الجارحى، مارك فهمى (دوارف)، لكح جروب)، وغيرهم، إلى ارتفاع مديونية «العميل الوحيد» إلي قرابة المليار جنيه أو ما يفوق. الأمر الذى يعرض القطاع المصرفى لمخاطر كبرى لا تتفق مع شروط الأمان وفقًا للأعراف المصرفية السليمة.

ويشير الجدول (٢) إلي توزيع أرصدة القروض والتسهيلات الائتمانية الممنوحة للقطاع الخاص في نهاية يونيو ١٩٩٨، حسب حجم القرض. وتفصح تلك البيانات عن درجة عالية من التمركز، إذ يستحوذ ٢٠ عميلاً من كبار العملاء علي نحو ١٠٪ من جملة التسهيلات والقروض الممنوحة للقطاع الخاص. وأغلب الظن أن تلك النسبة قد ارتفعت خلال العامين الأخيرين.

ومن ناحية أخرى، فإن اختلال الهياكل التمويلية بين نسب رأس المال المملوك وحجم القروض والالتزامات للغير (The Gearing Ratio)، تشكل أحد عناصر المشكلة.

إذ يلاحظ أنه في العديد من الأنشطة يوجد اختلال واضح في الهياكل التمويلية، حيث يتم التوسع والإفراط في الاقتراض من القطاع المصرفى أو من الغير في شكل سندات أو غيرها من مصادر التمويل، فإذا قلنا أن النسبة «الآمنة» بين رأس المال المملوك وحجم الاقتراض من خارج المشروع يجب أن تتراوح ما بين ١:١ أو ٢:١، نجد أن الوضع الراهن تصل فيه النسبة في بعض الأحيان إلي ٤:١ أو ٥:١ حسب فروع النشاط المختلفة، ولا شك أن هذا الخلل في الهياكل التمويلية يزيد من مخاطر الائتمان لدى القطاع المصرفى ولا سيما في حالة التصفية، أو إعلان إفلاس المشروع.

ويؤثر ذلك الخلل في الهيكل التمويلى بدوره على الصحة المالية للمشروع ذاته، إذ إن التمويل المفرط بالاقتراض لعمليات التوسع في الأنشطة يؤدى بدوره إلى تضخم حجم «الفوائد» التي تدفع علي القروض المصرفية وغيرها من مصادر الإقراض، وكلها يُقتطع من وعاء الربح، وبالتالى تؤدى إلي ضعف الربحية الصافية للمشروع، ومن ثم تضعف جدارته الائتمانية.

كذلك فإن من خصائص السوق المصرية تلك الطبيعة العائلية لمعظم مشروعات كبار العملاء المقترضين، وبإلقاء نظرة سريعة علي أسماء شركات كبار المقترضين، نجد أنها تشير بوضوح إلي الطبيعة العائلية «المغلقة» لمعظم أنشطة كبار العملاء المقترضين، وتكفي الإشارة فقط إلى العملاء الذين انكشفت مراكزهم المالية مؤخرًا، وعلي رأسهم: لكح جروب، مجموعة البليدى، الهوارى، الجارحى، لكى ندرك مخاطر «الطابع العائلى» الضيق لتلك الشركات والمجموعات.



وتؤدى تلك «الطبيعة العائلية المغلقة» إلى ارتفاع حجم المخاطر لدى القطاع المصرفى في حالة الوفاة (سواء الطبيعية أو المفاجئة)، نظرًا لما قد يعقبها من نشوب نزاعات عائلية بين الورثة مما يلقى بظلاله علي مدى استمرارية النشاط ونجاحه، لا سيما أن معظم تلك الأنشطة تعتمد علي شخص واحد أو شخصين فقط يديران النشاط ويتمتعان بالعلاقات والصلات المهارات اللازمة لإدارة النشاط وتوسعه.

ويزيد الطين بلة أن هذا النوع من التركيب القانونى للشركات الكبرى العاملة في السوق (ذات المديونيات الكبرى)، يساعد علي انتشار الشائعات من حين لآخر حول وفاة أو هروب أحد كبار رجال الأعمال، مما يؤدى إلي تاثيرات سلبية في السوق، نظرًا لكبر حجم هذه الأنشطة وأوضاعها الاحتكارية في بعض مجالات النشاط الاقتصادى.

٣ وتعتبر حالة كل من «محمد الجارحى» رئيس شركة ميجا للاستثمارات و«رامى لكح» رئيس مجموعة لكح للاستثمارات نموذجًا للعلاقات المختلة بين القطاع المصرفى ورجال الأعمال، وللخروج عن قواعد السلامة والأعراف المصرفية، حيث يصعب تفسير كل ما حدث ورده إلي مخاطر الائتمان وحده، فقد بلغ إجمالى قروض «محمد الجارحى» قبل مغادرته البلاد نحو نصف مليار جنيه مصرى تم اقتراضها من بنوك: بنك مصر - مصر إكستيريور - المصرى المتحد (الدقهلية سابقًا)

وقد بدأ «الجارحى» حياته في عالم الأعمال «كوسيط تجارى» لحديد التسليح عام ١٩٨٢، وسرعان ما توسع في العديد من الأنشطة في كل الاتجاهات، إذ نجح في الحصول على توكيلات لتجارة وتوزيع أجهزة الكمبيوتر ومستلزماته والغلال، بالإضافة إلي توكيل سيجار يباع لحسابه بمحلات الفنادق الفاخرة، كما تاجر في كل شيء بدءًا من الاتجار في ديون مصر إلي الاتجار في الحبوب والخضروات والفواكه، وأخيرًا توّج نشاطه، مثل معظم رجال الأعمال الجدد، بإنشاء منتجع سكنى للصفوة علي طريق مصر الإسكندرية الصحراوى.

كما أصبح الجارحى من أكبر المساهمين في بنك مصر إكستيريور بنسبة ٣٢٪، حيث تم تمويل جانب من عملية شراء أسهم هذا البنك من خلال الاقتراض من بنك مصر، وتلك عملية تسمى بلغة أهل السوق «تلبيس الطواقى». ورغم كل ذلك

بيان	بنوك الاستثمار والأعمال: القيمة بالمليون جنيه	٪	البنوك التجارية: القيمة بالمليون جنيه	٪
جملة القروض والسلفيات	٢٣٦٥٢	١٠٠	١٢٩٧٨٢	١٠٠
أ - تستحق الدفع خلال سنة:	١٨٠٦٢	٧٦,٤	٩٦٦٠٨	٧٤,٤
١. بضمان بضائع	٦٢٠	٣,٤	٨٨٩٤	٩,٢
٢. بضمان أوراق مالية	٣٠٠	١,٧	١٩٦٦	٢,٠
٣. بضمان ذهب وودائع	١٧٥٠	٩,٧	٥٤٦٧	٥,٧
٤. بضمان رهن عقارى	٢٤٤	١,٤	١٩٩٥	٢,١
٥. بضمان كمبيالات	٥٦٢	٣,١	٣١٢٥	٣,٢
٦. مقابل التنازل عن ديون أو عقود	٢٤٢	١,٣	٢١٣٠	٢,٢
٧. بضمانات عينية أخرى	٢٥٦٧	١٤,٢	١١٣١٦	١١,٧
٨. بدون ضمانات عينية	١١٧٧٧	٦٥,٢	٦١٧١٦	٦٣,٩
ب - تستحق الدفع بعد سنة:	٥٥٩٠	٢٣,٦	٣٣١٧٣	٢٥,٦
١. بضمان رهن عقارى	٢٠٧	٣,٧	٢٥٧٤	٧,٨
٢. بضمانات عينية أخرى	٤٥٢٠	٨٠,٩	٣٠٥٩٩	٩٢,٢
٣. بدون ضمانات عينية	٨٦٣	١٥,٤	٠٠	٠,٠

جدول (١)

توزيع القروض والسلفيات للبنوك التجارية وبنوك الاستثمار والأعمال.
حسب نوع الضمان (فى نهاية يونية ١٩٩٨)



لا نغالى كثيرا إذا قلنا أن الذى يجلس على رأس أجهزة الائتمان فى البنوك الكبرى، يكاد يرى أحشاء الاقتصاد الوطنى، وكأنها ماثلة أمامه فى إناء زجاجى

توقف عن سداد قروضه للبنوك، كما توقفت شركة «ميجا» التى يرأسها عن سداد أول كوبون مستحق لحملة سنداتها المصدرة في مايو ١٩٩٩ بقيمة ٢٠٠ مليون جنيه.

وإذا ما انتقلنا إلى حالة «رامى لكح»، فنجد أنه قد توسع في الاقتراض من البنوك خلال السنوات الأخيرة، وارتفع حجم مديونياته بشكل كبير لدى البنوك وعلي رأسها بنك القاهرة، ونتيجة اضطراب أوضاعه المالية أصبح يصعب عليه إصدار ميزانية تعبر عن المركز المالى الصحيح «لمجموعة لكح» في ٣٠ يونية عام ٢٠٠٠، ويحاول «رامى لكح» كل مرة السفر إلي الخارج ومساومة البنوك الدائنة لإسقاط الفوائد وجانب كبير من مديونياته، بل يحاول ابتزاز الحكومة المصرية ذاتها عن طريق سلسلة من التهديدات الفارغة!

فلقد أرسل السيد «رامى لكح» خطابًا إلي السيد رئيس الوزراء يعلن فيه أنه في حالة عدم الوصول إلي حل سريع وفورى، فإن شركات مجموعته المتخصصة في المجال الطبى التي تقوم بصيانة وتوريد قطع الغيار لمعظم الأجهزة الطبية الدقيقة للمستشفيات والمراكز الطبية العامة والخاصة والاستثمارية في مصر وبعض دول الشرق الأوسط سوف تتوقف عن العمل، الأمر الذى سوف يترتب عليه انهيار وشلل كل الخدمات الطبية في مصر!





الفئة	عدد العملاء	رصيد التسهيلات (بالمليون جنيه)	النصيب النسبي من إجمالي التسهيلات	متوسط نصيب العميل (بالمليون جنيه)
أقل من ١٠٠ مليون جنيه	٩٨٦٦٥	١٠٠٤٢٢	٦٤٪	١
١٠٠- أقل من ٥٠٠ مليون جنيه	٢٢٤	٤٠٤٥٠	٢٦٪	١٨١
٥٠٠- أقل من مليار جنيه	١٧	١١٥٣٥	٧٪	٦٧٩
مليار جنيه فأكثر	٣	٥٣٤٩	٣٪	١٧٨٣
الإجمالي	٩٨٩٠٩	١٥٧٧٥٦	١٠٠٪	

جدول (٢)

التوزيع التكرارى للتسهيلات الائتمانية الممنوحة للقطاع الخاص (فى نهاية يونيو ١٩٩٨).

المصدر: البنك المركزى المصرى، الإدارة العامة لتجميع مخاطر الائتمان.

وهذا يثير بدوره التساؤل حول من الذى ساعد السيد «رامى لكح» (وشركته العائلية المغلقة) علي الوصول إلي هذا المركز الاحتكارى في مجال صيانة وتوريد قطع الغيار لمعظم الأجهزة الطبية الدقيقة للمستشفيات العاملة في مصر؟

ورغم المبالغات التى يحويها «خطاب السيد لكح»، إلا أنها تشير إلي نوع من الفساد الخفى الذى ساعد شخصًا مثل «رامى لكح» علي أن يحتكر جانبًا مهمًا من هذا النشاط فى غضون سنوات قليلة تعد علي أصابع اليد الواحدة؟

وفي ضوء كل ما سبق فمن الواضح أن هناك ضرورة لإعادة الانضباط للقطاع المصرفى بالتوازى مع إعادة الانضباط لسلوكيات رجال الأعمال، إذ أن الملاحظ أن هناك تراخيًا واضحًا في عملية متابعة حركة المديونية، في حالة العديد من كبار العملاء، مما أدى لتضخمها الشديد رغم إعسار العميل.

ومن ناحية أخرى، فإن وجود بيانات مجمعة لدى البنك المركزى عن حجم التسهيلات الائتمانية الممنوحة للعميل الواحد من كافة البنوك العاملة في مصر، يضع البنوك المختلفة التي تتعامل مع العميل أمام مسئوليتها من حيث تقدير حجم المخاطر التي تحيط بعملية إقراض العميل، وذلك من خلال تحديد «درجة انكشاف» المركز المالى للعميل، أو «درجة مغالاته» في نشاطه التجارى.

وتعليمات البنك المركزى واضحة وصريحة بهذا الصدد، إذ جاء فى المنشور الدورى للبنك المركزى المصرى (سبتمبر ١٩٨٧): ضرورة قيام البنوك بالاطلاع علي البيانات المتاحة التي تعدها الإدارة العامة لتجميع مخاطر الائتمان المصرفى بالبنك المركزى المصرى عن العملاء، وذلك قبل التصريح لأى عميل بتسهيلات ائتمانية سواء كانت جديدة أو تجديد القائم منها أو رفع الحد

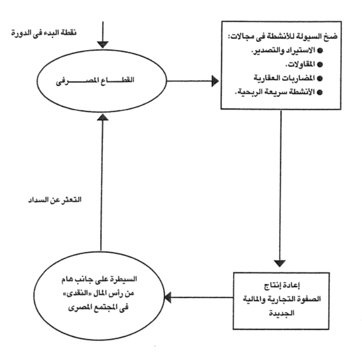
مخاطر الائتمان .. أم مخاطر الفساد؟

المصرح به، ويعتبر البيان المذكور مستندًا إلزاميًا يتعين على السلطة المانحة الاطلاع عليه قبل إقرار منح الائتمان.

وفي ضوء ما سبق، فإنه من الصعب رد كل شيء وكل ما حدث إلى مخاطر الائتمان وحده، فتلك بلا شك محاولة لطمس الحقيقة، وفي تقديرنا، أن مخاطر الفساد هى التى قادت لهذا الوضع الفريد، وليس مخاطر الائتمان.

ولعل ما انكشف مؤخرًا من مشاكل وتجاوزات، قد يكون دافعًا وحافزًا للتخلص من مخاطر ومكامن الفساد في النشاط المصرفي، درءًا لآثاره السلبية على مجمل النشاط الاقتصادى وعلى سلامة أداء الاقتصاد المصرى عمومًا، إذ إن القول بوجود مخصصات كافية للديون المعدومة والديون المشكوك بها في البنوك يعتبر حجة واهية لا تعفى من المساءلة، إذ إن حجم الديون المعدومة المتصاعدة هو في واقع الأمر اقتطاع من المدخرات القومية كان من الواجب عدم تبديدها، واخذ كل التدابير اللازمة للحفاظ على سلامتها.

٤ وبمناسبة أزمة تعثر كبار عملاء البنوك، رجعت إلى كتاب «بنوك وباشوات» من تأليف المؤرخ الأمريكي دافيد لاندز ـ الذى توجد له ترجمة عربية ودقيقة من إعداد الدكتور عبد العظيم أنيس ـ ووجدته يتحدث عن نفس الظواهر والمضاربات المصرفية التي شهدها الاقتصاد المصرى خلال السنوات الأخيرة، ولاسيما في مجال الاقتراض «دون ضمانات»، وحيث تم التوسع في استخدام كمبيالات المجاملة لضخ السيولة للمغامرين من رجال الأعمال الأجانب والمصريين في منتصف القرن الماضى.



جدول (٣)
دورة اعادة الإنتاج الموسع لأنشطة «رجال الأعمال» من خلال الجهاز المصرفى

ويتحدث «لاندز» في مؤلفه عن الاستعمال واسع النطاق لكمبيالات المجاملة، إذ يشير إلى أن: «الكمبيالات» قد سميت بهذا الاسم لأنها عبارة عن مجاملة من أحد رجال الأعمال لآخر، أى أن أحد رجال الأعمال يقبل كمبيالة مسحوبة عليه من تاجر آخر عن عملية تجارية لم تحدث على الإطلاق، و«كمبيالة المجاملة» هذه لا تختلف عن الكمبيالة العادية فى مظهرها، أما فى حقيقتها فهى لا تخرج عن كونها سندًا إذنيًا موقعًا عليه من شخصين دون أن يكون غطاؤها صفقات تجارية حقيقية.

وكل تلك الأدوات والأساليب والحيل يتقنها المحترفون المحتالون من رجال الأعمال للاستئثار بأكبر قدر من التمويل المصرفى، للإثراء السريع على حساب سلامة أوضاع الاقتصاد القومى، ومن خلال إهدار الأعراف والتقاليد المصرفية، ولهذا يكون من قبيل العبث ـ بل من قبيل الاستخفاف بالعقول ـ رد ما حدث في السنوات الأخيرة في القطاع المصرفى المصرى إلى مجرد تزايد «مخاطر الائتمان»، أو مجرد ضعف رقابة «البنك المركزى»، فالمسألة أكبر من ذلك بكثير، والآليات المستخدمة تشير بوضوح إلى سياسة انحراف «الائتمان المصرفى» في حالات كثيرة عن مساره السليم، من خلال «تكتيكات» وعمليات «تمويه» يتقنها بعض رجال الأعمال، وبالتواطؤ مع بعض العاملين في الجهاز المصرفى.

ولو قدر «لدافيد لاندز» أن يكتب كتابًا جديدًا عما حدث في القطاع المصرفى منذ منتصف السبعينيات في مصر، فلعله لا يجد عنوانًا لكتابه الجديد أفضل من «بنوك ومافيات»!

نظرة أخرى إلى العولمة

إعادة تفسير

السقوط السوفيتى والانتصار الأمريكى!

جلال أمين

كل جوانب ظاهرة العولمة قد أشبعت بحثًا وتمحيصًا، إلا أهم هذه الجوانب وأخطرها، وهو مغزاها الحضارى.

إن من المؤكد أن العولمة ظاهرة اقتصادية وسياسية وتكنولوجية وثقافية، وأنها سبب ونتيجة لثورة الاتصالات والمعلومات، ولكن ما مغزى هذا كله من حيث ارتفاع أو انخفاض درجة «التحضر»؟ ومن حيث التقدم أو التأخر فى مضمار «القيم الإنسانية»؟ ومن حيث الزيادة أو النقصان فى «آدمية الإنسان»؟

لا أظن أن هذه الجوانب حظيت بما تستحق من الاهتمام، مع أن من المؤكد أن ظاهرة العولمة، أو تسارعها فى العقود الأخيرة، تمثل تطورا مهما فى مسار الحضارة الغربية، ليس فقط فى مدى انتشارها الجغرافى، ولكن أيضًا فى طبيعة ما يصدر عنها من منتجات مادية وغير مادية. فما هو التشخيص الصحيح لهذا التطور الحديث فى مسار الحضارة الغربية؟ أى كيف يبدو هذا التطور الحديث (العولمة) فى سياق المسار الطويل للحضارة الغربية منذ بزوغها قبل نحو خمسة قرون؟ هذا هو ما أحاول إثارة الاهتمام به فى هذا المقال، وتقديم سبق الأخطار التى قد تصلح بداية لمناقشة قضية مهمة.

الحضارة الأوروبية حضارة بورجوازية:

نقطة البداية هى أنه مهما كان استعدادنا للاعتراف بالجوانب الإنسانية العامة فى الحضارة الغربية، فمن المؤكد أيضا أن لهذه الحضارة خصوصية تاريخية وسمات معينة اكتسبتها من ظروف الزمان والمكان اللذين نشأت فيهما، وتنفرد بها عن سائر الحضارات التى عرفها الإنسان.

من أهم هذه السمات التى أقصدها بوصف «الخصوصية التاريخية» للحضارة الغربية، أنها كانت فى نشأتها الأولى وظلت لعدة قرون «حضارة بورجوازية». إن من أسهل الأمور بيان الجذور الاقتصادية والطبقية لنشأة الحضارة الغربية منذ بدايات عصر النهضة قبل نحو خمسة قرون، سواء فيما يتعلق بتطور الفكر السياسى والاقتصادى والفلسفى، أو فيما يتعلق بالتطور الذى لحق مختلف الفنون والآداب وأنماط السلوك الاجتماعى، أو فيما يتعلق بالفكر الدينى وظهور الحركة البروتستانتية والإصلاح الدينى، أو حتى فيما يتعلق ببواعث النهضة العلمية والتطبيقات العملية التى سُخّر التقدم العلمى لإنجازها، أى ما يسمى بالتقدم التكنولوجى. كان وراء كل هذه التطورات بزوغ ونمو طبقة البورجوازية، وما ارتبط به من نمو طموحات جديدة، وخصائص نفسية جديدة، وأنماط جديدة للسلوك، ومن ثم أفكار وأيديولوجيات جديدة أيضًا.

إن أرنولد توينبى، صاحب الكتابات الشهيرة فى فلسفة التاريخ، يقولها بصراحة تامة:

«إن المجتمعات الغربية أصبحت مجتمعات (حديثة) بمجرد أن أفرزت طبقة بورجوازية قادرة على أن تصبح هى الطبقة السائدة فى المجتمع. إننا نضيف ذلك الفصل الجديد من تاريخ الغرب والذى بدأ مع نهاية القرن الخامس عشر فإنه بداية العصر (الحديث) بسبب أنه حدث فى ذلك الوقت، فى المجتمعات الغربية الأكثر تقدمًا، أن بدأت الطبقة الوسطى فى الإمساك بمقاليد الأمور. يترتب على ذلك، أنه خلال هذا العصر الحديث من تاريخ الغرب، تتوقف قدرة الشعوب غير الغربية على (التغرب)، أو التشبه بالغرب، على مدى قدرتها على اقتباس نمط حياة الطبقة المتوسطة فى الغرب»*.

من الممكن إذن أن يزعم المرء أن جزءا كبيرًا من جاذبية الحضارة الغربية للشعوب الأخرى يرجع بالضبط إلى هذه الخصيصة: إنها حضارة بورجوازية. صحيح أن الشعارات العامة التى اقتربت بها إنجازات هذه الحضارة كانت لها أيضًا جاذبية مستمدة من إنجازات الإنسانية العامة، كشعارات الحرية والمساواة والديمقراطية والتنوير والتقدم وتحرير العقل من الخرافات والثورة على القديم والسيطرة على الطبيعة...الخ، وهى شعارات لا تفصح عن أى مضمون طبقى، ولكنها فى التطبيق الواقعى كانت تستخدم فى الأساس لخدمة هذه الطبقة بالذات. وإذا كانت الطبقات الدنيا قد حققت بعض المكاسب من تطبيق هذه الشعارات فقد كانت هذه المكاسب - لعدة قرون على الأقل - محدودة للغاية، وأشبه بالفتات المتساقط من الموائد، سواء فى الدول الغربية نفسها أو فى الدول التى خضعت للاستعمار الغربى أو حاولت تقليد الغرب.

ولكن الأمر لم يستمر على هذا المنوال طوال الخمسة القرون الماضية. وللكاتب الفرنسى الشهير ألكس دى توكفيل، كلمة بالغة الدلالة وعظيمة المغزى تشير إلى هذا التغير الذى أقصده. يقول توكفيل فى أكثر كتبه شهرة «الديمقراطية فى أمريكا» (١٨٣٥):

«إذا نحن تأملنا ما حدث فى فرنسا منذ القرن الحادى عشر، لا يسعنا إلا أن نلاحظ حدوث ثورة مزدوجة فى حالة المجتمع كل خمسين عاما. فنجد طبقة النبلاء تنحدر على السلم الاجتماعى بينما يصعد العامة بضع درجات على هذا السلم، فإذا بهما، فى نهاية الخمسين عاما، وقد أصبحت كل منهما أقرب إلى الأخرى مما كانت، وكادتا أن تلتقيا. بل إن هذه الظاهرة ليست قاصرة على فرنسا. إن التطورات المختلفة التى لحقت بمختلف المجتمعات كانت فى كل مكان لصالح مسيرة الديمقراطية. وقد ساهم الجميع فى دعم هذا التطور وتقويته، سواء هؤلاء الذين سعوا إلى ذلك عن وعى، أو أولئك الذين لم يكن مثل هذا الهدف فى حسابهم أصلا، سواء هؤلاء الذين كافحوا لخدمة الديمقراطية، أو أولئك الذين جاهروا بمعاداتها. كلهم دفعوا المجتمع للسير فى هذا الاتجاه...».

قال توكفيل هذا منذ أكثر من قرن ونصف، ولكن ما يشير إليه استمر دون توقف، كما يجب أن نتوقع، إلى يومنا هذا . فبعد أن أنجزت الثورة البورجوازية مهمتها فى معظم دول الغرب، كان لابد أن تمتد «العولمة الاجتماعية» إلى شرائح أدنى فى السلم الاجتماعى. يمكن أن نعتبر هذا التطور نتيجة حتمية لمنطق التطور الاجتماعى، أو نتيجة حتمية لمنطق التطور التكنولوجى، والأرجح أنه نتيجة حتمية لتفاعل الاثنين: المطالب الاجتماعية الحديثة تحتم ظهور تطورات تكنولوجية معينة، والتطور التكنولوجى يحتم نشوء مطالب اجتماعية معينة .. وهكذا. المهم أن النتيجة كان لابد أن تكون عاجلا أو آجلا، ما يمكن تسميته «بثورة بروليتارية»، بمعنى أن يحدث ما من شأنه حصول الشرائح الدنيا فى السلم الاجتماعى على حقوق لم تكن قد حصلت عليها، من حيث التمتع بطيبات الحياة والتخفيف من أعباء العمل.

لقد استخدم شعار (ثورة البروليتاريا) فى وصف ثورة سياسية معينة قامت فى روسيا باسم تطبيق الاشتراكية الماركسية، ولكن الحقيقة أن «ثورة البروليتاريا» هذه، قد شهدتها كل الدول الصناعية فى العالم الغربى بما فيها، بل وعلى رأسها، الولايات المتحدة الامريكية، التى كانت تحرم تمام التحريم استخدام هذا الشعار.

هل الحضارة الأمريكية «حضارة البروليتاريا»؟

إذ ما الذى حدث بالضبط، خلال العقود التالية للحرب العالمية الأولى، وعلى الأخص فى النصف الثانى من القرن العشرين، فى دولة بعد أخرى من الدول الصناعية؟ الذى حدث هو حصول الرجل العادى والمرأة العادية على طيبات الحياة، بعد أن كان التمتع بها مقصورًا على الطبقات العليا والوسطى. ولابد لنا هنا أيضًا من أن نتذكر تحذير ماركس من الحكم على عصر ما طبقا للأوصاف التى يطلقها هذا العصر على نفسه. نحن نعرف الآن أن الثورة الروسية التى قامت باسم البروليتاريا كانت وظيفتها الحقيقية تمكين روسيا من اللحاق بالغرب. ولكننا لازلنا نصدق الكثير مما تقوله تجارب أخرى عن نفسها. فلازلنا مثلا نتردد كثيرًا فى رؤية الخصائص البورجوازية للحضارة الغربية، ونقرأ مبادئها وشعاراتها وكأنها مبادئ وشعارات إنسانية عامة. وقد يكون من قبيل ارتكاب نفس الخطأ أننا لازلنا نستخدم وصف «الحضارة الغربية» للتعبير عن تجربة أوروبا وأمريكا الشمالية فى القرون الخمسة الأخيرة، بينما قد يكون من الأنسب الآن، بعد أن رأينا ما فعلته الولايات المتحدة بالتجربة الأوروبية، أن نميز تمييزًا صارما بين المساهمة الأوروبية والمساهمة الأمريكية فى الحضارة الغربية، وأن نرى الفوارق المهمة بين طبيعة الطبقة الاجتماعية التى جاءت النهضة الأوروبية لخدمتها وتحقيق آمالها، وتلك التى جاءت

التجربة الأمريكية لخدمتها. إن كثيرًا من السمات التى تتميز بها التجربة الأمريكية عن التجربة الأوروبية يمكن تفسيرها ويمكن فهمها بسهولة بتبين الفارق الطبقى بين هاتين التجربتين: كانت التجربة الأوربية ثمرة ثورة البورجوازية، والتجربة الأمريكية ثمرة «ثورة» البروليتاريا.

إن من الطريف حقا أن نلاحظ الفارق الشاسع بين الحقيقة وبين الشعارات المستخدمة لوصف ما دار بين ما سمى بالعالم الاشتراكى والعالم الرأسمالى. لقد تعودنا أن ننظر إلى الثورة الروسية على أنها ثورة اشتراكية جاءت لتحقيق آمال البروليتاريا ولكنها سقطت بعد سبعين عاما، بعد أن تبين أن النظام الرأسمالى، وإن كان يقوم على تحقيق مصالح طبقة صغيرة تستغل البروليتاريا، هو النظام الأكفأ والأصلح فى المدى الطويل. أليس من الممكن جدا أن تكون عكس هذا بالضبط هو الأقرب إلى التشخيص الصحيح؟

الثورة الروسية جاءت لتحقيق آمال الطبقة الوسطى التى قامت باستغلال الطبقات الدنيا فى المجتمع طوال سبعين عاما، هى عمر النظام السوفيتى، ثم أسقطها تضافر البروليتاريا داخل الاتحاد السوفيتى، التى طال حرمانها من ثمار التقدم التكنولوجى، مع قوى خارجية فى الغرب، كانت قد حققت من قبل مصالح البروليتاريا ومكنتها من التمتع بهذه الثمار.

العولمة عصر الجماهير الغفيرة:

إذا كان بهذا التحليل قدر لا بأس به من الصحة، فإنه يصبح من الممكن جدا أن نرى الوظيفة الاجتماعية (أو التاريخية) التى تحققها تلك الظاهرة التى نسميها «العولمة».

إن من الممكن بالطبع أن نرى فى ظاهرة العولمة امتدادا وانتشارا لحضارة على حساب حضارات أخرى، أو اكتساحا من جانب النظام الرأسمالية والليبرالية الاقتصادية لسائر النظم الاقتصادية. ولكن من الممكن أيضا، فى ضوء ما قلناه حالا، أن نرى فى ظاهرة العولمة امتدادا وانتشارا لثورة البروليتاريا أو الجماهير الغفيرة، إلى أجزاء جديدة من العالم لم تتجاوز حتى الآن ثورة البورجوازية، بل وربما لم تسر إلا خطوات قصيرة فى تحقيق هذه الثورة البورجوازية، كما هى الحال مثلا فى كثير من الدول الأفريقية.

إذا نظرنا إلى العولمة من هذه الزاوية قد يكون من السهل أن نفهم كل هذه الجاذبية التى تتمتع بها، والصعوبة البالغة التى تواجهها أى محاولة لمقاومتها. فالعولمة من هذه الوجهة من النظر، تعبير عن آمال الجماهير الغفيرة فى التمتع بالثمار الاقتصادية للتقدم الاقتصادى. بل إن كثيرا من سلبيات العولمة التى كثيرا ما نعبر عنها بالتهكم على رموزها الشهيرة، من سندوتش الماكدونالد إلى زجاجة الكوكاكولا، إلى أفلام العنف والجنس، إلى السوقية والابتذال فى وسائل الإعلام ..إلخ، قد لا تكون كلها أكثر من سلبيات الاستسلام لرغبات الجماهير الغفيرة ولميولها وشهواتها. قد يكون بعض سلبيات العولمة ليست إذن سلبيات «النظام الرأسمالى» وقد زحف على بقية أنحاء العالم ليقهرها الواحدة بعد الأخرى، بل مجرد سلبيات «عصر الجماهير الغفيرة»، أى عصر الرضوخ لميول وأذواق وأهواء هذه الجماهير وقد تكون سلبيات ما نسميه «بالمجتمع الاستهلاكى»، ليست بالضبط سلبيات الاستسلام لنزعة الاستهلاك على حساب النزعات الأكثر سموًا، بل هى السلبيات المقترنة بشيوع المستوى العالى للاستهلاك لدرجة وصوله إلى أيدى الجماهير الغفيرة.

الاستغلال فى عصر العولمة:

قد يكون هذا جزءا من الحقيقة ولكنه ليس الحقيقة كلها. فللعولمة سلبيات أخرى غير مجرد أنها تعبير عن «ثورة الجماهير الغفيرة»، أو «ثورة البروليتاريا». فدول العالم ليست بالطبع على نفس الدرجة من التطور الاقتصادى والتكنولوجى، ولا لها نفس الدرجة من القوة العسكرية.

ومن ثم فمن الطبيعى أن تقوم بروليتاريا الدولة الأقوى باستغلال بروليتاريا الدول الأضعف، بل باستغلال شعوب الدول الأضعف برمتها. لقد حدث مثل هذا من قبل. فى الاستعمار الأوروبى قام بلا شك لاستغلال الشعوب المستضعفة لصالح بورجوازية هذه الدولة الأوروبية أو تلك، والاستغلال الروسى للشعوب الخاضعة للاتحاد السوفيتى (وقد لا يبخل البعض عليه بوصف الاستعمار الروسى) كان فى الأساس لصالح الطبقة الوسطى فى روسيا. أما الاستغلال الأمريكى للشعوب التى خضعت لنفوذ الولايات المتحدة، فربما بدأ كذلك أيضا، استغلالا لهذه الشعوب لصالح الطبقة الرأسمالية الأمريكية، ولكنه تحول شيئًا فشيئًا إلى أن يصبح استغلالا لهذه الشعوب لصالح البروليتاريا الأمريكية، كما فى صورة شراء النفط العربى بأبخس الأثمان لتمكين العامل الأمريكى من حيازة سيارة فارهة أو سيارتين. كما تحول شيئًا فشيئًا إلى أن يصبح استغلالا للأقليات العرقية داخل أمريكا نفسها لصالح البروليتاريا الأمريكية ذات البشرة البيضاء.

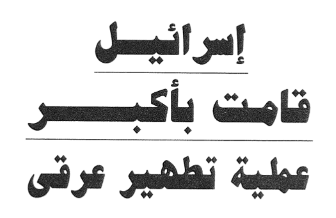
وتسارع ظاهرة العولمة فى العقود الأخيرة سوف يعنى انتشار هذا النوع الأخير من الاستغلال على نطاق العالم بأسره: شعوب مستضعفة (بما فيها شعوب الاتحاد السوفيتى المهزوم) تستغل لصالح البروليتاريا فى الدول «المنتصرة»، أى فى الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية واليابان. وقل مثل هذا على الشعوب العربية المستضعفة التى انهزمت فى معركتها مع إسرائيل، لصالح البروليتاريا اليهودية فى إسرائيل.

فى كل هذه الحالات، سواء فى ظل حضارة البورجوازية، أو فى ظل حضارة البروليتاريا، لابد أن يتساقط بعض الفئات للطبقات والشعوب الخاضعة للاستغلال، ولابد أن ينهض البعض ليصدر الأمر لهذه الطبقات والشعوب المستضعفة وكاننا على أبواب عصر جديد من الحرية والرفاهية للجميع، كما حدث من قبل على يد مروجى مبادئ الثورة الفرنسية، ثم الثورة الروسية، ثم على يد مروجى شعارات «التنمية الاقتصادية»، وأخيرا على يد مروجى العولمة. ولكن الأرجح أن ذلك العصر الجديد المزعوم من الحرية والرفاهية للجميع لن يتحقق إلا عندما تستنفد هذه الحضارة الحالية طاقتها، وتتم وظيفتها التاريخية. ■

هامش

(Toynbee, A.: A Study & History, Abridgement of volumes VII - X, by D.C. Somervell, Oxford University press, london 1960, p. 185).

اعترافات المؤرخين الجدد:



إسرائيل قامت بأكبر عملية تطهير عرقي

سلمان أبو ستة

حمل العرب، والفلسطينيون خاصة، جرحاً غائراً فى صدورهم وهو نكبة فلسطين عام ١٩٤٨، لن يشفى ولن تبرأ كل آثاره حتى لو أزيلت آثار هذه الجريمة غير المسبوقة فى التاريخ الحديث. لقد أدت النكبة إلى سقوط عروش واغتيال زعماء وتغيير أنظمة. وعندما طردت القوات الإسرائيلية أهالى ٥٣٠ مدينة وقرية من ديارهم عام النكبة، خرج حوالى مليون لاجىء إلى أماكن اللجوء فيما تبقى من فلسطين والدول العربية المجاورة، وحملوا معهم ذكريات موجعة عن فقدان الوطن والذبح والتشريد، وأصبحت هذه التجربة الإنسانية مادة لأدبيات اللاجئين ثم أدبيات الثورة، ثم أصبحت مخزناً للذاكرة الجماعية للفلسطينيين، تدعمها السير الذاتية والقصص والأشعار، دعك من كتب التاريخ والجغرافيا والاجتماع التى تعيد تركيب المجتمع الفلسطينى فى الشتات بكامل صفاته ولكن فى مكان جغرافى آخر، وتعيد تركيب الوطن الذى حرموا منه بكل ما يحمله الشوق والخيال والحسرة والإصرار على العودة من تضاريس وألوان.

وفى نفس الوقت، أقام اليهود، الذين أصبحوا يسمون إسرائيليين، ستاراً حديدياً حول الوطن الضائع، تجسيداً لمقولة جابوتنسكى بأنه لا يمكن لإسرائيل أن تعيش إلا إذا طردت العرب وأقامت حول نفسها ستاراً حديدياً من القوة.

لم يعرف العرب بعد النكبة ماذا يدور خلف هذا الستار، بسبب العزل الكامل الذى فرضه كل طرف على نفسه. عاش اليهود خلف هذا الستار الواقى محتمين بقوة عسكرية صدّت العرب، وبلغة ميتة بدأت تعود إلى الحياة لا يعرفها العرب، فأصبحت أشبه بشفرة سرية يتكلمها أفراد العدو بينما يعرف هذا العدو لغة العرب، وبأسلوب حياة غريب على العرب، وحتى على الأوروبيين، على شكل حياة جماعية شيوعية المبدأ تمجد الجندى / المزارع الذى يحارب فى الليل ويزرع فى النهار.

ولم يعرف العرب، عن جهل أو تجاهل، ماذا حدث للوطن الضائع، ماذا حدث لمئات القرى والمدن، ماذا حدث لتلك البيوت التى هُجرت تحت القصف وترويع المذابح، وبها الصور على الحائط، الطعام لايزال ساخناً فى المطبخ، الفراش المبعثر، الزهور التى تركت دون أن تسقى، القطة أو الكلب الذى بقى دون صاحبه. ماذا حدث للمساحات الشاسعة من الأراضى المزروعة، للمحصول الذى نضج ولم يحصده صاحبه، لبساتين البرتقال والزيتون الذى ينتظر القطاف، لآلاف الماشية والأغنام التى تركت هائمة دون ماء تشرب أو طعام تأكل.

خرج الناس وفى قلوبهم «نكبة» النفس، وتركوا خلفهم «نكبة» المكان، حياة ومجتمعًا وتاريخًا انتزعت منه الجغرافيا وبقيت فى مكان آخر.

بعد نصف قرن، يأتينا هذا الكتاب: «المكان المقدس» يشرح فيه ميرون بنفنيستى، كيف تم تدمير «المكان المقدس» الفلسطينى ليقام على أشلائه مكان إسرائيلى يستجدون له ثوباً من القداسة، واسعاً مهلهلاً كثير الثقوب لا يخفى معالم الخطيئة الأولى التى صنعت مكانهم هذا.

يجب أن نعترف أن ميرون بنفنيستى يكتب عن المكان بعاطفة جياشة نحوه، وبصراحة غير معهودة عن الجرائم الإسرائيلية فى حق الفلسطينيين. أكاد أحياناً أتخيل أن المؤلف فلسطينى، لولا أن الصهيونية تطفو من وقت لآخر على السطح عندما يتوقف عن وصف الفظائع وينكر الحقوق عند حاجز لا يعبره إلا بتبرير أو تفسير. ولاغرو، فالكاتب لا ينسى طفولته عندما كان أبوه، الصهيونى العتيد، يأخذه للطواف فى كل أنحاء فلسطين، ليعرّفه على «بلادنا»، وعندما كان أبوه يكتب كتباً لتدريس الناشئة الصهيونية عن "أرض إسرائيل". ربما كانت لديه عاطفة عن المكان وهو اليهودى السفاردى الذى عاش أجداده بين العرب فى الأندلس أزهى عصورهم. هذه العصور أنجبت فيلسوفهم الفذ موسى بن ميمون (ميمونيدس)، الذى لم يجد له مأوى، عندما طرد الكاثوليك الأسبان سكان البلاد من عرب ويهود، إلا فى القاهرة ليموت فيها، مفضلاً إياها عن صفد الفلسطينية ذات المدارس الدينية اليهودية. يقول المؤلف إنه تعلم حب البلاد منذ صغره، ويوحى كتابه بأنه لا يتفق مع كل المبادىء الشمولية الصهيونية التى تعلمها صغيرًا، ولكن بقى له من هذه المبادىء ما يكفيه لأن يعيش فى إسرائيل على أرض فلسطينية، إن لم يكن فعلاً فمجازاً، ولأن يرفض عودة صاحب الأرض، الذى يعطف عليه فى كتابه، إلى «المكان المقدس» الذى يملكه هذا اللاجىء المحروم من العودة، ويسكنه الآن أغراب عن هذا المكان وعن طبيعة الحياة التى سادته قروناً عديدة.

عمل المؤلف فى جهاز الاحتلال الإسرائيلى الذى سيطر على الضفة الغربية، وقام بأول جرد علمى يسجل مظاهر الحياة فيها من سكان واقتصاد وتعليم، وكان نائباً لرئيس بلدية القدس، التى تفخر بضم القدس العربية لها وإنشاء مساكن وخدمات لأكثر من ١٥٠ ألف مستوطن يهودى بينما لا تخجل من أنها لم تقدم شيئاً على الإطلاق لسكانها الفلسطينيين الذين يتجاوز عددهم ٢٠٠,٠٠٠ .

هو إذن يعرف أين يقع الخطأ والصواب، ويقف إلى جانب الخطأ الإسرائيلى ويمتنع عن الدفاع عن الصواب الفلسطينى. هو واحد من هؤلاء المؤرخين الإسرائيليين الجدد - هل نقول المعترفين الجدد- الذين يجهرون لأول مرة بما كان يردده الفلسطينيون منذ خمسة عقود ولا مجيب. لماذا يقولونه الآن ؟ هل يشعرون بأن قوة الباطل تغلبت على ضعف الحق ؟ ربما. لكنهم يذكرون الحقائق كسرد تاريخى مجرد، فى فضاء عقيم، ويتراجعون عن استخلاص العبرة منها والمسئولية عنها والدعوة إلى إصلاح خطيئة إسرائيل الأولى. نستثنى من هؤلاء المؤرخين، إيلان بابى، ونورمان فنكلشتين إلى حد ما، اللذين يصفان الجريمة ويصفان مرتكبها ويدينانه.

يبدأ الكتاب بسرد وقائع النزوح منذ قرار الأمم المتحدة بالتوصية بتقسيم فلسطين إلى دولتين: دولة يهودية على ٥٤٪ من مساحة فلسطين، لمن يملكون ٥٪ فقط منها، ونصف سكانها عرب، ودولة عربية على مساحة ٤٦٪ لمن يملكون ٩٥٪ منها ولا يوجد بين سكانها يهود. هذا الظلم الفادح قابله العرب

sacred landscape

THE BURIED HISTORY OF THE HOLY LAND SINCE 1948

Sacred Landscape: The Buried History of the Holy Land Since 1948

(المكان المقدس: التاريخ المطمور للأرض المقدسة منذ عام ١٩٤٨)

translated from Hebrew by Meron Benvenisti

University of California Press, 2000.

365pp.

بالاحتجاجات والمظاهرات، وقابله اليهود الذين كانوا يستعدون لهذا اليوم من زمن، بنسف البيوت العربية فى أبوكبير ودير أيوب، واقترفوا أول مذبحة فى الخصاص وأجلوا أهالى قرية عزّون. كل هذا فى أول شهر بعد التقسيم ولم ينقض عام ١٩٤٧ بعد.

يقول المؤلف أن هذا كان بداية نشوء «مبدأ الردع» أو الانتقام فى السياسة الإسرائيلية الذى استعملته إسرائيل لترويع الأهالى وتدمير القرى، خصوصا فى الخمسينيات عندما اقترف مجرم الحرب آريل شارون مذابح قبية والبريج والعزازمة. لم يكن هذا المبدأ نتيجة عارضة للصراع، كما يذكر المؤلف، لأن نظرية الصهيونية كانت، وما زالت، تقوم على أساس الاستيلاء على الأرض وقتل السكان أو طردهم أو التخلص منهم بأية طريقة. وحيث إن عدد العرب كبير وإمكانياتهم الاستراتيجية كبيرة، ترى إسرائيل أنه يجب ألا تتاح لهم فرصة الاستفادة من هذه المميزات أو تقوية روحهم المعنوية بإمكانية استعمالها. ولذلك تضرب إسرائيل أماكن صغيرة بقوة كبيرة فى وقت ومكان تختاره لتعطى المثل على قوتها التى لا تقهر.

فى نهاية مارس ١٩٤٨، قبل أن يبدأ الغزو الإسرائيلى، تمكن اليهود من طرد ٥٠٫٠٠٠ لاجىء من ديارهم واقترفوا مذبحة فى سعسع قتل فيها ستون شخصاً. بعد ذلك مباشرة، فى أوائل أبريل ١٩٤٨ نفض بن جوريون الغبار عن خطته لغزو فلسطين التى أعدها قبل ٤ سنوات، ومرت بأربعة تعديلات آخرها خطة «دالت»، وأصدر أوامره لجيش قوامه ٦٥٫٠٠٠ جندى صهيونى مدرب، ضباطه خاضوا غمار الحرب العالمية الثانية، بتدمير المجتمع العربى فى فلسطين، بأهله ومؤسساته وقراه ومدنه، وباختصار إزالة كل آثار المكان الإنسانية والعمرانية، لا يبقى لليهود فيها إلا قاع صفصف ليس فيها ديّار أو نافخ نار.

تقضى الخطة دالت، التى نشرها بالعربية المؤرخ الفلسطينى وليد الخالدى، ويشرحها المؤلف، بتدمير القرى وطرد السكان إلى خارج «الدولة» (لم تكن دولة إسرائيل قد أعلنت بعد)، والقضاء على أية مقاومة مسلحة والإبقاء على قوات فى القرى المحتلة (لمنع عودة أهلها). حددت الخطة بالتفصيل القرى التى ستحتل فى كل منطقة ومراكز الشرطة والمؤسسات العامة والمواصلات وغيرها.

ومن يقف أمام هذا كله ؟ الجيش البريطانى، الذى يلزمه صك الانتداب بحماية الأهالى ورعايتهم إلى أن تقوم دولتهم فى كل فلسطين، حزم حقائبه وبدأ فى الانسحاب من فلسطين لكى ينتهى منه فى ١٩٤٨/٥/١٥. لم يتحرك هذا الجيش لحماية الأهالى حتى عندما استغاث به الأهالى أثناء مذبحة دير ياسين التى حدثت على بعد ٥ كم من مكتب المندوب السامى البريطانى.

كان الاستعداد لتدمير فلسطين شاملاً لأدق التفاصيل، يسرد المؤلف قصة «ملف القرى» الذى أعده الصهاينة لكل قرية على مدى عدة سنين سابقة. لقد سجلت فى هذا الملف خصائص كل قرية: مساحة أرضها واقتصادها وماذا تزرع، وأسماء المختار (العمدة) وأقاربه وأصدقاؤه وأعداؤه، ومكان مضافته وتشويش المحصول وبئر الماء. وكان ذلك يتم خلال ما يبدو أنه زيارة بريئة للمستعمرين الذى يرتدون الزى العربى ويتحدثون اللغة العربية. يدخل هؤلاء إلى القرية للزيارة أو الضيافة أو لشرب الماء، ويسجلون كل صغيرة وكبيرة. (لا تزال فرقة المستعمرين تعمل حتى اليوم، ويسمونها فرقة الموت، إذ يتغلغل وتهتف وتغتال قادتهم).

كان بن جوريون ينتظر، وخطته جاهزة منذ ٤ سنوات، إلى أن يتأكد أن خروج بريطانيا من فلسطين مؤكد، ويتفرغ لمواجهة شعب أعزل، يدافع عنه ٢٥٠٠ مناضل شعبى موزعين على عدة مئات من القرى والمدن دون سلاح فعال أو قيادة موحدة، وانضم إليهم فيما بعد ٥٠٠٠ متطوع سورى ومصرى وآخرون من العرب دخلوا قبل أفول شمس الانتداب بقليل.

هذا هو الوقت الذى ينتظره بن جوريون ليضرب ضربته ويفوز بالغنيمة قبل أن تدخل القوات العربية النظامية التى منعها الإنجليز من الدخول أثناء الانتداب. كان تحسبه من هذه القوات مجرد زيادة فى الحذر، لأن ضباطه وتقارير الدول الغربية (وحتى تقرير اللواء إسماعيل صفوت قائد قوات الجامعة العربية) أكدوا فى بداية عام ١٩٤٨ أن اليهود منتصرون لا محالة. لكن الحكام العرب تغاضوا عن هذه الحقيقة وفضلوا الزج بقواتهم، خوفاً من غضبة الجماهير وهى ترى ضياع فلسطين، لكى يقرر ميدان المعركة مصير هذا البلد المسكين.

يبذل المؤلف، مثل غيره من الإسرائيليين ومنهم بنى موريس المشهور، جهداً كبيراً لإثبات أن «تدمير القرى» و «طرد السكان» ليس عملية تطهير عرقى منظمة فى هذه الفترة على الأقل، وإنما هى من عوارض الحرب. لكن المؤلف يسلّم بأن طرد الفلسطينيين كان عملية تطهير عرقى فيما بعد، ويحمّل هذه المسئولية إلى دولة إسرائيل بعد إعلانها، ورفعها عن نفس القادة والجيش قبل إعلان الدولة. وهذه فذلكة تاريخية. والدراسات الجدية، حتى تلك التى اعتمدت على موريس، أثبتت أن ٨٩٪ من القرى هُجّرت بسبب عمل عسكرى مباشر وأن ١٠٪ هجرت بسبب الحرب النفسية. وتبرير المؤلف جهد ضائع، لأنه بفرض أن تبريره فيه شىء من الصحة، لماذا لا يعود أصحاب البيوت إلى بيوتهم، ولماذا يقتل اللاجىء العائد إلى بيته بصفته متسللاً ولماذا تدمر القرى الفلسطينية، ولماذا توسع الاحتلال ليشمل الأرض العربية فى الضفة وسيناء ولبنان وسوريا ؟ حرب فلسطين ١٩٤٨ لم تنته حتى اليوم، ولن تنتهى إلا بانتهاء الصهيونية.



كان أمام بن جوريون ٣٦ يوماً قبل انتهاء الانتداب وخروج الإنجليز (الذين لم يقفوا فى طريقه على أية حال) ودخول القوات العربية التى سيدخل معها حرباً نظامية، نظريا على الأقل. كان عليه فى هذه الفترة الاستيلاء على كل الأراضى العربية الواقعة بين المستعمرات لتوسيع الرقعة اليهودية وتواصلها وعليه فتح ممر بين تل أبيب والقدس (التى كانت منطقة دولية حسب مشروع التقسيم) وتدمير كل القرى فى هذه المناطق وطرد جميع الأهالى من ديارهم، لجعلها خالية من العرب (عبارة تذكر بمقولة النازيين لجعل ألمانيا خالية من اليهود)، ولإعاقة تقدم القوات العربية فعلياً ومعنوياً بمنظر هذه القوافل الإنسانية من اللاجئين تتقدم نحو القوات العربية التى جاءت لإنقاذها.

نجح بن جوريون فى تنفيذ خطته نجاحاً باهراً رغم تعثره فى الاستيلاء على كامل مدينة القدس وهذه كانت خارج مشروع التقسيم. ودمر كثيرا من القرى العربية (بعد المعركة)، وتوّج انتصاره بمذبحة دير ياسين عندما عُرض الناجون من المذبحة بملابسهم الرثة وحالهم البائسة فى شاحنات تطوف بشوارع القدس الغربية ليتفرج عليهم اليهود ويشتموهم ويحقروهم ويبصقوا عليهم، فى مشهد من أفظع مشاهد بربرية العصور الوسطى.

شاهد المؤلف نفسه هذا الموكب البربرى، وكان فتى يافعاً ولم يثر هذا المشهد فى نفسه من تعليق إلا وصفه بأنه «منظر مقرف» ويسارع إلى ذكر إحساس الغضب والعار الذى تمكن من غالبية سكان القدس اليهود الذين أصدروا بيانات استنكار. ونسى أنه ذكر فى السطر السابق أنه شاهد هذا «المنظر المقرف» مع «آلاف من سكان القدس اليهود». ولا ندرى إن كانت هذه الآلاف هى نفسها التى أصدرت بيانات استنكار.

حصيلة هذه الأيام الستة والثلاثين من الغزو اليهودى، ولا نقول الحرب لأن هذه فيها طرفان، كانت احتلال ٢١٣ قرية وطرد ٤١٠٫٠٠٠ من سكانها (أرقام المؤلف أقل من الحقيقة خلال الكتاب كله كما هو متوقع، فهو يذكر ٢٠٧ قرى و ٣٨٠٫٠٠٠ لاجىء فقط) ومضاعفة الأرض التى سيطر عليها اليهود ٣ مرات (من ١٥٠٠ كيلو متر مربع إلى ٥٠٠٠)، وبذلك أعلنت دولة إسرائيل على ١٣٪ من فلسطين.

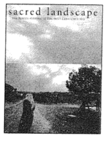
لقد حُسمت المعركة لصالح إسرائيل فى هذا الوقت المبكر وطردت أكثر من نصف اللاجئين قبل دخول القوات العربية المنقذة. هل كانت إسرائيل تخاف على وجودها من قوة العرب الهائلة؟ كلا، يخبرنا المؤلف، أنه حتى فى مارس، بدأ اليهود فى الاستيطان فى القرى التى طرد أهلها. بدأوا أولاً بحصد المحاصيل التى خلفها اللاجئون وراءهم ومُنعوا من العودة إليها بقتل كل من يعود إلى بيته، ثم حرقوا كل المحاصيل التى لم يتمكنوا من حصادها. قبل الحرب بكثير، فى بداية ١٩٤٨، كانت اللجان الصهيونية قد وضعت خطة لاستيطان ١ر٥ مليون يهودى استعداداً لتدمير فلسطين وإحلال اليهود محل الأهالى الفلسطينيين. ولتسهيل ذلك أعطى بن جوريون أوامره لاحتلال القرى فى مجموعات، وليس فرادى لكى تتكون «قطاعات محررة » يتم فيها الاستيطان على أرض الأملاك العامة وأملاك اللاجئين المطرودين.

لقد كان بن جوريون واعياً لحساب التاريخ المكتوب، ويعلم تماماً أن عملية التطهير العرقى وطرد السكان والمذابح وصمة فى التاريخ الإنسانى، وليس اليهودى فقط. ويذكر المؤلف حوادث عديدة، لم يسجل فيها بن جوريون أوامر مكتوبة بل كان يجهر فى السجلات بعكس ما ينوى، وكان يعطى الأمر الحقيقى بإشارة من يده أو نظرة من عينيه أو السكوت، ولم ينسب لنفسه عملاً إجرامياً (لعله كان يحسب حساب محاكم جرائم الحرب التى عقدت فى نورمبرج قبل سنتين). فكان يحيل عمليات الطرد وإجلاء السكان وكافة عمليات التطهير العرقى فى أوامر غير مباشرة إلى ضباط الجيش، ويحيل عمليات الاستيلاء على الأراضى العربية واستيطانها إلى لجان من الصندوق القومى اليهودى والوكالة اليهودية «لعمل اللازم ». بإشارة من يده، أصدر أمره إلى رابين بإجلاء أهالى اللد والرملة بعد احتلالهما. وهكذا خرجت قافلة إنسانية من ستين ألفا فى عز الصيف اللاهب، فى رمضان/ يولية ١٩٤٨، ومن يتوقف لشرب ماء يطلق عليه الرصاص. تساقط المتاع على جانبى الطريق ثم تساقط الأطفال ثم الشيوخ. هذه الجريمة البشعة بقيت ولاتزال محفورة فى صدور الآلاف، وتركت أثراً لا يمحى فى حياة الكثيرين منهم الشهيد خليل الوزير، والدكتور جورج حبش، والفنان إسماعيل شموط والروائى رجائى بصيلة، ولكنها لا تستحق سطراً واحداً فى كتاب المؤلف.

فى فبراير ١٩٤٨، قبل شهرين من بداية الغزو الإسرائيلى، قال بن جوريون لقادة الصندوق القومى اليهودى الذى يستولى على الأراضى: «الحرب ستعطينا الأرض. انسوا مقولة هذه لنا وهذه ليست لنا (أرض عربية). هذه كلها تعبيرات السلام. فى الحرب تسقط هذه المعانى. وفى النقب لن نشترى أرضاً، سنحتلها، لا تنسوا أننا سنكون فى حالة حرب » (ص١٢٠). كان بن جوريون يخطط لحرب شاملة، ليست مقصورة على القوات العسكرية، ولا تفرق بين المحارب والأعزل، حرب تدور حول كل بيت وكل قطعة أرض وكل كيلو متر من الطريق كما يقول. كانت حربه عسكرية واقتصادية ومدنية، يُقتل

بعد نصف قرن، يأتينا هذا الكتاب: «المكان المقدس» يشرح فيه ميرون بنفنيستى، كيف تم تدمير «المكان المقدس» الفلسطينى ليقام على أشلائه مكان إسرائيلى يستجدون له ثوباً من القداسة، واسعاً مهلهلاً كثير الثقوب لا يخفى معالم الخطيئة الأولى التى صنعت مكانهم هذا





فى أوائل أبريل ١٩٤٨ نفض بن جوريون الغبار عن خطته التى أعدها قبل ٤ سنوات، وأصدر أوامره لجيش قوامه ٦٥٫٠٠٠ جندى صهيونى مدرب، ضباطه خاضوا غمار الحرب العالمية الثانية، بتدمير المجتمع العربى فى فلسطين، بأهله ومؤسساته وقراه ومدنه، وباختصار إزالة كل آثار المكان الإنسانية والعمرانية



فيها الأطفال والنساء والشيوخ، وتسمم آبارها وترمى فيها جراثيم التيفود، ويُقتلع أناس من ديارهم ويتشردون. لم يتردد فى اقتراف أى عمل يؤدى إلى تدمير المجتمع الفلسطينى تدميراً كاملاً كشرط ضرورى لإنشاء دولة إسرائيل على أنقاضه واستيطان المهاجرين فى بيوت اللاجئين وعلى أرضهم.

لم يكن فى هذا الواقع الدموى أى صفة من صفات تلك الأساطير والدعايات التى رددها الغرب نقلاً عن اليهود، وأشهرها داود الصغير المسالم المكافح بكل قواه الضئيلة ليبقى على قيد الحياة فى بيته الصغير أمام جحافل قوات جوليات العربية التى ستأتى لسحق هذا المخلوق. كان بن جوريون يمارس كل أنواع التطهير العرقى فى نفس الوقت ومن نفس المكتب الذى تصله فيه برقيات وتقارير مكاتب إسرائيل فى الخارج عن الدعاية الصهيونية التى تشنها فى الغرب، دون أن يهتز له جفن من هذه المفارقة.



يصف المؤلف فى سرد تفصيلى يخلو من المبالغة والتعاطف فى آن، كيف أن القوات اليهودية أجلت أهالى ٦٠ قرية فى الجليل الشرقى، قبل نهاية مايو، لتربط المستعمرات اليهودية بنهر الأردن وبحيرة طبرية، ولتكون جموع اللاجئين المطرودة سداً فى وجه القوات السورية والعراقية التى ستتقدم نحو فلسطين.

وفى قرية صفصاف جمع اليهود الأهالى واختاروا ٧٠ من شبابها صفوهم على حائط وقتلوهم بالرشاشات. وتكرر الأمر فى سعسع والصالحة وغيرها. وعلى مرأى من أهالى صفد، دمر اليهود بيوت قرية عين الزيتون المجاورة وذبحوا أهلها، لتتحطم روحهم المعنوية. وعندما سقطت صفد فى ٩ مايو سقطت حولها قرى كثيرة وطرد أهلها، بمن فيهم هؤلاء الذين وقعوا معهم اتفاقية بالمسالمة (مثل قرى الجاعونة وقيطية والخصاص)، وبدأوا على الفور بحصاد ١٥ ألف دونم (الدونم ١٠٠٠ متر مربع) من الأراضى العربية، وبدأ اليهود باستيطان القرى فى ١٠ يونية والحرب لاتزال قائمة.

وتكرر الأمر بنفس الأسلوب وفى نفس الوقت ولنفس الغرض فى القرى المحيطة بطبرية ومرج ابن عامر والجليل الغربى، وكلها مناطق ذات وجود يهودى فى مستعمرات متفرقة غير مترابطة. والغرض كان ولايزال توسيع الرقعة اليهودية وطرد السكان العرب منها. كان الجنود الإسرائيليون يتقدمون وخلفهم بخطوات رجال الاستيطان الذين كانوا أحيانا يوجهونهم نحو الأراضى المرغوبة. طلب بعضهم من الجيش تدمير قرية البطيمات لأن أرضهم امتداد لأرض يهودية وطلبوا تدمير قرية إندور لأن أراضيهم مناسبة لتوسعهم. دمروا كل القرى بين أم خالد (نتانيا) وزمارين (زخرون يعقوب) لزيادة الاتساع الجغرافى، وارتكبوا عدة فظائع فى أم زريق وقيسارية وزرنوقة، ولم يفرقوا بين من حاربهم ومن استسلم لهم حتى الذين كانت بينهم علاقات جيرة جيدة. عندما قيل إنه ليس لليهود عهد، لم يكن هذا من فراغ، فهو أمر يتكرر تجديده فى كل آن.

وتبقى قصة قريتى طيرة حيفا والطنطورة مثلاً فى الوحشية الإسرائيلية. نجد المؤلف هنا ينسى ذكر الأولى ويسرد وصفاً مبتوراً فاتراً للثانية. بعد سقوط طيرة حيفا، اعتقل الإسرائيليون الشباب وقتلوهم فى مجموعات بحيث تدفن المجموعة التالية من سبقها وتقتل بدورها، وأخذوا الباقى إلى معسكرات سخرة، وشحنوا النساء والشيوخ فى سيارات لرميهم على خطوط القوات العربية. وهناك، وكان الوقت مساء يوم رمضان، طلبوا ماء للشرب، فأجلسوهم على أكوام حصيد القمح الناشف، وصبّوا عليهم بنزينا وأحرقوهم، وبينما كان هؤلاء الضحايا يصرخون ويستغيثون ولا يدرون أين يتجهون فى الظلام كان الإسرائيليون يضحكون. قتل ٥٥ شخصاً فى هذه الفاجعة. أما الطنطورة، فقد قاومت حتى الصباح، وأخذ اليهود يجمعون النساء والأطفال ليشاهدوا جثث أهلهم، ثم أخذوا الشباب، وقتلوهم فى مجموعات كل مجموعة من ٤٠ شخصا، يقتلون وتدفنهم المجموعة الثانية بنفس الأسلوب الذى كرروه فى كل المذابح حتى بلغ عدد الشهداء أكثر من ٢٠٠. وقد تداولت الأخبار فى بداية ١٩٩٩ قصة مذبحة الطنطورة لأن باحثا إسرائيليا، «تيدى كاتس»، كتب عنها مع أن محمد نمر الخطيب نشر فى كتابه عام ١٩٥١ كامل التفاصيل ونقلها عن شاهد عيان كان أحد الناجين من المذبحة. ولكن لم يهتم أحد بالخبر الذى رواه عربى.

تعرض الجليل إلى ٢٥ مذبحة من أصل ٣٥ مذبحة أمكن تسجيلها. ذلك لأن الجليل كان عربياً فى اقتراح التقسيم وأرضه خصبة وسكانه رفضوا النزوح. لا تكاد قرية تكون قد سلمت من مذبحة صغيرة أو كبيرة، فى سعسع وجش ومجد الكروم وعيلبون والبعنة وديرالأسد وغيرها كثير. وفى الجنوب، حيث لا يوجد إلا القليل من اليهود (نصف فى المائة من السكان) متناثرين فى أماكن متباعدة، قرر بن جوريون الاستيلاء على الجنوب بأكمله، الذى دافع عنه المناضلون إلى أن دخل الجيش المصرى. فاحتل اليهود ١٢ قرية فى الربيع قبل دخول القوات المصرية، و٣٤ قرية فى الصيف عدد سكانها ٦١٫٠٠٠ حسب المؤلف (والصحيح ١٥٠ قرية عدد سكانها ١٩٣٫٠٠٠). بهذا الاحتلال أضيفت إلى مساحة إسرائيل ١٥ ألف كيلو متر مربع، أى تسعة أضعاف الأرض اليهودية، معظمها بعد توقيع اتفاقية الهدنة مع مصر.

واقترف الإسرائيليون مذابح فى بئرالسبع وبرير وغيرهما، لكن أبشع مذبحة فى تاريخ فلسطين كانت فى قرية الدوايمة. يقول مختار القرية أن عدد الضحايا وصل إلى ٥٠٠، قتلوا بالرصاص والحرق فى المسجد، وقتل الأطفال بالضرب على رءوسهم بالشواكيش.

كل هذا مسجل فى صدور الناجين وفى الكتابات الفلسطينية، وظهر أخيراً فى ملفات الأمم المتحدة والصليب الأحمر (الأخيرة فتحت ملفاتها بعد ٥٠ سنة). والآن تظهر هذه القصص فى كتب المؤرخين الجدد مثل بنى موريس. ويذكر المؤلف بعض هذه الفظائع بألم وأسف لكنه لا يرقى إلى درجة الإدانة أو المطالبة بالجزاء كما يفعلون مع أمثالهم من مجرمى الحرب الألمان.

ودائماً تمارس إسرائيل مسرحية المظاهر الحضارية، ففى معظم الحالات، تتكون لجان تحقيق فى هذه المجازر، ولا تجد أدلة كافية أو تعاقب بعض المسئولين بعقوبة تافهة. كتب العقيد هندرسون أحد مراقبى الهدنة التابعين للأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٨: «إن هذه الفظائع كثيرة وليس لدينا الوقت والجهاز لمتابعتها». وقال إنه عندما يطلب المراقبون استدعاء ضابط مسئول عن مجزرة لا يعثر عليه الإسرائيليون.

وبالطبع يشارك بن جوريون فى هذه المسرحية بإدانة «الأعمال المشينة»، ويرتل أبياتاً من قصائد الشاعر المشهور ناثان ألترمان الذى استنكر هذه المجازر. وهذا الأداء الرخيص لم يمنع أن كل هذه الجرائم كانت معروفة لكبار المسئولين فى الحكومة ولقادة الجيش بالطبع وحتى للشعب (ص ١٥٣). بل إنها تمت بأوامر منهم، كما بيّن موريس بعد مراجعته لكتابه الأول.

«وتعرج الطريق بين الجبال
وبدا لى بهاء الجليل فى أروع صورة،
فى ابتسامته القرمزية،
وخضرته الناعمة.
لم أره من قبل مثل ذلك.
كان مفعماً بالحياة.
قطعان الماشية تصعد الجبال
وتهبط الوديان، أجراسها تدق،
والرعاة خلفها،
يغنون ويصيحون كشخوص
من الماضى السحيق.
والآن ساد صمت رهيب على هذه الجبال، تنبعث
خيوطه من قرية خالية.
قرية خالية ! ما أفظع هذا ! حياة تجمدت،
تحولت إلى همسات فى الريح،
إلى طابون انطفأت ناره،
إلى مرآة مكسورة،
إلى كومة من التين المجفف فى الشمس،
إلى كلب نحيل يمشى وحيداً فى الطرقات الخالية....
وفجأة انبعث من داخلى شعور عميق الجذور،
الشعور بالنصر،
الشعور بالسيطرة،
الشعور بالإنتقام.
لقد رأيت هذه البيوت الخالية خير مكان لاستقبال إخوتى
اليهود الذين تشردوا من جيل إلى جيل».

هذه الكلمات الشاعرية التى تحولت فجاة إلى شعور بالانتقام ونشوة النصر، كتبها يوسف فايتز فى مذكراته بعد أن أخذ يجول فى القرى المهجورة التى طُرد أهلها بالسلاح فى جنح الظلام. لقد تحول الشاعر إلى جلاد، وهو الذى امتاز بين قادة الصهاينة بأنه أول وأهم منفذ لعملية التطهير العرقى فى أكبر عملية منظمة فى القرن العشرين. فايتز هو مسئول الأراضى فى الصندوق القومى اليهودى، وأول رئيس للجنة الترانسفير (الترحيل).

كانت أول مظاهر «النصر» تدافع اليهود الجنونى لنهب البيوت العربية، وهو الأمر الذى كانوا يتكتمون عليه إلا فى كتاباتهم الأولى بالعبرية. يقول الكاتب المشهور موشى سيملانسكى: «لقد أخذتهم حمى النهب: أفراداً وجماعات، رجالا ونساء وأطفالاً، وانقضوا كالجوارح على الضحية، يحملون كل شىء: الأبواب والشبابيك والملابس والبلاط.. الخ». يقول المؤلف: دخلوا البيوت الجميلة وحملوا منها ما يستطيعون من أثاث ومتاع وأدوات منزلية، وفكوا ما يمكن فكه حتى الأنابيب والمضخات فى بيارات (بساتين) البرتقال، وساقوا الماشية أمامهم. على أن أكبر غنيمة لهم هى مدينتى اللد والرملة بعد إجلاء سكانها، حمل منها الجيش الإسرائيلى حمولة ١٨٠٠ شاحنة، وانضم إلى موكب الناهبين قائد الكتيبة الخامسة بكل قواته إذ حوّل مساره إلى الرملة للمشاركة فى النهب. وذهب بن جوريون نفسه ليرصد هذه الثروات كما جاء فى مذكراته فى ٢٠ يولية. وفى القدس وزعت عشرات البيوت الحجرية الجميلة على قادة حزب الماباى وكبار قادة الجيش (يعلن اليوم عن بيع هذه البيوت فى الصحف الإسرائيلية: «بيت عربى جميل» بملايين الدولارات). وكما ذكر سيجيف، جاء فى تقرير أولى للحارس على أملاك العدو: «سجلنا ٤٥٫٠٠٠ بيت، و ٨٠٠٠ محل تجارى و٥٠ مصنعا، لكن معظم موظفى دائرتى هم من اللصوص الذين يسرقون هذه البيوت». وما لم يستطيعوا حمله، حطموه أو أحرقوه. كان هذا مصير مئات الدونمات من محصول القمح، وذلك لمنع اللاجئين من العودة وكجزء من الحرب الشاملة التى تحرم العدو من الغذاء.

حتى برتقال يافا المشهور عبر القرون لم يسلم من يد التدمير. بعد أن سرق اليهود الأنابيب والمضخات، لم يعد بالإمكان سقاية الشجر، خصوصاً أن العمال العرب أصبحوا لاجئين، واليهود مشغولين بجمع الغنائم. وهكذا أهملت بساتين البرتقال العربية فى يافا التى تبلغ مساحتها ١٥٠٫٠٠٠ دونم. وبعد أن استقرت الأمور لم

تستطع إسرائيل إحياء أكثر من خُمس هذه المساحة.

وأشجار الزيتون التاريخية، رمز السلام وتاريخ فلسطين، مورد زيت الزيتون، عماد الغذاء والصحة، اجتثت على مساحات عشرات الآلاف من الدونمات (ص١٦٥) في أكبر جريمة تاريخية بيئية، وزرع مكانها محاصيل يفضلها اليهود ويعرفون كيف يزرعونها. هذه هي الحقيقة وراء أسطورة «تحويل الصحراء إلى جنة».

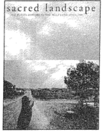


وعندما بدأ تدمير القرى قبل نهاية الانتداب كان على يد النهابين واللصوص، وغالبيتهم من سكان المستعمرات القريبة والجيران اليهود في المدن الذين يعرفون مسبقاً أين توجد الغنائم. ثم أصبح سياسة عسكرية بعد الانتداب. لكن بن جوريون تراجع عن الأمر العلني خوفاً من الشجب الدولي الذي يعتبر تدمير القرى من جرائم الحرب. فأصدر قراراً بمنع التدمير إلا لأسباب عسكرية وأمنية، وترك تفسير ذلك للجيش دون مراجعته. ونعرف بالطبع نهاية القصة.

كان تدمير القرى واحداً من ثلاث طرق استعملتها إسرائيل كوسيلة لمنع عودة اللاجئين، كأنما تدمير البيت يمنع صاحب البيت أن يبني بيتاً جديداً على أرضه لو عاد. وكانت الطريقة الثانية سياسية. بعد خروج الإنجليز وانتصار إسرائيل في الجولة الأولى على العرب وشعورها بالقوة، أصبح منع عودة اللاجئين هدفاً سياسياً معلناً منذ يونية ١٩٤٨، اتخذته إسرائيل في مراسلاتها الدبلوماسية، خصوصاً عندما رأى الوسيط الدولي برنادوت بنفسه هول مأساة اللاجئين وأصر على عودتهم. أما الطريقة الثالثة التي اتبعتها إسرائيل فهي الإسراع بإحضار مهاجرين يهود من البلاد العربية وتوطينهم في القرى العربية (والادعاء فيما بعد أن هذا استبدال شرعي للسكان).

يصف المؤلف هذا الاستيطان بصراحة غير معهودة. نقل هؤلاء المهاجرون من مخيم الوصول (فيما يسمى بالمعبرة) إلى القرى العربية الخالية باعتبارها أقرب إلى طريقة معيشتهم في البلاد العربية. لقد قرر القادة الأشكناز العنصريون أن هؤلاء المهاجرين من اليهود العرب يناسبهم هذا المكان فهم «متخلفون، ليس لديهم تعليم على الإطلاق، وليس لهم إدراك ذهني، ومن المؤكد أنهم أقل مستوى حتى من العرب الذين طردناهم». بدأ موظفو الاستيطان بتدريبهم على الزراعة وكيف يحملون الفاس والمنجل وكيف يسقون النبات، وأعطوهم منحة مالية ليتدبروا أمورهم، وتركوهم في القرية العربية. جلس هؤلاء في حلقات «يلبسون معاطف ثقيلة ويتبادلون كلمات قليلة وتبدو عليهم مظاهر التعاسة». لم تكن لديهم ثقة في الأشكناز ولا في الآخرين. لم ينامو الليل. رأوا ما بقي من متاع أهل البيت العرب ومظاهر حياتهم السابقة، وتملكهم الفزع خوفاً من أن صاحب البيت سيهجم عليهم في منتصف الليل. قالوا لهم أن المتسللين (أصحاب البيت العائدين) قد يذبحونكم في الليل، وها نحن نذهب إلى قراهم في الضفة (قبية) وفي غزة (البريج) ونذبحهم هناك قبل أن يأتوكم.

(الآن بعد ٥٠ سنة، انتقم اليهود الشرقيون (المزراحيم) من أسيادهم السابقين بأن انتخبوا القصاب (الجزار) رئيساً لدولة إسرائيل).



يبذل المؤلف جهداً كبيراً لإثبات أن «تدمير القرى» و«طرد السكان» ليس عملية تطهير عرقي منظمة في هذه الفترة على الأقل وإنما هي من عوارض الحرب. لكن المؤلف يسلم بأن طرد الفلسطينيين كان عملية تطهير عرقي فيما بعد، ويحمّل هذه المسئولية إلى دولة إسرائيل بعد إعلانها



لكن مصاعبهم لم تنته. إذ كان الأشكناز سكان المستعمرات اليهودية القديمة أول من نهب البيوت العربية واستولى على أحسن الأراضي الزراعية حولهم، حتى قبل أن توزع الحكومة هذه الأراضي عليهم. والآن يريد هؤلاء الأشكناز أن يعمل المهاجرون الشرقيون عمالاً زراعيين لديهم، لأنهم لا يصلحون لشيء آخر.

وعندما حاول المهاجرون الذين استوطنوا قرية عاقر بناء مساكن لهم بالطوب الأسمنتي على أرض مجاورة للقرية، هب المستوطنون في مستعمرة جفعات برينر معترضين على هذا التبذير في تلك الأرض الزراعية الخصبة التي تصلح لهم فقط، وما هؤلاء المهاجرين إلا عمال عندهم. وقام شبابهم بتكسير الطوب وبضرب المهاجرين.

وبالمقابل، لم يسمح للأهالي العرب الذين بقوا تحت حكم إسرائيل بالعودة إلى بيوتهم نفسها، فصنع هؤلاء لأنفسهم مأوى تحت الأشجار وبين الصخور على قرب من بيوتهم، يراقبونها من بعد. وكلما نقلوهم إلى مكان، عادوا إلى حدود القرية أملاً في العودة. وكما تملكت المهاجرين خيالات الرعب من عودة أصحاب البيت وهم فيه، تملكت هؤلاء الذين يراقبون بيوتهم من التلال المجاورة، خيالات من نوع آخر. تصوروا أن الشياطين والعفاريت ستسخط هؤلاء المهاجرين، وخيل لهم أنهم يرون في ظلام الليل عيوناً للشياطين تنتقل بين المنازل، وأنهم يرون رأى العين أن أصحاب البيت سيعودون إلى بيوتهم لا محالة بعد الخلاص من هذه الشياطين.



أما الأرض الزراعية فقد استولت عليها المستعمرات القريبة منها، قبل أن تبدأ الحكومة في إقامة سلسلة مزيفة من القوانين التي تحلل ذلك. ضمت إسرائيل كل أراضي «الغائبين»، وهم السكان العرب الذين طردوا ولم يتواجدوا في قراهم في تاريخ معين والذين منعوا من العودة إلى ديارهم فأصبحوا لاجئين. وامتدت التسمية إلى الباقين في إسرائيل حتى لو تواجدوا يوم الإحصاء في قرية مجاورة أو لو غابوا يوم الإحصاء ولو ليوم واحد. هؤلاء يسمونهم «الغائبين الحاضرين»، وصودرت أراضيهم أيضا رغم أنهم يحملون الجنسية الإسرائيلية، وعددهم اليوم ٢٥٠٠٠٠ أى خُمس الفلسطينيين في إسرائيل.

ويتم الاستيلاء على الأرض بطرق أخرى منها قانون الأرض غير المفلتحة، الذي يقضي بالاستيلاء على أي أرض لم يفلحها صاحبها لمدة ٣ سنوات. لكن كيف يفلحها صاحبها وهو مطرود منها وممنوع من العودة، ولو عاد لاعتبر متسللاً تطلق عليه النار على الفور؟ ولو طمعت الحكومة في أرض وتواجد صاحبها فيها، أعلنتها منطقة «مقفلة» لأسباب عسكرية وأمنية، وهذا معناه أن صاحبها ممنوع من دخولها. وبعد فترة تستولي عليها الدولة باعتبارها أرضاً غير مفلتحة حسب القانون.

هذا النهب الصريح المبرر بسلسلة من القوانين المخادعة أدى إلى مصادرة ما يزيد على ٤٠٠٠ر١٧ دونم (١٧ ألف كيلو متر مربع) منها ٥ر٤ مليون دونم في وسط وشمال فلسطين و٥ر١٢ مليون في اللواء الجنوبي. هذا عدا حوالي ٥ر١ مليون دونم هي أرض الفلسطينيين الباقين (صودر الآن ثلثاها)، فيكون مجموع الأرض الفلسطينية ٩٢٪ من مساحة إسرائيل، تديرها الآن «دائرة إسرائيل للأراضي» وتؤجرها لليهود، ويمنع تأجيرها أو تطويرها أو الإقامة فيها لأي شخص أو جهة غير يهودية.

كان الكيبوتز عماد الفكر الصهيوني يمثل سكانه حتى اليوم نخبة المجتمع الإسرائيلي في الجيش والكنيست. لذلك خصصت لهم أجود الأراضي، وهم الذين يستغلون معظم الأراضي الفلسطينية. إلا أن أسطورة اليهودي المزارع تبخرت، ورغم جودة الأراضي، وتخصيص ثلاثة أرباع المياه في إسرائيل لهم بسعر أقل من التكلفة، ورغم المعونات المالية وإسقاط الديون المتراكمة عليهم، لم ينجحوا في إنتاج أكثر من ٨ر١٪ من الناتج القومي. ولذلك عمدت إسرائيل إلى بيع أراضي اللاجئين المؤجرة لهم لإقامة عمارات سكنية يشتريها أي يهودي في العالم. وقد أثارت الثروة المفاجئة التي هبطت عليهم حفيظة سكان المدن. وهذا البيع والتصرف بالأملاك الواقعة تحت الحراسة مخالف للقانون الدولي بالطبع، بجانب كونه علامة على الإفلاس الأيديولوجي للصهيونية.



أما المستوطنون فقد وجدوا أنه من المريح لهم العيش في حالة من فقدان الذاكرة الجماعي بتجاهل وجود الضحية. وذلك بإزالة الآثار المعنوية، وليس المادية فقط، لكل مظاهر الحياة التي عاشها ضحاياهم، لكي تكون عملية التطهير العرقي كاملة. لأنه لو وجدت الضحية لوجد المجرم. لذلك أصبح أي تذكير بوجود الضحية من المحرمات. ووصلوا في ذلك إلى درجة كبيرة من خداع النفس. مثلاً، تملك عائلة الماضي الغنية في قرية إجزم قصراً بني في القرن السابع عشر، حوله المستوطنون إلى متحف ثم أصبح مسكناً لعائلة يهودية هامة وأصبحت المدرسة كنيساً يهودياً، والمقبرة متنزها عاماً. ثم ادعى اليهود أن هذا القصر الفلسطيني هو بقايا قلعة صليبية، وأسبغوا هذه الصفة وغيرها على معالم عمرانية أخرى، لإنكار أنه بالإمكان أن يكون هذا المبنى الجميل عمارة فلسطينية طرد صاحبها منها. ويذكر المؤلف أن ٤٠ مسجداً من أصل ١٤٠ (العدد الحقيقي حوالي ١٥٠٠) بقيت دون هدم، لكنها تركت مهملة ومنع ترميمها. ولكنه لم يذكر أن بعضها تحوّل إلى متحف مهمل مثل مسجد بئرالسبع الذي رفضوا السماح للمسلمين بالصلاة فيه وتحول البعض الآخر إلى مطعم وبار، أو اسطبل للخيول مثل جامع الكوفخة.

والقرى العربية ذات الآثار التاريخية تم ترميمها وإزالة الآثار العربية فيها واختراع تاريخ إسرائيلي مجيد لها، إذا كان ذلك مناسباً، وإلا فتطمس تلك الآثار وتدمر القرية. حدث هذا في قيسارية وكوكب الهوا. أما قرية عين حوض الجميلة فقد تحولت إلى قرية للفنانين، مثلها مثل الحي القديم في يافا، وأهل القرية الذين بقوا في إسرائيل منعوا من الإقامة فيها، فانشأوا مساكن لهم قرب قريتهم يراقبونها عن بعد، واعتبرت مساكنهم قرية «غير معترف بها»، أي لا تظهر على الخرائط ولا تصلها المياه والكهرباء وخدمات التعليم والصحة.

وفي حمى تدمير العمارة الفلسطينية وبناء علب خرسانية قبيحة لاستقبال المهاجرين على أنقاضها، دمرت إسرائيل جزءاً لا يعوض من تاريخ فلسطين. يقول الزوجان عالما الآثار دوثان، أنهما اكتشفا بالصدفة تدمير تل مُرّة قرب إسدود، أثناء إنشاء طريق نحو الميناء. وتل مُرّة هذا يحتوي على آثار لا نظير لها للبالشتيين (الفلسطينيين القدماء الذين استوطنوا في القرن الثالث عشر قبل الميلاد). وحدث مثل هذا التدمير في كثير من المستوطنات، عند حفر الأساسات أوحرث الحقول على عمق كبير. وكما يقول دوثان، لقد تحطمت كثير من الآثار وضاعت سجلات تاريخية للأبد، إلا ما تمكن اللصوص من اقتنائه، ومن أهمهم موشى ديان، الذي حصل لنفسه دون إذن أو تسجيل، على مجموعات تكفي لمتحف صغير.

ولم يقتصر التدمير على قطع أثرية، بل أزيلت من الوجود ٤١٨ قرية عربية التي أمكن معاينتها من أصل ٥٣١ قرية، دمر الثلثان منها تدميراً كاملاً والثلث الباقي دمر بدرجة أقل وتعيش فيه بعض العائلات اليهودية. وبعض القرى التي أزيلت كانت منارة مضيئة في التاريخ الفلسطيني بتراثها العريق المتمثل في أسمائها القديمة مثل: عمواس ويالو وبيت نوبا وأكاورن وسيفورس واليتروبوليس وكريتتيس وشافير وبيت داجون وجمزو وجابيل وأزتياه ونبلات وإيتام وجبعة. هذا هو الوجه البربري للصهيونية!

«اختلاق التاريخ الإسرائيلي وتغييب التاريخ الفلسطيني» الذي وصفه كيث ويتلام في كتابه الشهير، لم يقتصر على التاريخ القديم. يصف المؤلف في



١. بطاقة هوية

محمود درويش

سجل!.. أنا عربى

أنا اسمٌ بلا لَقَب

صَبُورَ فى بلادٍ كُلُّ ما فيها

يعيش بفَوْرةِ الغضب

جذورى . . قبل ميلاد الزمان رستْ

وقبل تفتُّحِ الحقبِ

وقبل السرو والزيتونْ

. . وقبل ترعرع العشبِ

أبى . . من أسرة المحراث

لا من سادة نُجُب

وجدى كانَ فلاحًا

بلا حسبِ . . ولا نسبِ!

يُعَلمنى شموخ الشمس قبل قراءة الكتبِ

وبيتى ، كوخُ ناطورِ

من الأعواد والقصبِ

فهل تُرضيك منزلتى؟

أنا اسمٌ بلا لقبِ!

سجل . . أنا عربى

سلبتُ كروم أجدادى

وأرضًا كنتُ أفلحها

أنا وجميع أولادى

ولم تترك لنا . . ولكل أحفادى

سوى هذى الصخور . .

فهل ستأخذُها

حكومتكم . . كما قيلا!؟



لقد كان بن جوريون واعياً لحساب التاريخ المكتوب، ويعلم تماماً أن عملية التطهير العرقى وطرد السكان والمذابح وصمة فى التاريخ الإنسانى، وليس اليهودى فقط. ويذكر المؤلف حوادث عديدة، لم يسجل فيها بن جوريون أوامر مكتوبة بل كان يجهر فى السجلات بعكس ما ينوى، وكان يعطى الأمر الحقيقى بإشارة من يده أو نظرة من عينيه أو السكوت

فصل ممتع كيف تكونت لجنة من الخبراء أشرف عليها بن جوريون نفسه فى مطلع إنشاء الدولة لكى تزيل من الخرائط كافة الأسماء العربية والإسلامية وتخترع لها أسماء عبرية، لكى تعطى الأماكن المحتلة شهادة ميلاد شرعية، تنفى عنها صفة اللقطاء. كان هذا صعباً جداً لأنه حتى الأسماء المذكورة فى التوراة كنعانية نقلت إليها كما كانت معروفة فى ذلك الحين. استمرت اللجنة فى عملها حوالى ٨ سنوات (ولازالت موجودة لتسميات جديدة) لتطمس الأسماء التى وجدتها فى خرائط فلسطين البريطانية. ومع ذلك، كانت حصيلة عملها أن اختارت ٣٣٣ اسما (من أصل ٥٣٣) إما محرّفة من العربية أو وضعت لها أسماء عبرية مشابهة صوتياً للأسماء العربية – كل هذا النحت والتزويق والتزوير لإعطاء صبغة عبرية لأرض لم تكن، لا فى زمان أو مكان لهما شأن فى تاريخ فلسطين الطويل، أرضاً عبرية. ووصل الأمر إلى حد مضحك، فتحول وادى ردادى إلى ناحال روديد، وأبوجروال إلى جورال، وأبو روثة إلى روث، وبيت دجن إلى بيت داجون، وفرادية إلى فارود، ودلاته إلى دالتون، وزرعين إلى يزرائيل، وكسلا إلى كسالون ويبنه إلى يافنه. كان هذا جهداً يائساً لطمس تاريخ عريق امتد ٤ آلاف عام، وكان جهداً كبيراً أيضا لأنه عندما بدأت اللجنة عملها فى إزالة وتغيير الأسماء كما ظهرت فى الجريدة الرسمية لحكومة الانتداب لم يكن أكثر من ٥٪ من الأسماء عبرياً، والباقى عربيا، رغم الاستيطان اليهودى لمدة ٣٠ عاماً تحت المظلة البريطانية.

أعترف بأن هذا الكتاب ممتع ومشوق ومؤلم أيضًا، ربما لأنه يأخذ القارىء العربى فى جولة فريدة مليئة بالتفاصيل والمفارقات والمآسى لفلسطين التى تركناها بعد النكبة. ولا يملك المرء بعد قراءته إلا أن يشعر للمرة الألف، إن لم يكن يشعر كل يوم بعد عام النكبة، بفداحة هذه النكبة وعظيم جرمها وهول بشاعتها.

يصف الكتاب، عن غير قصد طبعاً، الحوادث التى تبين دون شك أن تدمير فلسطين بناسها وعمرانها وتاريخها كان شرطاً أساسياً فى الخطة الصهيونية لإنشاء دولة إسرائيل. فإجلاء الأهالى عن ديارهم، فى أكبر عملية تطهير عرقى منظمة فى التاريخ الحديث، كان خطة سارية وإن كانت غير معلنة قبل نهاية الانتداب البريطانى، نفذتها العصابات الصهيونية التى أصبحت تسمى فيما بعد جيش «الدفاع» الإسرائيلى. كانت هذه أول مرحلة. وبعدها بدأت الثانية فى ٨ يونية، عندما قررت الحكومة المؤقتة لإسرائيل أن تتخذ قراراً سياسياً بمنع عودة اللاجئين، أبلغت به الدول الأجنبية والأمم المتحدة، بحجة أن العائدين إلى ديارهم سيكونوا طابورا خامساً يهدد سلامة إسرائيل. والمرحلة الثالثة عندما أسرعت «بتطفيش» اليهود من العراق والمغرب واليمن، ليسكنوا فى القرى الفلسطينية – رغم أن هؤلاء لاقوا من سوء المعاملة مالو عرفوه لم يهاجروا من ديارهم أبداً.

كان بن جوريون يعلم حق العلم أن السلام ضار بإسرائيل، فهو يريد تأمين غنائم الحرب، ولو وافق على السلام لخسر الأرض وعاد اللاجئون (ص ١٥١). لذلك أفشل جميع محاولات الصلح فى لوزان (١٩٤٩ – ١٩٥١) وخطّط لحرب العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ليحول خط الهدنة إلى حدود دائمة مقبولة.



إذن لولا إجلاء الفلسطينيين وتدمير قراهم وإحلال مهاجرين يهود مكانهم لبقى أهالى ٥٣١ مدينة وقرية فى ديارهم وهم الآن لاجئون عددهم الآن خمسة ملايين، ولبقى ٩٢٪ من إسرائيل (لوقامت) أرضاً فلسطينية، ولبقى الفلسطينيون ثلثى السكان واليهود الثلث، وهؤلاء اليهود معظمهم مهاجرون، شرعيون وغير شرعيين دخلوا البلاد خلال عهد الانتداب، ووجدوا أمامهم نسل ٥٦ ألف يهودى فقط كانوا فى فلسطين عندما دنس اللنبى أرض فلسطين بجيشه ودنس بلفور تاريخ فلسطين بوعده.

وإذ نكتب هذا اليوم، ونرى علي شاشة التليفزيون جريمة اغتيال الطفل محمد جمال الدرة إذ يحتمي بوالده من الوحشية الصهيونية، ندرك أن حرب فلسطين لم تنته بعد، وأن الصهيونية لا تزال ماضية في مشروعها لتدمير ما تبقى من فلسطين بشرًا وعمرانًا وتاريخًا وجغرافية. لكن الانتفاضة الفلسطينية، التى وجدت صداها في الهبة العربية والإسلامية والعالمية فى صورة لم يتصورها أحد، أثبتت أن هذا الشعب حى لن يموت، وأن حقه في وطنه لن يضيع، وأن عودته إلي «المكان المقدس» لا ريب فيها مهما طال الزمن، وبإزالة رجس المحتل يعود المكان مقدسًا فعلاً.

كيف تغيرت النظرة إلى العربى المسلم

فى إسبانيا المعاصرة؟

محمد فخرى الوصيف



مع حلول عام ١٤٩٢م (=٨٩٧هـ) دخل فرناندو (Fernando) وإيسابل (Isabel)، ملكا إسبانيا الكاثوليكيان، غرناطة ليضعا بذلك نهاية للعملية السياسية الحربية طويلة المدى المعروفة بحرب الاسترداد (لاريكونكستا La Reconquista)، والتى كان هدفها الأول قطع دابر دولة الإسلام من شبه جزيرة إيبريا، أو بعبارة أخرى القضاء الكامل على الأندلس. ومنذ ذلك الوقت، بدأت عملية أخرى، ثقافية هذه المرة، تعد واحدة من أكثر عمليات التحول الثقافى القسرى فى التاريخ. منذئذ شرعت جهود حثيثة فى اتجاه تحقيق هدف أساسى، ألا وهو الوحدة الثقافية. وهذه الوحدة كما فهمها ونفذها ملوك إسبانيا الكاثوليك ورجال الدين، ودافع عنها لفيف من المثقفين الإسبان، لا تكون إلا بإقامة دولة كاثوليكية إسبانية تحكم شعبا واحدا كاثوليكيا إسبانيًا. وبالتالى «تطهير» إسبانيا من كل ما ومن هو دخيل، أو من «الآخر» المختلف، الذى يدين بغير الكاثوليكية ويتكلم ويكتب بغير الإسبانية. وكان «الآخرون» - فى غالبيتهم - مسلمى الأندلس. وعليه، بدأ قرن طويل من الاضطهاد والتغريم والتعذيب، ثم التنصير والكثلكة والأسبنة، وذلك من خلال «ديوان التفتيش» الرهيب، وأخيرا الطرد فيما بين سنتى ١٦٠٩ و١٦١٤م. والمدهش أن «التطهير الثقافى» امتد حتى إلى مظاهر ثقافية أندلسية أخرى مثل الكتب واللباس والغناء والطعام، وغير ذلك، بل طال هذا فى أحيان بعض الإسبان الذين لحقتهم «شبهة» الاتصال بأحد مظاهر الثقافة العربية الإسلامية.

وخفت حدة الملاحقة منذ منتصف القرن السابع عشر، ورغم هذا استمرت أسس هذه السياسة الثقافية قائمة خاصة فى مناهج التعليم. فقُدِّمت - ولا تزال تقدم - القرون التسعة من الوجود الأندلسى (٩٢ - ١٠٢٢هـ = ٧١١ - ١٦١٤م) فى كتب التاريخ المدرسية الإسبانية ملخصة فى صفيحات، وبطريقة مبتورة مخلة، وفيها تحول الأجداد الأندلسيون إلى أغراب دخلاء محتلين، أو إلى «آخر» مغتصب هزم وطرد ليحتل موقعه فى الذاكرة القومية الـ«نحن» الذى تصدى وقاوم وانتصر. وعلى هذا الفكر تربت عشرات الأجيال الإسبانية.



مع بزوغ عصر الديمقراطية فى إسبانيا على إثر موت الجنرال فرانكو سنة ١٩٧٥م، تحولت أشياء كثيرة، وأصاب التغيير مناطق عديدة فى العقلية الإسبانية. وكان من المؤمل أن يلحق الذاكرة العدائية تجاه ما هو عربى وإسلامى شىء من التغيير الإيجابى، ولكن هيهات! فمع الديمقراطية تسارع الاتجاه نحو الأوربة، والتأكيد على انتماء إسبانيا للحضارة اللاتينية، وبالتالى إلى غرب أوروبا، وذلك بغية اللحاق بقطار السوق الأوروبية المشتركة (الجماعة الأوروبية فيما بعد، ثم أخيرًا الاتحاد الأوروبى). وبالفعل تم انضمام إسبانيا والبرتغال إلى هذا التجمع الأوروبى الهائل سنة ١٩٨٢.

من النتائج الثقافية لهذا الالتحاق أن «النحن الإسبانى» أصبح ينتسب إلى «نحن» أوسع، هو الغرب الأوروبى الغنى القوى المتحضر، والذى بدوره يلتقى مع الجناح الآخر من الأطلنطى، أى الولايات المتحدة الأمريكية، مشكلا «النحن الغربى الكبير» الجبار المنتصر. ولأن هذا «النحن» له نفس الرؤية عن «الآخر»: العربى المسلم، وهى رؤية سلبية بوجه عام، فقد تلاقت الرؤيتان مكونة نظرة واحدة هى تقريبًا السائدة فى كل «الغرب الكبير»، والمتأججة اليوم بفعل دوافع سياسية واجتماعية معينة، مع بعض الاختلافات والتنويعات الشكلية حسبما تمليه ظروف كل بلد.

من ثم، فإن هذا «الآخر»: العربى المسلم مختلف مثير غرائبى، متخلف فكريا وحضاريا، متعصب إرهابى، هو الجار الفقير المتنمر، عدو الأمس ومنافس الغد. هذه النظرة تقريبًا هى ذاتها المتحكمة فى الأفق الإسبانى رغم وجود أصوات حرة تمجد الأندلس وعظمة حضارتها ودورها الإنسانى العالمى، بل وتناصر القضية العربية، مثل الكاتب الروائى خوان جويتيصولو (Juan Goytisolo)، والكاتب الروائى المسرحى أنطونيو جالا (Antonio Gala). ولكن هذه الأصوات فى المحصلة الأخيرة تبدو خافتة وسط هدير الماكينة الإعلامية التى تردد فى الغالب نفس الصوت الغربى، إن لم تكن صداه.

قد تدهش هذه الرؤية القارئ العربى الذى يحمل لإسبانيا ودًا خاصا لكونها - مع البرتغال توأمتها الإيبيرية - أرض «الأندلس» وحاملة جيناته إلى ربوع أوروبا. ولكن كما أصبحت الأندلس أثرًا بعد عين، أو «فردوسا مفقودًا»، كما يحلو للبعض أن يقول، تحولنا «نحن» - العرب المسلمين - إلى «آخر» يكاد أن يكون مجهولاً، إن لم يكن معاديا، مثلما هو الحال فى باقى «الغرب الكبير».

وليس أكثر دليلاً على استقرار هذه الرؤية السلبية فى البنيان الإسبانى من تغلغلها فى نظام التعليم العام، بل إنه يسهم بدوره فى ترويجها وترسيخها، ربما بقدر يفوق أجهزة الميديا: لأن ما يعلم فى مراحل العمر الأولى يبقى ويثبت. فمنذ حوالى عامين (مدريد ١٩٩٨) صدر كتاب إسبانى مهم بعنوان الإسلام والعالم العربى: مرشد تعليمى للمعلمين والمربين (El islam y el Mundo Arabe. Guia dida`ctica para brofesores y formadores)، صادر عن AECI، وهى هيئة حكومية. هذا الكتاب يفحص ويحلل المناهج التعليمية التى تتناول موضوع الإسلام والعرب فى مراحل التعليم ما قبل الجامعى، ويقدم فى ذات الوقت الرؤية البديلة الإيجابية من خلال عرض موضوعى شامل وموجز لتاريخ العرب والمسلمين الوسيط والحديث والمعاصر.



مؤلفات هذا الكتاب وهن: خيما مارتين مونيوث (Gema Martin munoz) وبيغونيا باييه سيمون (Begona Aalle Simon) ومارية أنخليس لوبث بلاثا (M. Angeles Lopez Plaza) يرين بوجه عام أن الكتب المدرسية الإسبانية تعالج الموضوعات الخاصة بالعرب والإسلام بشكل سطحى ومشوش، فضلاً عن ضآلة المادة التى تدرس الحياة الاجتماعية والأدبية، مما يؤدى إلى أن الطالب ما قبل الجامعى ينهى دراسته بتعليم غير صحيح وغير كاف عن العرب والمسلمين.

ويشير الكتاب إلى اتجاهين يسيطران على المادة المقدمة. الأول: الميل إلى تعميم ما يحدث فى بلد معين وفى فترة زمنية معينة على كل العالم الإسلامى. والثانى: اتخاذ المفاهيم والمبادئ الغربية كأسس وحيدة لدراسة الإسلام. كما لا يُدْرس الإسلام بنفسه، بل من حيث علاقته بالغرب. فعلى سبيل المثال، تتركز دراسة الخلافة الإسلامية من حيث علاقتها بالدولة البيزنطية، والأندلس من جهة علاقتها بالممالك المسيحية الإسبانية، والإمبراطورية العثمانية من خلال علاقتها بالدول الأوروبية وكذلك تأخذ موضوعات العالم الإسلامى طابعا انتقائيا حسبما تمليه مصالح الغرب، مثلا يحظى موضوعا البترول والتطرف الإسلامى بأهمية كبرى على حساب باقى الموضوعات.

وأيضًا يأخذ الكتاب على مؤلفى الكتب المدرسية إدلاءهم بآرائهم المنحازة ضد العرب والمسلمين من خلال استخدام معجم منحاز وألفاظ مغرضة من قبيل: «الخطر» - «الغضب» - «الخوف» - «التهديد» - «التعصب» - «الأصولية».

والنتيجة أن الانطباع الذى يخرج به الشاب حديث السن عندما يكمل تعليمه العام أن الإسلام مصدر أول وأساسى للصراعات السياسية والاجتماعية فى مناطق متعددة من العالم. وهذا بالطبع يؤسس لدى الطالب رؤية سلبية عن المسلم والعربى، وأن العالم العربى الإسلامى هو المثال الحى على الرجعية والجمود وعدم الأهلية على الحداثة وذلك بسبب تعصبه الدينى ومواجهته العدائية مع الغرب. ومع الأسف تظل هذه الرؤية هى المتحكمة فى فكر وسلوك الإسبانى تجاه العربى والمسلم، أو تجاه «الآخر»، وقليل من يبحث عن الحقيقة بدافع شخصى، وتظل الأغلبية على ما أخذته، ثم تأتى الميديا لترسخ هذه الرؤية السلبية، وينتهى الأمر بـ«الآخر» إلى أن يصبح مجهولاً ومخيفًا فى ذات الوقت، وبالتالى يصبح من المنطقى تجنبه والاستعداد لمواجهته.

وقد قدمت مؤلفات الكتاب عشرات الأمثلة التى تدل على تلك النظرة المغلوطة تجاه العرب والمسلمين، وهى أمثلة مأخوذة من ٥٣٣ كتابًا مدرسيًا من الكتب المقررة فى مراحل التعليم العام، وهذه الكتب جميعها صادرة فيما بين سنتى ١٩٧٩ و١٩٩٣، أى خلال عصر الديمقراطية الحالى. وهذه إشكالية يمكن أن تعبر عنها الأسئلة التالية:

أليست الديمقراطية فى بعدها الأعلى انفتاحًا على «الآخر»؟

أليست رفضا للتقوقع داخل الذات التى تكون هنا الدائرة الثقافية الغربية؟

أليست رفعًا للقيود التى تحجب «الآخر» على نحو موضوعى؟

وأخيرًا فإنه من المأمول أن يكون موضوع النظرة السلبية تجاه العالم العربى الإسبانى، وأخالها تقريبًا نفس النظرة فى باقى دول غرب أوروبا، ضمن الموضوعات المطروحة للحوار فى عملية برشلونة بين الاتحاد الأوروبى ودول حوض البحر المتوسط غير الأوربية، وأن يكون هذا ضمن إطار أوسع وأشمل بين الغرب من جهة والعالم العربى الإسلامى من جهة أخرى. ولا ريب أن الدعوة لمثل هذا الحوار بات من الهموم الثقافية التى تشغل اليوم بال جماعة من المثقفين فى الشرق والغرب على السواء: فاللقاء المستمر والحوار المتبادل بين «الآخر» و«الآخر» هو السبيل الصحيح للتخفيف من حدة - ولا أقول إزالة - حجب الجهل والتجاهل والخوف والعداء.

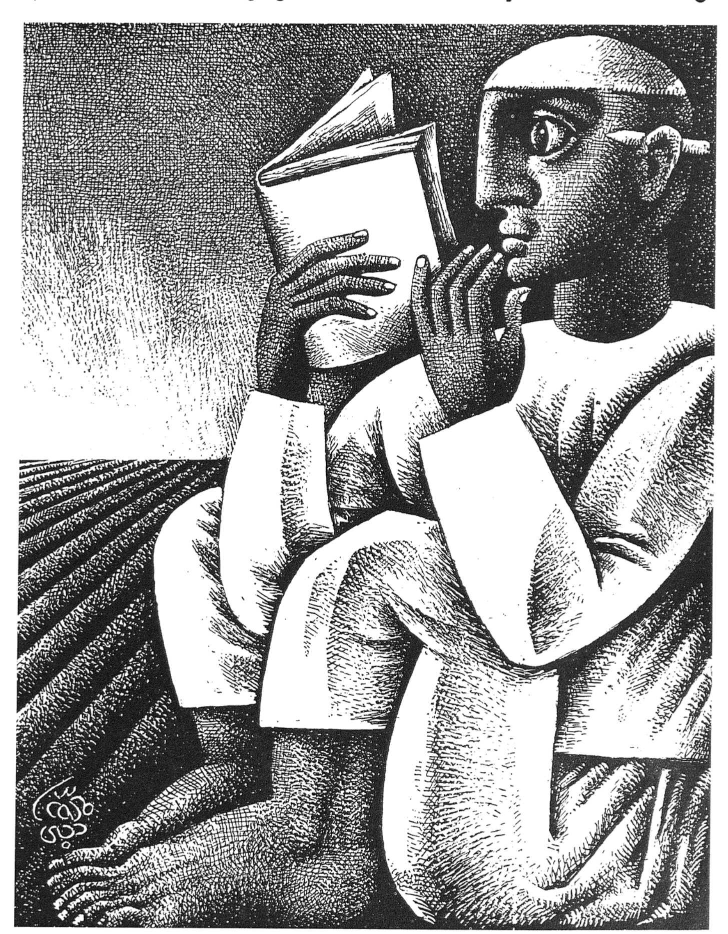
El islam Y El mundo Arabe.

الإسلام والعالم العربى.

Gema Martin Munoz, Begon Valle Simon, M. Angeles plaza.

دار نشر AECI - مدريد ١٩٩٨.

أزمة الإنسان والكتاب



قــاســم عـبـــده قــاســـم

كانت الكتابة أهم اختراعات الإنسان على الإطلاق. ثم كانت الطباعة نقلة نوعية هائلة فى الأدوات المعرفية للإنسان؛ ومن هنا نشأت العلاقة بين الإنسان والكتاب وتطورت واتخذت شكلاً حميميًا لم ينشأ بين الإنسان وأى من اختراعاته الأخرى. وعلى الرغم من تطور الأدوات المعرفية، السمعية والبصرية التى اخترعها الإنسان، فإن الكتاب يظل صاحب الحظوة فى علاقته الخاصة بالإنسان لأنه يصحبه فى أى مكان، ولأنه يترك لخياله مراحًا مناسبًا من ناحية أخرى. ولكن العلاقة بين الإنسان والكتاب فى العالم العربى تشهد حاليًا تراجعًا مخيفًا يوازيه تراجع مخيف فى مستوى الوعى العام وفى مستوى البناء المعرفى لدى الفرد. وهذه الدراسة تحاول رصد الظاهرة وتفسير بعض جوانبها من خلال قراءة ما جرى.

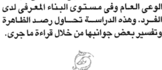


إن إنجازات البشر كلها قد تمت فى الفترة التى عرف فيها الكتابة على الرغم من أنها تمثل عشرة بالمائة من عمر الإنسان على الأرض. وهو ما يوضح لنا مدى التأثير الإيجابى الذى تركته الكتابة على الحياة الإنسانية والكيفية التى أدت بها إلى إعادة بناء الحياة الإنسانية

كان الكاتب يملى كتابه على ناسخ محترف، أو يكتبه بنفسه، ولم يكن ممكنًا إنتاج عدد من النسخ يزيد على أصابع اليد الواحدة فى حياة المؤلف. ومن ثم كان طبيعيًا أن النصوص كانت تكتب بطريقة تتيح قراءتها على جمهور من السامعين، وأدى ذلك بالضرورة أن صار «الحفظ» و«الرواية» من الفضائل العلمية والثقافية

مع اختراع «النظارة» عند بداية القرن الرابع عشر، زاد معدل «عمر القراءة» عند الإنسان؛ وبالتالى زادت عوامل الألفة والخصوصية فى العلاقة بين الإنسان والكتاب. ورويدًا رويدًا تخلى الناس عن عاداتهم فى القراءة بصوت عال (على الرغم من أن بعض الطلاب لا يزالون يصرون على هذه القراءة المسموعة)





ولنبدأ القصة من أولها...

كان وجود الجماعات البشرية، ولايزال، مرتبطًا بوجود اللغة. ولا يمكن أن نتصور، طبعًا، أن توجد جماعة إنسانية دون وجود لغة تربط بين أفرادها برباط من التفاهم والاتصال والتواصل. ومن البديهى أن لغات الجماعات الإنسانية الأولى كلها كانت شفاهية؛ إذ كانت تلك هى الوسيلة الوحيدة المتاحة لنقل المعلومات والمعارف والأفكار داخل الجماعة الإنسانية. ومن الأمور التى تلفت النظر فى قصة اللغة أن معظم اللغات التى تكلم بها البشر ظلت شفاهية ولم تعرف الكتابة أبدًا. بل إن علماء اللغة يخبروننا أن البشر فى عالم اليوم يتحدثون حوالى ثلاثة آلاف لغة ليس من بينها سوى ما يقرب من ثمان وسبعين لغة لها أدب مكتوب. ومن ناحية أخرى، فليست هناك وسيلة متاحة، حتى الآن، يمكن أن نحصى بها اللغات التى اختفت تمامًا قبل أن تعرف الكتابة (انظر تفاصيل هذه المناقشة فى: أونج، الشفاهية والكتابية، ترجمة حسن البنا عز الدين، عالم المعرفة ١٨٢، سنة ١٩٩٤م، ص ٢٤ وما بعدها).

ثم عرف الإنسان الكتابة التى كانت أهم إبداعات الإنسان التكنولوجية على الإطلاق، بيد أننا يجب أن نلاحظ أن الكتابة جاءت بعد تطورات كثيرة فى تاريخ الإنسانية المعرفى والثقافى. فقد ظل الإنسان زمنًا طويلا يعتمد على التواصل الشفاهى من ناحية، ثم بدأ يعتمد على الكتابة التصويرية من ناحية أخرى. وقد كانت الكتابة التصويرية تعانى من نقص إمكانيات التطور الذاتى بسبب قيامها على أساس من تصوير معانى الكلمات. ولكن أجدادنا فى المنطقة العربية تمكنوا من ابتكار الأبجدية التى وضعت رموزًا شفرية لكل الأصوات التى تشكل الكلمات التى ينطق بها البشر. وبذلك زادت إمكانيات اللغة زيادة هائلة.

هكذا، إذن، كانت الكتابة نقلة معرفية هائلة. إذ إنها جاءت بحروف نقلت الكلمة من حيز المسموع إلى حيز المرئى. والكتابة عبارة عن نظام شفرى من العلامات البصرية التى يستطيع الكاتب من خلالها أن يقدم الفكرة والمعلومات إلى قارئ يشترك معه فى فهم هذه الشفرة. ولهذا السبب أمكن للإنسان أن يتواصل مع إنسان آخر لا يعيش معه فى نفس المكان أو نفس الزمان. وإذا كانت الشفاهية قد قيدت حدود التواصل الإنسانى داخل زمان بعينه وفى إطار مكان محدد، فإن الكتابة كسرت هذه الحدود وأطلقت الفكر البشرى فى رحابة الزمان والمكان. وهذا هو السبب فى أننا نقول إن الكتابة كانت أخطر ابتكارات الإنسان التكنولوجية. فقد أدت الكتابة إلى إعادة بناء الحياة الإنسانية وربطت الإنسان بتراثه وتاريخه، كما أدت إلى أنماط من التراكم المعرفى كانت من أهم أسباب تقدم البشرية. وإذا كان هذا يصدق على الكتابة عمومًا، فإنه يصدق بشكل خاص على الكتابة بالحروف الهجائية، أو الأبجدية.

ويرى بعض العلماء أن عمر الإنسان على الأرض حوالى خمسين ألف سنة، على حين كان ظهور أول كتابة حقيقية سنة ٢٥٠٠ ق.م، أى منذ حوالى أربعة آلاف وخمسمائة سنة. ويلفت النظر هنا أن إنجازات البشر كلها قد تمت فى الفترة التى عرف فيها الكتابة على الرغم من أنها تمثل عشرة بالمائة من عمر الإنسان على الأرض. وهو ما يوضح لنا مدى التأثير الإيجابى الذى تركته الكتابة على الحياة الإنسانية والكيفية التى أدت بها إلى إعادة بناء الحياة الإنسانية.

وإذا كانت الكتابة، بحد ذاتها، نقلة من الكلام الشفاهى إلى الكلام المكتوب، أى نقلة من عالم الصوت إلى الفراغ المرئى. وما نتج عن ذلك بالضرورة من تطورات إيجابية فى تاريخ الإنسانية، فإن الكتابة هى التى ساعدت أيضًا على تطوير وتحسين إمكانيات اللغة بشكل لا يمكن قياس مداه. إذ إن الكتابة تعيد بناء الفكر الإنسانى من خلال رصيدها المخزون من ناحية، كما أنها تمنح اللغة قوة ذاتية لا تدانيها قوة أية لهجة شفاهية خالصة من ناحية أخرى. وتفسير ذلك أن الكتابة تتيح للغة أن تختزن رصيدًا من الكلمات يزيد زيادة مطردة مع امتداد تاريخ هذه اللغة، كما أن الكتابة تتيح لنا معرفة التطور التاريخى لدلالات الكلمات عبر عصور استخدام اللغة. ومن هنا تزداد قدرة اللغة على تطوير ذاتها وإعادة استخدام رصيدها المخزون من الكتابة.

فإذا ما أخذنا اللغة الإنجليزية الرسمية مثالاً، لوجدنا أنها تضم حوالى مليون ونصف مليون كلمة تستخدم حاليًا، على الرغم من أن مفردات كثيرة فى هذه اللغة تمت استعارتها من الفرنسية التى كانت لغة الحكم والإدارة والأدب منذ أن قام وليم الفاتح بغزو إنجلترا سنة ١٠٦٠م. وفضلاً عن ذلك، فإن الباحثين المتخصصين يعرفون المعانى الكثيرة التى كانت هذه الكلمات تحملها فى الماضى. وتنسحب هذه الحقيقة، مع اختلاف الأرقام، على اللغة العربية واللغة الفرنسية .. وكافة اللغات المكتوبة. وفى المقابل، لا نجد أية لهجة شفاهية تمتلك من المفردات ما يزيد على عدة آلاف كلمة ولا يمكن معرفة التطور التاريخى لهذه الكلمات.



ويطول بنا الحديث كثيرًا إذا فكرنا فى رصد التأثيرات الهائلة التى تركتها الكتابة على الحياة الإنسانية. ولكن الانتقال من الكتابة إلى الطباعة (منذ اختراع طباعة الحروف المنفصلة فى أوروبا القرن الخامس عشر على أساس من تطوير الطباعة الصينية التى كانت معروفة قبل ذلك التاريخ) قد خلق تأثيرات بعيدة المدى على كيفية استخدام الفراغ المرئى بطريقة أفضل من الكتابة اليدوية. وهو ما أدى بدوره إلى استبعاد الشفاهية وعالم الصوت من الصورة تمامًا. ذلك أن الكتابة لم تستطع أن تزيح الشفاهية عن عرشها سوى بعد الطباعة. إذ كانت الكتابة اليدوية تستخدم الفراغ المرئى بشكل جمالى أحيانًا، ولكن خدمة للأداء الشفاهى للغة فى معظم الأحيان. كما أن الطباعة قضت على ما بقى من قيمة للشفاهية بفضل تطور أساليبها. ففى عصور ما قبل الطباعة كانت الكتابة لا توفر سوى عدد قليل من النسخ المخطوطة من أى كتاب، إذ كان عدد الذين يعرفون الكتابة قليلاً تمامًا فى كل مكان. كما كان عدد الذين يعرفون القراءة أكثر من عدد أولئك الذين يحسنون الكتابة: فالكتابة كانت، ولا تزال، أصعب كثيرًا من القراءة. وهذا هو السبب فى أن الشفاهية وعالم الصوت ظلت هى الحيز المناسب للعلم والثقافة والمعرفة فى العصور القديمة وفى العصور الوسطى على حد سواء.

فقد كان الكاتب يملى كتابه على ناسخ محترف، أو يكتبه بنفسه، ولم يكن ممكنًا إنتاج عدد من النسخ يزيد على أصابع اليد الواحدة فى حياة المؤلف. ومن ثم كان طبيعيًا أن النصوص كانت تكتب بطريقة تتيح قراءتها على جمهور من السامعين، وأدى ذلك بالضرورة أن صار «الحفظ» و«الرواية» من الفضائل العلمية والثقافية. ومن يقرأ المخطوطات الكثيرة التى حفظها الزمن من تراث الحضارة العربية الإسلامية سيكتشف هذه الحقيقة من خلال العبارات الدالة: مثل عبارة «تأليف فلان برواية فلان» أو من خلال

أزمة الإنسان والكتاب

بعض الدول العربية تعامل الكتاب على أنه عدو محتمل ولا يمكن السماح بدخوله إلا بعد أن يثبت أنه حسن السير والسلوك، وبعض دول العرب تعامله معاملة الضيف الثقيل، على حين أن البعض الآخر يتعامل مع الكتاب باعتباره سلعة استهلاكية يمكن أن تكسب الدولة من فرض الرسوم والجمارك عليها في كل مرحلة من مراحل تصنيعها

الطرائف وقصص الخوارق والمعجزات التي تعترض سياق النص. وهي كلها أشبه بالتوابل التي تزيد من انتباه السامع إلى النص المقروء وسط حلقة من السامعين.

وفي أوروبا العصور الوسطى، في الفترة ما بين سنة ٨٠٠ وسنة ١٢٠٠م تقريبًا، ارتفعت تكاليف إنتاج الكتاب كثيرًا؛ إذ كانت لفافة البردي المستوردة من مصر قد اختفت وحلت محلها جلود الرق الغالية الثمن والتي كان يتم تجهيزها على شكل رزم تخاط سويًا وحولها غلاف سميك يحفظها من التفكك. واختفى العبيد المتمرسون على أعمال النسخ الذين عرفتهم الإمبراطورية الرومانية، وصار الكتاب بحد ذاته شيئًا نفيسًا يمكن تداوله من خلال الهدايا أو التبادل، أو البيع بأثمان باهظة. وفي ذلك الحين كانت حجرات النسخ Scriptoria التي انتشرت في الأديرة والكاتدرائيات هي مراكز إنتاج الكتاب الرئيسية. وفي بعض الأحيان كان الرهبان والقساوسة يستأجرون النساخين والفنانين المحترفين لنسخ المخطوطات وتوشيتها بالرسوم التوضيحية. ومع هذا فإن المؤلفين كانوا يتوقعون أن تقرأ كتبهم بصوت عال لحلقة من السامعين؛ ولذلك كان المؤلف يضع في اعتباره، منذ اللحظة التي يبدأ فيها تأليف كتابه، الكيفية التي سيتم بها «الاستماع» إلى هذا الكتاب. (انظر مزيدًا من التفاصيل في: بيرل سمالي، المؤرخون في العصور الوسطى، ترجمة قاسم عبده قاسم، دار المعارف ١٩٨٤م، ص ١٣-٢٠).

هكذا، كان للشفاهية تأثيرها المباشر على الكتاب قبل اختراع الطباعة. إذ إن التعامل مباشرة مع جمهور السامعين كان له تأثيره على مضمون الكتاب بقدر ما كان له تأثيره على شكل هذا الكتاب أيضًا. فالقارئ الذي لا نراه قد يغلق الكتاب متثائبًا إذا ما أحس بالضجر، ولكن المستمعين الذين نراهم يعبرون عن ضجرهم بطريقة واضحة. فالكاتب الذي يخاطب الأذن لابد أن يلجأ إلى كل حيلة ممكنة لكي يحوز رضاء سامعيه ويجذب انتباههم. وسواء كان يخاطب جمهوره مباشرة، أو يتخيل أن أحدًا غيره سوف يقرأ لهم كتابه، فإنه كان يتوخى التأثير البلاغي في سامعيه. لقد كان الكتاب والمؤلفون، قبل الطباعة، يخاطبون جمهورهم باعتبارهم «قراء» وباعتبارهم «مستمعين» في آن واحد.

من هنا اكتسبت الطباعة أهميتها وخطورتها؛ إذ إنها أتاحت نشر المعرفة والعلم على نطاق واسع لم يعرفه العالم من قبل، كما تركت تأثيرات إيجابية متزايدة على الوعي الإنساني، فضلاً عن أنها ساعدت بشكل غير مسبوق على نشر معرفة القراءة والكتابة. بل إن البعض يذهب إلى أن الطباعة هي التي جعلت نهضة الغرب نهضة دائمة. وعلى أية حال، فإن ما يهمنا في هذه الدراسة هو أن الطباعة هي التي خلقت الفرصة للعلاقة الحميمة بين الإنسان والكتاب. فقد وفرت الطباعة إمكانية إنتاج كتاب زهيد الثمن وبأعداد كبيرة بحيث يمكن للإنسان أن يشتري نسخة خاصة به، يقرأها وحده، وقتما يريد وحيثما يشاء، دون أن يضطر إلى مشاركة الآخرين في المكان والزمان «للاستماع» إلى الكتاب. ومع اختراع «النظارة» عند بداية القرن الرابع عشر، زاد معدل «عمر القراءة» عند الإنسان: وبالتالي زادت عوامل الألفة والخصوصية في العلاقة بين الإنسان والكتاب. ورويدًا رويدًا تخلى الناس عن عاداتهم في القراءة بصوت عال (على الرغم من أن بعض الطلاب لا يزالون يصرون على هذه القراءة المسموعة). ومع مرور الزمن صار من عادات القراءة أن يجري القارئ بعينيه فوق سطور الكتاب دونما صوت، وهو الأمر الذي يدل مرة أخرى على خصوصية العلاقة بين الإنسان والكتاب.

ولأن المعرفة ضرورة اجتماعية لكل الجماعات البشرية، فإن الكتاب صار من أهم الوسائل التي يستخدمها الإنسان لتلبية هذه الحاجة الاجتماعية الضرورية. وعلى الرغم من وجود الوسائل الشفوية والسمعية والبصرية، قبل ظهور الكتاب وبعده، فإن الكتاب انفرد بالعلاقة الحميمة مع الإنسان. ولعل ما يلفت النظر حقًا في هذا الموضوع أن الكتاب يتربع على قمة الوسائل المعرفية في المجتمعات التي ابتكرت الوسائل السمعية والبصرية الحديثة (الراديو، والسينما، والتليفزيون، والكمبيوتر ..وغيرها)، على حين تتعرض العلاقة بين الإنسان والكتاب في العالم العربي لتراجع مزعج ومخيف!!

ويثور سؤال يطرح نفسه بإلحاح: لماذا؟

هذا السؤال طرح نفسه في العقود الأخيرة بأشكال متعددة ولكنها تصب جميعًا فيما اصطلح على تسميته «أزمة الكتاب» في العالم العربي. وقد أريق الكثير من الحبر وسودت عشرات الصفحات، وعقدت ندوات ومؤتمرات تحاول الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بما اتفق على أنه «أزمة الكتاب». وعلى الرغم من أن هذه المحاولات قد أثمرت بشكل طيب، فإن جانبًا مهمًا قد غاب عن المناقشات والمساجلات؛ وهو الجانب الذي يبحث «أزمة العلاقة بين الإنسان والكتاب في العالم العربي» بدلاً من أزمة الكتاب.

والمسألة، في تقديري، ليست مجرد تغيير في عنوان موضوع مهم، بقدر ما هي محاولة للنظر إلى الموضوع من زاوية جديدة. كما أن هذه الدراسة ليست نفيًا، أو رفضًا، لاجتهادات سبقت في الموضوع؛ وإنما هي محاولة إضافة تعزز الاجتهادات السابقة، ودعوة إلى مناقشة أوسع وأكثر رحابة لموضوع يمثل نقطة ارتكاز حيوية في بناء مستقبل أجمل نحلم به، ولكننا لا نبذل من الجهد ما يكفي لبنائه.

وكثيرًا ما تطرقت المناقشات حول «أزمة الكتاب» في العالم العربي إلى الجوانب الاقتصادية والإدارية والمالية والسياسية والأمنية التي تعوق ازدهار صناعة الكتاب في العالم العربي. وهذه كلها أمور حقيقية لا شك في أنها تقف حجر عثرة أمام قيام علاقة جيدة بين الإنسان والكتاب؛ إذ إن بعض الدول العربية تعامل الكتاب على أنه عدو محتمل ولا يمكن السماح بدخوله إلا بعد أن يثبت أنه حسن السير والسلوك، وبعض دول العرب تعامله معاملة الضيف الثقيل، على حين أن البعض الآخر يتعامل مع الكتاب باعتباره سلعة استهلاكية يمكن أن تكسب الدولة من فرض الرسوم والجمارك عليها في كل مرحلة من مراحل تصنيعها.



هذه الأسباب، إلى جانب التأثيرات السياسية الناجمة عن حالات المد والجزر في علاقات الدول العربية ببعضها، من أهم الأسباب التي أدت إلى عدم ازدهار صناعة الكتاب في العالم العربي حقًا، كما أنها تركت تأثيراتها السلبية على العلاقة بين الإنسان والكتاب. بيد أن هناك بعدًا آخر يمكن أن يساعدنا على تفسير «أزمة العلاقة بين الإنسان والكتاب في العالم العربي». فعلى الرغم من كثرة عدد السكان النسبي، وعلى الرغم من أن نصفهم على أقل تقدير قد أفلتوا من براثن الأمية، فإن أوسع الكتب انتشارًا في العالم العربي لا تطبع منه سوى عدة آلاف قليلة لا تتناسب مع عدد الملايين القارئة في البلاد العربية. وإذا ما استثنينا الكتب الدراسية، فإن توزيع الكتاب في العالم العربي يعاني أزمة حقيقية على الرغم من كثرة عدد المعارض وأسواق الكتب.

ولأن هذه الدراسة لا تحاول رصد «أزمة الكتاب» وتفسير أسبابها فإن الإشارة السريعة إلى بعض جوانب الأزمة وأسبابها يمكن أن تكون كافية في هذا المجال. ولكن هذه الدراسة تحاول فهم العلاقة بين الإنسان والكتاب من خلال القراءة الاجتماعية والنفسية لهذه العلاقة.

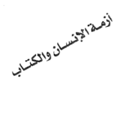
ولأن العلاقة بين الإنسان والكتاب علاقة متعددة الجوانب من ناحية، ولأنها تعبير عن تراث المجتمع وثقافته ونظامه القيمي والأخلاقي من ناحية ثانية، ولأن هذه العلاقة حصاد تفاعل تاريخي طويل بين الكلمة المكتوبة والفكر الإنساني من ناحية ثالثة، فإن بناء العلاقة بين الإنسان والكتاب يبدأ مع بداية تعلم الإنسان القراءة والكتابة. وهذه البداية هي التي يمكن أن تشكل علاقة الفرد بالكتاب طوال حياته. وتفسير ذلك أن الإنسان الفرد يبدأ بناء علاقاته بالعالم، وتشكيل رؤيته لمفردات هذا العالم، من خلال بيئته والثقافة السائدة بها ومنظومة القيم والمثل العليا السائدة. وهذا كله هو الذي يحفز الإنسان الفرد على بناء علاقات إيجابية في اتجاه ما، ونبذ علاقات أخرى في اتجاه غيره. وينسحب هذا الكلام، بطبيعة الحال، على الإنسان في العالم العربي.

فما هي حكاية العلاقة بين الإنسان والكتاب في العالم العربي؟ وأين وصلت؟

تبدو علاقة الإنسان العربي بالكتاب المطبوع متأخرة زمنيًا عن علاقة الإنسان الأوروبي بالكتاب، على الرغم من أن علاقة العرب بالكتابة قديمة قدم الكتابة نفسها. ومع أن العرب، أو بعضًا منهم على الأقل، عرفوا إنجازات تكنولوجية أقل في أهميتها من الطباعة بعد استخدامها في أوروبا بسنوات قليلة (مثل القطار والسيارة والترام والسينما .. وغيرها) فإن معرفتهم بالطباعة تأخرت عن أوروبا بحوالي ثلاثة قرون. وربما يمكن تفسير ذلك في ضوء الظروف التاريخية الموضوعية التي حكمت العالم العربي آنذاك. ومع هذا، وربما بسبب هذا، حاول العرب في مصر وبلاد الشام تعويض ما فاتهم في مجال الكتاب المطبوع، وتمكنوا في وقت قصير من بناء علاقة راسخة الأركان بين الإنسان العربي والكتاب؛ اعتمادا على تراثهم الوفير من المخطوطات التي شملت كل نواحي المعرفة الإنسانية في عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وعلى مفاهيم وقيم العلم الكامنة في مجتمعاتهم برغم تخلفهم السياسي وتدهورهم الاقتصادي. وتجلت هذه الحقائق في الآلاف من عناوين الكتب التي طبعت في العالم العربي، أو خارجه، تحمل جوانب من التراث العربي، أو ترجمات للفكر الأوروبي الحديث، أو مؤلفات تتناول الجوانب المتنوعة والمثيرة للحياة العربية في ذلك الحين.

وعلى الرغم من محنة الاحتلال الأوروبي لبلدان العالم العربي، فإن الاهتمام بالعلم والتعليم اتخذ شكلا إيجابيا متصاعدا بلغ ذروته في قيام الجامعة المصرية بجهود أهلية وتبرعات فردية. وكان قيام الجامعة المصرية عملا من أعمال المقاومة الوطنية ضد الاحتلال بكل المعايير. وقد لعبت الجامعة دورا مهمًا في توطيد العلاقة بين الإنسان والكتاب في العالم العربي لاسيما بعد أن توالى بناء الجامعات في شتى أرجاء المنطقة العربية.

ونشأت أجيال عديدة من أبناء العرب على احترام الكتاب وعلى تقدير قيمة العلاقة الحميمية بين الإنسان والكتاب. وحين بدأ التعليم يأخذ شكله الحديث في مرحلة ما قبل الجامعة كان الكتاب عماد هذا التعليم الحديث بطبيعة الحال، وكانت العلاقة بين الإنسان والكتاب تأخذ شكلا جيدا وإيجابيا بسبب نجاح المدرسة في بناء علاقة إيجابية ومحترمة بين الإنسان والكتاب: فمن حيث الشكل كان الكتاب مقبولا بمقاييس ذلك الزمان وحسب الإمكانيات الفنية للطباعة آنذاك، ومن حيث المضمون كانت



الكتب تحتوى على مادة مقبولة وجميلة فى موضوعات القراءة والأدب والعلوم فى سنوات التعليم الأولى، وكانت وراءها فلسفة لبناء معرفى متكامل من خلال الكتاب؛ إذ لم يكن الكتاب وسيلة تعليمية فحسب؛ وإنما كان وسيلة تثقيف وترفيه أيضا. كذلك كانت هناك فرصة طيبة للاستمتاع بالكتاب خارج نطاق الدروس، سواء كان الكتاب يضم بين صفحاته رواية، أو مجموعة قصصية، أو معارف عامة. فقد كانت المدارس توفر نظاما تعليميا متكاملا يتيح للتلاميذ وقت الفراغ المناسب لممارسة هواياتهم المختلفة.



وخارج أسوار المدرسة والجامعة كانت البيئة الثقافية حافزة ومشجعة، إذ إن دور النشر الكثيرة تنافست فى تقديم الكتاب زهيد الثمن جيد المضمون حسن الإخراج. وخلال فترة الستينيات من القرن العشرين بلغت العلاقة بين الإنسان والكتاب فى العالم العربى ذروتها؛ وتنافست العواصم العربية على النشر والقراءة. وربما كان المد القومى الحماسى والمشروع القومى الذى تعلقت به آمال العرب من أسباب رواج صناعة الكتاب وازدهار العلاقة بين الإنسان والكتاب.



ثم جاءت فترة السبعينيات من القرن الماضى بأعاصيرها السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية، وجرى ما جرى... وتدفقت فى نهر الحياة العربية مياه كثيرة وعنيفة غيرت البيئة الثقافية والتعليمية فى معظم بلاد العالم العربى، وتبدلت المفاهيم والقيم والمثل العليا، وابتليت المنطقة العربية بحالة من السيولة الفكرية والثقافية. وخضع نظام التعليم لهزات عنيفة وتجارب عشوائية. وكان طبيعيا أن تتأثر العلاقة بين الإنسان والكتاب بهذه الظروف التاريخية السلبية، لكن أخطر ما حدث فى هذه السنوات الرمادية أن الإنسان العربى، لا سيما فى مصر، قد وقع فريسة لنظام تعليمى يجعل من الكتاب عدوا، أو على الأقل رفيقا إجباريا ثقيلا.. كيف؟

مع تغير منظومة القيم الاجتماعية بسبب عواصف السبعينيات وأعاصيرها، سادت المجتمع المفاهيم الاستهلاكية بكل تداعياتها القبيحة، وصار التباهى والتظاهر والتفاخر من علامات هذا المرض الاجتماعى الجديد. وتصاعد شعور بالدونية إزاء «الآخر» زاد من وطأته أن الشرائح التى استطاعت اقتناص الثروات فى سنوات الانفتاح الاقتصادى كانت تفتقر إلى الوعى والفهم وظنت أن التباهى بالثروة يمكن أن يغنى عن الاغتناء بالعلم والمعرفة. ونتجت عن ذلك أمور كثيرة يهمنا منها ما حدث فى مجال التعليم والثقافة.

ظهرت المدارس الخاصة لتقوم بدور مهم فى خدمة أبناء الشرائح الاجتماعية الجديدة مع تغير النظرة الاجتماعية للمدرسة الخاصة. وظهرت نزعة التعليم باللغات الأجنبية للصغار لتبرير الرسوم والمصروفات الباهظة التى يدفعها الآباء وهم فخورون بأن أبناءهم ليسوا ضمن تلاميذ المدارس «الحكومية» التى لا يدخلها سوى الغلابة. وزادت نغمة التباهى والتفاخر على حساب التعليم نفسه. ولأن المدرسة الخاصة «مشروع تجارى» بمفاهيم زمن الانفتاح، فلابد من زيادة نسبة الربح بفصول الحضانة التى تعلم الأطفال كلمات أجنبية يفرح بها الآباء والأمهات فى تطلعاتهم الطبقية.

فى هذه السنة الباكرة «يصطدم» الطفل بالكتاب. فعليه أن يقرأ ويفهم ويستذكر، فإذا ما وصل إلى سن السادسة كان جاهزا لرحلة عذاب وعداء مع الكتاب. فالتلميذ يذهب إلى مدرسته حاملا حقيبة ثقيلة ينوء بها كاهله الصغير، وداخلها عدة كتب عليه أن يحملها فى رحلتى الذهاب والإياب. فإذا وصل المدرسة وجد نفسه مسئولا عن محتوى الكتاب، ومطالبا بالواجبات الثقيلة وإلا تعرض للمهانة، وعندما يرجع إلى المنزل يطارده الكتاب بمحتواه وبالواجبات التى يلاحقه الأب والأم بضرورة إنجازها. وفى ظنى أن هذه المرحلة هى التى أساءت إلى العلاقة بين الإنسان والكتاب، فقد جسد الكتاب كل عوامل القهر والإحباط لدى الطفل المحروم من طفولته فى ظل نظام تعليمى يفتقر إلى أية فلسفة أو هدف واضح ويقوم على تسديد الخانات.

ففى هذه المرحلة المهمة من عمر الإنسان تتشكل علاقاته بالكون وبالأشياء من خلال مقاييسه الخاصة، وتبدأ علاقات المحبة والكراهية والضرورة بالتجارب التى يخوضها الطفل فى سنى عمره الأولى. وإذا تحول الكتاب إلى رمز للمعاناة الجسدية والنفسية بسبب تهافت العملية التعليمية، كانت العلاقة بين الإنسان والكتاب هى الضحية الأولى.

وعندما يخطو الإنسان خطوات أبعد فى طريق العمر، يكتشف أن الكتاب فى المرحلة الإعدادية والثانوية ليس سوى عقبة يجب أن يجتازها، فمضمون الكتاب ثقيل ومنفر، ولابد من الكتب الخارجية التى تقدم «البلابيع» الدراسية، وتقدم التدريب على تخطى الحواجز والعقبات لأن الامتحان فى آخر العام يتبنى فكرة الحفظ والاسترجاع. وهكذا صار الكتاب، مرة أخرى، ضحية للعبة قفز الحواجز وجمع الدرجات فى نظام تعليمى لا يقوم على البناء المعرفى. ثم تطور الأمر نحو ما هو أسوأ، فقد بدأ المدرسون - ضمن نشاط الدروس الخصوصية - يقومون بعمل الملخصات وملخصات الملخصات. ومن ثم، زادت العلاقة بين الإنسان والكتاب تدهورا وتنافرا. فإذا أضفنا إلى ذلك كله ما تخلقه «حالة الثانوية العامة» - وهى حالة مرضية على أية حال - فى مصر من سباق محموم على جمع الدرجات من خلال الدروس الخصوصية والملخصات، أدركنا أن الكتاب وقع ضحية تحت الأقدام المهرولة سعيا وراء الحصول على المجموع.




ومن الطبيعى أن الطالب الذى يطحنه هذا السباق لن يجد الوقت الكافى لكى يقرأ خارج «المقررات» الدراسية، لا سيما أن الكتب التى فرضت عليه تفتقر إلى جاذبية المضمون والشكل.

فإذا دخل الطالب الجامعة كان قد وصل إلى سن يصعب فيها إعادة تشكيل علاقاته الوجدانية والعاطفية والعقلية. فنجد بعض طلبة الكليات لا يجدون الوقت للقراءة ولا يحاولون أن يقرءوا لأنهم لم يعرفوا هذه «العادة» منذ الصغر، كما أن فكرة «الكتاب المقرر» قد سادت فى أوساط التعليم الجامعى بحيث نجد هناك نوعا من الإجبار على عدم البحث، بل إن المجالس الجامعية تجتمع سنويا لبحث الجوانب المختلفة تكريسا لفكرة «الكتاب المقرر» على الرغم من كل آثارها السلبية على العلاقة بين الإنسان والكتاب. وتحولت بعض كليات الجامعات إلى أسواق من نوع غريب لبيع الكتب. فبسبب تدنى رواتب أعضاء هيئة التدريس عامة، لجأ البعض إلى فرض كتابه على الطلاب لتعويض النقص فى دخله بطريقة يظن أنها مشروعة. وبدأت سياسة فرض الكتاب على الطالب بأساليب متنوعة، وعلى الجانب الآخر بدأت محاولات الهروب من الكتاب بأشكال مختلفة. واتخذ الأمر شكل الحرب المضحكة المبكية... ومرة أخرى كانت العلاقة بين الإنسان والكتاب هى الضحية. فقد صار الكتاب سلعة إجبارية مفروضة على «زبائن» لا يريدونها لأسباب اقتصادية ونفسية.

ولعل هذا يفسر لنا جانبا من الأسباب التى جعلت قسما كبيرا من الشباب يخاصم الكتاب ويقبل على الوسائل السمعية والبصرية الأخرى باعتبارها مصادر الترفيه والتعليم بعد الخروج من الجامعة. وربما تكشف الدراسات التى ينبغى إجراؤها على سوق الكتاب أن نسبة من يشترون الكتب من الشباب أقل كثيرا مما ينبغى. وتوضح الملاحظات الأولية أن معظم الذين يشترون الكتب من الرجال فوق سن الأربعين.

إن جانبا كبيرا من جوانب «أزمة الكتاب» فى العالم العربى يرجع، فى تصورى إلى تدهور العلاقة بين الإنسان والكتاب. وعلى الرغم من تسليمنا بأن الجوانب الاقتصادية والإدارية والسياسية تلعب دورها فى هذه الأزمة، فإن انحسار التقدير الاجتماعى لقيمة الكتاب، رفيقا وصديقا نافعا ربما يفسر لنا الأسباب الرئيسية وراء هذه الأزمة. فالنظام التعليمى يتطلب إصلاحا جذريا، والبيئة الثقافية تستوجب إعادة النظر وإعادة البناء، ونظام القيم والمثل العليا يحتاج إلى زرع قيمة المعرفة فى نفوس الناس منذ خطواتهم الأولى فى الحياة. وفى هذا السياق يجب أن نعترف أن هناك جهودا كبيرة تبذل لكى تعود عادة القراءة وصحبة الكتاب، ولكن هذه الجهود الحميدة تحاول إصلاح أعراض الأزمة دون التنبه إلى جذورها، وبعبارة أخرى، فإن الجهود المبذولة لنشر القراءة وخلق علاقة جيدة بين الإنسان والكتاب توجه إلى الأطفال والشباب الخاضعين لنظام تعليمى (من الابتدائى إلى الجامعة) يجعل الكتاب عبئا ورفيقا ثقيل الوطأة.

فالكتاب المدرسى، كما أسلفنا القول، غير مريح فى شكله وفى مضمونه على السواء. والمكتبات المدرسية لا تلقى العناية الكافية وربما لا تلقى عناية على الإطلاق، والقراءة الحرة تكاد تكون نوعا من المحظورات أو المحرمات بسبب سباق المجموع وحشو المعلومات فى الكتب المدرسية. وعلى الرغم من جهود بعض الجهات فإن الأمر يحتاج إلى خطة قومية لكى يعود الكتاب إلى عرشه باعتباره من أهم مصادر المعرفة والتثقيف والترفيه. وفى هذا كله ينبغى أن ينصب الاهتمام على الذين يبدأون الطريق من أوله، أى من الأطفال.

وهناك من المؤشرات الإيجابية ما يدعونا إلى التفاؤل بهذا الصدد، فالعلم قيمة هامة من قيم المجتمعات العربية عامة. والكثير من العائلات يمكن أن تضحى فى سبيل تعليم أبنائها بضروريات حياتها. كما أن المخزون الحضارى والثقافى الذى أفادت منه الأجيال العربية الأكبر سنا يصلح قاعدة ارتكاز مهمة ينطلق منها الإصلاح الثقافى والعلمى. كما أن مؤسسات حكومية مهمة فى بعض الدول العربية (مثل مصر والكويت، وعُمان... وغيرها) تنفق بسخاء على سلاسل الكتب التى تحمل المعرفة والعلم والثقافة بأثمان زهيدة إلى الجمهور العريض من القراء. فضلا عن أن التيار الطارئ الذى أفسد حياتنا الثقافية قد أوشك على الانحسار بدليل أن الشكوى منه أصبحت عامة وعلنية، وبدليل أن عددا من «نجوم» هذا التيار الفاسد قد هوى أو خبا بريقه. ومع مؤشرات مفرحة فى الموسيقى والغناء والمسرح والشعر هنا وهناك تبدو بشائر أفق جديد لبيئة ثقافية يمكن أن تزدهر (انظر إلى احتفاء الناس بالمطبوعات الجادة التى تنشر العلم والمعرفة هنا وهناك).

إن الخوف الحقيقى من أزمة العلاقة بين الإنسان والكتاب لا يكمن فى الحاضر، فمازالت الأجيال التى نشأت وتربت على العلاقة الحميمية بين الإنسان والكتاب قادرة على القراءة وقادرة على صون العلاقة مع الكتاب. ولكن الخوف الحقيقى على المستقبل حين يخرج إلى الحياة ملايين الشباب الذين فسدت العلاقة بينهم وبين الكتاب للأسباب التى طرحناها وغيرها.

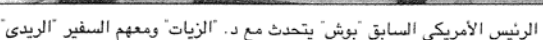
فهل فات أوان الإصلاح؟ لا أظن. ■



خلال فترة الستينيات من القرن العشرين بلغت العلاقة بين الإنسان والكتاب فى العالم العربى ذروتها؛ وتنافست العواصم العربية على النشر والقراءة. وربما كان المد القومى الحماسى والمشروع القومى الذى تعلقت به آمال العرب من أسباب رواج صناعة الكتاب وازدهار العلاقة بين الإنسان والكتاب







الرئيس الأمريكى السابق "بوش" يتحدث مع د. "الزيات" ومعهم السفير "الريدى"



الكاتب مع الرئيس الأسبق "ريجان" ود. "عصمت عبد المجيد"

ذكريات دبلوماسية

عبدالرءوف الريدى

إلى الضوء، وبعد زمن طال بمقاييس الكثيرين، عادت الجامعة العربية أو على الأقل عاد الاسم إلى مانشتات الأخبار. الثابت أن جغرافية المنطقة تعاد صياغتها بحدود ترسمها آليات. ظاهرة وغير ذلك. لمعايير عالم «كوكبى» جديد.

يتولى قيادة المركبة. أو بالأحرى مسؤولية أمانتها. فى وقت تقرر فيه تفعيل دور الجامعة وتثبيت دورية لانعقاد قمتها، دبلوماسى مخضرم هو د. عصمت عبدالمجيد الذى له فى ميدان الدبلوماسية، أكثر من نصف قرن حفلت بأحداث ومشاهد بعضها على المسرح وبعضها فى الكواليس.

ولأن أكثر الذكريات ثراء، ذكريات الدبلوماسيين. يسترجع سفير مصر السابق فى واشنطن ذكرياته مع وعن عصمت عبدالمجيد.



المحرر

١

عبر رحلة العمر فى الخارجية المصرية تلاقت الطرق بين الدكتور عصمت عبدالمجيد الأمين العام للجامعة العربية وبينى فى ظروف السلام وفى ظروف الحرب.. فى أوقات الأزمات.. وفى أوقات الصفاء.. وبعد العودة إلى أرض الوطن فإننى ألتقى به من حين لآخر..

ينتمى الدكتور عبدالمجيد إلى جيل بدأ رحلته مع الدبلوماسية فى الخارجية عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة وبالتحديد عام ١٩٤٥، بينما بدأ جيلنا رحلته بعد ذلك بعشرة أعوام.

التقيت به لأول مرة فى يوم من أيام شهر مايو ١٩٥٥ بمبنى وزارة الخارجية الذى يقع فى الطريق إلى كوبرى قصر النيل فى مواجهة جامعة الدول العربية. فى هذا اليوم لم يكن قد مضى على التحاقى بوزارة الخارجية أكثر من أسابيع قلائل، وكان النظام يقضى بأن يتدرب الملحقون الجدد فى إدارات الوزارة المختلفة، وذهبت إلى الإدارة السياسية التى كان يديرها المرحوم السفير محمد عوض القونى فرأى أن أتدرب فى قسم بريطانيا وكان يديره سكرتير أول دكتور عصمت عبدالمجيد العائد من العمل فى سفارة مصر فى لندن، هناك كان لقائى الأول معه، وكان لقاء اتسم بالود الذى أصبح سمة العلاقة بيننا عبر السنين.

كانت فترة التدريب فى كل إدارة لا تتجاوز أسبوعا.. وما أن انتهت فترة التدريب بديوان الوزارة، حتى وجدت نفسى منقولا إلى بعثة مصر لدى الأمم المتحدة بنيويورك لأشغل هناك وظيفة ملحق دبلوماسى وهى أولى درجات السلك الدبلوماسى. وصلت إلى نيويورك مع زميلى يوسف شرارة (سفير مصر فى لندن فى منتصف الثمانينيات) يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥، وتصادف أن كان هذا هو يوم الإعلان عن صفقة الأسلحة التشيكية التى كانت واحدة من سلسلة الأحداث المتلاحقة فى عام ١٩٥٥، الذى بدأت مصر فيه ممارسة سياسة خارجية نابعة من دورها الإقليمى فى المنطقة، أما فيما قبل ذلك فقد كانت كل طاقات مصر بالنسبة للخارج مركزة على القضية الوطنية والنزاع مع انجلترا والكفاح من أجل إنهاء الاحتلال البريطانى للأراضى المصرية. وما أن جاءت حكومة الثورة وتوصلت إلى اتفاق الجلاء عام ٥٤ حتى بدأت فى انتهاج سياسة إقليمية نشطة والتى توالت أحداثها بدءاً من عام ١٩٥٥.

جاءت بداية هذه الأحداث فى الغارة الإسرائيلية التى شنتها إسرائيل على غزة فى ٢٨ فبراير مستهدفة بذلك إحراج مركز عبدالناصر الذى كان نجمه قد بدأ يسطع.. وقد ترتب على هذا الهجوم أن حاول عبدالناصر الحصول على السلاح من أى من الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة حتى تكون لديه القدرة على ردع إسرائيل عن تكرار مثل هذه العملية، ولكن محاولته باءت بالفشل مما اضطره بعد ذلك إلى عقد صفقة الأسلحة مع تشيكوسلوفاكيا وهو ما كان له بدوره تداعيات وانعكاسات كبيرة على علاقاته مع الولايات المتحدة بعد ذلك.

سرعان ما تلاحقت التطورات بعد ذلك فى عام ١٩٥٥ بدءا بالحملة المصرية ضد حلف بغداد، ثم ظهور عبدالناصر كشخصية دولية فى مؤتمر باندونج فى أبريل من نفس العام الذى كان مقدمه لظهوره بعد ذلك كواحد من قادة حركة عدم الانحياز فى العالم.

فى عام ١٩٥٥ تأرجحت سياسة عبدالناصر بين خيارين، كان الخيار الأول هو أن يعمل على إيجاد حل للمشكلة الفلسطينية وأن يتعاون فى ذلك مع الدول الغربية وعلى وجه الخصوص الولايات المتحدة، وكان هذا الخيار يتطلب منه القبول بوجود إسرائيل والصلح معها. أما الخيار الثانى فكان يقضى بأن يعمل على تعبئة الرأى العام العربى وبناء قوة عسكرية تردع إسرائيل وتساعد يوما ما فى حل القضية من مركز قوة وقد سارت الأحداث فى طريق الخيار الثانى.

وعبر رحلة العمر مع الخارجية المصرية فإن هناك الكثير من الذكريات التى ترتبط مع دكتور عصمت تأتى إلى الذهن عدة مشاهد أختار منها ثلاثة من محطات تاريخية مختلفة.

٢

وصلت إلى نيويورك أثناء انعقاد الدورة العاشرة للجمعية العامة للأمم المتحدة (الدورة التى ستعقد فى سبتمبر ٢٠٠٠ هى الدورة الخامسة والخمسون) حيث علمت أن الدكتور خيرت سعيد نائب وزير الخارجية الذى كان يعمل مستشارا بمجلس الدولة من قبل سيصل بعد أيام ليتولى رئاسة وفد مصر بعد عودة وزير الخارجية الدكتور محمود فوزى، وأن نائب الوزير الجديد قد اختار دكتور عصمت عبدالمجيد مديرا لمكتبه سيصحبه إلى نيويورك.

عندما وصل نائب الوزير الجديد وجد رئيس البعثة زميلا قديما له فى مجلس الدولة هو السفير عمر لطفى الذى أبلغه بأن جمعية مراسلى الأمم المتحدة تدعوه للغداء والتحدث أمامها عن السياسة الخارجية المصرية.. فما كان منه إلا أن قبل الدعوة.. التى حضرها أيضا أعضاء البعثة والوفد القادم لحضور اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، وكانت تلك أول مناسبة من نوعها أحضرها، وأرى كيف يتعرض المتحدث لسيل من الأسئلة الصحفية التى تحاول أن تستدرجه إلى مزالق الخطر ويكون هدفا لكل الأسئلة الصعبة والمحرجة.. ودائما ما يستعد الساسة الأمريكان لهذه اللقاءات بعمل بروفات للأسئلة المتوقعة وما ينبغى أن تكون عليه الإجابات.

عصمت عبدالمجيد واحد من الدبلوماسيين المصريين الذين أتاح لهم الحظ أن يعملوا مع الدكتور محمود فوزى الذى ينظر إليه باعتباره أبا للدبلوماسية المصرية، وكان يطلق عليهم «أولاد فوزى». وقد عملت هذه المجموعة مع الدكتور فوزى فى مواقع مختلفة

انعقد اللقاء حول موائد الغداء فى أحد المطاعم الكبيرة القريبة من مبنى الأمم المتحدة وما أن انتهينا من تناول الطبق الرئيسى حتى بدأ الحوار وجاء سؤال وهو: «لماذا ترفضون التفاوض مع إسرائيل حول ما بينكم وبينها من خلاف؟!» وجاءت إجابة نائب الوزير بأن ذلك يرجع إلى رفض إسرائيل تنفيذ قرارات الأمم المتحدة الخاصة بعودة اللاجئين؟، فكان السؤال التالى هو: «هل أنتم مستعدون للتفاوض معها إذا قبلت إسرائيل إعادة اللاجئين؟» وجاءت إجابته بأنه فى هذه الحالة سيكون من الممكن التفاوض معها.. لم يكن فى هذه الإجابة بمنطق هذه الأيام أى خطأ، إلا أن الجو فى الخمسينيات كان مغايرا تماما لأجواء هذه الأيام... فالتفاوض مع إسرائيل كان محظورا كبيرا.

خرجنا من الغداء وبينما كنت أحاول أن أستوقف «تاكسى» للعودة إلى البعثة وجدت سيارة السفير عمر لطفى وهى خارجة من مبنى المنظمة الدولية، فتوقف بسيارته وأشار إلىّ بالركوب معه وكان يجلس بجانبه المرحوم خيرت سعيد وكان فى روح معنوية عالية، ويشعر أن أداءه فى الإجابة عن أسئلة الصحفيين كان أداء ممتازا. إلا أننى عندما وصلت إلى البعثة التقيت بزميل قديم ووجدته يقول لى أن ما ذكره نائب الوزير لا يتفق مع الموقف المصرى التقليدى، لأن مصر لا تقبل التفاوض المباشر مع إسرائيل بأى حال من الأحوال، فهل هناك سياسة جديدة أم أن نائب الوزير قد خرج عن الخط؟.. ولم يمر وقت طويل حتى جاءت الإجابة عن هذا التساؤل... فبعد يوم أو يومين نشر الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير آخر ساعة (قبل أن يشغل منصب رئيس تحرير الأهرام) مقالا رئيسيا حول الموضوع وكتب ما يعنى أنه لو كان خيرت سعيد قال فعلا ما نسبته إليه وكالات الأنباء فإنه لا ينبغى أن يبقى فى منصبه لأن هذه الإجابة تخالف سياسة الدولة، أما إذا لم يكن قد قال ذلك فإن عليه أن يصدر تكذيبا لما نقلته وكالات الأنباء، وما أن أذيع هذا المقال حتى سرى فى البعثة أن الدكتور خيرت سعيد سيعود إلى القاهرة على الفور.. وعاد الدكتور خيرت بالفعل دون أن يكمل مهمته فى رئاسة وفد مصر فى الجمعية العامة للأمم المتحدة. عاد إلى القاهرة وإن لم يعد لوزارة الخارجية، ولم يكن خيرت سعيد قد بقى فى منصبه أكثر من عدة شهور بعد أن كان قد ترك السلك القضائى وكانت تلك الواقعة هى نهاية خدمته العامة، ودفع خيرت سعيد ثمنا غاليا لكى يعمل لعدة أشهر نائبا لوزير الخارجية بعد أن ترك عمله السابق الذى تألق فيه كمستشار فى مجلس الدولة، كما خسرت الخارجية أيضا شخصية كان يمكن أن تثرى عملها لأعوام كثيرة تالية.

٣

أما المشهد الثانى فكان بعد أن أصبح الدكتور عصمت مندوبا دائما لمصر فى الأمم المتحدة، وكان بطله المرحوم الدكتور محمد حسن الزيات وزير الخارجية أثناء حرب أكتوبر والذى اختاره الرئيس السادات لهذا المنصب ليقوم بإعداد المسرح السياسى والإعلامى لحرب أكتوبر... فقام بهذه المهمة خير قيام إلى أن جاءت حرب أكتوبر وهو يرأس وفد مصر فى الجمعية العامة للأمم المتحدة وكنت من فريق العمل الذى رافقه فى هذه المهمة إلى نيويورك.

التقى الدكتور الزيات مع هنرى كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة يوم ٥ أكتوبر، وكان دكتور عصمت يصاحبه فى هذا اللقاء كما صاحبه أيضا السفير أحمد توفيق خليل رئيس قسم رعاية المصالح المصرية بواشنطون آنذاك، ودار الحديث حول أزمة الشرق الأوسط كما كانت تدعى آنذاك.. إلا أن كيسنجر الذى لم يتصور أن حربا كبيرة قد تنشب فى اليوم التالى، أبلغ وزير خارجية مصر أن الولايات المتحدة لا تعتزم أن تفعل شيئا لحل هذه المشكلة فى الوقت «الراهن»، حيث إنه شخصيا مازال مشغولا بقضية فيتنام وأنه عندما ينتهى من ملف فيتنام فإنه سينتقل إلى ملف الشرق الأوسط. إلا أن هذا الموقف المتسم بالغرور من جانب كيسنجر انقلب رأسا على عقب فى أقل من أربع وعشرين ساعة عندما أيقظت جولدا مائير كيسنجر من نومه فى فندق وولدورف استوريا لتبلغه بأن المصريين على وشك الهجوم على جبهة القنال، فاتصل كيسنجر بدوره بالدكتور الزيات الذى كان يقيم فى نفس الفندق.. وأترك الدكتور الزيات هنا ليحكى قصة هذا الحديث.. يقول الدكتور الزيات:

«فى الساعة السابعة والدقيقة الثانية عشرة من صباح السبت السادس من أكتوبر (العاشر من رمضان) دق جرس التليفون فى غرفتى وكان المتكلم هو وزير خارجية الولايات المتحدة الدكتور هنرى كيسنجر، يتحدث من غرفة نومه فى الطابق الخامس والثلاثين من نفس الفندق الذى كنت أقيم فيه. (فندق والدورف استوريا بشارع بارك أفنيو).

قال إنه اضطر لإزعاجى فى هذه الساعة المبكرة لأنه تلقى رسالة من إسرائيل بأن مصر وسوريا على وشك القيام بهجوم عليها، وأضاف أنه اختصارا للوقت وحرصا على الدقة فإنه سيقرأ علىّ الرسالة التى تلقاها من الحكومة الإسرائيلية.

وقرأ الدكتور كيسنجر نص الرسالة بسرعة وعندما استعدته أعاد القراءة ثم طلب الاتصال بالقاهرة لإبلاغها بحديثه هذا معى ثم إبلاغه بما تطلب القاهرة إبلاغه إليه، وقال إن الخطأ الذى يمكن أن يقع فيه أحد الأطراف فى تصوره لنوايا الطرف الآخر يمكن أن تنتج عنه نتائج خطيرة غير مقصودة وغير منظورة، وأن عنصر الوقت لذلك شديد الأهمية، ونظرا لما يعلمه من صعوبة إتمام الاتصال التليفونى بالقاهرة فإنه يضع تحت تصرفى شبكة الاتصالات الخاصة بالبيت الأبيض وواشنطون وأعطانى اسم الضابط المشرف على هذه الشبكة ورقم تليفونه فى البيت الأبيض وقال إنه يرجو أن يعرف نتيجة اتصالى بالقاهرة، وأنه ينتظر ردى عليه فى الجناح المخصص له فى الفندق.



طلبت الاتصال برئيس الجمهورية فى القاهرة عن طريق شبكة اتصال البيت الأبيض، ثم طلبت السفير عصمت عبدالمجيد فى منزله ورجوته الحضور إلى الفندق، كما طلبت منه دعوة جميع اعضاء البعثة الدائمة وأعضاء وفدنا فى الجمعية العامة للاجتماع بدار البعثة فى أسرع وقت ممكن، وسألت صلاح زكى (سكرتير الدكتور الزيات) الذى أسرع إلى غرفتى تلبية لطلبى عن إذاعات الليلة الماضية وهذا الصباح، فذكر أنه ليس فيها أى أخبار تهمنا غير أن وكالة الأنباء الفرنسية قد أذاعت فى الليلة الماضية خبرا لمراسلها فى تل أبيب، قال فيه إنه قد علم من السلطات هناك «أن القوات الإسرائيلية تراقب بيقظة بالغة النشاط العسكرى المصرى على الضفة الغربية لقنال السويس، وأن الإسرائيليين قد اتخذوا الإجراءات اللازمة توقعا لأى عملية عسكرية مصرية».

طلبت استمرار تسجيل كل الإذاعات وتخصيص من يستمع إلى راديو القاهرة باستمرار. وفى الساعة الثامنة وعشر دقائق بتوقيت نيويورك قطع رنين التليفون حديثى مع صلاح، وقيل لى إن رئيس الجمهورية على التليفون.

ولكن المتحدث - فى القاهرة - لم يكن الرئيس، بل كان السيد حافظ إسماعيل (مستشار الأمن القومى)، وقد نقلت إليه حديث الدكتور هنرى كيسنجر معى منذ ساعة وأجاب بأن اتصالى بالسيد الرئيس غير ممكن فإن إسرائيل قد بدأت منذ ربع ساعة هجوما تصده الآن القوات المصرية والسورية، والرئيس موجود حاليا فى غرفة العمليات وإننى سأتلقى قريبا بيانا رسميا «عن وقائع هذا اليوم» وكانت الساعة فى القاهرة عندما انتهى حديثى مع حافظ إسماعيل قد قاربت الثانية والربع بعد الظهر بتوقيت القاهرة.

وبمجرد انتهائى من الحديث طلبت الدكتور كيسنجر فى الجناح المخصص له فى نفس الفندق وكانت الساعة الثامنة والربع صباحا بتوقيت نيويورك وأبلغته بمضمون ما أبلغنى به من القاهرة مستشار الأمن القومى، فقال: إن أشد ما يخشاه أن يحدث سوء تقدير من أى من الجانبين الإسرائيلى والعربى أو من كليهما لنوايا وتحركات الطرف الآخر ورجانى ألا أغادر الفندق حتى يعود للاتصال بى بعد أن يعرف من السلطات الأمريكية فى واشنطون، ومن القائم بأعمال سفارة إسرائيل فيها حقيقة الموقف فى منطقتنا فى الوقت الحاضر، وقال إنه سيتصل بالقائم بالأعمال الإسرائيلى لأنه مقرب من رئيسة الوزراء وطرق اتصالاته بها فورية، فإنه لا يبالى فى مثل هذه الأحوال بقواعد البروتوكول التى ربما كانت توجب عليه أن يتصل بوزير الخارجية أبا إيبان الموجود حاليا فى نيويورك.

ولم أكد أضع سماعة التليفون حتى دق تليفون آخر وأبلغنى المتحدث من دار بعثتنا أن القاهرة تذيع البلاغ الأول عن عمليات اليوم.

كان نص البلاغ كما يلى «قام العدو فى الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر اليوم بمهاجمة قواتنا فى منطقة الزعفرانة والسخنة فى خليج السويس بواسطة تشكيلات من قواته الجوية، بينما كانت بعض زوارقه البحرية تقترب من الساحل الغربى من الخليج وتقوم قواتنا حاليا بالتصدى للقوات المغيرة».

وانفجرت محطات الإذاعة ومحطات التليفزيون فى نيويورك بالأخبار الواردة من إسرائيل ومن لبنان ومن سوريا ومن مصر، وصدر بلاغ ثان من القاهرة بعد عشر دقائق من إذاعة البلاغ الأول، ثم أوقفت محطات الإذاعة الأمريكية إذاعاتها وأعلنت أن الجيش المصرى قد نجح فى عبور قناة السويس وأن طلائعه تحارب الآن على أرض سيناء». (مذكرات لم تنشر للدكتور الزيات).

٤

أما المشهد الذى أود أن أتحدث عنه هنا فهو يتصل بأجهزة الإعلام الأمريكية وقصتها مع الدكتور الزيات فى هذه الأيام التاريخية، فكما كان خيرت سعيد



فى عام ١٩٥٥ تأرجحت سياسة عبدالناصر بين خيارين: الأول هو أن يعمل على إيجاد حل للمشكلة الفلسطينية وأن يتعاون فى ذلك مع الدول الغربية. وعلى وجه الخصوص الولايات المتحدة وكان هذا الخيار يتطلب منه القبول بوجود إسرائيل والصلح معها، أما الخيار الثانى فكان يقضى بأن يعمل على تعبئة الرأى العام العربى وبناء قوة عسكرية تردع إسرائيل وتساعد يوما ما فى حل القضية من مركز قوة



ضحية لوسائل الإعلام الأمريكية التى أوقعته فى كمين «التفاوض مع إسرائيل» فقد كان الزيات أيضا ضحية للإعلام الأمريكي، وكان ذلك بعد أن بدأت معركة أكتوبر بوقت قصير.. فقد ظهر الدكتور الزيات على برنامج تليفزيوني لا أذكر اسمه الآن.. سأله المذيع: «هل أنتم واثقون من النصر؟».. فأجاب الدكتور الزيات بما يعنى أننا لا نحارب لأننا واثقون من النصر ولكننا نحارب لأننا أصحاب حق.. أراد الزيات بهذا الرد أن يركز الانتباه على حقنا وتصميمنا على تحرير أرضنا مهما كانت الظروف. كان الهدف هو أن نرسخ فى أذهان المجتمع الدولى أننا أصحاب حق... ومن أجل ذلك طاف الزيات على دول العالم يشرح القضية ومدى ما بذلته مصر من جهد للتوصل إلى حل سلمي ويوضح مدى الصلف والغرور الإسرائيلي وذلك ليكسب تعاطف الدول وتأييدها لنا.. كان تصريح الزيات محل انتقاد فى داخل مصر، وأخذ عليه البعض أن رده يؤدى إلى إضعاف الجبهة الداخلية ويشكك فى قدرة قواتنا على النصر... والواقع أن ثمة إشكالية عندما تتحدث فى التليفزيون الأجنبي لأنك تخاطب كلا من الرأى العام الخارجي والداخلي وعليك أن تراعى حساسيات كل منهما فى نفس الوقت، وليس من السهل دائما التوفيق بين الاثنين، ومما يزيد من هذه الصعوبة أنه لا يكاد يوجد لديك وقت للتفكير المتأنى واختيار الكلمات، فأنت على الهواء يسمعك القاصى والدانى.. وهنا تأتى أهمية الإعداد المسبق لمثل هذه الحوارات.. ولكن الزيات كان واثقا من نفسه فى مجال الإعلام... ولقد نجح نجاحا باهرا فى هذا المجال عندما عينه الرئيس عبدالناصر متحدثا رسميا بعد حرب ٦٧ عندما كان الرأى العام الدولى معبأ ضد مصر ومنحازا لإسرائيل... التى نجحت آنذاك فى تصوير مصر على أنها المعتدية وأن إسرائيل هى الضحية... وكانت المؤتمرات الصحفية للزيات هى بداية تصحيح الصورة.. وما أن انتهت حرب أكتوبر حتى انتهى دور الزيات كوزير للخارجية ولم يكن قد مضى عليه فى المنصب إلا عام.

٥

والواقع أننى عندما أعود بذاكرتي إلى هذه الأيام فإن شخص الزيات يظهر وكأنه بطل لمسرحية درامية إغريقية. لقد جاء الزيات إلى نيويورك قبل حرب أكتوبر بأيام وهو وزير للخارجية وغادرها يوم ٢٩ أكتوبر وقد فقد منصبه وأصبح المرحوم إسماعيل فهمى وزير السياحة هو وزير الخارجية الجديد.

وطوال شهر أكتوبر الذى دارت فيه الحرب فإن الزيات رغم أنه كان رسميا مازال وزيرا للخارجية إلا أن وزير الخارجية الفعلى كان إسماعيل فهمى، الذى ترك مكتبه كوزير للسياحة وانتقل إلى الخارجية بناء على تعليمات الرئيس السادات وأصبح يقود وزارة الخارجية فى فترة الحرب ويصدر التعليمات للسفراء بينما تحول الزيات من الناحية العملية إلى مجرد رئيس لوفد مصر لدى الجمعية العامة للأمم المتحدة بنيويورك.

ولا أعرف على قدر اليقين إلى أى حد كان الزيات نفسه مسئولا عن هذا الوضع، فمن غير المتصور أن يكون قد بقى فى نيويورك بعد بدء الحرب ما لم تكن لديه تعليمات بأن يفعل ذلك.. ولكننى لا أستبعد أن يكون هو نفسه قد أساء تقدير الموقف بحيث اعتبر أن وجوده فى نيويورك أهم من وجوده فى القاهرة فى وقت الحرب، وربما يكون قد تصور أن الأمم المتحدة ستكون هى ساحة العمل الدبلوماسى فى أثناء هذه الحرب مثلما كانت فى حربى ٥٦، ٦٧. وربما لم يكن يتصور إلى أى حد كان الرئيس السادات يعتبر أن ساحة العمل الدبلوماسى فى هذه الحرب لن تكون الأمم المتحدة بل الولايات المتحدة.

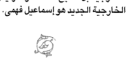


ولقد تبين فيما بعد أن الرئيس السادات بعد ثمان وأربعين ساعة من بدء الحرب، فتح خط اتصال مباشر مع واشنطون ببرقيته المشهورة التى نشر نصها كل من الأستاذ محمد حسنين هيكل فى كتابه «أكتوبر السلاح والسياسة»، والسفير حافظ إسماعيل فى كتابه «أمن مصر القومى»، وتواصلت الاتصالات بين القاهرة وواشنطون، إلا أن الزيات بقى فى نيويورك بعيدا عن صنع القرار ومشغولا باجتماعات الأمم المتحدة التى لم يكن لها دور محورى فى مسار الأحداث.

وفى حديث لى معه بعد الحرب بسنوات، وبينما كنا نتمشى فى إحدى ليالى الصيف على شارع النيل فى رأس البر، ذكر لى واقعة لم أكن أعرفها ومفادها أنه بينما كان يتناول العشاء فى إحدى الأمسيات أثناء فترة الحرب فى مطعم Tavern on the green فى نيويورك اتصل به وزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسنجر يقترح عليه أن يلتقيا فى واشنطون وقد وافق الدكتور الزيات واقترح على كيسنجر أن يتم اللقاء فى مقر سكن رئيس قسم رعاية المصالح المصرية آنذاك السفير أحمد توفيق خليل بواشنطون كما تم تحديد الموعد، ثم اتصل الزيات بعد ذلك بالقاهرة وأبلغ مستشار الأمن القومى حافظ إسماعيل بما اتفق عليه مع كيسنجر إلا أن حافظ إسماعيل رد عليه بأن القاهرة لا ترى داعيا لهذا اللقاء، واضطر الزيات إلى إلغاء اللقاء مع كيسنجر.

وما أن انتهت الحرب حتى كان وزير الخارجية بالنيابة إسماعيل فهمى فى واشنطون موفدا من الرئيس السادات لمقابلة الرئيس نيكسون، ووزير خارجيته كيسنجر وما أن وصل إلى واشنطون حتى حدد له على الفور موعد لمقابلة الرئيس نيكسون، هذا فى الوقت الذى كان فيه الزيات «وزير الخارجية» فى نيويورك لا يعلم شيئا عما يدور من محادثات بين الرئيس الأمريكي ومبعوث الرئيس السادات، وكان الاتفاق الذى تم التوصل إليه بين إسماعيل فهمى ونيكسون وكيسنجر هو الأساس الذى بنى عليه اتفاق ٦ نوفمبر الذى أعلنه كيسنجر بعد ذلك فى أول زيارة له لمصر بعد وقف إطلاق النار.

عندما جاءت أنباء لقاء واشنطون بين نيكسون وإسماعيل فهمى كنت مع دكتور عصمت عبدالمجيد فى الصالون المواجه لمجلس الأمن فى مبنى الأمم المتحدة.. وأذكر أنه سألنى تفسيرى لإيفاد الرئيس السادات للوزير إسماعيل فهمى للتفاوض مع الرئيس الأمريكي بينما يوجد وزير الخارجية فى نيويورك، وأذكر أننى أجبته بأننى أعتقد أن الرئيس السادات اختار الزيات لمرحلة معينة توشك على الانتهاء، إن لم تكن قد انتهت بالفعل وأن هناك مرحلة أخرى اختار لها إسماعيل فهمى. وأصبح السؤال هو: كيف سينتهى هذا الموقف الغريب الذى يوجد فيه وزير الخارجية فى نيويورك بينما وزير السياحة هو الذى يتفاوض مع الرئيس الأمريكى فى واشنطون، وما إذا كان الزيات سيستدعى للقاهرة أم سيبقى فى نيويورك؟ وهل سيحدث لقاء بين الوزيرين فى نيويورك أو واشنطون أم ماذا؟ وهنا لعب القدر دورا كان بمثابة إنقاذ لماء وجه الزيات، فقد جاء خبر وفاة الدكتور طه حسين والد زوجة الدكتور الزيات، وكان طبيعيا إذن أن يغادر الزيات إلى القاهرة على الفور، وأرسل الرئيس السادات طائرة خاصة إلى روما ليستقلها الدكتور الزيات ويعود بها إلى القاهرة حيث لم تكن خطوط الطيران الدولية قد انتظمت بعد فى مطار القاهرة الدولى، وخرجنا جميعا إلى مطار كيندى لنودع الدكتور الزيات الذى ما أن وصل للقاهرة حتى علم بأنه لم يعد وزيرا للخارجية بل أصبح مستشارا للرئيس وأن وزير الخارجية الجديد هو إسماعيل فهمى.



ظل الزيات يتذكر فى مرارة وقائع هذه الأيام حتى وافته المنية فى عام ١٩٩٥، ولقد ظل الزيات وزيرا للخارجية لمدة ثلاثة عشر شهرا، ومن المعروف أن الرئيس السادات عندما اختاره وزيرا للخارجية فقد اختاره ليقوم بالتمهيد لحرب أكتوبر، ولقد قضى الزيات فعلا مدته كوزير للخارجية فى القيام بهذه المهمة، وكان من بينها نجاحه فى مجلس الأمن فى التوصل إلى مشروع قرار يطالب بالانسحاب من الأراضى المحتلة فى إطار اتفاق للسلام وقد وافقت كل الدول الأعضاء فى مجلس الأمن على هذا القرار باستثناء الولايات المتحدة التى استخدمت حق الفيتو لإجهاض القرار.. وظهر أمام الرأى العام العالمى أن العالم كله فى جانب مصر وأن الولايات المتحدة وحدها فى الجانب الآخر.

وللأسف فإن المعركة الدبلوماسية التى سبقت حرب أكتوبر والتى قادها الزيات لم يكتب عنها شىء.. والواقع أن هناك الكثير مما لا زال لم يكشف عنه النقاب عن هذه الفترة الهامة فى تاريخ مصر.. ولذا يتعين على الذين عاصروها وشهدوا أحداثها أن يكتبوا شهاداتهم عنها. ولقد كتب الزيات مذكراته إلا أنها للأسف لم تجد طريقها للنشر.

٦

عدت فالتقيت بالدكتور عصمت فى ديسمبر ١٩٧٧، بعد زيارة الرئيس السادات لإسرائيل حيث تم استدعاؤه من نيويورك ليرأس وفد مصر فى أول مباحثات رسمية تجرى بين مصر وإسرائيل والتى انعقدت فى فندق ميناهاوس، وكانت الخارجية تمر بأزمة بسبب استقالة وزير الخارجية إسماعيل فهمى، ووزير الدولة للشئون الخارجية محمد رياض، وقد أعقب ذلك تعيين بطرس غالى وزير دولة للشئون الخارجية الذى لم يكن من أبناء الخارجية.. وكان من أول القرارات التى اتخذها هو تشكيل مجموعة عمل تقوم بالإعداد لاجتماع مينا هاوس وقد ضمت هذه المجموعة كلا من أسامة الباز وعبدالرءوف الريدى ونبيل العربى وعمرو موسى والمرحوم أحمد الزنط والمرحوم صلاح هنداوى وأحمد أبو الغيط.

وكان هذا الاجتماع أول اجتماع يلتقى فيه دبلوماسيون مصريون مع دبلوماسيين إسرائيليين، وكان موضوع التفاوض هو عقد مؤتمر دولى للسلام ورأس دكتور عصمت الوفد المصرى كما رأس الوفد الإسرائيلي الياهو بن اليسار... والواقع أن هناك الكثير مما كان يستطيع الدكتور عصمت أن يورده فى مذكراته عن هذا الاجتماع.. الذى تمثلت أهميته الحقيقية فى مجرد انعقاده حيث أراد الرئيس السادات أن يعلن عن بدء صفحة جديدة مع إسرائيل... ولم تكن هناك مفاوضات حقيقية فى هذا الاجتماع رغم أن الاجتماع شكل لجنة فرعية كنت والسفير نبيل العربى ممثلى مصر فيها، كما مثل إسرائيل مائير روزين مدير الإدارة القانونية. وكان الهدف من اللجنة هو التوصل إلى مشروع جدول أعمال متفق عليه لمؤتمر السلام، وكما كان متوقعا فإن المناقشات بيننا لم تنته إلى نتيجة، وفى يوم من الأيام حضر روزين متأخرا عن موعد الاجتماع حوالى نصف ساعة.. واعتذر بأن تأخيره راجع الى أن أعضاء الوفد الإسرائيلي ذهبوا إلى خان الخليلى لشراء بعض الهدايا وأن أصحاب المحلات هناك أصروا على استضافتهم، بل وكان من بينهم من رفض أخذ ثمن البضاعة وأنهم لم يستطيعوا أن يغادروا المكان إلا بصعوبة.. ثم ذكر أنهم يعتزمون زيارة قرية ميت أبو الكوم فى اليوم التالى.

سأل الصحفيون نائب وزير الخارجية: «لماذا ترفضون التفاوض مع إسرائيل؟».. حول ما بينكم وبينها من خلاف؟!» وجاءت الإجابة نائب الوزير بأن ذلك يرجع إلى رفض إسرائيل تنفيذ قرارات الأمم المتحدة الخاصة بعودة اللاجئين، فكان السؤال التالى هو: «هل أنتم مستعدون للتفاوض معها إذا قبلت إسرائيل إعادة اللاجئين؟» وجاءت إجابته بأنه فى هذه الحالة سيكون من الممكن التفاوض معها...

بعد انتهاء اجتماع مينا هاوس دعا الرئيس السادات مناحم بيجن إلى اجتماع في الإسماعيلية، وقد حضر الدكتور عصمت هذا الاجتماع، وهناك وقعت المشادة المشهورة بينه وبين بيجن حول موضوع حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، وبعد هذا الاجتماع أخذ بيجن يهاجم الخارجية المصرية ويتهمها بأنها تعرقل مبادرة الرئيس السادات، وعلى هامش اجتماع الإسماعيلية تم تنصيب محمد إبراهيم كامل وزيرا للخارجية.. وبدأت الأحوال تستقر بعض الشيء في وزارة الخارجية لتعيين محمد إبراهيم كامل وزيرا للخارجية. كان الوزير الجديد سفيرا لمصر في ألمانيا الاتحادية وحضر للقاهرة للإعداد لزيارة هيلموت شميث مستشار ألمانيا الاتحادية آنذاك، وبينما هو في القاهرة إذا به يعلم عن طريق الإذاعة بنبأ تعيينه وزيرا للخارجية.. وقد كان تعيينه في هذا المنصب راجعا إلى الصلة التي تربطه بالرئيس السادات منذ كانا متهمين في قضية اغتيال أمين عثمان عام ١٩٤٦.

وبعد اجتماع الإسماعيلية اتفق الرئيس السادات مع بيجن على تشكيل لجنتين إحداهما سياسية تجتمع في القدس والثانية عسكرية تجتمع في مصر.. وبطبيعة الحال رأس محمد إبراهيم كامل الوفد المصري في اجتماع اللجنة السياسية الذي ضم أيضا بطرس غالي وعصمت عبدالمجيد وكل أعضاء الوفد المصري الذي شارك في اجتماعات مينا هاوس.. وهنا أيضا كان الهدف الرئيسي من هذا الاجتماع هو الاجتماع في حد ذاته.. وخلق الجو الذي يتعود فيه الطرفان والرأي العام على النقلة الخطيرة التي حدثت على يد الرئيس السادات في العلاقات بين مصر وإسرائيل ... وكان السفر إلى إسرائيل أمرا فظيعا بالنسبة لأعضاء الوفد المصري. وكان يتنازعنا عاملان، الأول هو الواجب الوطني والمهني حيث إن الظروف قد وضعتنا في موضع المفاوض باسم مصر، وهو ما يتطلب أن نبذل أقصى جهدنا لأداء هذه المهمة بغض النظر عما إذا كان القرار السياسي الذي أدى إلى هذه الخطوة سليما أم خاطئا، فالحكم على ذلك للتاريخ.. أما العامل الثاني فهو عامل المشاعر الشخصية.. فلقد عشنا منذ الصبا ورأينا إسرائيل تغتصب هذه الأرض التي سنزورها بعد أن أصبحت دولة يهودية وتغيرت هويتها.. هؤلاء هم «الأعداء» الذين حاربناهم وحاربونا لثلاثين عاما.. وقضينا حياتنا المهنية في الخارجية المصرية نحاربهم ويحاربوننا على المستوى الدبلوماسي، وأغلب أعضاء مجموعة العمل هذه كانوا يعملون في بعثة مصر لدى الأمم المتحدة، حيث كانت الحرب سجالا بيننا وبين الإسرائيليين في اجتماعات الأمم المتحدة.. كيف سنذهب إليهم.. وكيف ينعقد هذا الاجتماع في القدس وهي أرض محتلة.. عشرات الأسئلة والهواجس التي كانت تتفاعل في داخلنا.. أي العاملين وأي الاعتبارين يتغلب على الآخر؟ هل يمكن أن يحدث شيء ما يمنع وقوع هذا الاجتماع؟ ولكن ما الذي يمكن أن يحدث وقد تقرر الاجتماع على لسان رئيس الجمهورية وتحدد الموعد!!! وأصبح السفر إلى إسرائيل أمرا لا مفر منه!!

كان وزير الخارجية محمد إبراهيم كامل هو أكثر من عاشوا هذه «المأساة»... فهو لم يتصور في يوم من الأيام أن يكون «هو» الذي يختاره القدر ليكون أول من يذهب إلى إسرائيل ويصافح بيجن وديان ووايزمان.. ويكون هو الذي يقود الوفد الذي يذهب إلى «القدس»... و«القدس» بالذات وهو صاحب التاريخ القديم والمعروف بحماسه الوطني منذ أن كان فتى يافعا في منتصف الأربعينيات.

وكنا نشفق على محمد إبراهيم كامل.. الذي جاء «من الدار إلى النار» في سياق العاصفة التي أطلقها الرئيس السادات بمبادرته.. وكان هاجس «القدس» هو أكثر الهواجس إلحاحا علينا.. وقبيل السفر أطلعني المرحوم صلاح هنداوي على مشروع بيان أعده ليلقيه وزير الخارجية محمد ابراهيم كامل لحظة نزولنا من الطائرة في مطار بن جوريون.. وقد أعجبني البيان في قوته.. وإن كنت قد توقعت أنه بالتأكيد سيسبب أزمة مع الإسرائيليين وهو ما كان.



عندما أقلعت الطائرة وأصبحت في السماء وأعلن قائدها أننا سنصل إلى مطار بن جوريون بعد أقل من خمسين دقيقة، شعرت بأنه قد حسم الأمر ولم يعد هناك مجال للعودة.. ونظرت إلى الوجوه التي حولي ورأيتها جميعا واجمة، أما محمد إبراهيم كامل فقد كان عابسا طول الوقت.. ولكن سرعان ما أعلن أن الطائرة قد بدأت في الهبوط وعندما حطت الطائرة على الأرض كان ديان وزير خارجية إسرائيل ومرافقوه في استقبالنا. وأمام كاميرات التليفزيون وعدسات المصورين وجمع غفير من الصحفيين والمراسلين وقف محمد إبراهيم كامل وأخذ يقرأ البيان السياسي المعد.. وكان بيانا قويا متضمنا كل عناصر الموقف العربي بما فيه الموقف العربي بالنسبة للقدس.. استمع ديان إلى البيان بوجه جامد، ولم يعلق عليه واتجه الجميع إلى السيارات التي كانت مخصصة لنقل الوفد إلى فندق هيلتون، وركبت أنا والمرحوم أحمد الزنط سيارة واحدة رافقنا فيها أحد موظفي إدارة الشرق الأوسط بالخارجية الإسرائيلية كان يعمل من قبل في القنصلية الإسرائيلية في اسطنبول... وأخذ يشرح معالم الطريق الذي لم نكن نرى فيه سوى أنوار السيارات.. كانت رحلة طويلة وكئيبة تلك التي قضيناها بين مطار بن جوريون وفندق هيلتون حيث استقبلنا جمع من الإسرائيليين ببهو الفندق بالتصفيق الذي لم أجد له معنى.. وفي الغرفة وجد كل منا في انتظاره مجموعة من الكتيبات الملونة وهي كتيبات دعائية تشرح المواقف السياسية الإسرائيلية، أذكر من بينها كتيبا يصف منظمة التحرير الفلسطينية بأنها الخطر المميت على إسرائيل.

كان من المقرر أن تعقد اللجنة السياسية أول اجتماعاتها في اليوم التالي لتستمع إلى البيانات التي سيلقيها رؤساء الوفود محمد إبراهيم كامل وسيروس فانس عن الولايات المتحدة وموشي ديان عن إسرائيل.. وكان المقرر أن ينعقد الاجتماع في إحدى قاعات الفندق.. مر عليّ أحمد الزنط واتجهنا سويا لحضور الاجتماع وأخذنا المصعد الذي توقف فيما بين الطوابق ليأخذ آخرين، وكان من بينهم وليم كربي من الوفد الأمريكي، إلا أن المصعد توقف في أحد الطوابق وانغلق علينا ولم يعد يتحرك إلى أعلى أو أسفل وتعطل بالكامل.. وظللنا على هذه الحال حوالي أربعين دقيقة وعندما وصلنا إلى قاعة الاجتماع كان الاجتماع قد بدأ وانفض دون أن يناقش أي شيء في الموضوع. وذهبنا بعد ذلك إلى غداء دعانا إليه وزير الخارجية موشي ديان. كان الجالس إلى جانبي على مائدة الغداء ايلي روبنشتاين مدير مكتب ديان والذي أصبح فيما بعد نائب السفير الإسرائيلي في واشنطون أثناء فترة عملي بواشنطون ثم سكرتير عام الحكومة وهو حاليا المستشار القانوني للحكومة حيث أصدر تصريحه المشهور مؤخرا بأن القرار ٢٤٢ لا ينطبق على الأراضي الفلسطينية!!.. كان جو الغداء كئيبا وكانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها ديان عن قرب. وكان محمد إبراهيم كامل هو ضيف الشرف إلا أنه ظل متجهما وعابسا وكان ديان لذلك يوجه حديثه إلى بطرس غالي وفانس أكثر مما يوجهه إلى محمد إبراهيم كامل.



في المساء كنا مدعوين للعشاء وكان المضيف في هذه المرة هو رئيس الوزراء مناحم بيجن.. وقد ضم العشاء حشدا كبيرا من المجتمع الإسرائيلي من مختلف الشرائح. واختار بيجن هذه المناسبة ليرد فيها على خطاب وزير الخارجية المصري الذي ألقاه في المطار لحظة وصوله.. وقف بيجن الذي كان مفتونا بقدراته الخطابية، ورحب بالضيوف، وتحدث عن السلام ومبادرة الرئيس السادات.. ثم بدأ يتحدث عن إسرائيل والشعب اليهودي ثم استطرد إلى الحديث عن القدس التي اعتبرها العاصمة الأبدية لإسرائيل، ثم واصل حديثه عن حق تقرير المصير وأشار إلى أن هذا الحق أسيء استخدامه بواسطة ألمانيا النازية في دول شرق أوروبا وأشار إلى محمد إبراهيم كامل وذكر أنه صغير السن وبالتالي لا يعرف هذا التاريخ.. كان خطاب بيجن بصفة عامة بعيدا تماما عن أصول الدبلوماسية، ولو كان بيجن يريد أن يرد على خطاب محمد إبراهيم كامل الذي ألقاه في المطار فكان يمكنه أن يفعل ذلك من خلال بيان يصدر باسمه أو باسم وزير خارجيته وليس في حفل مقصود به أن يكون حفل تكريم للوفد المصري ورئيسه.

كنت أراقب وجه محمد إبراهيم كامل وأرى فيه الغضب والضيق فضلا عن التجهم الذي لم يفارقه منذ لحظة ركوبنا الطائرة إلى إسرائيل.. ولم أكن أعرف ما الذي يعتزم أن يفعله إزاء هذا الخطاب المفاجيء أمام هذا الجمع الحاشد ورجال الإعلام، إلا أنه ما أن انتهى بيجن من خطابه حتى وقف محمد إبراهيم كامل وارتجل كلمة دخل فيها مباشرة إلى الرد على بيجن دون أية مقدمات.. فذكره بأننا في مناسبة اجتماعية ولسنا في مؤتمر سياسي وأن حديث رئيس وزراء إسرائيل كان المفروض أن يكون حديثا ذا طابع اجتماعي ولكنه اختار أن يتحدث عن السياسة، وأنه يأسف لأن يكون بيجن قد سلك هذا المسلك غير المألوف في تقاليد الدبلوماسية.. وأنه إذا كان لديه ما يريد أن يقوله سياسيا فكان عليه أن يختار لذلك قاعة اجتماعات اللجنة السياسية وليس حفل العشاء.. كان خطابا قصيرا وعفويا ولكنه جاء قويا وحاسما وما أن جلس محمد إبراهيم كامل على مقعده حتى جاء تصفيق الوفد المصري مدويا ومعربا عن أنه كان يتحدث بما أشفى غليلنا جميعا... وذهبنا جميعا لتهنئته.. وانفض العشاء.. وكأنه كان العشاء الأخير.

لم تجتمع اللجنة السياسية في اليوم التالي وإنما دارت مشاورات بين رؤساء الوفود الثلاثة وكنا نحن في غرفنا ننتظر استدعاءنا لحضور اللجنة إلا أنه بدلا من أن نستدعى لحضور اجتماع اللجنة جاء الخبر أن الرئيس السادات قرر استدعاء الوفد كله للقاهرة، وما أن بلغنا هذا الخبر حتى عم الفرح أعضاء الوفد جميعا وانقلب الوجوم إلى ابتهاج.. وشعر الجميع بأن الكابوس قد انزاح، وعلى الفور بدأ سايروس فانس وزير الخارجية الأمريكي اتصالاته مع محمد إبراهيم كامل لإقناعه بالاتصال بالرئيس السادات حتى يعدل عن قرار الاستدعاء إلا أن محمد إبراهيم كامل لم يستجب لهذه المحاولات.

وفي دقائق حزم أعضاء الوفد حقائبهم وانطلقت السيارات إلى المطار وساد رحلة العودة جو من المرح وتبادل الأحاديث والضحكات.. على خلاف الوجوم الذي ساد الرحلة من القاهرة إلى القدس.

ولقد زرت القدس بعد هذه الرحلة بثمانية عشر عاما بدعوة من الجامعة العبرية لإلقاء محاضرة عن مسيرة السلام.. ورغم مرور هذه الأعوام.. فلقد شعرت وأنا أستقل الطائرة بمشاعر مماثلة ولم يخفف منها سوى الاستقبال البشوش لسفيرنا في إسرائيل محمد بسيوني ومستشار السفارة محمد العرابي عندما وجدتهما في استقبالي على سلم الطائرة بالمطار. فجيلنا هو الذي ☛

التقى الدكتور الزيات مع هنرى كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة يوم ٥ أكتوبر، ودار الحديث حول أزمة الشرق الأوسط إلا أن كيسنجر الذي لم يتصور أن حربا كبيرة قد تنشب في اليوم التالي، أبلغ وزير خارجية مصر أن الولايات المتحدة لا تعتزم أن تفعل شيئا لحل هذه المشكلة في الوقت «الراهن»، حيث إنه شخصيا مازال مشغولا بقضية فيتنام وأنه عندما ينتهي من ملف فيتنام فإنه سينتقل إلى ملف الشرق الأوسط



تداعى الذكريات

عاصر هذه الأرض وهو تؤخذ بالقوة من أهلها وسمع عن المدن العربية التى دارت على رحاها حرب فلسطين الأولى والتى أخذت بعد ذلك أسماء إسرائيلية وسمع عن كفاح المجاهدين الفلسطينيين مثل عبدالقادر الحسينى وحسن سلامة.



بعد هذه الزيارة عاد الدكتور عصمت إلى موقعه فى نيويورك وتواصلت عملية السلام مع وزير الخارجية محمد إبراهيم كامل الذى كون فريق عمل لمساعدته وكنت واحدا من أعضائه، وظل هذا الفريق يعمل معه حتى اجتماع كامب دافيد الذى شهد استقالته من منصبه كوزير للخارجية ثم انفرط عقد هذا الفريق، فذهب نبيل العربى الى نيويورك كمندوب مناوب لدى الأمم المتحدة فى نيويورك نائبا للدكتور عصمت عبدالمجيد وعينت أنا سفيرا فى باكستان وبقيت هناك سنة نقلت بعدها مندوبا دائما لمصر لدى الأمم المتحدة فى جنيف... وعاد التواصل مرة أخرى بينى وبين الدكتور عصمت الذى كان ما زال مندوبا دائما فى نيويورك وذلك بحكم صلة العمل بين بعثتى مصر لدى الأمم المتحدة فى نيويورك وجنيف، أما محمد إبراهيم كامل ـ أمد الله فى عمره ـ فقد ظل بعد ذلك يعيش مأساة هذه الشهور التى قضاها كوزير للخارجية.. ثم كتب مذكراته بعد ذلك بعنوان «السلام الضائع».



٧

قبل خروج دكتور عصمت إلى المعاش بقليل فى عام ١٩٨٣ خلا مقعد الدول الإسلامية فى محكمة العدل الدولية بوفاة المرحوم الدكتور عبدالله العريان فرشحت مصر الدكتور عصمت عبدالمجيد لشغل هذا المنصب، كما رشحت الجزائر الدكتور محمد بدجاوى مندوب الجزائر الدائم لدى الأمم المتحدة إلا أنه بسبب القطيعة العربية لمصر آنذاك، تكاتفت الدول العربية على إنجاح المرشح الجزائرى، وبالتالى رجحت كفته وتم انتخابه وعاد الدكتور عصمت عبدالمجيد إلى مصر وعاد إلى مهنة المحاماة التى أحبها منذ البداية، وكان من حسن حظه أنه لم ينجح فى انتخابات محكمة العدل الدولية، فما هى إلا عدة شهور بعد عودته للقاهرة حتى خلا منصب وزير الخارجية بتعيين وزير الخارجية آنذاك الفريق كمال حسن على رئيسا للوزراء، فاختار الرئيس مبارك الدكتور عصمت ليكون وزيرا للخارجية فى سبتمبر ١٩٨٤ حيث بقى فى هذا المنصب لسبعة أعوام إلى أن تم انتخابه أمينا عاما للجامعة العربية فى مايو ١٩٩١.

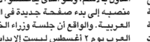
كانت المحطة التالية التى تلاقت فيها مسيرتنا عندما عينت سفيرا فى واشنطون وتصادف أن تزامن ذلك مع تعيينه وزيرا للخارجية، وطوال هذه الأعوام كانت علاقتى به على أفضل ما تكون عليه العلاقة بين وزير للخارجية وبين سفير لبلاده فى عاصمة هامة مثل واشنطون.. كنت على اتصال شبه يومى به فى كل ما يطرأ على العلاقات المصرية الأمريكية سواء فى مجال العلاقات الثنائية أو بالنسبة لعملية السلام، حيث شهدت هذه السنوات العديد من المحاولات التى قامت بها إدارة ريجان وإدارة بوش لإطلاق عملية السلام، أو بالنسبة للمفاوضات مع صندوق النقد الدولى والبنك الدولى حول الإصلاح الاقتصادى أو بالنسبة للأزمات التى ما كانت لتنتهى إحداها إلا لتبدأ الأخرى، لنتفق على أسلوب التعامل معها ومع انعكاساتها على الساحة الإعلامية وعلى ساحة الكونجرس، ولقد كان عصمت عبدالمجيد محل احترام الجانب الأمريكى، وكان أسلوبه الهادىء محل تقدير وزيرى الخارجية شولتز وبيكر، كما كان هناك عامل العلاقة السابقة بينه وبين جورج بوش عندما كانا مندوبين دائمين لبلديهما لدى الأمم المتحدة وكان بوش سواء كنائب للرئيس ريجان أو كرئيس يستقبله دائما فى بشاشة ومودة.



وفى أثناء هذه الفترة وقع الغزو العراقى للكويت وكنت فى أجازة فى مصر وتحديدا فى قرية الدبلوماسيين بالساحل الشمالى، ولم أعلم بالغزو إلا من خلال مكالمة تليفونية كان على الطرف الآخر منها مدير مكتب وزير الخارجية آنذاك السفير أحمد عادل (مدير مكتبه حاليا فى الجامعة العربية) الذى طلب منى أن آخذ سيارتى على الفور وأحضر إلى القاهرة لأشارك فى الاجتماع الطارىء الذى سيعقد اليوم (٢ أغسطس ١٩٩٠) لوزراء خارجية الدول العربية للنظر فى العدوان العراقى على الكويت، وكانت هذه الجلسة تاريخية بكل المقاييس كما كانت جلسة عاصفة حيث كان العراق والذين مالؤوها يعملون على الحيلولة دون إصدار قرار عربى ويعملون على أن ينتهى الاجتماع دون اتفاق بين الوزراء، وبذلك يتفتت الموقف العربى بما كان يمكن «صدام» من التعامل مع كل دولة عربية على حدة بسلاح الترغيب أو الترهيب حسب الأحوال، بينما كان الموقف المصرى يتمثل فى ضرورة أن ينتهى الاجتماع إلى قرار بغالبية الآراء مادام أنه لا يمكن صدور قرار إجماعى، وكانت مصر ترى أن عدم صدور قرار عربى فى الوقت الذى صدر فيه قرار بمجلس الأمن سيعنى أن العالم العربى فى حالة عجز كلى عن أن يتعامل مع قضية تمس كيانه فى الصميم.. كانت هذه الجلسة وحدها كافية أن يكتب عنها الدكتور عصمت عشرات الصفحات فى كتابه فيما احتوته من مواقف ومفارقات ولكنه آثر للأسف أن يعالجها بكثير من الاقتضاب.

كان عصمت عبدالمجيد نجم هذه الجلسة بلا منازع فهو الذى وقع عليه مع الأمير سعود الفيصل وزير خارجية السعودية عبء الدفاع عن الموقف المعارض للغزو العراقى. وكان أداؤه الدبلوماسى على أعلى مستوى، استخدم فيه كل خبرته القانونية السابقة واستطاع أن يتصدى لمختلف المناورات التى لجأ إليها الوفد العراقى برئاسة دكتور سعدون حمادى وغيره من رؤساء الوفود الذين ساندوا العراق فى هذه الجلسة فاستطاع فى النهاية أن يخرج بقرار يطالب العراق بسحب قواته من الكويت وبعودة الشرعية.. وكان هذا القرار هو بداية تبلور الموقف العربى الذى عارض الغزو العراقى وكان بمثابة المقدمة للقرارات الهامة للقمة العربية التى انعقدت يوم ٨ أغسطس برئاسة الرئيس مبارك.

آثر عصمت عبدالمجيد أن يكتب عن هذا الفصل فى مذكراته بدبلوماسية شديدة لم تنصف دوره الدبلوماسى بل لم يعط للمؤرخين المادة التى من شأنها أن تلقى الضوء على هذا اليوم الهام فى تاريخ العرب وأن يشرح كيف تبلور الدور المصرى فى هذا اليوم وكيف كان له أثره الكبير فى توجيه مسار الأحداث، إلا أن الكتابة عن هذه الجلسة بصراحة كانت ستتطرق بالضرورة إلى بيان مواقف الدول العربية المختلفة من العدوان العراقى على الكويت، والمناورات التى لجأ إليها البعض حتى لا يصدر قرار عربى، ومواقف تلك الدول التى أمسكت العصا من الوسط.. كما كان سيتعين عليه أن يصف الحالة البائسة التى كان عليها وزراء خارجية الدولة العربية خاصة من منطقة الخليج.. وكيف ساد هذه الجلسة مناخ الإرهاب والتخويف الذى فرضته واقعة الغزو عليهم.. فلاذوا جميعا بالصمت التام باستثناء الوزير السعودى والمندوب الكويتى بطبيعة الحال.. ولاشك أن عصمت عبدالمجيد وهو يشغل منصب أمين عام جامعة الدول العربية قد وجد حرجا كبيرا فى أن يتحدث عن هذه الدول بالاسم، وهو الذى يدعو الآن بحكم منصبه إلى بدء صفحة جديدة فى العلاقات العربية. والواقع أن جلسة وزراء الخارجية العرب يوم ٢ أغسطس ليست إلا بداية لقصة طويلة ينبغى أن تكتب فى يوم من الأيام عن الموقف المصرى فى معارضة الغزو العراقى للكويت. لقد كانت هذه الجلسة بداية التعامل مع الإعصار الذى لف المنطقة العربية كلها حتى تم تحرير الكويت وكان الدور المصرى فى تسلسل الأحداث دورا كبيرا وحاسما.



عندما أعود بذاكرتى إلى هذه الأيام فإن شخص الزيات يظهر وكأنه بطل لمسرحية درامية إغريقية. لقد جاء الزيات إلى نيويورك قبل حرب أكتوبر بأيام وهو وزير للخارجية وغادرها يوم ٢٩ أكتوبر وقد فقد منصبه وأصبح المرحوم إسماعيل فهمى وزير السياحة هو وزير الخارجية الجديد





٨

عصمت عبدالمجيد واحد من الدبلوماسيين المصريين الذين أتاح لهم الحظ أن يعملوا مع الدكتور محمود فوزى الذى ينظر إليه باعتباره أبا الدبلوماسية المصرية، وكان يطلق عليهم «أولاد فوزى». وقد عملت هذه المجموعة مع الدكتور فوزى فى مواقع مختلفة وكان من ألمعها إسماعيل فهمى الذى عمل مع فوزى فى البعثة المصرية لدى الأمم المتحدة فى نيويورك والذى صعد سلم الخارجية حتى تقلد منصب وزير الخارجية فى حرب أكتوبر وظل لمدة أربع سنوات وزيرا للخارجية وكانت لديه الشجاعة أن يستقيل من منصبه عندما اختلف مع الرئيس السادات حول مبادرة زيارة القدس، وكان منهم المرحوم محمد رياض الذى أصبح وزير دولة للشئون الخارجية بينما كان إسماعيل فهمى وزيرا للخارجية، وغادر الوزارة فى نفس الوقت الذى غادرها فيها إسماعيل فهمى. ومن بينهم أيضا أحمد المسيرى أمد الله فى عمره، وكان قد عمل مع الدكتور فوزى عندما كان فوزى رئيسا للبعثة المصرية فى فلسطين وشغل منصب قنصل مصر فى حيفا أثناء الحرب العالمية الثانية. ومن بين أولاد فوزى أيضا عبدالحميد عبدالغنى أو عبدالحميد الكاتب الذى رحل عن عالمنا منذ وقت قريب، وقد جاء إلى الخارجية من مجتمع الصحافة، فقد كان صحفيا معروفا وكان يكتب فى أخبار اليوم تحت اسم عبدالحميد الكاتب وكان قريبا من المرحوم محمود عزمى الصحفى والكاتب المعروف الذى اختارته الثورة ليكون مندوبا دائما لمصر لدى الأمم المتحدة خلفا للدكتور محمود فوزى، وسرعان ما تألق محمود عزمى فى منصبه الدبلوماسى كمندوب دائم.. على أنه لم يعمر طويلا فى هذا المنصب حيث وافته المنية فجأة أثناء إلقائه خطابا فى مجلس الأمن بينما كان يدافع فيه عن الموقف المصرى فى قضية منع إحدى السفن الإسرائيلية من المرور فى قناة السويس، وكان من حسن حظى أننى عملت مع هذه المجموعة منذ بداية التحاقى بالعمل فى وزارة الخارجية.. والدكتور عصمت هو واحد من أصحاب أطول فترة عمل فى الخارجية وذلك بدءا من التحاقه بالخارجية فى عام ١٩٤٥ وانتهاء بعمله كوزير للخارجية لسبع سنوات اختتمها فى عام ٧١ وخلال هذا المشوار عمل رئيسا لهيئة الاستعلامات ومتحدثا رسميا باسم مصر، كما عمل أيضا وزيرا لشئون مجلس الوزراء مع الدكتور محمود فوزى أثناء فترة رئاسته للوزارة فى الستينيات.

وقد سبق أن كتبت أن الرئيس الأمريكى جورج بوش كان يريد أن يرشح دكتور عصمت لمنصب الأمين العام للأمم المتحدة إلا أن مصر كانت قد رشحته بالفعل لمنصب أمين عام جامعة الدول العربية، ثم جاء ترشيح دكتور بطرس غالى لمنصب أمين عام الأمم المتحدة والذى أيدته الولايات المتحدة بناء على دعم مصر له كما سبق أن شرحت فى مقال سابق. ■

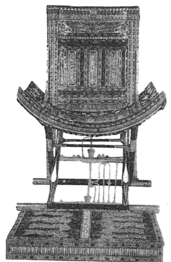
قصة الأثاث في حياة الإنسان من فجر التاريخ إلى ما بعد الحداثة

عمرو كمال حمودة

الحديث عن الأثاث لا يستقيم بغير استكمال مكونات أخرى مثل أقمشة التنجيد والسجاد واللوحات والستائر والنجف والأباجورات.. وأى طراز من المفروشات تتفاعل نغماته مع بعضها البعض، فإذا أردنا على سبيل المثال أن يكون طراز الأثاث فى إحدى الحجرات حديثاً فعلينا مراعاة الحداثة فى بقية المكونات، علاوة على ضرورة أخذ عمارة المكان فى الاعتبار. وما نتحدث عنه هو الذوق ومسألة التذوق، تحتاج إلى تربية بصرية وحسية وشعورية على المستوى العام والخاص وهو ما نفتقده إلى حد كبير، وينقلنا ذلك إلى نقطة أخرى تحتاج إلى نقاش أوسع وهى مسألة التقليد الأعمى فى أسلوب تأثيث بيوتنا ومكاتبنا، فنحن لا نختار قطع الأثاث وفقاً لأسس فنية وذوقية وإنما يسود التقليد بشكل مجحف ومخل. ويثور السؤال: لماذا نعزف عن أشكال وخطوط جمالية قد تراكمت عبر سنوات التاريخ المصرى؟ فالأثاث الفرعونى والأثاث الأرابيسك لماذا لم يستمرا حتى الآن؟ هل كان التشبه بالغرب العامل الأساسى فى حدوث قطيعة بين فنوننا القديمة فى الأثاث والانتقال نحو التغريب فى تأثيث بيوتنا ومكاتبنا بأسلوب لوى كانز ولوى ساز والستيل الأمريكى؟ فى حين اتجه الكثيرون من صناع الأثاث فى الغرب لاستلهام الخطوط الجمالية للطرز الفرعونية والعربية لتميزها فى التصميم.

كان لافتاً للنظر منذ عصر محمد على باشا وإلى النصف الأول من السبعينيات من القرن العشرين أن توقفت عملية التزاوج بين الطرز المصرية والعربية الحميمة للشخصية والبيئة المصرية والمزج مع التطورات العصرية فى صناعة الأثاث.. ولم تحدث أى إضافة حقيقية سوى على أيدى مصممين مبدعين مثل «حلمى التونى» الذى استلهم الخطوط الجمالية للتراث المصرى الشعبى والريفى على الأخص فى إنتاج أثاث عصرى حديث بتيمات وموتيفات أصلية.. وهناك الفنان «مهيب» الذى أعاد فن الأرابيسك إلى دائرة الاهتمام، لكنه لم يدخل أى تطورات عصرية عليه، فقد تمسك بجمال خطوط الماضى لأنها تعبر عن الجذور الأصلية للشخصية العربية. ولا ننسى أعمال «أسعد نديم»، ذلك الفنان المبدع الذى مزج بجرأة الخطوط الجمالية لفن الأرابيسك بالتصميمات الحديثة لفن الأثاث.

ولكن هذه المحاولات الثلاثة رغم تميزها وإبداعها تنتج أثاثاً للقلة الغنية المترفة ولم تتمكن حتى الآن من الانطلاق لآفاق أوسع فتغطى احتياجات طبقات أوسع، ولهذا نقول أنها محاولات تحتاج لقوة دفع أكبر على أصعدة مختلفة، أى فى الحقل الثقافى وفى التطبيقات عند إنتاج الأثاث وعند تأثيث بيوتنا ومكاتبنا.



كرسى الملك توت عنخ آمون



الكرسى المصرى الشعبى فى العصر الفرعونى

وقف «هوارد كارتر» مكتشف مقبرة توت عنخ آمون مشدوهاً والعمال يخرجون من جوف المقبرة قطع الأثاث التى وجدت داخلها. فلأول مرة يرى العالم بأسره «سريراً» سليماً من العصر الفرعونى، له طلاء من الذهب الخالص، قواعده منقوشة عليها زهرة اللوتس بألوانها المتميزة، وعلى ظهر السرير حفر النجار المصرى الفنان بمنتهى الدقة تمثالين للآلهة الحارسة للفرعون عندما يغشاه النوم. تمثال للإلهة «إيزيس» على الجانب الأيمن وتمثال الإلهة «نفتيس» على الجانب الأيسر.

وبجوار هذا السرير - الموجود حالياً بالمتحف المصرى - توجد عدة موائد أنيقة، بعضها صمم خصيصاً لممارسة بعض الهوايات الترفيهية للفرعون والحاشية، إحداها لها قاعدة شبيهة برقعة الشطرنج.

وهناك «الكرسى» الذى كان يجلس عليه توت عنخ آمون أثناء الحكم، وقد صنعه النجار المصرى الفنان من خطوط انسيابية بسيطة ومستقيمة باستخدام شجر الأبنوس المكفت برقائق الذهب وقطع الزجاج الدقيقة والمرصع بالحجارة الفيروزية الزرقاء والزبرجدية الخضراء.

كان ذلك أثاث الفرعون.

أما عامة الناس، فقد استعملوا أثاثاً بسيطاً من الحجارة أو الأخشاب العادية تدل على رقة الحال. ولكن اللافت للنظر ذلك الكرسى الخشبى الذى صنعه النجار المصرى القديم لاستخدام عامة الشعب. فقد صنعه من «جملة» هندسية محكمة ومستقيمة، فجاء مريحاً للغاية وبات نموذجاً أولياً للإنتاج المصرى من الأثاث خلال فترات طويلة، وصلت فى شكلها النهائى عند نموذج الكرسى «الأسيوطى» الشهير فى أوساط الطبقة الوسطى المصرية الحضرية والريفية على السواء.



و «الأثاث فن جميل» وصناعة حميمة صاحب الإنسان منذ تعلمه الحضارة.

فإذا كان الاحتياج والضرورة قد صنعا الكرسي والمائدة والسرير والدولاب والمكتب وخزانة الكتب، فإن القدرة الإبداعية للإنسان طورت من «الوظيفة الاستعمالية» للأثاث وحولتها إلى قطع فنية تشهد لأصابع الفنان الذى صممها ثم شكلها بالتمكن والرقى.

ولأستاذ تاريخ الثقافات الإيطالى «ماريو براز» مقولة ثاقبة. فقد كتب: «الأثاث يعكس روح العصر. والفكرة الأساسية تكمن فى حدوث التقدم فى هذا الفن مع التطور الحضارى وترقى الإنسان ودخول المفاهيم الثقافية فى الحياة اليومية للبشر».

ومن ثم فما نشاهده أو نشتريه اليوم من قطع «الموبيليا» ثمرة لعناصر كثيرة تداخلت مع بعضها البعض على مدى حقب وظروف تاريخية عديدة.

عن الفورم والستيل والعناصر التى أثرت فى صناعة الأثاث

ساهمت «ثورة الاتصالات» وكتابات ومشاهدات الرحالة القدماء بتعريف العالم بالبرفان الهندى وقطع الأثاث الكشميرى العجيبة وبالدواليب الصينية ذات الأدراج المتعددة ورسوماتها الأخاذة. كما أن التكنولوجيا نقلت صناعة الأثاث من طور لآخر، ساعد طبقات اجتماعية مختلفة على إشباع طموحاتها من تملك أنواع متعددة من «الموبيليا» لم تكن قادرة على الوصول إليها لو بقى الوضع قاصراً على التصنيع اليدوى.

ولكن «الوضع الطبقى» كان من العوامل الجوهرية فى دفع صناعة الأثاث للنمو والتطور.

فسواء كان المسمى «الطبقة الأرستقراطية» أو «البرجوازية الكبيرة»، فإن إمكانيات الطبقة الثرية، رعت هذا الفن وكان سبيلها لإبراز قوتها ونفوذها وتفوقها. وهناك نماذج من الأثاث شديدة الفخامة والمبالغة فى البذخ، فسرها البعض بأنها تعبير عن الثروة من ناحية، وتعظيم للثروة من ناحية أخرى بسبب القيمة المادية لقطعة الأثاث ذاتها.



شيزلونج جوزفين الذى ابتكره
نابليون بونابرت خصيصاً لها

ولعنصر «الأيديولوجيا» مساهمته هو الآخر، فإذا كان الفكر الرأسمالى لم يساعد على تصميم وإنتاج أثاث رخيص للملايين فإن الفكر الاشتراكى الديمقراطى للدول الإسكندنافية.. فعل ذلك. حتى أن الأثاث الدنماركى والسويدى قد أصبح علامة على البساطة والراحة والبعد عن الزخرف الذى لا لزوم له. ناهيك عن البحث وراء المواد الرخيصة التى تدخل فى صناعة الأثاث مثل الخشب المفروم وخشب قش الأرز والخشب المضغوط ولدائن البلاستيك.

وأخيراً «الحب» الذى كان سبباً فى تطوير صناعة الأثاث تحية للعشق والعشاق.

فلولاه لما أمر نابليون بونابرت صناع الأثاث فى فرنسا لإبداع الشيزلونج الرقيق الذى طلبه خصيصاً لزوجته وعشيقته جوزفين التى تدله فى حبها وأراد أن يراها وهى تجلس ممددة قدميها على الشيزلونج فى استرخاء ودلال تنصت لحديثه وتدفق أشواقه. (لقد كان صاحب مزاج عال).

والفنان الذى يقوم بتصنيع قطعة الأثاث يبدأ بـ«الفورم» أى التشكيل. فشكل القطعة هو وحدة العمل الأساسية. ويتكون الفورم من عناصر بسيطة وتكنيك فنى بالإضافة للمواد المستخدمة. وعندما يكون المصمم تقليدياً حذراً فهو لا يدخل على الفورم المعاصر سوى تعديلات طفيفة، بينما تأتى تشكيلات المصمم الجرىء جانحة عما هو تقليدى عندما يبدع فى إدخال عدة أساليب مع بعضها أو يطعم الفورم بتفاصيل كثيرة.

والفورم لا يعمل وحده، إنما يتآلف معه «الستيل» أى الطراز. فطراز كل عصر يضع بصماته على تكوين الفورم الذى يلعب عليه الفنان عندما يصمم قطعة الأثاث.



والطراز (الستيل) عبارة عن عدة عناصر وقواعد عامة تتناغم لإنتاج منتج معين. وللطراز مظهر وجوهر وأبعاد ونسب بالإضافة للثقافة السائدة. أى أن «الطراز» له بعد هندسى علمى وآخر ثقافى. ويتغير الطراز من عصر لعصر بسبب حب الإنسان للتجديد وكسر الرتابة وأيضاً بسبب الروح القلقة عند الفنان المصمم ورغبته المستمرة فى كسر الأمر الواقع وتغييره نحو الأرقى والأجمل.

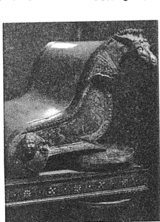


من وحى الطرز العتيقة .. كرسى عرش بزخارف خيالية ـ ايطاليا ١٤٥٠

هل تفرش بيتك على طراز لويس الخامس عشر أم الروكوكو؟

وأحياناً ما يكون الطراز الجديد مبتكراً تماماً.. وفى أحيان أخرى يكون توليفة من طرز سابقة مع إدخال «موتيف» جديد عليها. ويحدث التأثر هنا بالموضة. ويحضرنا مثال واضح، عندما أقيم معرض توت عنخ آمون بالعاصمة الفرنسية باريس فى أواخر عقد الستينيات من القرن الماضى حيث سادت موضة الفراعنة فى الملابس وتزيين واجهات المحال والمطاعم. ولحقت هذه الموضة بصناعة الأثاث آنذاك وظهرت «موتيفات وتيمات» فرعونية بابتكارات جديدة فى تصميم دواليب ومناضد وكراسى عصرية.

والطريقة التى يتم بها تصميم قطعة الأثاث تحتاج إلى فن وإلى استخدام الرياضيات مع قدر من الفكر الهندسى ثم القدرة على التصور وإعمال الخيال. لو نظرنا لعمل المصمم لوجدناه يبدأ بطرح أفكاره على الورق راسماً خطاً مستقيماً وآخر



قطعة أثاث تمثل كرسى رومانى يظهر فيها عنصر الضخامة فى التفاصيل

دائرياً مستديراً ثم يقوم بتجميع الخطين على ثلاثة أبعاد. بعد ذلك يبدأ فى حشو الفراغ القائم. وهو لا يختلف فى عمله عن فعل النحات أو الفنان التشكيلى. فالأثاث قطعة فنية فى النهاية. وهناك عبارة جميلة لمصمم الأثاث الفرنسى «فونتين» فى هذا الصدد: «إن التصميمات الرائعة لقطع الموبيليا، ثمرة للتعانق الكامل بين عبقرية وإبداع المهندس المعمارى والنحات والفنان التشكيلى».

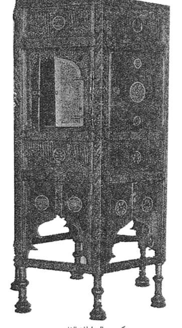


لقد ظهر بجلاء تميز الأثاث فى الحضارتين الفرعونية والصينية بالدقة فى الخطوط والبساطة فى التفاصيل، على عكس الأمر بالنسبة لتراث الحضارة الرومانية، فقد تميزت التصميمات بالضخامة والمبالغة فى إبراز التفاصيل وكان قطعة الأثاث قد نحتت من الحجر وليس من الخشب الأكثر رقة وليونة. هذه «الضخامة» تركت آثارها على تصميمات الأثاث الأوروبى لفترات طويلة امتدت حتى نهاية القرن السادس عشر.

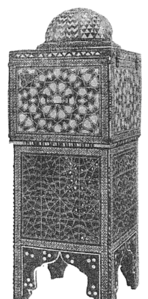
أما عن الشرق فكانت الصورة مختلفة تماماً بسبب تأثيرات الحضارة العربية الإسلامية على الفنون والآداب. فالفنان المسلم أبدع فن «الأرابيسك» فى تزيين وزخرفة المساجد والبيوت السكنية وقصور الطبقة الحاكمة.

البداية كانت فى صناعة «المنبر». ويقول العلامة الألمانى «أرنست كونل» فى كتابه المرجعى «الفن الإسلامى»:

«كان المنبر أهم قطعة ضرورية بين الأثاث الذى لعب دوراً جوهرياً فى تأثيث الجامع. وللمنبر جانبان مثلثان من الخشب بينهما سلم ضيق ذو دريئة ومدخل. وجسم المنبر به حشوات ذات مواضيع نباتية فى تشكيلات هندسية تدل على ابتكار خصيب مدهش إلى أبعد حد».



كرسى السلطان الناصر
المتحف الإسلامى - القاهرة

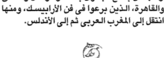


صندوق تركى لحفظ المصاحف. متحف جوسق تشنيلى باسطنبول

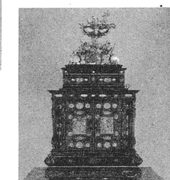
وبعد المنبر يأتى «الكرسى» الذى يوضع عليه المصحف الكريم عند القراءة أو التلاوة. ولدينا كذلك «الصندوق» لحفظ المصحف.

ومن أجمل الكراسى، تلك الخاصة بالسلطان قلاوون والسلطان الناصر الموجودة بالمتحف الإسلامى (باب الخلق – القاهرة). أما أشهر صناديق حفظ المصاحف فتوجد بمتحف «جوسق تشينيلى» بمدينة إسطنبول التركية.

وقد برع الفنان المسلم فى الزخرفة والتكفيت بقطع العاج والعظم والفضة والذهب، وذلك عند صناعة الكتب والكراسى والموائد المسدسة الشكل، كما استخدم الأشعار وأبيات الحكمة والآيات القرآنية فى زخرفة قطع الأثاث، وكلها من بدائع نجارى بغداد والموصل ودمشق والقاهرة، الذين برعوا فى فن الأرابيسك، ومنها انتقل إلى المغرب العربى ثم إلى الأندلس.



طوال القرون من الخامس عشر حتى السابع عشر ساد الطراز الكلاسيكى فكانت التصميمات أكثر تعقيداً والأثاث شديد الزخرفة،



خزانة من العصر الكلاسيكى مصنوعة من خشب الأبنوس مليئة بالزخارف

ووشى الحفر اليدوى كافة أرجاء القطعة الواحدة فازدحمت بالرسوم وقطع العاج وفصوص الزجاج والحجارة الكريمة مثل الياقوت والجاد، ناهيك عن ثقل وزن قطعة الأثاث ذاتها حتى بات من الصعب تحريكها من مكان لآخر.

وعندما جاء الملك لويس الرابع عشر إلى سدة الحكم فى فرنسا، كانت له رؤية فنية للدور الحضارى لمملكته، وقد تمتع بذوق كبير وقوة إرادة وتصميم على أن يكون لفرنسا طراز معمارى وطراز خاص فى الأثاث. فالطراز والذوق تعبير عن رؤية الأمة لنفسها.

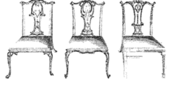
سكن لويس الرابع عشر قصر التريانون فى فرساى. وقاد من هناك معركته ضد الطراز الكلاسيكى سواء مع المعماريين أو صناع الأثاث واستطاع طرح مفاهيم جديدة لطراز جديد أطلق عليه «باروك» فيه تخلصت قطع الأثاث من الضخامة مع العناية بالرقة والانسياب فى الخطوط، واستخدام إبداعات الطبيعة من زهور وأوراق شجر فى تشكيل جوانب القطعة ذاتها، دون التنازل عن الفخامة، فتلك سمة الطبقة الأرستقراطية. وقد اهتم لويس الرابع عشر بعنصر «التنجيد» وكان وراء تطوير صناعة أقمشة التنجيد فى مدينة «ليون» لينافس الصناعة الإيطالية. وفى عهده بدأ تنجيد أطقم الصالونات بالجوبلان أى الرسوم المشغولة بخيوط الحرير على القماش.

وفى مقابل «الباروك الفرنسى» ظهر طراز «الروكوكو الإنجليزى» فى نفس الفترة. ولعل أهم قطعة أثاث أنتجت فى إنجلترا وقتئذ،



رسم لسرير ملكى بقصر التريانون فرساى فى عهد لويس الرابع عشر

كرسى فوتيل «كوين آن» الذى كان صيحة جديدة فى عالم الأثاث، لأن الكرسى أصبح



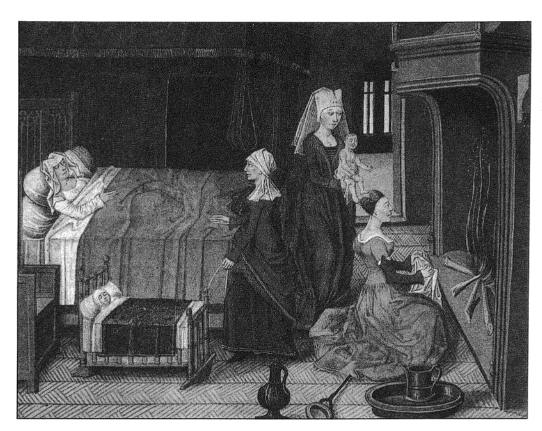
كرسى من تصميم شيبنديل

قطعة رشيقة، الظهر عال والمقعد واسع والذراع مسحوبة فى انسياب وبانحناء لطيف، أما الأرجل فقصيرة وعلى هيئة قوائم الأسد، بالإضافة إلى تنجيد الكرسى بالكامل من الجلد الطبيعى.



المكتب الخاص للملك لويس الخامس عشر بقصر فرساى

وتصعب الكتابة عن عصر الروكوكو دون الإشارة لفنان ونجار عظيم هو «توماس شيبنديل» ذلك العبقرى المبدع، فقد أدخل تنويعات متعددة على صناعة الموبيليا، ونشر كتباً عن تصميمات الأثاث حوت ١٦٠ تصميماً لا تزال تمثل قاعدة أساسية لطرز الأثاث الأمريكى الفاخر، حتى أن مائدة الإفطار الرئاسية فى البيت الأبيض من طراز شيبنديل».



سرير ومهد طفل عن لوحة مولد يوحنا المعمدان ـ فرنسا ١٤٧٥

سرير نقال للرحلات له قبة .. مصنوع من الأبنوس ومطعم بزخارف مغربية ـ المانيا ١٥٨٠.

أما لويس الخامس عشر ملك فرنسا والذى عرف طراز عصره بـ(لوى كانز) أو «تروبادور» فقد اهتم بأن تستمر سياسة سلفه فى إعلاء شان الذوق الفرنسي، وقام بإدخال بعض التجديدات على تصميم الأثاث بنفسه، فقد عكف على توجيه أهم مصممى عصره وهو الفنان «بيير كونتون إيفرى» لتصميم بعض القطع لإضافتها إلى مفروشات قصر فرساى، أجملها مكتبه الخاص الذى استغرقت صناعته عشر سنوات وصنعه أشهر نجارى عصر لويس الخامس عشر وهما «أوين» و «ريزنر».

ومن المثير للدهشة اهتمام الناس بطراز لويس السادس عشر (لوى ساز) رغم نشازه.

فهذا الملك كان صاحب شخصية غير ثابتة وأفكار غير واضحة ولم يهتم بأن تكون ثقافته ذات قيمة أو تميز، ولذلك جاء طراز عصره منطبعاً بتلك السمات. وإشكالية طراز (لوى ساز) عدم إضافة جديد بل العودة لاستلهام موتيفات من الحقبة الرومانية، وتركيب قطع متناقضة من المفروشات لا تمثل وحدة فى نهاية الأمر وأكبر مثال لذلك غرفة الطعام التى طلب تصميمها وسار الناس على طلبها حتى وقتنا هذا، فهى مثال للتناقض الفج أو اللاتناسق. فالمائدة والبوفيه باللون البنى



مائدة طعام طراز لويس السادس عشر

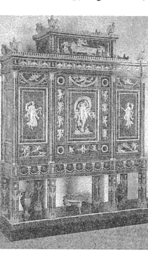
الداكن وبرسوم رومانية، أما كراسى المائدة فقد دهنت باللاكيه الرمادى الفاتح وتم تشبيك الأرجل الأربعة بأطواق نصف دائرية جعلت الكرسى أشبه بالمقبوض عليه!

عندما قامت الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر، وانتشرت أفكارها الثورية فى القارة الأوروبية انتشار النار فى الهشيم، سقطت معها مرجعيات فكرية ومنظومات قيم وفى نفس الوقت أطرزة وأساليب حياة. وبدأ الواقع فى طرح آراء ورؤى جديدة، أخذت وقتاً حتى تتبلور وتستقر. وهنا يأتى دور الفرد فى التاريخ. الفرد المناسب الذى يلتقى بالظروف المناسبة. فجاء نابليون بونابرت.



لقب بونابرت بالإمبراطور، فاطلق اللقب على طراز فترة حكمه. ولأنه قائد حربى مثقف، كانت لديه رؤية لمستقبل فرنسا فى قيادة القارة الأوروبية فى جميع المجالات، ولذلك اعتنى ببناء الجمهورية الفرنسية الجديدة، فكان اهتمامه بتشييد مجموعة من المبانى التى تتميز بالطابع

الإمبراطورى، واهتم أيضاً بإصدار «القانون المدنى» الذى يحكم العلاقات بين أفراد الشعب وفقاً لقواعد منظمة وفى إطار التغيرات الطبقية التى أوجدتها الثورة الفرنسية، ثم أتى الدور على طراز المفروشات، وهنا وجه نابليون عنايته لتحديث الأثاث الفرنسى وفقاً للطراز الأمبير (الإمبراطورى)، وعمل معه اثنان من نوابغ فرنسا فى التصميم وأعمال النجارة وهما «بيرسييه وفونتين». كان تصور نابليون أن تكون التصميمات مستحدثة ومبهرة، وبالفعل فإن قطع الأثاث الأمبير كان لها حضور مؤثر، وجاءت دهاناتها باللون الأحمر الداكن، مع إضافة بعض الموتيفات الفرعونية بسبب تأثر بونابرت بالحضارة المصرية القديمة من جراء حملته على الشرق.


خزانة مجوهرات خاصة بالإمبراطورة جوزفين طراز أمبير

استبعدت من تصميمات الأثاث تلك القوائم الكابريول التى كانت تنتهى بأرجل الحيوانات، واختفت تدريجياً الزخارف غير المتناسقة، وأصبحت الخطوط مستقيمة بلا انحناءات أو انثناءات إلا فى أضيق الحدود.


المكتب الخاص لنابليون بونابرت طراز أمبير

وخلال تلك الفترة كان الطراز الإنجليزى المقابل لطراز أمبير قد أطلق عليه «ريجينسى» نسبة للأمير ريجنت. وصاحب التسمية مصمم المفروشات «جون ناش» الذى أقام عام ١٨١٥ بافليون فى برايتون للأثاث افتتحه الأمير ريجينت تعبيراً عن طراز إنجليزى يواجه النماذج الكاسحة للأثاث الفرنسى الأمبير.

وقد تميزت تصميمات «ناش» بالأناقة واستخدام دهانات اللاكيه سواء الأبيض أو الرمادى الطبيعى والمجزع (كراكليه) مع إدخال الخشب البامبو كعنصر جديد فى المفروشات الإنجليزية.

لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية بعيدة عن تأثيرات الطرز الأوروبية فى ذلك الوقت، ولكنها كانت تحث الخطى لاكتشاف طرز خاصة بها تصوغ من خلالها الذوق الأمريكى الصاعد. وقد توصل مصمم الأثاث «هنرى بلتر» عام ١٨٣٠ إلى ما أطلق عليه الطراز «الكولونيالى» الذى كان فى حقيقة الأمر إعادة صياغة لطراز الروكوكو مع بعض التجديدات التى ابتكرها «بلتر». وإليه يعود الفضل فى التمكن من صقل خشب البلاى وود، وساعد ذلك على الحفر والنقش (الأويمة) بدلاً من لصق الرسوم على الخشب.


الكرسى الذى صنعه تونيه لإمبراطور النمسا

وخلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر لم يكن مصمم للأثاث أو نجار يبارى فى السمعة والصيت وعظمة الفن.. الفرنسى «ميشيل تونيه» لقد حفر هذا النجار الذى اتصف بالوداعة والهدوء، اسمه فى تاريخ صناعة الأثاث حتى اليوم بقدرته الفذة على صناعة قطعة أثاث بفورم بسيط ولكن فى منتهى الجمال والرشاقة، لقد أحال بالفعل البساطة إلى أنشودة للجمال حسب التعبير العبقرى للأديب يحيى حقى.

تميزت مهارة «تونيه» فى قدرته غير المحدودة على التحكم فى الخشب وثنيه بالنيران وتطويعه لكافة الأشكال. وفى عام ١٨٤٠ اتصل به امبراطور النمسا طالباً منه صناعة كرسى فريد الطراز والصنعة ليضعه بقصره ليختنشتين فى فيينا، وقد ذهلت الأوساط الثقافية والفنية الأوروبية عندما قام «تونيه» بتسليم الكرسى ومعه تشكيلة كاملة مكونة من مائدة صغيرة ومهد لطفل. لازالت حتى الآن تعد من كلاسيكيات فن صناعة الأثاث والمفروشات.



وخلال النصف الثانى من القرن التاسع ساهمت الثورة الصناعية فى تعميق «الوظيفة الاستعمالية» للأثاث. فالآلة قدمت أشكالاً جديدة من التعامل مع الأخشاب الصلدة الصعبة، وساهمت فى توفير إنتاج كبير من الحشوات والحليات والزخارف وتقديم تصميمات طرز القرن الثامن عشر بكميات كبيرة فاتسع السوق وتمكنت الطبقة الوسطى من إشباع رغباتها التى أعاقها صنع الأثاث بواسطة العمل اليدوى.

وبسبب الثورة الصناعية، تسارعت وتيرة ظهور أطرزة متعددة من الأثاث وتداخلها واستمرار عدة طرز مع بعضها البعض. فتواجد طراز ريجنسى بجوار الطراز الفكتورى والإدواردى الإنجليزى مع الفيدرال الأمريكى ثم الأرتس أند كرافتس مع غروب القرن التاسع عشر.

آرت نوفو وعصر الحداثة ثم ما بعد الحداثة

خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، دارت حوارات بين أهل الفن والعمارة فى أوروبا بحثاً عن طراز مختلف يلائم القرن العشرين ويكون جديداً تماماً فى كل شىء. وكانت كلمة «الفن الجديد» عنواناً لأربع مدارس فنية ظهرت فى فرنسا باسم (آرت نوفو) وفى انجلترا (مودرن ستيل) وفى ألمانيا (خوجون ستيل) وأخيراً فى إيطاليا تحت اسم (ستيل ليبرتى).

ويعود الفضل الأكبر للمصمم الفرنسى الفنان «أميل جاليه» فى إبداع هذا الطراز الجديد.

أقام «جاليه» ما يسمى «بالتعاونية أو ورشة عمل» ضمت معماريين ورسامين ونحاتين ومصممى ديكور، تعاونوا مع بعضهم ليل نهار لإنتاج تصميمات خاصة بطراز (آرت نوفو).

وكانت فكرة أصحاب الورشة الاعتماد على التبسيط واستخدام الخطوط الأفقية والرأسية المستقيمة، ومن هنا استوحوا تشكيلات الأرابيسك كما استلهموا عناصر الطبيعة كجذوع وأوراق الشجر وزهور الزنبق والإيريس والتيوليب. فقطعة الأثاث لدى مدرسة الأرت نوفو يجب أن تماثل الطبيعة، لأن الإنسان يشعر بالراحة والألفة مع مكونات الطبيعة لأنه جزء منها. وعندما طلب أحد البارونات - وكان من مدخنى السيجار - من «جاليه» تصميم وعمل منضدة خاصة لغرفة التدخين، فإنه استوحى شجرة التبغ الكوبى عند حفر جوانب وقوائم المنضدة.


غابة اللورين المكتب الجميل من إبداعات حالية

ومن خلال تعلق جاليه بأشعار شاعر فرنسا المجدد «بودلير» جاءت أعماله مثل القطع الشعرية.

وهل يمكن لأى متذوق لروائع الأثاث أن يمل من تأمل المكتب الذى أبدعه وأطلق عليه «غابة اللورين»؟


كرسى صنعه ماكنتوش مستوحياً الطراز الفرعونى

وكان تأثير مدرسة الأرت نوفو على فنانى الولايات المتحدة الأمريكية كبيراً، ولعل أبرزهم، «شارلز ماكنتوش» الذى عمل مع المعمارى العظيم «فرانك لويد رايت» وكونا (دويتو) متناغماً لتصميم المبانى وتأثيثها بتصميمات وقطع من إبداعاتهما الخاصة.

وقد تأثر ماكينتوش بالفن المصرى الفرعونى القديم واستوحى خطوطه فى أعماله لأن هذا الفن - فى رأيه - قدم للعالم «البساطة» متحدة مع الراحة وقد اعتمد فى تصميماته على الاستخدام الأكبر للرياضيات والأفكار الهندسية.

أما فرانك رايت فقد ألغى الزخارف تماماً وشطب الحليات والحشوات من قاموسه واعتمد على المستطيلات والمربعات والدوائر والمثلثات وكان يرى ضرورة التخفيف من مسألة (تنجيد) ظهر الكرسى والكنب لأن ذلك يعوق رؤية الإنسان لما وراء القطعة من لوحات أو سجاجيد وأصص زرع، بل يعوق ويقطع الرؤية عن جماليات المكان نفسه من الناحية المعمارية.

وسواء رايت أو ماكنتوش، فإن تأثيث المنزل فى نظرهم جزء من المنظور الكلى لعمارة المكان. وهنا يقول رايت: «كل قطعة أثاث يجب تصميمها مع المكان الذى ستستقر فيه، ويجب أن ندرك ما للمساحات والفراغ من جمال، فعند تأثيث المنزل يترك ثلث المكان للأثاث والثلث الآخر للوحات والزرع أما الثلث الأخير فيترك للفراغ».

وعلى الرغم من نشأة طراز «آرت نوفو» فى أوروبا إلا أن التطبيقات الواسعة له كانت فى الولايات المتحدة الأمريكية، بسبب حماس مصانع الأثاث فى شيكاغو وكاليفورنيا التى

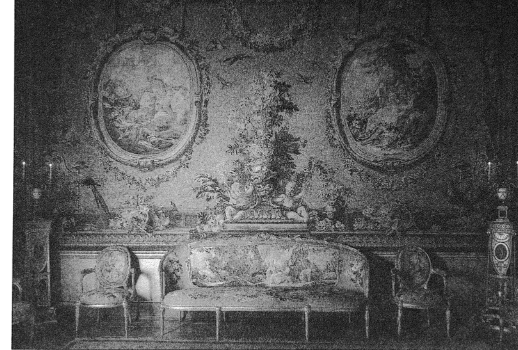
وجدت عطشاً لدى الفئات الوسطى للحصول على قطع الأثاث من الأرت نوفو.



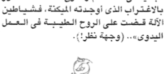
وكان هناك نوع آخر من الأطرزة قد ظهر في الأوساط الأمريكية خلال الربع الأول للقرن العشرين ولا يزال مستمراً حتى الآن.. وهو طراز «ميشن، أي الرسالي. ويعود إلى «جوستاف ستيكلي» الذي عمل محرراً بمجلة «كرافتسمان ماجازين» لمدة ستة عشر عاماً ثم فتح ورشة للنجارة وتصنيع الأثاث وانتقل بالطراز الكولونيالي الأمريكي إلى الميشن - (الرسالي)»، وعندما سئل لماذا اختار هذا الاسم قال ستيكلي «الكرسي والمكتب والسرير يجب أن تكون لها رسالة ألا وهي الوظيفة الاستعمالية»

وخلال تلك الفترة بان الصراع بين الرؤيتين الأوروبية والأمريكية في صناعة الأثاث.

فالمدرسة الأمريكية تفضل الفورم البسيط والتقليل من الزخارف والاعتماد على الآلة بشكل كبير من أجل الإنتاج الكبير والتسويق لأوسع الفئات في المجتمع.

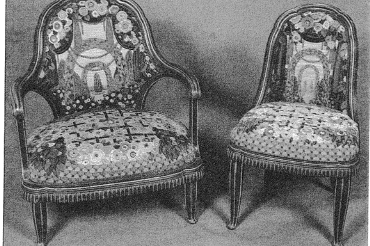


من غرفة السجاد سجاد الجوبلان في كل مكان على الحوائط وعلى المقاعد - فرنسا ١٧٧٥.



الكنبة شفايف فن سوريالي تصميم سلفادور دالي





كرسي فوتيل بلون اللاكيه الأخضر مع تذهيب ومغطى بالسجاد فرنسا ١٩٢٥.

أما المدرسة الأوروبية فقد عبر عنها الناقدان جون راسكين ووليم موريس بقولهما: «نريد إعادة الاعتبار لقيمة العمل اليدوي في قطعة الأثاث». وقال موريس: «قطعة الأثاث الجميلة تقودنا إلى المحيط البيئي المتناغم وتطرح عنا الشعور بالاغتراب الذي أوجدته الميكنة، فشياطين الآلة قضت على الروح الطيبة في العمل اليدوي».. (وجهة نظر!).

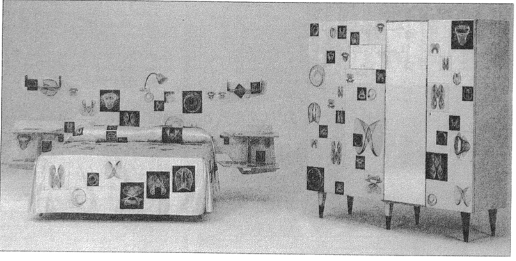
ونعود لما ذكرناه في مقدمة حديثنا عن ملامح طرز الأثاث في القرن العشرين، لنؤكد على سمة تسارع معدل الطرح في الطرز المختلفة وتداخلها مع بعضها في نفس الوقت.

ففي عام ١٩٢٥ ولد في معرض باريس الدولي لفنون التصميمات الداخلية طراز جديد تميز بالشياكة والأناقة البازخة وهو طراز «أرت ديكو» حيث تعانق الزجاج مع الأخشاب والمعادن في صيغة فنية جميلة أخذت بقلوب عشاق الأثاث، خاصة تصميمات «أندريه جرو «وجاك رولمان» و «جاك لولو».

كان هناك سخاء في استخدام جلود سمك القرش «شاركسكين» وغطاء السلحفاة (تورتوازشل) وفصوص أحجار الجاد وجلود الفهود وأخشاب الأبنوس والأمارانت مع الكروم والبرونز.

والشاهد أن أثاث أرت ديكو كان غالياً جداً بسبب صناعته بالكامل بواسطة العمل اليدوي وللمواد الثمينة التي استخدمت فيه، وهو طراز عبر عن الثروة والثراء ولم يتملكه أو يتمتع به سوى الأغنياء.

وفي مقابل «الأرت نوفو» و «الأرت ديكو»



طراز حديث سرير وخزانة ملابس من ألياف الخشب المضغوط، الأرضية بلون الذهب مطبوع عليها أشكال هندسية باللون الأسود - ايطاليا ١٩٥١.

جاء معرض العمارة والفنون التطبيقية» الذى أقيم بمتحف المتروبوليتان بولاية نيويورك عام ١٩٢٩. وقد اعتبر المعرض حدثاً فنياً كبيراً تقاطر عليه الزوار لمدة ستة أشهر، وقد بلغ عدد الزائرين كل يوم عشرة آلاف.

تضمن المعرض ثلاث عشرة حجرة ضمت عدداً كبيراً من المفروشات، وأطلقت الصحافة عليه «عصر الجاز» فالقطع المعروضة كانت صاخبة وبها استخدام عميق للنيكل والكروم والألمونيوم والزجاج، وكلها من ابتكارات هندسية غريبة. وقد وصفت مجلة «كوليير للأثاث» المعرض بانه يقدم النظرة الأمريكية الحديثة فى المفروشات، فهى مريحة، سهلة الاستخدام، متينة، وأخيراً عصرية. وقد لوحظ استفادة طراز الجاز من مؤثرات الفن المصرى القديم ومن حضارة الأزتك والحضارة الآشورية.

وأعقب معرض «الجاز» ظهور مدرسة «الباو هاوس» فى الفن التشكيلى بألمانيا، معلنة عصر الحداثة فى الثقافة والفن والأدب، وتركت آثارها على تصميم الأثاث عن طريق «والتر جروبيوس» الذى صمم كرسيا حديثا أطلق عليه «فاسيلى» وهو اسم صديقه الفنان التشكيلى الحداثى «فاسيلى كاندنسكى».

وقد تميزت خطوط «الباو هاوس» بالفورم الحديث، وجاءت براقة، موحية، تبرز الجديد مع استخدام الألوان الفاتحة، وإدخال المشمع بديلاً للجلد فى التنجيد. بالإضافة لغرابة التصميمات مع استلهام أفكار الفنانين التشكيليين السرياليين فى التصميمات، ولعل الكنبة المسماة «شفايف» التى صممها الرسام سلفادور دالى تؤكد ذلك.

ولكن تفردت دول إسكندنافيا (السويد، النرويج، والدانمارك) بطراز خاص، كان تأثير الأيديولوجيا عليه جوهرياً كما ذكرنا من قبل، وهى تجربة لها خصوصيتها، لأن فئات الشعب الإسكندنافى تمسكت بهذا الطراز المتميز بالبساطة والمتانة والراحة.

ومن أهم مصممى الأثاث الإسكندنافى، «ألفار آلتو» و«سورين هانسن» و «فرنر بانتون».

وقد أدخل بانتون خامات الفيبر جلاس ولدائن البلاستيك فى المفروشات الدانماركية عام ١٩٥٠، وكان يؤكد على ضرورة خلو قطع الأثاث من الزخارف أو الرتوش التى لا لزوم لها.

وقد عرف العالم على يد الدانماركيين الخشب المضغوط والخشب المفروم مما انعكس على أسعار الأثاث بالرخص دون الإخلال بالجودة.



فى الستينيات ظهرت مدرسة فى إيطاليا هى «جماعة ٦٥» التى قدمت رؤية عصرية حداثية فى الفن والديكور وتصميم الأثاث، وعرف الطراز الذى قدمته بـ«البلو آب» أى الانفجار، وأرادت الجماعة التعبير عن سخطها من الصراع المحتدم للحرب الباردة، والتعبير عن الأفكار المتفجرة وقتئذ.. سواء الماركسية أو الوجودية أو العبثية واللامعقول.. كانت فترة غنية بالبحث عن الحقيقة وكسر طوق الزيف ونشدان الحرية ومن أشهر مصممى الأثاث من هذه الجماعة، «طوبيا» و «سكاربا» و«ماركو زانوسى» و «فرانكو البينى» والفنان الأمريكى «ويندل كاسل» عاشق أدب أنطوان تشيكوف. ومن حبه العميق للأديب الروسى كان لا يستخدم فى قطع الأثاث سوى خشب أشجار الكرز اعتزازاً ومحبة لمسرحية «بستان الكرز»!

وفى كلمة موجزة فإن العناصر الأساسية للأثاث الحديث.. الراحة ومراعاة الأوضاع الصحية للجسد الإنسانى عند الجلوس أو الانحناء أو الاسترخاء.



وإذا كانت أفكار «مابعد الحداثة» قد بدأت فى غزو الثقافة والأدب، فإنها تجلت فى التصميمات المعمارية وفى المفروشات.. وذلك من خلال جماعة «ممفيس ميلانو»، وهم مجموعة من الفنانين التشكيليين ومصممى الأثاث الإيطاليين، أطلقوا شحنة هائلة من الأفكار الجريئة الراديكالية عن الفورم والألوان والنماذج. وبدت أعمالهم صدامية ومليئة بالغرائب وتحمل روحا متمردة ضد التصميمات الحديثة ذاتها.

عميد الجماعة الفنان «إيتوروسوتساس» ومن نجومها.. «أندريا برانزى» و«ماركو زانينى» والفنانة «ناتالى دى باسكييه».. لقد هاجموا النسب المعتادة وجاءت الأبعاد عندهم غير متوازنة، وكسروا كل القوالب.

وخطوط جماعة ممفيس ميلانو المابعد حداثية هى السائدة والمتفوقة حتى الآن ولم تجارهم أى جماعة أو مدرسة أخرى سواء فى أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية، وهم يرددون أن المفروشات والأثاث فى زمننا ستصبح «كاجوال» مثل ملابس «بنتون» و«كالفن كلاين» و «سكادا».



أما بعد...

هل تتذكرون حيرة حسن أرابيسك فى المسلسل التليفزيونى الذى كتبه أسامة أنور عكاشة حول الهوية المصرية؟

لا تزال الأسئلة التى طرحها المسلسل قائمة ولم تجد حلاً، خاصة فى الطريقة التى نفرش بها بيوتنا. فطراز الأرابيسك مستخدم فى حدود، ولم تدخل عليه تطويرات تجعله عصرياً أو فى متناول فئات اجتماعية أوسع. ثم إننا فرشنا بيوتنا كيفما اتفق دون مراعاة العلاقة بين الطرز المختلفة أو الاعتماد على ثقافة أو ذوق مستمدين من قدر من الاهتمام بفن الأثاث. وقد يعود السبب الجوهرى إلى سوء ثقافة النخبة والفقر الثقافى لدى الرأسمالية الجديدة والافتقار لمنظومة قيم تحدد الرؤية البصرية والفنية للمجتمع ككل.

لكم أن تتصوروا قرية سياحية معمارها فائق الجمال فى شرم الشيخ، رفض صاحبها المفروشات والأثاث الذى قدمه له استشارى الديكورات، رغم توافقها مع طبيعة المكان من بحر وشاطئ خلاب وطبيعة بسيطة مع خلفية صحراوية.. فإذا بصاحب المنتجع يفرش الغرف الرئيسية بأثاث من الطراز الفكتورى الإنجليزى!

لا نتعامل مع بيوتنا أو أماكن عملنا باحترام.. فللمكان روح، وفرش البيت أو المكتب يحتاج إلى فن وثقافة تحتوى الأصالة والمعاصرة معاً فى رقة وبساطة مع احترام المساحة والفراغ.. فالثلث من الشقة أو المكتب يجب تركه فارغاً حتى لا تخنقه الكتل من الأثاث. ■

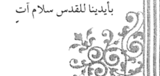


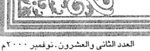
كتاب الزاوية

زهرة المدائن

الأخوين رحبانى

لأجلك يا مدينة الصلاة أصلى
لأجلك يا بهية المساكن يا زهرة المدائن
يا قدس يا قدس يا مدينة الصلاة
عيوننا إليك ترحل كل يوم . . تدور فى أروقة المعابد
تعانق الكنائس القديمة . . وتمسح الحزن عن المساجد
يا ليلة الإسراء يا درب من مروا إلى السماء
عيوننا إليك ترحل كل يوم وإننى أصلى
الطفل فى المغارة وأمه مريم وجهان يبكيان
لأجل من تشردوا . . لأجل أطفال بلا منازل
لأجل من دافع واستشهد فى المداخل
واستشهد السلام فى وطن السلام . . وسقط الحق على المداخل
حين هوت مدينة القدس
تراجع الحب وفى قلوب الدنيا استوطنت الحرب
الطفل فى المغارة وأمه مريم وجهان يبكيان وإننى أصلى
الغضب الساطع آت وأنا كلى إيمان
الغضب الساطع آتٍ سأمر على الأحزان
من كل طريق آت بجياد الرهبة آت
وكوجه الله الغامر آت آت آت
لن يقفل باب مدينتنا فأنا ذاهبة لأصلى
سأدق على الأبواب وسأفتحها الأبواب
وستغسل يا نهر الأردن وجهى بمياه قدسية
وستمحو يا نهر الأردن آثار القدم الهمجية
الغضب الساطع آت بجياد الرهبة آتٍ
وسيهزم وجه القوة
البيت لنا والقدس لنا . . وبأيدينا سنعيد بهاء القدس
بأيدينا للقدس سلام آتٍ





جـديـد الأنـدلـس الأمـريـكى

مدرسة شعراء المهجر لم تغلق أبوابها بعد!

وديــــع فلســـطين

هناك محاولات جادة للتعريف بشعراء مهجريين جدد يقوم بها نعمان حرب بنشره سلسلة من الدواوين بعنوان «قبسات من الأدب المهجرى» لعدد من شعراء المهجر الجنوبى منهم جورج يوسف شدياق فى فنزويلا وفارس بطرس وشفيق عبدالخالق ونبيه سلامة وشكيب تقى الدين وابراهيم سلمان فى البرازيل وحنا جاسر فى الأرجنتين وشربل بعينى ونعيم خورى فى استراليا



في الرابع عشر من يوليو ١٩٩٤ توفى الشاعر زكى قنصل (المولود عام ١٩١٦) فى الأرجنتين وأُحرق جثمانه إنفاذاً لوصيته وبوفاته انتهى جيل كبار الشعراء فى المهجر الأمريكى بشماله وجنوبه، وكادت تنطوى صفحة «الأندلس الأمريكى» لولا ظهور جيل جديد من الشعراء يحاول رفع الراية وبعث الحركة المهجرية من رقادها. وإذا كان المهجر الشمالى قد ران عليه الجمود بعد وفاة أعلامه الكبار، فإن المهجر الجنوبى فى أمريكا اللاتينية انتفض مؤخراً يحاول أن يثبت وجوده فى الحياة الأدبية المعاصرة.

فقد اكتشفت أن هناك محاولات جادّة للتعريف بشعراء مهجريين جدد يقوم بها نعمان حرب بنشره سلسلة من الدواوين بعنوان «قبسات من الأدب المهجرى» لعدد من شعراء المهجر الجنوبى منهم جورج يوسف شدياق فى فنزويلا وفارس بطرس وشفيق عبدالخالق ونبيه سلامة وشكيب تقى الدين وإبراهيم سلمان فى البرازيل وحنا جاسر فى الأرجنتين وشربل بعينى ونعيم خورى فى أستراليا. أى أن ما توهمناه من انحسار الحركة الشعرية فى المهجر الجنوبى هو ضرب من ضروب سوء الفهم والتقدير. والعبرة طبعاً بالكيف لا بالكم، أى أن يثبت هؤلاء الشعراء الجدد أنهم جديرون بالانتماء إلى دولة الشعر المهجرى العظيمة التى دالت بتساقط روّادها الأعلام واحداً بعد واحد.

وقد بدأت حركة الهجرة العربية إلى الولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية فى أواسط القرن التاسع عشر، وكانت فى بادىء الأمر هجرة فردية، ثم تحولت إلى هجرة كثيفة عندما أشيع وأذيع أن العرب المهاجرين قد أصبحوا على ثراء واسع، وأن الحياة الأمريكية البكر تهيىء فرصاً واسعة لكل من يستطيع العمل بيديه، سواء فى الزراعة أو فى المصانع أو فى التجارة. وكان هناك منادون يطوفون بقرى جبل لبنان ومعهم أبواق يعلنون منها أن السفينة كذا رابضة فى ميناء بيروت، وأنها ستحمل المهاجرين إلى أرض الثراء والرخاء. فكان يستجيب لهذه الدعوة عشرات أغلبهم من الشباب الذين يعانون من شظف العيش أو الذين نالهم ضيم من الحكم العثمانى المسلّط على العالم العربى، والرحلة لن تكلفهم سوى دريهمات تُدفع للسفينة الناقلة، وعند الوصول إلى الوجهة النهائية «يدبّرها الله».

وطبيعى أن أمريكا الشمالية كانت أقل جذباً للمهاجرين من أمريكا الجنوبية التى كانت مازالت بكراً، وكانت الأيدى العاملة مطلوبة فيها لمساعدة الأيدى المحلية.



والذى يهمنا من كل حركة الهجرة العربية إلى الخارج، سواء إلى الأمريكتين أو إلى بلدان أخرى فى آسيا كالفيلبين مثلاً التى قصدها الروائى اللبنانى سعيد تقى الدين (١٨٩٤-١٩٦٠) أو فى أفريقيا أو فى غيرها من ديار الهجرة، هو هجرة الأدباء والشعراء الذين أنشأوا للضاد مدرسة جديدة تعرف بالمدرسة المهجرية تكاد تُحاكى إنْ لم تَفُقْ المدرسة الأندلسية التى خبا نجمها. وكانت الغالبيةُ الكبرى من المهاجرين الأوائل تجهل اللغات الشائعة فى بلاد المهجر، وهى الإنجليزية فى الولايات المتحدة والإسبانية والبرتغالية فى أمريكا اللاتينية، إلا من قلة قليلة نالت حظوظاً متفاوتة من الثقافة قبل هجرتها مثل ميخائيل نعيمة (١٨٨٩-١٩٨٨) وجبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١) وإيليا أبى ماضى (١٨٨٩-١٩٥٧) وأمين الريحانى (١٨٧٦-١٩٤٠) فى الشمال والشاعر القروى رشيد سليم الخورى (١٨٨٧-١٩٨٤) وجورج صيدح (١٨٩٢-١٩٧٨) وشفيق معلوف (١٩٠٥-١٩٧٦) ونظير زيتون (١٨٩٦-١٩٦٧) فى الجنوب. وكانت البلاد العربية فى ذلك الوقت جزءاً من الامبراطورية العثمانية، ولهذا كان السكان الأصليون فى أمريكا الجنوبية يُعيّرون المهاجرين بأنهم «توركو» - أى ترك. وفى هذا قال الشاعر القروى موضحاً أن هذا الوصف المهين يلاحق المهاجر حتى لو وطىء الثريا وحتى لو شيّد ناطحات السحاب:

أنت توركو، ولو وطئت الثريا ... وأقمتَ السُّهَى ببابك حاجبْ
مُستضامٌ مهما اعتزَزْتَ، فقيرٌ ... ولئن شِدْتَ ناطحات السحائبْ



وكان من المألوف أن تعيش الجاليات العربية المهاجرة فى أماكن تجمعهم مثل حى بروكلين الفقير فى نيويورك، كما كانوا ينشئون لهم أندية وروابط تحفظ لهم ما بقى من وشائج القربى العربية واللسان العربى، مثل «الرابطة القلمية» وبعدها «رابطة منرفا» فى نيويورك، ومثل «العصبة الأندلسية» و «الرابطة الوطنية السورية» و«الرابطة الأدبية» و «الندوة الأدبية» و «النادى الحمصى» و «جامعة القلم» و «منتدى البردونى» و «النادى الحلبى» و«نادى راشيا الوادى» و «النادى السورى اللبنانى» و «نادى جبل لبنان» و «النادى الفلسطينى» و «النادى السورى» و «النادى العربى» و «نادى الاتحاد العربى» وكلها فى دول أمريكا اللاتينية.

وعلى النقيض من الصورة الوردية التى رسمها المبشرون بالهجرة، فقد عاشت كثرةٌ كاثرة من المهاجرين فى فقر مدقع وزاولت أعمالاً خسيسة. ولعلّ أشْيَعَ هذه الأعمال التى مارسها معظم كبار الشعراء المهجريين فى حياتهم هو عمل «القومسيونجى»، حيث كان كبار التجار المحليين فى أمريكا الجنوبية يستعينون بالمهاجرين فى ترويج بضائعهم، فيزودونهم بالكشّة (وهى صندوق من الصفيح يضم عينات من البضائع يشدُّ إلى الظهر) فيطوف القومسيونجى بأنحاء المدينة وضواحيها محاولاً عقد صفقات لحساب التاجر يتقاضى عنها عمولة. وكان بعضهم يسافر بمركبات تجرّها الخيل وسط مناطق صحراوية أو موحلة أو عبر الغابات، ومعهم بضائع يرغبون فى تصريفها لحساب التجار. وقد وصف الشاعر إلياس فرحات (١٨٩٣-١٩٧٦) مغامراته فى بيع البضائع فى قصيدة طويلة عنوانها «حياة مشقات» نجتزىء منها هذه الأبيات الصارخة:

أغرّبُ خلفَ الرزق، وهو مُشَرِّقٌ ... وأُقسم لو شرّقتُ، رَاحَ يُغرّبُ
ومركبةٌ للنقل راحت يجرُّها ... حصانان مُحْمَرٌ هزيلٌ وأشهب
لها خيمةٌ تدعو إلى الهزء شدَّها ... غرابيلَ أدعى للوقار وأنسب
جلستُ إلى حُوذيّها وَوراءنا ... صناديقُ فيها ما يسر ويعجب
حَوَتْ سلعاً من كل نوع يبيعُها ... فتًى ما استحلَّ البيعَ لولا التغرّبُ
وراحت كأنَّ البرَّ بحرٌ نجاده ... وأغواره أمواجُه وهى مركب
وتدخل قلب الغاب والصبحُ مُسْفِرٌ ... فتحسبُ أنَ الليل لليل مُعْقِبُ
نبيتُ بأكواخ خلت من أُناسها ... وقام عليها البُومُ يبكى ويندب
مفككةٌ جدرانها وسقوفها ... يُطلّ علينا النجمُ منها ويغرب
فنمسى وفى أجفاننا الشوقُ للكرى ... ونضحى وجَمْرُ السُّهد فيهنَّ يُلهب
ومأكلنا مما نصيد، وطالما ... طَوَيْنَا، لأن الصَّيْدَ عنّا مُغَيَّبُ
ونشربُ مما تشرب الخيل تارة ... وطوراً تعافُ الخيلُ ما نحن نشرب
حياةُ مشقات ولكن لبعدها عن ... الذلّ تصفو للأبى وتَعْذُبُ

والقصيدة، وهى طويلة طويلة، تحكى ماعاناه هذا الشاعر الكبير وأمثاله من المهاجرين من مشقّات فى سبيل الرزق، ولكنها مشقات تهون وتُحتمل وتَعْذُبُ للأبىّ لبعدها عن الذل القاتل.

ومع ذلك استطاع عددٌ من المهاجرين أن يصبحوا على ثراء واسع مثل شاعر عبقر شفيق معلوف الذى أنشأ امبراطورية من مصانع نسج الحرير، والشاعر نعمة قازان (١٩٠٨-١٩٧٩) الذى كان صاحب مصنع للأحذية، أما مؤرخ المهجر توفيق ضعون (١٨٨٣-١٩٦٦) فقد كان يتاجر فى البيض ويتخذ شعاراً له هو «بيضات ضعون من ذيل الدجاجة إلى فم الزبون»!

وهناك مَنْ اشتغل بالصحافة مثل الشقيقين نعوم (١٨٦٤-١٩٣٢) وسلوم مُكرزل (١٨٧٩-١٩٥٢) اللذين أصدرا جريدة «الهدى» فى

نيويورك ،وكانت أطول الصحف العربية عمراً، إذ عاشت أكثر من ٧٥ عاماً، ومثل عبدالمسيح حداد (١٨٩٠-١٩٦٣) صاحب جريدة «السائح» ونسيب عريضة (١٨٨٧-١٩٤٦) صاحب مجلة «الفنون» وراجى ضاهر (ت١٩٦٣) صاحب جريدة البيان» وإيليا أبى ماضى صاحب مجلة «السمير» وغيرها وغيرها من الصحف التى صدرت فى الشمال الأمريكى وقد اندثرت كلها بعد عمر طال أو قصر، ولعلّ آخر الصحف المحتجبة هى «الإصلاح» لصاحبها الدكتور الفونس جميل شوريز الذى ظل يصدرها حتى بعدما تجاوز التسعين من العمر.

أمّا فى الجنوب فقد صدرت صحفٌ مثل «العالم العربى» لعبداللطيف الخشن (١٩٠٤-؟) و «الوطن» للدكتور عبداللطيف اليونس أطال الله بقاءه و «الشرق» لموسى كُريّم (١٨٩٤-١٩٧٤) و «المراحل» للسيدة مريانا دعبول فاخورى (١٩٠١-حوالى ١٩٩٠) ومجلة «العصبة» لمحررها حبيب مسعود (١٨٩٩-١٩٧٧) ومجلة «فتى لبنان» لمحررها نظير زيتون وغيرها وغيرها، وقد احتجبت هذه الصحف جميعاً.

هذا وقد عاش شعراء المهجر جميعا غرباء فى بيئاتهم المباشرة، لأن عائلاتهم جهلت اللغة العربية تماماً حتى إن الشاعر إلياس فرحات كان يقول لى إنه يرطن بلغة لا يفهمها أحد من ذوى قرباه ولا حتى زوجته العربية الأصل، وهى من أسرة جبران خليل جبران. ولهذا تعرّضت مقتنياتُ الشعراء من كتب وصحف وأوراق للإهدار بعد وفاتهم لأن الورثة لم يعرفوا لها قدرها.

والغالبية العظمى من أدباء المهجر بقيت تعيش فى مهاجرها إلى آخر العمر، وربما تهيأت لبعضهم الأسباب لزيارة الوطن الأم لفترات قصيرة، ولكن الحنين إلى الوطن ظلّ يستبدّ بالمهاجرين، يعبّرون عنه فى قصائدهم ويحلمون به فى يقظتهم ومنامهم. ولكن هناك مَنْ ضاقوا بالحياة المهجرية، وقرروا العودة النهائية إلى الوطن مثل ميخائيل نعيمة الذى لم يطق العيش فيما سمّاه «الدردور الأمريكى» فعاد إلى لبنان، وأقام فى بسكنتا حيث أُطلق عليه اسم «ناسك الشخروب» ومثل جورج صيدح الذى أنهى إقامته فى فنزويلا والبرازيل وعاد أولا إلى بلاده سورية وانتقل بعد ذلك إلى لبنان وبسبب الاضطرابات السياسية، سافر إلى باريس واتخذ منها موطناً جديداً قائلاً:

بلادُ اللّه أفسح من بلادى
تضيقُ بما تفجّر من فؤادى

ومثل أمير السجع والخطابة نظير زيتون الذى عاد إلى مدينته حمص تلبية لرجاء أمه، ومثل الشاعرين الشقيقين شكر الله وعقل الجر، أما شكر الله فقد عاد إلى لبنان على قدميه، وأما شقيقه فقد عاد ليدفن فى ثرى الوطن، ومثل الشاعر الناقد الدكتور عبداللطيف اليونس الذى عاد إلى مدينته صافيتا فى سورية، ومثل الأديب حبيب مسعود الذى عاد إلى لبنان، ومثل الشاعر القروى رشيد سليم الخورى الذى كان دائم الشوق والحنين إلى قريته البربارة فى لبنان وعاد إليها بعد هجرة استمرت نصف قرن وأقام فيها إلى آخر يوم من حياته. وهو قد عاش هو وميخائيل نعيمة نحو قرن كامل، إذ مات نعيمة عن ٩٩ عاماً ومات القروى عن ٩٧ عاماً.



أما اللقاء بين الشاعر المهجرى وبين تراب وطنه بعد غيبة ممتدة فقد عبر عنه الشعراء أجمل تعبير. فعندما عاد إيليا أبو ماضى إلى لبنان زائراً رأى من طائرته المحلقة فوق جبل لبنان أنواراً متناثرة تغمر الضياع وكأنها نجوم، فقال:

وطنَ النجوم، أنا هنا
حدّقْ أتعرف مَنْ أنا؟
أنا ذلك الطفل الذى
دُنياه كانت ههنا
أنا من مياهك قطرةٌ
فاضت جداول من سنا
أنا من ترابك ذرةٌ
ماجت كواكب من مُنى
أنا من طيورك بلبل
غنىّ بمجدك فاغتنى

أما الشاعر شفيق معلوف فقال مخاطباً نفسه وهو يزور دمشق:

أراكَ رجعت تفتقد العرينا
فهاك الغوطتين وقاسيونا
وأرضاً كلما انتفضت بشبر
تُهدهد تحتَه بطلاً دفينا
ونهراً كم على ظمأ نراه
كأنَّ على الشفاه لنا عيونا

وعندما اقتربت السفينة حاملةً الشاعر القروى من ميناء اللاذقية فى سورية، أخذ يردّد:

بنتَ العروبة، هيئى كفنى
أنا عائد لأموت فى وطنى
أأجود من خلف البحار له
بالروح، ثم أضن بالبدن؟

فلما سمع الأديب فؤاد الشايب (١٩١١-١٩٧٠) الذى كان منتدباً من الحكومة السورية لمرافقته على السفينة هذا القول، خاطب القروى قائلا: بل كان عليك أن تقول:

بنت العروبة هيئى سكنى
أنا عائد لأعيش فى وطنى

وقد اختار القروى لنفسه هذا الاسم عندما عيّره وهو فى المهجر واحد من الناس قائلا: ما أنت إلاّ قروى، فاستطاب الشاعر هذا اللقب وجعله كنيته تحدّيا لهذا الماجن. أما شقيقه الشاعر قيصر سليم الخورى (١٨٩١-١٩٧٧) فقد اتخذ لنفسه كنية «الشاعر المدنى».

وعندما أقيم للقروى حفل تكريم ضخم فى دمشق الفيحاء، عبرّ عن سعادته بلقاء الوطن متصوّراً أن العروبة هى التى تخاطبه قائلة له:

هيهاتَ تحسبُها أضغاث أحلام
سبّح لربك وانْحَر، أنت فى الشام
لم يأذنِ الله يابوقَ العـــروبة أن
تقضى الحياة غريباً بين أعجام
وكنتَ فى أبعد الأمصار أقربَ من
أهلى إلىّ، وأخوالى وأعمامى
أضناكَ طول السُّرىَ والسير ياولدى
فاطرح رداءك وامسح جُرحك الدامى
هذى عيونى وجنّاتى وفاكهتى
فاملأ يديك وبرّد قلبك الظامى
وارتع بقلبى واسبح كالشعاعة فى
عينى، ونَمْ بين أهدابى وأحلامى

وهى قصيدة طويلة افتخر فيها بأنه كان للعروبة بوقاً فى المهجر، وختمها بقوله:

أما رجعت؟ ألم أنشق هواك؟
ألم ألثم ثراك؟ ألم أسمعك أنغامى؟
أحسّ بالراحة الكبرى كأنىَّ قد
طرحت فى البحر عنىّ كل آثامى

ولكن الشاعر نسيب عريضة، ابن حمص «ذات الحجار السود» لم تكتحل عيناه برؤية بلدته العزيزة، فأوصى بأن يُنقل جثمانه إليها ويدفن فيها، وهو ما لم يتحقق ومما قاله فى هذه الوصية المهُدَرَة:

يادهرُ قد طال البعاد عن الوطن
هل عودة ترجى وقد فات الظّعن
عُدْ بى إلى حمص ولو حَشْوَ الكفن
واهتف أتيتُ بعاثر مردود
واجعل ضريحى من حجار سود
ياجارة العاصى إليك قد انتهى
أملى، وأنتِ المبتغى والمشتهى
قلبى يرى فيك المحاسنَ كلها
وعلى هواك أدين بالتوحيد
ياحمص يا أم الحجار السود




جديد الأندلس الأمريكى

تجددت الهجرة الدافقة إلى الأمريكتين منذ نكبة فلسطين فى عام ١٩٤٨ حيث هاجر آلاف من اللاجئين، تبعتهم آلاف أخرى بسبب الأوضاع المضطربة والثورات الجائحة فى البلدان العربية، فقصد العالم الجديد مهاجرون أغلبهم من أصحاب المهن كالمهندسين والأطباء ومَنْ إليهم جاءوا من لبنان ومصر والعراق والسودان وفلسطين وكذلك من إيران. وهؤلاء توفروا على العمل فى تخصصاتهم دون أى احتفال بالأدب أو الشعر، ومعظمهم يريد الاندماج اندماجا عضويا تاما فى المجتمع الأمريكى فى أسرع وقت ممكن. فلم تكن لهجرتهم أية آثار فى إنهاض الأدب المهجرى من عثاره، أو حتى فى مدّ آجال الصحف العربية الصادرة هناك التى تساقطت الواحدة بعد الأخرى لانقراض قراء العربية، ولكن هناك حالات قليلة لشعراء هاجروا إلى أمريكا بقصد الانضمام إلى ركب الشعراء هناك. فالشاعر أحمد زكى أبو شادى (١٨٩٢-١٩٥٥) رائد جماعة أبولو هاجر من مصر إلى الولايات المتحدة فى عام ١٩٤٦ وبقى هناك إلى وفاته، وشارك فى أنشطة المهجريين وأنشأ رابطة منرفا وجعل رياستها للشاعر نعمة الحاج (١٨٨٩-١٩٧٨) وأحدث نهضة حقيقية فى الأدب المهجرى، وإنْ كان الشاعر إيليا أبو ماضى استقبله بمقالة فى مجلة «السمير» عنوانها «ليس منا» كما أن الشاعر اللبنانى فؤاد الخشن المولود فى عام ١٩٢٥ هاجر إلى فنزويلا فى عام ١٩٥٣ ولكنه لم يحتمل البقاء فى المهجر أكثر من ست سنوات عاد بعدها إلى لبنان حيث أصدر ديوانه «سوار الياسمين» و«غابة الزيتون».

ولئن كان صوت الشعراء المهجريين زاعقاً فى خدمة قضايا الأمة العربية التى كانت ترزح تحت أثقال الاستعمار بأسمائه ومسمياته المختلفة (الانتداب والحماية والحكم الثنائى والوصاية) فإن هذا لم يمنعهم من ترديد أناشيد الحبّ والخوض فى ميادين الوجدانيات. وكان الشاعر إلياس فرحات قد قال لى إنه عُرِفَ فى كل حياته بشعر الوطنية، فهل يجوز له بعدما بلغ أرذل العمر أن ينشر شعره العاطفى، فقلت له: مادام هذا الشعر هو ابن شرعىّ لك، فلم تحجبه؟ وعندئذ دفع إلى المطبعة بديوانه الموسوم «فواكه رجعية» وحمّلنى وِزْرَ كتابة مقدّمة له قائلا: أنت المسئول عن نشر قصائد الحب وقد نازعته وقتها فى عنوان الديوان، ولكنه أصر عليه قائلاً: إن الفواكه الرجعية فى لبنان هى التى تنبت فى غير أوانها.

وكان فرحات قبل هجرته يحبُ قريبة له اسمها «أنيسة» قطع معها عهداً بالإخلاص الأبدى، إذْ أنه سيعود قطعاً من مهجره ميسور الحال فيتزوجها. وتأكيداً لهذا العهد أهدته أنيسة خصلة من شعرها. ولكن العروس لم تطق صبراً على غياب الحبيب، فتزوجت أول طارق. وعندما علم فرحات بذلك وهو فى مهجره نظم قصيدة قال فيها:

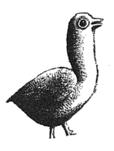
خصلة الشعر التى أعطيتنيها
عندما البَيْنُ دعانى بالنفير
لم أزل أتلو سطور الحب فيها
وسأتلوها إلى اليوم الأخير
خُنت عهد الحب، لا بأس، فإنى
مكتف بالأثر الغالى الثمين
لستُ بعد اليوم أحيا بالتّمنى
بعد أن منيتى عشر سنين

وختمها بقوله:

نَشْقَةٌ من خصلة الشعر تليها
قبلةٌ تُخمد ذياك السعير
فتخوض النفس بحر الأنس تيهاً
ويزول اليأس عن قلبى الكسير

وأما الشاعر القروى، بوق العروبة، فقد أحب فتاة إنجليزية اسمها «مود» وكم كان يتمنى أن يتزوجها لأنه عاش عزباً طول حياته، لولا أنه تذكر أن هذه الحبيبة تنتمى إلى دولة المستعمر، فعالنها بالانفصال قائلا:

ولو لم تكونى فرنجية
لكنت سُعادى قبل سُعاد
ولكننى عربى المنى
عربىَّ الهوى، عربى الفؤاد



لعمـــرك يامـــود لولا ذووك
لما مَـيّـزَ الحبُّ بين العـبـاد
ولا أكـرهوا شـاعـراً أن يقـول
هذي البـلاد وتلك البـلاد
فـإنـيَ حـرامٌ علـيَّ هـواك
وفي وطني صـيحـةٌ للجـهـاد

وهناك ظاهرة يكاد ينفرد بها شعراء المهجر، وهي أن عائلات بأسرها خرجت شعراء بارزين، ولعل أكبرها عائلة معلوف التي ظهر فيها الشاعر شفيق معلوف وشقيقه الشاعر فوزي معلوف (١٨٩٩ـ ١٩٣٠) صاحب المطولة الشعرية «على بساط الريح» وشقيقهما الثالث رياض معلوف المولود عام ١٩١٢ والذي قطع هجرته إلى البرازيل في عام ١٩٤٧ وعاد إلى مدينته زحلة المشهورة بكرومها يقيم فيها في «كوخه الأخضر» حتى اليوم قيّما على تراث والد الشعراء الثلاثة العلامة المجمعي عيسى اسكندر المعلوف (١٨٦٩ـ١٩٥٦).

وعندما دعي شفيق معلوف إلى زحلة لإزاحة الستار عن تمثال شقيقه فوزي خاطبه قائلاً:

فوزي! ومـالي في الخطوب يدانِ
أوَهَكذا الأخـوانِ يلتـقـيـان؟
قـدمت صـدري للعناق فلم يقع
إلاّ على حـجـر من الصـوان!

ومن الشعراء في أسرة معلوف شاهين معلوف مؤسس العصبة الأندلسية (ت ١٩٥٤) وقيصر معلوف (ت١٩٦٣) ونقولا معلوف وهو من مواليد ١٩١٣.

ومن الشعراء الأشقاء في المهجر الشاعر القروي رشيد سليم الخوري والشاعر المدني قيصر سليم الخوري، والشاعر زكي قنصل وشقيقه الشاعر والروائي إلياس قنصل (١٩١٤ ـ ١٩٨١) والشاعران شكر الله وعقل الجرّ والشاعران ندره حداد (١٨٨١ـ ١٩٥٠) وعبدالمسيح حداد الذي كان ينظم الشعر ويكتب الأقصوصة ولكنه تفرغ لجريدته «السائح» ولأعدادها الأدبية الممتازة، وكذلك الشاعر أحمد سليمان الأحمد (المولود عام ١٩٢٦) وهو شقيق الشاعر السوري الكبير محمد سليمان الأحمد المكنى ببدوي الجبل (١٩٠٤ ـ ١٩٨١). ويبدو أن الشعر في المهجر يعدى.



ولا نعرف لظاهرة العائلات الشعرية في الوطن إلا قلة قليلة. ففي مصر، أنجب الشاعر محمود عماد (١٨٩١ـ ١٩٦١). شاعراً يترسم خطى والده هو محمد محمود عماد. كما أن الشاعر ناصيف اليازجي (١٨٠٠ـ ١٨٧١) أنجب الشاعر إبراهيم اليازجي (١٨٤٧ـ١٩٠٦) والشاعر سليمان البستاني (١٨٥٦ـ١٩٢٥) مترجم إلياذة هوميروس إلى العربية شعراً هو نسيب الشاعر وديع البستاني (١٨٨٦ـ ١٩٥٤) مترجم رباعيات عمر الخيام وملحمة المهابهارته الهندية إلى اللغة العربية شعراً.

وقد عاني شعراء المهجر من طبع دواوينهم لقلة عدد المطابع العربية في البرازيل والأرجنتين وشيلي وفنزويلا وبوليفيا وما إليها. وفي محاولة لتذليل هذه المشكلة ورغبة في الانتشار في العالم العربي أعرب لي الشاعر زكي قنصل عن رغبته في نشر ديوان في كل عاصمة عربية، ورجاني أن أسعى لدى من أعرف من الناشرين في القاهرة لطبع واحد من دواوينه فيها. ولكنني أخفقت في هذا المسعى، وإنْ كان هو نجح في طبع ديوانه «هواجس» في تونس وفي طبع جزء من ديوانه الكامل في دمشق، وفي طبع خماسياته في الرياض إلى أن ظهرت المجموعة الكاملة لشعره في ثلاثة أجزاء عن دار الأريحي السعودي عبدالمقصود خوجة.

كما أن الشاعر إلياس فرحات قال لي إنه يتنازل عن جميع حقوقه في دواوينه وكذلك حقوق ورثته من بعده إذا قام ناشر في مصر أو في بلد عربي بطبعها، وللمرة الثانية أخفقت في مسعاي وإنْ كنتُ وفقت في إقناع صديقي منير البعلبكي (١٩١٨ـ ١٩٩٩) صاحب دار العلم للملايين في إعادة طبع ديوان «أحلام الراعي».

وكان الشاعر نعمة الحاج قد خشي على شعره من الضياع بعدما علت سنّه وكلّ بصره، فأخبرني أنه باع جزءا من الأسهم التي كان يمتلكها في بورصة نيويورك لتغطية نفقات سفره إلى لبنان لطبع ديوانه هناك. ولكن الحرب الأهلية جعلته يُرجيء هذا المشروع ولم يمهله القدر حتى ينجزه. ولا أستبعد أن تكون مخطوطة الديوان قد أهملت لأن «ورثته» كانوا يجهلون اللغة العربية.

وأخبرني الدكتور ألفونس جميل شوريز صاحب جريدة «الإصلاح» في نيويورك أنه كان يقوم بنفسه بتنضيد حروف جريدته من صندوق الحروف، ثم إحكام كل صفحة في إطار حديدي وحمله على كتفه ـ وهو في التسعين من العمر ـ إلى المطبعة لتقوم بطبع الجريدة. وكان ينشر في الجريدة صورته حاملاً هذا الإطار الحديدي الثقيل.

وبفضل عناية صفية أبي شادي، كريمة رائد أبولو الدكتور أحمد زكي أبي شادي أمكن إنقاذ دواوينه المخطوطة الأربعة، فطبع منها جزءان في مصر وجزءان في بيروت ووقفتُ بنفسي على إخراج هذه الدواوين المهجرية وإنقاذها من الضياع.

ويجرّنا حديثُ الهجرة والمهاجرين إلى الرواية الجميلة التي ظهرت للأديبة اللبنانية إملي نصر الله بعنوان «الإقلاع عكس الزمن» وهي تصوّر مغامرة أسرة ريفية لبنانية وهي تسافر للمرة الأولى في حياتها بالطائرة لافتقاد البنين في المهجر الأمريكي، وتعرض المواقف الطريفة لهذه العائلة الريفية في مدن تناطح عمائرها السحاب، وتهدر فيها الحياة الصاخبة ليل نهار. فشتان بين الريف الهادىء في الكورة اللبنانية وبين الحياة المجنونة في العالم الجديد.

المتابع لما يجرى في العالم خلال السنوات الأخيرة والوثائر التي يجرى بها، يدرك مدى العزلة التي تتهدد العربي، حتى أننا بتنا على وشك العيش في جيتو منقطع الصلة بما يجرى حوله.

ومن حسن الحظ فإن إمكانات تجاوز هذا المأزق المصيري ممكنة، في حدود الإمكانات المتوافرة، إذا تخلينا عن الارتباك والتفكير التقليدي، وتحلينا ببعض اليقظة والسلوك الإبداعي.

ماطبيعة الجيتو المعرفي الحضاري الذي يتهددنا؟ وما هو الطريق لتجاوزه، حتى لاينتهي مآل العربي إلى زاوية من زوايا النسيان؟

لابأس من حكايات تمهيدية لازمة للإجابة.

دراسة تاريخ الفن:

أتاحت لي ظروف الحياة أن أدرس تاريخ الفنون الجميلة ثلاث مرات. والطريف أن ذلك حدث رغم إتمامي الدراسة من المرة الأولى في واحد من المعاهد الأكاديمية المصرية بدرجة «امتياز». كما أن المرات الثلاث لم تغنني عن السعي إلى دراسة تاريخ الفن مرة رابعة هذه الأيام. وبديهي أنه ماكان لي أن أتجشم عناء دراسة جديدة لموضوع سبق أن درسته، إلا مع الإحساس بأن الدراسة الجديدة ستضيف إليّ مالم أحصله من دراستي السابقة.

في المرة الأولى درست تاريخ الفن وسط زحام من الطلاب المرهقين الذين ساقتهم الرغبة إلى ركوب قطار مواصلة التعليم، بصرف النظر عن وجهته أو عن «تاريخ الفن» بحد ذاته، وسجنت الإمكانات الأمر في نطاق سردي، لم نتطرق معه إلى مشاهدة الإبداعات التي نتحدث عنها، إلا من بعض صور على البعد في كتاب مطبوع بالأبيض والأسود في يد الأستاذ. ولاجدال في أن هذا الوضع كان يؤثر على حماس وأداء كل أطراف العملية التعليمية أساتذة وطلابا و... كما أن الاقتصار على الحديث عن نواح فنية كالتكوين ودراما اللون والإيقاع والهارموني و... بالألفاظ ينطوي على صعوبة شبيهة بتلك التي تواجه الحديث عن الموسيقى.. إذ أن لذلك «لغات» خاصة غير لغة الكلام، ومهما قيل، فلن تزيد قيمة القول على قيمة تعليق مكتوب بصدد مقطوعة موسيقية لم يسمعها المرء!

أما المرة الثانية (١٩٧٤م) فقد قادتني ملابسات متعددة إلى التحمس لخوضها.. كنت أقيم في موسكو، وسمعت إعلانا عن محاضرة موضوعها الفن المصري القديم، فشغفت لمعرفة مايقوله هؤلاء الأجانب عن شيء يخصني. وجدتني في قاعة مسرح تتسع للآلاف مكتظة بالرواد الذين جاءوا مختارين، واكتشفت أن المحاضرة تتناول جانبا واحدا من فنون مصر القديمة، وأن هناك جزءا ثانيا يلقيه محاضر آخر، وجزءا ثالثا يلقيه غيرهما، وأن هذه الأجزاء ليست إلا فصلا من برنامج متكامل، يقدم للجمهور العادي بتذاكر منفصلة أو «أبونيه شامل» مقابل قروش قليلة، عن الفن منذ أقدم العصور وحتى الوقت الحاضر، يقوم بكل حلقة من حلقاته أستاذ متخصص حاصل على درجة الدكتوراه في المرحلة المعنية، زار بلاد الفنانين واطلع على أعمالهم. كما أن المحاضرة تقدم مسلحة بأرقى الإمكانات التقنية في حينه، وموشاة بكم هائل من المستنسخات الملونة، وبتوصيات لزيارة متاحف قريبة ترى فيها جانبا مهما من هذه الأعمال، وملحقة بإجابة عشرات من أسئلة الرواد. ولما كنت قد بهرت بالروح العامة، وبما يتاح من رؤية مسهبة للأعمال التي يجرى الحديث عنها، وبمدى الإلمام والتعمق بموضوع المفروض أنه فن بلادي وأنني درسته دراسة أكاديمية، ولما كنت قد أدركت ذلك كله فقد قررت مواصلة دراسة تاريخ الفن من جديد.

المرة الثالثة (١٩٨٠م) كانت حين أُتيحت لي الفرصة لمتابعة تاريخ الفن في سلسلة برامج قدمتها محطة كبيرة من محطات التلفاز. جندت أفضل المحاضرين إلى جوار أفضل المعدين والمخرجين، وجرت وراء أفضل الأعمال الفنية وأكثرها تعبيرا عن مقتضى الحال في جنبات الدنيا الأربعة، و... وأتاحت الإمكانات التقنية للتلفاز، إلى جوار كل ماسبق درجة هائلة من المناورة.. اختار الفريق أفضل زوايا تصوير الأعمال الفنية، وقرب وكبر واجتزأ و«منتج» وقدم وأخر وضاهى و... كما أنه لم تكن هناك أعباء مضجرة سواء من ناحية الوقت أو «وسيلة الانتقال»، فكان الأمر متعة لاتبارى.

أما المرة الرابعة ففرضتها التطورات التي طرأت على إمكانات الكمبيوتر، فنهضت بسرعة عمله وسعة ذاكرته، وجعلته قادرا على تناول الصور، مما أدى إلى ظهور مجموعة من البرامج، مسجلة على أقراص ضوئية (CD-ROM) لايزيد وزن الواحد منها على جرامات، ويحوي آلاف الصور لأهم وأرقى الأعمال الفنية في مختلف العصور، إلى جوار وجهات نظر نقدية مختلفة راجعت هذه الأعمال، وأداء مبدعيها وسيرتهم الفنية، بالإضافة إلى مواد وفيرة من أشهر موسوعات الفنون الجميلة. ويستطيع مستخدم البرنامج، في أي وقت يريد، وفي يسر بالغ، بمجرد لمسة إصبع، أن يتجول بين عناصر شبكة مترابطة متكاملة من المرجعيات..

(كأن ينتقل مثلا، بصورة اختيارية وبأي ترتيب يعن له، ومن واقع المادة التي يتعامل معها، من سيرة بيكاسو الفنية إلى لوحته «الحياة»، فقراءة نقدية لها، وقراءة ناقد ثان، وثالث، ثم إلى مرحلة بيكاسو الزرقاء، فمرحلته الوردية، فزوجته فيرناند أوليفيه، فلوحة فتيات أفنيون، فقراءة نقدية لها، ثم مفهوم المنظور، فسيرة براك، فالتكعيبية - التكعيبية التحليلية - الهارموني - الفورم - الموسيقار أريك ساتيه - دياجليف - الباليه الروسي - جان كوكتو - سوبر رياليزم - سرياليزم - دالي - بريتون... ومئات غير ذلك من اللوحات والمفاهيم والسير والآراء النقدية المتشابكة).

كما أن مثل هذه البرامج تمكن المرء من التعامل بحرية مع الأعمال الفنية.. فتتيح له أن يقرب صورها ويركز على أجزاء منها و... بل ويغير ألوانها ويزيل - بقدر محسوب - آثار الزمن التي تراكمت على صفحتها، ويكمل ماضاع من العمل الفني، ليراه وكأنه قد خرج للتو من بين يدي الفنان.

بل وتمكن برامج من هذا النوع المرء من الاجتراء على هذه الأعمال وتحويل أي رسم يريد من المدرسة التي نفذ وفقا لمفاهيمها إلى مدارس فنية أخرى كالتنقيطية أو التجريدية أو... كما تمكنه من إكساب صور أعمال النحت البعد الثالث لتبدو مجسمة، و...

ذلك فضلا عن أن هذه البرامج تفي - ولا تكتفي بالإشارة - بالمعارف التي تعامل الفنون بصفتها أحد تجليات الأجواء الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، التي تحيط بظهورها، وتتيح نظرة موسوعية بانورامية عن ذلك.

لقد تعودنا ربط أسماء انشتين وبلانك ومنكوفسكي و... بتاريخ الفنون الجميلة، لكن يجب عدم خداع النفس في هذا الصدد، فمعظمنا يمارس بذلك تمارين يتذكر فيها ماسمع أو ماقرأ، وهذا شيء مختلف تماما عن تمارين المعرفة والفهم والفكر والتذوق الحقيقي. لأن كثيرين ممن يرددون هذه الأسماء لايعرفون حقيقة إنجازات أصحابها، ولا كيف ارتبطت على وجه الدقة بالتطور المعنى في الفن.

باختصار إن مثل هذه البرامج هي ورش فنية حقيقية يشاهد فيها المتذوق، ويقتطف مما يشاهد ويسمع (التعليقات)، ويكرر المشاهدة والسماع والتمحيص والتأمل وهذه الإمكانات لاتتيح فرصة حقيقية لتذوق حقيقي فقط، بل تؤدي إلى انقلاب عدد من عيوب النقد إلى مزايا.. فقصور الأدوات في الماضي أدى إلى أن تتحول معلومات سياقية فنية حقيقية، مثل سيرة الفنان ومجمل لوحاته والمعارض التي شارك فيها، تتحول إلى أوبئة، لأنها بالصورة التي كانت تساق بها لم تكن تحمل قيمة فنية حقيقية للجمهور، الذي لم ير غالبا قوائم الأعمال والمعارض التي تتكرر الإشارة إليها، ولا يمكن أن تكون حية في ذاكرته بأية درجة من الدرجات. ويستحيل أن يكون لها على هذا النحو قيمة أكثر من كونها تدريبات ساذجة لاستخدام الأرشيف أو للذاكرة في أفضل الأحوال، ولاعلاقة لها بحس أوذوق.

لكن هذه السياقات تأتي مع الأدوات الجديدة وسط كوكبة من الإمكانات الملتصقة بالحس الفني، التي تمثل الجسد الحي الذي يجرى التعامل معه، مما يجعلها نافذة على مايربي الحس والذوق وعلى ما يرقى بهما، مما يفتح الباب لوثبة هائلة في عالمي التذوق والمعرفة.



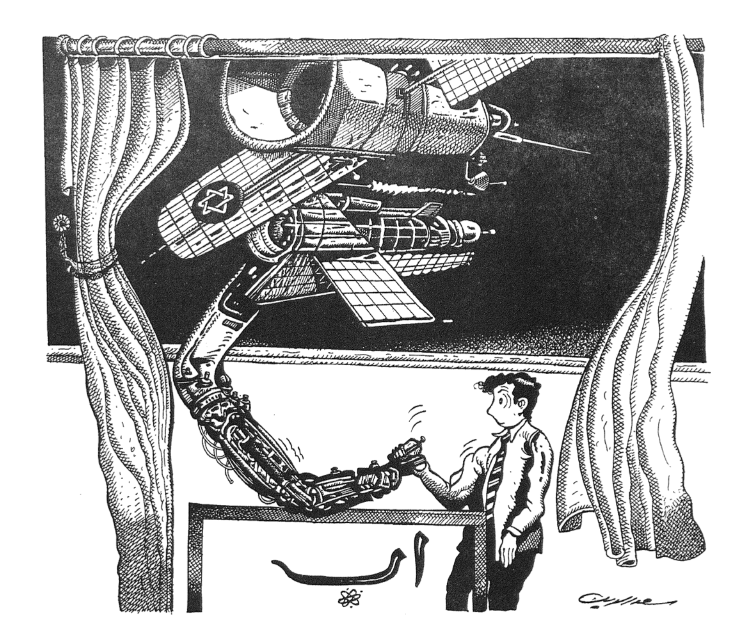
وقد يتصور البعض أن التفاوت بين حصيلة مرات درس الفنون الجميلة أمر يكتسب منطقيته من طبيعة موضوع «تاريخ الفن»، وكون الصورة تلعب دورا أساسيا في المسألة، ولا يشكل ناموسا عاما فيما يخص كل مجالات المعرفة. لهذا لابأس من الانتقال للحكاية الثانية.

بطالة التعليم المقنّعة: أين

محمد فتحي



نعم لدينا نواة ينبغي تطويرها آخذين بعين الاعتبار أن بيت القصيد في سعي الإنسان وتقدمه لم يعد تذكره للمعلومات المختلفة التي يجاب عنها بأدوات استفهام مثل من (اكتشف، وفعل، وقال، و...) ومتى وأين، وإنما صار هذا التقدم يرتبط بما يجاب عنه بأدوات مثل لماذا (اكتشف، وفعل، و...) وكيف، لأنها هي التي تحث على التفكير وتقود إلى الإبداع. وقد بتنا نخلط كثيرا بين التذكر والتفكير، ولأن كل برامجنا التعليمية والتلفازية، وحتى البرامج التي تتخذ من التفكير عنوانا لها، تدور معظم أسئلتها، إن لم تكن كلها، بعيدا عن التفكير وتقف عند حدود التذكر



نحـــــن مـــــن العـــــالم؟!

النظرة للثقافة العلمية:

عام ١٩٧٠ كنت أرأس أحد الأقسام بمجمع الحديد والصلب. وأوفدني المجمع في مهمة هندسية دامت ستة شهور، في واحد من مصانع الحديد والصلب الكبيرة. وجعلتني تجربة العمل مع الروس في المجمع أرفض من اللحظة الأولى فكرة أن تصاحبني طوال الشهور الستة مترجمة، تتيح لي أن أتعامل خلال عملي وإقامتي باللغة الإنجليزية. وبدلا منها طلبت مدرسا يساعدني على التقدم في لغة من سأعيش وأعمل معهم. وفي أول لقاء طلبت أن نبدأ مباشرة في التعلم عن طريق قراءة الشعر. واختارت مدرستي، تأثرا بطبيعة الموقف، أشعارا طالعت فيها علاقة بالتكنولوجيا والصواريخ. ورغم تنحيتي لأشعارها ظللت أسميها دعابة «تانيا الفضائية»، ففوجئت بها تحكي عن اهتمامات فضائية فعلا، قادتها إلى «السجن» في طفولتها..

كانت في حديقة المدينة الصغيرة البعيدة المعزولة التي نعيش فيها قبة سماوية، وكان يخلب لب الأطفال حضور عروضها. ويوما قرأ الصبية في إحدى المجلات العلمية، المخصصة لهم، عن الحضارات الكونية الأخرى، والإشارات التي ترسل بها إلى الأرض. وخلال النقاش اختلف الأطفال حول مواقع بعض النجوم التي ورد ذكرها في المادة العلمية، وأخذتهم الحمية، وكان الليل قد حل، فقرروا عدم الانتظار حتى الصباح، واخترقوا أسوار الحديقة ومبنى القبة السماوية وقاموا بتشغيلها. وبينما انهمكوا في نقاشهم كان البوليس قد حاصر المبنى الذي دبت فيه الحركة على غير العادة، وتم القبض عليهم. وكان من بينهم مدرستي الموقرة. التي لم تتمالك نفسها أمام لوم الضابط:

- ياتانيا أنت بنت. مالك والصبيان الأشقياء هؤلاء؟

- هل يعني كوني بنتا ألا ضرورة لمعرفة مكان النجم «س» و....

- ياتانيا الصباح رباح، وكل شيء له نظام شغل، ويمكن أن تتلف الأجهزة باللعب فيها.

- ماذا تقول؟! بالطبع لايمكن أن تتلف فأنا التي كنت أديرها.

- والله عال. أنت من كنت تديرينها، ونحن نضرب أخماسا في أسداس ونقول أي غزاة من الفضاء الخارجي حطوا على القبة السماوية.

حدث ذلك مع تانيا في الستينيات المبكرة، ولعله نقل للقارئ المزاج العام للطفل الأوروبي آنذاك، وبيننا وبين ذلك أكثر من ٣٠ سنة، نهض فيها الطفل الأوروبي إلى ذرى أرقى كثيرا. حتى أنه بات في بيت أكثر من نصف هؤلاء الأطفال قبة سماوية كاملة، أرقى وأكثر إبهارا وثراء، على الأقراص الضوئية الكمبيوترية إياها، يتعامل معها في أي وقت يريد، وبإمكانات شبيهة للإمكانات التي فصلناها سابقا. وذلك طبعا إلى جوار مئات المطبوعات والدوريات المكرسة لتوسيع آفاقهم ومتابعة تطلعاتهم العقلية بالري والنماء، ناهيك عن مئات البرامج التلفزيونية و...!!

(بالمناسبة كان لدينا في مصر كلها قبة سماوية واحدة في أرض المعارض بالجزيرة وعز علينا ألا نستأصلها ونلقي بها في مستودعات القمامة ليجلس هذا أو ذاك من الموظفين المهمين مكانها).

ولعله المكان المناسب للإشارة إلى أن التقنيات الحديثة خطت بأطفال العالم المتقدم خطوات بعيدة في مجالات كثيرة، ربما كان بليغ الدلالة أن نذكر منها هنا مجال اللعب(!؟). فلعبة مثل «مدينة سيم» (Sim City) تعطي الطفل ميزانية كاملة لبناء مدينة، مع صلاحيات مطلقة لإدارتها

وحمايتها. وتظهر على الشاشة أمام الطفل مدينة مجسمة كاملة ينفق عليها من ميزانيته بعناية. فما أن يقصر في اعتمادات الشرطة وتعيين وتدريب كوادرها حتى يفاجأ بارتفاع مستوى الجريمة في المدينة. وما أن يقلل في الاعتمادات الخاصة بمحطات الطاقة حتى تغلق المصانع أبوابها وتزداد البطالة. والطريف أن لهذه المدينة إضافة تجعلها تنطبق مرة على باريس ومرة على لندن وثالثة على طوكيو ورابعة على «سيم ٢٠٠٠».. وهذه مجرد لعبة من اللعبات التي يلعبها كثير من أطفال الغرب اليوم.

لقد صار للعب المحض (دون وعظ مدرسي) قيمته التربوية والاقتحامية والإبداعية، فالأطفال باتوا يتدربون من خلاله على مواجهة مشكلات الحياة. والأجيال الجديدة من اللعبات الكمبيوترية المتطورة تحفز وتنمي إلى جوار مهارة حل المشكلات، مهارة اتخاذ القرار، كما أنها تزيد من قدرة الطفل على التركيز وتشحذ خياله و...

هذا كما أن إمكانية «الأخذ والرد» - أو التفاعل - مع البرامج الكمبيوترية الراقية وسيلة فعالة للتخلص من آفة التلقي السلبي (الناتج عن تعليم التلقين ومتابعة التلفزيون)، مما يساهم في تنمية المهارات الذهنية لدى الصغار ويزيد من قدرتهم على التفكير المنهجي المنظم، ويحثهم على التفكير المجرد، ويجعلهم أكثر إدراكا للكيفية التي يفكرون بها ويتعلمون من خلالها، كما أنه ينمي قدراتهم الإبداعية والابتكارية، ويقلل من تأثير رقابة الكبار الكابحة عليهم، ويعزز في نهاية المطاف نزعتهم إلى التفكير بالاستقلال.

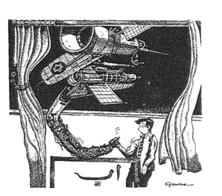


لكن ذلك ليس نهاية المطاف لذا لابأس من حكاية جديدة.

أطفال يتفوقون على مربيهم:

قبل ١٥ سنة كان في المدارس الأمريكية كمبيوتر واحد لكل ١٢٥ تلميذا، لكن عدد الأجهزة صار في عام ١٩٩٥ واحدا لكل ١٠ تلاميذ (غير الأجهزة الخاصة الموجودة في البيوت). ومع ذلك لم تنته مشكلة الأمريكيين مع عصر المعلومات. ذلك أن التطور التقني مستمر على نحو عاصف. ولم يعد المهم أن يجلس الطفل إلى جهاز كمبيوتر، بكل المناهل المعرفية التي أشرنا إلى طرف منها سابقا، وإنما الآفاق التي تتجاوز الإمكانات الذاتية للجهاز وبرامجه.. الآفاق التي يمكن أن يصله

أين نحن من العالم؟



الكمبيوتر بها، وتفتح أمامه بانوراما المعرفة الإنسانية، عن طريق الارتباط بشبكات الاتصال العالمية، التي تنتشر هذه الأيام بسرعة البرق، وتعرف بـ«طرق المعلومات السريعة».

ونسبة عالية من التلاميذ الأمريكيين باتوا على اتصال بشبكة «إنترنت»، التي تطوى بين جوانحها كل الشبكات العالمية، ومن خلالها صار بإمكانهم القيام بزيارة كاملة لمتحف اللوفر في باريس والأرميتاج في بطرسبرج - وغيرها طبعا - وهم جلوس في منازلهم، والاتصال بالمكتبات الأوروبية الكبيرة، وبنوك المعلومات اليابانية، و«الثرثرة» مع الخبراء والنجوم، في كافة المجالات وفي مختلف أنحاء العالم المتمدين.

وهكذا لم يعد الشعار الشعبي في المدارس الأمريكية هذه الأيام «دجاجة في كل وعاء» ولا حتى «جهاز كمبيوتر على كل مكتب»، بل «توصيل جهاز كل طفل بالشبكة العالمية». وليس هناك من يستطيع التنبؤ بما ستؤدي إليه تربية أطفال على هذا النحو، يتفوقون بما لايقاس على مربيهم: أهليهم ومدرسيهم و....



ولابأس بعد ذلك من الانتقال إلى الحكاية الأخيرة.

أقمار إسرائيل الصناعية:

عصر الخامس من أبريل ١٩٩٥، كانت البروفيسورة (!؟) أليسا شنهار سفيرة إسرائيل في موسكو، تستعجل سائق السيارة الروسية في تغيير إحدى عجلاتها على الطريق بين مطار «بليستسك» وقاعدة إطلاق الأقمار الصناعية، حتى تلحق باللحظة الحاسمة لإطلاق القمر الصناعي الإسرائيلي «جوروين - ١»، بينما كان المهندس أناتولي فولفوفسكي، الروسي الذي هاجر هو وأسرته إلى إسرائيل قبل سنوات (ليس هناك مايمنع أن يكون واحدا من عصابة تانيا مدرستي)، والذي عمل مايقرب من ثلاث سنوات في بناء القمر الإسرائيلي، يعبر - للصحفيين - عن سعادته بالعودة للمرة الأولى إلى روسيا، وبصفته عالما إسرائيليا(!؟)، للمشاركة في إطلاق القمر الإسرائيلي، ويبين كيف قضى الليلة السابقة مع الرفاق الروس يغنون بالروسية والعبرية، وكيف أن علاقات التكامل بينهم تمضي بصورة ممتازة، وكيف أنه يحس برضاء عميق، بعد أن تكلل الجهد المتواصل الذي بذله في إسرائيل بالنجاح. ذلك بينما كان زميله الروسي الذي يشرف على استعدادات الإطلاق يعبر عن سعادته بالتعاون رفيع المستوى مع الزملاء الإسرائيليين، وبتحويل الصاروخ الحربي الرهيب «إس إس - ٢٥»، بمعاونة الأصدقاء إلى صاروخ يستخدم في الأغراض السلمية(!؟)، كإطلاق القمر الصناعي الإسرائيلي.

والقمر الصناعي المعني، قام بصناعته، وبتكلفة بلغت ثلاثة ملايين ونصف مليون دولار، طلاب(!؟) معهد من معاهد «تخنيوم» - أقدم الجامعات الإسرائيلية (!؟) - بالاشتراك مع عشر من شركات التقنيات المتقدمة في إسرائيل، بدعم مالي كانت هناك استحالة لإكمال المشروع بدونه، من رجل الأعمال الأمريكي جوزيف جوروين، الذي حمل القمر «جوروين - ١» إلى جوار اسمه رقم «١» اعتبارا لما هو آت (!؟).

وفي المؤتمر الصحفي الذي عقده الوفد الإسرائيلي في مطار موسكو، بعد الإخفاق في إيصال القمر إلى مداره ليقوم بمهمته، ولعطب أصاب عمل الصاروخ، قال البروفيسور جورا شافيف رئيس «معهد أبحاث الفضاء» في أقدم الجامعات الإسرائيلية (تخنيوم): «سنحاول تحرير القمر الصناعي من بقايا الصاروخ». واستطرد البروفيسور زئيف تدمر رئيس وفد الجامعة: «وحتى إذا لم ننجح في ذلك فإننا لن نفقد سوى جسد القمر.. لقد حققنا أهدافنا الأكاديمية التعليمية فيما يخص إعداده وتجهيزه. وتصاميمه وخبرات صنعه باقية لم تضع معه، ويمكن أن ننخرط للتو في صناعة نموذج ثان له، بتكاليف أقل كثيرا، وعلى الروس تحمل تكاليف عملية إطلاق بديلة. والأكيد أن ماحدث لن يؤثر سلبيا على صناعة الأقمار الصناعية في إسرائيل، و....

ويمكن أن يكمل خطوط الصورة السابقة أن إسرائيل لم تستطع الصبر على تأكيد أن الفشل لم يكن سوى فشل روسي، فقد أطلقت، بعد أيام فقط، قمر التجسس «أفق - ٣» بصاروخ إسرائيلي طورته بـ«علمائها» من الألف إلى الياء هو الصاروخ «شافيت»، ومن قاعدة إطلاق إسرائيلية، وفي مسار من أصعب مسارات الإطلاق (عكس اتجاه دوران الأرض).

لكن الصورة ستبدو أكثر اكتمالا مع التصريحات التي أعقبت إطلاق القمر والتي أكد فيها أكثر من مسئول إسرائيلي كبير على: «أن إسرائيل أصبحت تملك بشكل مستقل إمكانية الحصول على المعلومات الإستراتيجية التي تحتاجها دون الاعتماد على بلدان أخرى»، مشيرا إلى تجاوز تحكم الولايات المتحدة الأمريكية في هذه المعلومات أيام حرب ١٩٧٣ وحرب الخليج.

إن مجمل التفاصيل السابقة يكشف عما هو أخطر من امتلاك إسرائيل أداة لاستطلاع مايجري في أرض الجيران، وهو امتلاك مخطط محكم للتعامل من موقع ريادي مع عصر الفضاء:

- قدرة على تصميم وتصنيع صواريخ تصعد بحمولات كبيرة، منها حمولات ذرية، وليس أقمارا صناعية فقط، إلى الفضاء الخارجي.
- قدرة على تصميم وصنع أقمار صناعية مختلفة الأغراض تتناسب مع احتياجاتها.
- امتلاك ميدان للتجارب والإطلاق، ومحطات أرضية للمتابعة.

وربما كان الأهم من ذلك كله وعيا فعالا بمسار التقدم العلمي والتكنولوجي بإمكاناته الحالية وآفاقه المستقبلية، ووجود مؤسسة متخصصة لقيادة العمل في هذا المجال (مؤسسة الفضاء الإسرائيلية) لها استراتيجية محددة وأهداف واضحة، يساندها في أداء



كما أن هذه القناة تمكننا من تلافي العيوب التي تضرب نظام التعليم المصري في مقتل. وأحد هذه العيوب هو مايفرضه هذا النظام من إكمال المرء تعليمه في نفس واحد، العالي بعد الثانوي، دون أدنى فرصة لاستئناف التعليم، بعد فترة توقف لأي سبب كان، الأمر الذي يؤدي إلى تعلق الجميع بأهداب «قطار التعليم الطوالي» حتى دون أن تتواءم وجهته مع ميولهم الحقيقية. فناهيك عن معمعة المجموع والتنسيق

وظيفتها نظام تعليمى متخصص (معهد أبحاث الفضاء فى «تخنيوم»)، وتوزيع الجهد الصناعى على من يستطيع المشاركة (شركات ومؤسسات اقتصادية وعسكرية و...)، وتعاون عالمى أقل مايقال عنه أنه يجرى على قدم المساواة مع المتقدمين، ومصادر تمويل سخية لهذا النشاط (٥ر٣ مليون دولار لتدريب التلامذة فى تجربة حية!؟)، بالإضافة إلى منافذ وعلاقات وسياسات ناجعة لتسويق نتاج نشاطهم.

وترجع أهمية ذلك كله إلى أن أنشطة وتكنولوجيا الفضاء نوع من التكنولوجيات الشاملة لاتقتصر مجالاتها على التجسس العسكرى، بل تمتد كما بات واضحا للجميع اليوم إلى الاستطلاع المدنى والطقسى، والاتصالات، ونقل أحداث القارات الأخرى، و...

وقد لايكون واضحا بنفس القدر أن تكنولوجيا الفضاء تنطوى على حلول للمشاكل الملحة فى الزراعة والغذاء، بالاستعانة بقدراتها على الاستشعار عن بعد والتنبؤ بالطقس والآفات، والمساهمة فى زيادة الإنتاج الزراعى وتعمير الصحارى والحفاظ على الثروات الطبيعية، وربما التكاثر فى ظروف الفضاء، و...

وإن كانت هذه التكنولوجيا تتمتع بمثل هذه القدرات فيما يخص نشاطا تقليديا كالزراعة، فعلينا أن نتصور مايمكن أن تتيحه من تقدم فى مجالات الصناعات التقليدية والصناعات الإلكترونية والاتصالات والتجارة، أو من خدمة لأهداف التقدم الاقتصادى والاجتماعى عامة، وبالتالى نمو ورفاهية التجمعات البشرية.

إنها باختصار تكنولوجيا تترك أثرها على كل نشاط بشرى، بل وتعيد صياغة رؤية الإنسان وموقفه بالنسبة لمجتمعه وبيئته وإقليمه وعالمه والكون المحيط به. صحيح أن الخطوات الأولى فى عالمها تستفيد من احتياجات الأمن والدفاع العسكرى كمدخل، لكن سرعان مايصبح للأمن القومى الأولوية فى الأمر، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن مفهوم هذا الأمن قد تغير واتسعت ضفافه لتشمل ماهو سياسى وثقافى واقتصادى واجتماعى.

ولا يمكن إنهاء هذه الحكاية دون إشارة إلى أن إسرائيل ورثت جل التراث العلمى والفنى السوفيتى، فبعد هجرة فرق فنية كاملة إليها، فإن التعاون العلمى الصناعى العسكرى هو محور التعاون مع بلدان الاتحاد السوفيتى القديم وفى مقدمتها روسيا وأوكرانيا، بالذات وقطاع من صفوة العلماء السوفييت ذهبوا إلى إسرائيل ويعملون فيها.

ولا يقتصر الأمر على بلدان الاتحاد السوفيتى القديم فقد سبق التعاون على مستوى لم يتحقق لأحد مع الولايات المتحدة وأوربا من قبلها، ومنذ ١٩٥٨م!؟، وفى أرقى مجالات العلم والتسلح والتقنية، ونكتفى هنا بالإشارة إلى تطوير الصاروخ «حيتس أو آرو» (السهم) بالاستعانة بالتمويل والخبرة الأمريكيتين فى إطار مشروع حرب الكواكب(!؟). هذا كما أعلنت الصين مؤخرا عن أنها تبنى واديا للتكنولوجيا المتقدمة بالتعاون مع إسرائيل.

وكنتيجة لذلك كله باتت إسرائيل تصمم وتطور وتصنع وتبيع كثيرا من معدات «عصر المعلومات والفضاء» حتى للبلدان المتقدمة(؟!).

ولاأعتقد أننى بعد الحكايات السابقة فى حاجة إلى تفصيل أكثر عن طبيعة الجيتو الحضارى الإبداعى الذى يتهددنا، بالذات إذا أدركنا أنه ليس هناك إبداع حقيقى فى مختلف مجالات المعرفة دون إلمام بتراث الإنسانية، حتى لانعاود اختراع «ماسبق اختراعه»، وبعد ظهور مايتخطاه ويحد كثيرا من قيمته النسبية. وليس هناك إبداع حقيقى دون أن نكتسب المهارات والقدرات التى تمكن من العمل الصحيح المثابر، والوجود فى حالة من اللياقة الإبداعية.

نعم إن التثقيف الذاتى والدأب الذاتى بين العوامل الحاسمة فى تحصيل الدربة الإبداعية وتراث الإنسانية معا، إلا أن ذلك يكاد يكون مستحيلا إن لم تتوافر مناهل التراث الإنسانى، إلى جوار إمكانات معقولة للتعليم والثقافة العامة الراقيين.

ولعل السؤال المنطقى هنا: وهل من طريق لتجاوز هذا الجيتو؟

منارة للتثقيف والتعليم والحث على الإبداع:

ونحن نبحث بالطبع عن حلول واقعية، ليست من قبيل العمل على إشاعة استخدام الكمبيوتر والأقراص إياها والاتصال بالشبكات العالمية و... بل تعتمد على إمكانات متيسرة فى هذه اللحظة لأوسع فئات المجتمع، ولا تحتاج إلا إلى القرار والمواءمة.

صحيح إن التلفاز يمكن أن يمارس دوره على الطريقة التى أوجزها المثل العربى ببلاغة منقطعة النظير: « هبله ومسكوها الطبلة». لكنه يمكن أن يكون أيضا، أعظم وسيلة للتأثير على جميع جوانب الحياة. وقد أدركت تجمعات بشرية كثيرة ذلك فصارت توظف التلفاز فى عملية الترقى والنهوض، بعد أن دخل كل بيت. وهذه عملية يسيرة فوق أنها سهلة.

فأغلب الجامعات التى نتداول الحديث عنها حاليا «دقة قديمة»، بينما الجامعات الحديثة جامعات تلفازية تذيع «مناهجها» على الهواء، توفر على الدارسين كثيرا، لأنها تتيح لهم أرقى المضامين والوسائل التعليمية، بأكثر الأدوات إبهارا، وتجسد هذه الوسائل والمضامين على مدار اليوم، دون أن تكبد الطالب عناء الزحام فى المواصلات والشوارع والمدرجات، وعلى أهمية هذا الدور التعليمى للتلفاز فهو ليس كل مايعنينا هنا، لأن برامج المدارس والجامعات لم تعد الوسيلة المثلى لاستيعاب التراث الإنسانى وتجاوزه، ولأن مايعنينا إلى جوار حفز الناس العاديين (المتفرجين) هو أن هذا التراث، وفى مختلف المجالات الفكرية والفنية والتقنية، صار مجسدا بأشكال درامية وتعبيرية مبهرة على شاشات التلفاز.

وأى إنسان يقظ تتاح له متابعة محطة تلفاز ذكية لابد أن تزلزله البرامج الكثيرة التى تقدم جماع المعارف البشرية. والجيد منها لايقتصر على عرض هذه المعارف، وإنما يقدم منطق تتابع اكتشافات هذه المعارف، مما يصيب «المتفرج» بالعدوى، ويربى قدراته الابتكارية. ولا يقف الأمر عند هذا الحد، لأن الأكثر أهمية هو سعى هذه البرامج إلى أن يتخذ بعض لعب وترفيه المتفرجين الوجهة نفسها، إذ صارت هناك برامج جذابة تشجع وتدرب وتحث الناس على النظر بصورة انتقادية لما يشاهدونه عامة ومنه هذا التراث، وتحفزهم على تجاوزه ناهيك عن الاستفادة منه.

وقد يرى البعض أن من بين قنوات تلفزيوننا المتخصصة مايقوم بهذا الدور. لكن التمعن فيما سقناه من مقدمات يدرك البعد التام عن ذلك. إن الحل الذى نراه لتجاوز الجيتو المعرفى هو تكريس قناة عامة مجانية يغطى إرسالها مصر كلها لـ «التثقيف والتعليم والحث على الإبداع»، وأن توظف لها أرقى الإمكانات الفنية والمعرفية والتربوية لتتحول إلى منارة حقيقية تسخر معطيات المعرفة فى تشكيل وعى الناس، وتتيح لهم الفرصة لممارسة حياتهم اليومية بأكبر قدر من الموضوعية والإبداع، وتحدث نفسها دوما بما يتناسب مع مسيرة العصر وإنجازاته.

وهذا يتطلب منا وقفة مسهبة أمام مايمكن أن تعطينا مثل هذه القناة؟

تعليم على أرقى مستوى:

إن برامج هذه القناة لابديل لها فى إتاحة أفضل فرص التعليم لكل المصريين، وبطريقة تتجنب كل ما يعوق التعليم المصرى عن صناعة المبدع.

وكلنا يعرف كيف يتبارى الناس فى إلحاق أولادهم بالمدارس النموذجية وبفصول المتفوقين فيها على وجه التحديد، ومثل هذه القناة لاتمكننا من جعل مصر كلها فصلا حقيقيا للمتفوقين فقط، ولا من القضاء على الدروس الخصوصية - الآفة التى تكاد تغتال العملية التعليمية برمتها لأنها تجعل الكثير من المدرسين يتخلون عن واجباتهم الأصلية - فقط، وإنما تساعدنا على إتاحة فرصة التعليم على أرقى مستوى إبداعى للجميع، وبالتالى إشاعة ديمقراطية حقيقية فى نظام التعليم، بل وتتيح مرونة هائلة فى التطوير المستمر لبرامج التعليم، وبما يمكن أن يتضمن حتى توفير خلاصة منجزات الأقراص الكمبيوترية - إياها - للجميع بصورة مركزية. هذا كما أن هذه القناة تساعدنا على مايمكن أن نسميه التعليم العلاجى أو التكميلى للمتخصصين الذين تخرجوا بتعليم تجاوزه واقع تطور المعارف كثيرا، وللمدرسين الذين تسابقهم المعرفة، ذلك بالإضافة إلى العمل على حث الإبداع وحفزه؟

كما أن هذه القناة تمكننا من تلافى العيوب التى تضرب نظام التعليم المصرى فى مقتل. وأحد هذه العيوب هو مايفرضه هذا النظام من إكمال المرء تعليمه فى نفس واحد، العالى بعد الثانوى، دون أدنى فرصة لاستئناف التعليم، بعد فترة توقف لأى سبب كان، الأمر الذى يؤدى إلى تعلق الجميع بأهداب «قطار التعليم الطوالى» حتى دون أن تتواءم وجهته مع ميولهم الحقيقية. فناهيك عن معمعة المجموع والتنسيق، أين الفرصة لمن شغلته الشهادات والدروس الخصوصية، ولم يصل للعشرين بعد، فى أن يكتشف ميله الحقيقى، وعلى مهل وبالتجربة، وبصوره تجعله محبا مهموما بشئون وشجون التخصص الذى يريد أن يقضى حياته معه ويبدع فيه؟

وفى كل الأنظمة التعليمية المتقدمة ليست هناك قيود على عودة من قطعوا رحلة تعليمهم، بل إن فترة العمل تحسب لصالحهم عند القبول مجددا فى التعليم العالى، لأنه ينظر لذلك فى إطار النضج العام للفرد، وتزيد فرص هؤلاء إن كانوا قد احتكوا خلال عملهم بالمجالات التى يسعون لإكمال دراستهم فيها، بل وتقدم لهم التسهيلات والإغراءات، من منطلق معرفتهم الواقعية لما هم مقدمون عليه.

ولعل الأخطر فى نظام التعليم المصرى أن الرغبة فى عدم فوات «قطار التعليم الطوالى» تؤدى إلى سلسلة من التداعيات الشاذة، فمن التزاحم (المشروع بالطبع)، إلى قضاء غالبية الطلاب لسنوات التطلع والتكوين فى حالة من البطالة المقنعة، تحت وهم التعلم، وإلى أزمة فرص العمل بل وطبيعة العمل ذاته، لأنه فى هذا الإطار يكون مرحلة مبتوتة الصلة تقريبا بما قبلها، ذلك على أحسن تقدير.. حيث إن للعطالة تأثيرا مدمرا يكتسبه الإنسان ويظل يتحكم بتوجهاته فيما بعد، مكرسا سلسلة هدر الإمكانات.و...



مجمل القول أن الرغبة فى مواصلة التعليم والترقى المعرفى رغبة مشروعة وضرورية فى عصرنا، وينبغى تلبيتها على أوسع نطاق مع الخروج من دائرة الهدر الجهنمية. بالذات وقد قدم العصر حلولا ناجعة لذلك، تتمثل فى «الجامعات التلفزيونية الحرة» التى تقبل أى راغب فى الالتحاق بها (بصرف النظر عن اعتبارات السن أو تاريخ الحصول على شهادة ما أو ...)، وهى توصل

بدت الصورة أكثر اكتمالا مع التصريحات التى أعقبت إطلاق القمر والتى أكد فيها أكثر من مسئول إسرائيلى كبير على: «أن إسرائيل أصبحت تملك بشكل مستقل إمكانية الحصول على المعلومات الاستراتيجية التى تحتاجها دون الاعتماد على بلدان أخرى»، مشيرا إلى تجاوز تحكم الولايات المتحدة الأمريكية فى هذه المعلومات أيام حرب ١٩٧٣ وحرب الخليج



مقرراتها للطلاب فى بيوتهم عن طريق الإذاعة المرئية والمسموعة أساسا، ولا يؤم الطالب مركزها الرئيسى إلا فترة محدودة لاتتجاوز الشهر كل سنة (خلال عطلة الجامعات العادية للاستفادة بإمكاناتها ومدنها الجامعية) لبعض التدريبات العملية وأداء الامتحان. وهى توفر خدماتها (حتى نيل درجة الدكتوراه) برسوم رمزية، ذلك أن تكلفة التعليم فيها لاتتجاوز ٢٠ فى المائة من مثيلاتها فى الجامعات العادية، وتقل هذه التكلفة كلما زاد عدد الطلاب، لأن الجزء الأكبر منها يذهب إلى إعداد المقررات.

وجدير بالذكر أن الوقت الذى ينفقه طالب الجامعة الحرة فى الدرس والبحث يقل كثيرا عن الوقت الذى يقضيه طالب الجامعة العادية فى المواصلات، وإنها أرقى من الجامعة التقليدية، إذ يسهل نتيجة لمركزيتها أن تعكس «مناهجها» على نحو أكبر أهم سمات التعليم الجامعى الإبداعى، مثل حث الميل إلى البحث الذاتى والاعتماد على النفس، والارتباط بمشاكل الواقع (الدارسون فيها يعملون فى مجالات مختلفة). كما أن ظروفها: من اتساع القاعدة والمركزية ومرونة إمكانات التطوير تتيح فرصة تحديث المقررات باستمرار، للالتزام بأرقى المستويات. ذلك مع توافر الرقابة الاجتماعية عليها (تذاع مقرراتها على الهواء). هذا كما تتيح المركزية الاستفادة من الأساتذة أصحاب القدرات المتميزة و...، وكل ذلك يجعل العملية التعليمية فيها أرقى من وجهة النظر الإبداعية.

هذا كما يمكن جعل القناة التلفزيونية الجديدة أداة ناجعة لإشاعة اللغة العربية وإجادتها بوصفها أداة تنظيم الوعى، لأن

لقد صار للعب المحض (دون وعظ مدرسى) قيمته التربوية والاقتحامية والإبداعية، فالأطفال باتوا يتدربون من خلاله على مواجهة مشكلات الحياة. والأجيال الجديدة من اللعبات الكمبيوترية المتطورة تحفز وتنمى إلى جوار مهارة حل المشكلات، مهارة اتخاذ القرار، كما أنها تزيد من قدرة الطفل على التركيز وتشحذ خياله و...

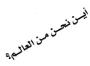
عدم إجادة استخدام هذه الأداة يعرقل كثيرا من قدرة المرء على التعبير وبالتالى على التفكير. وهذه قضية بالغة الأهمية لأن ماتتعرض له اللغة العربية يكاد يجرنا إلى كارثة واسعة الأصداء. لكن ذلك لايعنى عدم الاهتمام بإجادة اللغات الأجنبية، فقد صار من البلاهة، التى تنال كثيرا من المرء نفسه، الاعتقاد فى إمكان تجاهل متابعة النتاج المعرفى العالمى، ويجدر بالذكر فى هذا الصدد أنه رغم اعتزاز البلدان المتقدمة بلغاتها وغيرتها عليها، فقد باتت هذه اللغات تعرف قواميس ضخمة للكلمات الأجنبية التى دخلتها، وجزء كبير منها ينتمى إلى مجال العلوم الحديثة.

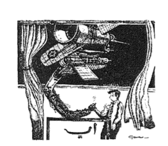
إن الهدف من القناة التلفزيونية التى نطالب بها ليس إتاحة الفرصة لتعليم على أرقطى مستوى وإشاعة المعرفة بالثقافة العلمية والتراث الإنسانى فقط، لأن موادها يمكن أن تكون حثا وترشيدا لمناهل معرفية أخرى مثل عملية القراءة، وذلك عن طريق البرامج التى تتطرق بشكل أو بآخر للكتب. لكن لعل الأهم الذى يقود إليه ذلك كله هو عمل برامج هذه القناة عملا مباشرا على الحث الإبداعى. والمسألة ليست غريبة علينا تماما فقد اطلعنا على أطراف من برامج حث الإبداع الأجنبية فى برامج المسابقات والجوائز الشائعة فى تلفازنا. لكن كثيرا منها ابتُسر حتى أفرغ تماما من أية قيمة تطورية حقيقية.

وقد يتصور البعض أننا أخطأنا العنوان فهذه برامج منوعات فكاهية خفيفة. وحث الإبداع والتفكير لابد أن يكون مسألة «بايخة ثقيلة الدم» يختص بها أفراد ثقيلو... لكن الهدف الأول من حديثنا ليس إلا مثل هذه البرامج خفيفة الدم والحضور، لأنها هى التى تناسب طبيعة الإبداع الحقيقية، وليس أحوال متفرجينا فقط.

نعم لدينا نواة ينبغى تطويرها آخذين بعين الاعتبار أن بيت القصيد فى سعى الإنسان وتقدمه لم يعد تذكره للمعلومات المختلفة التى يجاب عنها بأدوات استفهام مثل من (اكتشف، وفعل، وقال، و...) ومتى وأين، وإنما صار هذا التقدم يرتبط بما يجاب عنه بأدوات مثل لماذا (اكتشف، وفعل، و...) وكيف، لأنها هى التى تحث على التفكير وتقود إلى الإبداع. وقد بتنا نخلط كثيرا بين التذكر والتفكير، ولأن كل برامجنا التعليمية والتلفازية، وحتى البرامج التى تتخذ من التفكير عنوانا لها، تدور معظم أسئلتها، إن لم تكن كلها، بعيدا عن التفكير وتقف عند حدود التذكر.

والتحلق والدوران حول أسئلة التذكر أمر عقيم، ليس فقط لأنه يقود مع الفهلوة إلى «فلسفة البرشام» و«قيم البرشام» و....، بل لأنه يحط أيضا، فى النهاية، من قدر الإنسان الذى وهبه الخالق نفحة من قدراته الخلاقة واستخلفه فى الأرض.. يحط من قدره





ويسخطه إلى «آلة متذكرة» متواضعة الإمكانات والقدرات، إذا قارناها بالأدوات التى صنعها الإنسان نفسه لتساعده على التذكر، مثل القواميس والموسوعات وبنوك المعلومات و...، وهذا مادفع الجديرين حقا بصفة «من استخلفه الله فى الأرض» لأن يعلموا أولادهم طرق تحرير أمخاخهم من تذكر المعلومات، حتى تتفرغ للتفكير والخلق.

ديمقراطية مناهل المعرفة:

إن مثل هذه القناة المجانية العامة هى الحل الأمثل لديمقراطية التعليم والتثقيف والمعرفة، وتلبية رغبة الأعداد الكبيرة فى الترقى والاستفادة من إمكانات العصر، فوق دورها فى التنشيط الفكرى العام، وكل ماسبق مما لايمكن تركه لقانون أسعار السوق والعرض والطلب.

إن ديمقراطية التعليم ليست مسألة أخلاقية فكل المجتمعات الواعية لمستقبلها تعمل على إتاحة ذلك. ويكفى فى هذا الصدد الإشارة إلى أن عملية اكتساب وتطوير المعرفة، التى صنعت التجربة اليابانية، تبدأ بالتعليم الإلزامى فى المدارس التى تشرف عليها الدولة، وفى إطار تكافؤ تام للفرص يسقط الحواجز الاجتماعية، ويتيح إمكانات التقدم أمام الجميع، مما يؤدى إلى الاستفادة من أفضل العناصر البشرية دون تمييز. ويستمر هذا التكافؤ فى الفرص حتى المراحل الدراسية المتقدمة، فالمعاهد العليا مفتوحة هى الأخرى دون حواجز اجتماعية. وذلك تطبيقا لما يشيع فى العلوم التربوية الحديثة من أن عدم تكافؤ الفرص بين كل أفراد المجتمع فى هذا الصدد ليس إلا إعادة لإنتاج الظلم الاجتماعى والتخلف الحضارى.

ومن المهم هنا أن قناة تلفزيونية من هذا النوع ستجعل المدرسة الراقية والجامعة الراقية تصل إلى المناطق الريفية والمعزولة والنائية من البلاد، بل وإلى التلاميذ ذوى الظروف الخاصة (المرضى مثلا).. كما أنها ستقلل من اعتماد نظم التعليم على الأداء المتواضع لكثير من المدرسين، وتقضى على شكاوى العجز فى أعدادهم وإعدادهم بفتح وكسر الهمزة على حد سواء.

وقد انتشرت الجامعات الحرة من هذا المنطلق فى بلدان كثيرة من بريطانيا إلى الصين إلى إسرائيل. كما دفع ذلك التوجه عددا من البلدان «النامية» إلى توظيف استثمارات هائلة فى مجال الاتصالات، فعلى سبيل المثال سعت الهند إلى ربط مناطقها الريفية بشبكة اتصالات هائلة، إدراكا منها للدفعة التى ستقدمها الشبكة الجديدة للتعليم والتقدم، فى إطار خطة تحديث طموحة تقف بالهند على مشارف طريق المعلومات السريع.

الإمكانات متيسرة:

بقيت إشارة إلى أن الخبرات العالمية (بل والمحلية) الخاصة بمواد مثل هذه القناة وفيرة ومتاحة، كما أن مقتنياتها التقنية لاتعز علينا، وهى لاتحتاج إلا إلى ٨ ـ ١٢ ساعة إرسال يوميا، لدينا حاليا عشرات أضعافها. أى أنه لا ينقصنا فى هذا الصدد إلا تحديد الفلسفة والهدف والمنهج ثم العمل الواعى المتقن، الذى تحدونا فيه المساعى الإبداعية، وعلى نحو متواصل.

إن إنشاء مثل هذه القناة قضية أمن قومى من الدرجة الأولى، يجب أن تحظى بالأولوية الفورية المطلقة.. ولأنه سيكون علينا وعلى أطفالنا فى نهاية المطاف مواجهة معضلة العيش مع أجيال من المؤهلين بالتقنيات الحديثة، والذين يتعاملون معنا مستندين إلى خدماتها. ولأن القضية لن تكون قضية اختيار فيما يخص الكيانات البشرية، فهذه المستحدثات من نفس«نوع» الأسلحة الذكية التى حسمت حرب الخليج حتى قبل أن تبدأ.

إننا ضمن العالم على أبواب عصر جديد تقوم ثقافته على أسس عالمية وهموم إنسانية مشتركة، والاستخدام المبدع لفتوحات التقنية المتقدمة بات يلعب دورا مهما فى تقرير النتائج النهائية للصراعات الحضارية المعاصرة.

يبقى تنويه أخير وهو أن القضية فى هذه العجالة ليست فقط كيف تساعد مثل هذه القناة على صنع المثقف العصرى المبدع، بل كيف تساعد على خلق العقل الناضج المتفتح القادر على رؤية مالا يعتقد فيه، وعلى الحوار والتطور واستيعاب مايحيط به من حقائق، وذلك بدلا من تعليم التلقين والحفظ والإملاء والترديد، الذى يرسخ من صنع المتعصبين ذوى الأفق المحدود الذين يخاصمون روح التغير والإبداع.

كتاب الزاوية

وقفت بوجه ظلامى

توفيق زيّاد

أُناديكُمْ . .

أَشُدُّ عَلَى أَيَادِيكُمْ

أَبُوسُ الأَرْضَ تَحْتَ نِعَالِكُمْ

وَأَقُولُ: أَفْدِيكُمْ . .

وَأُهْدِيكُمْ ضِيَا عَيْنِى

وَدِفءَ القَلْبِ أُعْطِيكُمْ . .

فَمَأْسَاتِى الَّتِى أَحْيَا

نَصِيبِى مِنْ مَآسِيكُمْ

أُنَادِيكُمْ . .

أَشُدُّ عَلَى أَيَادِيكُمْ

أنا مَا هُنْتُ فى وَطَنِى

ولا صَغَّرْتُ أكْتَافِى

وَقَفْتُ بِوَجْهِ ظُلاَّمِى

يَتِيماً، عَارِياً، حَافِى . .

حَمَلْتُ دَمِى عَلَى كَفِّى

وَمَا نَكَّسْتُ أَعْلاَمِى

وَصُنْتُ العُشْبَ فَوْقَ قُبُورِ أَسْلاَفِى

أُنَادِيكُمْ . .

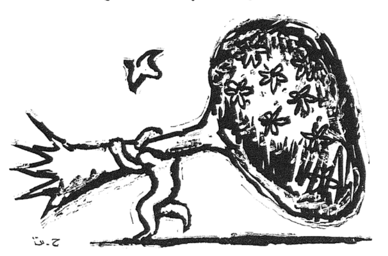
أَشُدُّ عَلَى أَيَادِيكُمْ . .



يســـرق الجمـــال ليأخـــذ

فنجان شاى مع موسولينى

مــرفــت عبـد النــاصــر



نعيش اليوم فى صحراء من الفكر.. لم تعد هناك ثوابت، فقط كثبان من رمال متحركة.. المواجهة الآن مع النفس.. من نحن وإلى أين ذاهبون؟

ليست كلماتى وإنما كلمات المخرج الإيطالى «برتولتشى» عندما سُئل عما أراد أن يقوله من خلال فيلمه الأخير «سرقة الجمال» والذى أنتج من حوالى أربع سنوات (١٩٩٦).

سرقة الجمال ـ هو فيلم عن هؤلاء الذين عاشوا حلم الستينيات، وفى التسعينيات اكتشفوا أنهم ما زالوا يعيشون نفس الحلم!

حلم الستينيات الذى عاش فيه كثيرون فى أنحاء العالم (ومنهم برتولتشى نفسه)، هذا الحلم الذى ترجم إلى لغة سياسية تنادى بالمساواة والعدالة الاجتماعية فى ظل الأنظمة الاشتراكية أو حق الإنسان فى مجتمع الرفاهية فى أطر الديمقراطيات الصناعية، حلم تجسد فى الأدب والفن وأبجدية الشعر، حلم جيل بأكمله أراد أن ينقل الجمال من الخيال إلى أرض الواقع، ليدرك فى التسعينيات أن مفرداته لم تعد قادرة على فهم اللغة الجديدة «لغة السوق»، فيقرر أن يهاجر بحلمه ليعيش متوهمًا أنه نجح بالفعل فى تحقيقه فى مكان ما.

فى فيلم سرقة الجمال ـ تقرر مجموعة من مثقفى هذا الجيل قطع أواصرها بمجتمعاتهم الصناعية «السوقية»، يأخذون ثرواتهم التى حققوها فى زمن الرفاهية أو زمن التواطؤ مع منظمات الربح فى أوروبا وأمريكا ويهربون بحلمهم المجعد إلى ريف إيطاليا، إلى «توسكانا» لكى يخلقوا يوتوبيا الجمال، وهل هناك مكان آخر فى العالم يسع تجسيد فكرة الجمال على الأرض أجمل من توسكانا؟

تبدأ أحداث الفيلم بوصول «لوسى» إلى «سيينا» قلب توسكانا، هذه الفتاة الأمريكية ابنه التاسعة عشرة التى يتملكها إحساس معتم بأن جزءًا منها يحمل رائحة هذه الأرض، تأمل أن تزيل شمس توسكانا الغمامة عنه، حتى تعرف من هى!

تصل لوسى لترى مجتمعًا من مهاجرى أوروبا وأمريكا من أدباء وشعراء وفنانين يعيشون حياة «كوميون» بوهيمية يحاولون من خلالها تجميد الزمن والعودة إلى الوراء، هجرة عقلية يعيشون فيها حلمهم عرايا فى جزيرة صناعية تسمح لهم بالخروج من أشكال وأحكام الحياة العادية، وتحيط بهم تماثيل صنعتها أيديهم وكأنها ظل من كانوا.

أجساد من الطين وأجساد من اللحم، فى حالة ابتهال لشمس «سيينا» أملا فى أن تنبت من الحلم واقعًا ما!

جيل يختلف تمامًا عن جيل «لوسى» الأمريكية التى تملؤها حياة حقيقية على الرغم من صراعاتها الداخلية: أصولها مشكوك فيها ورؤيتها للمستقبل غامضة، وبالرغم من تطلعها للحياة، فهى تخطو إليها بحذر نابع من البعث الجديد لأخلاقيات وأعراف أصولية وتقليدية تخيف من مجرد الاقتراب الحقيقى منها.

ولا يلبث أن يصادفها الحب ـ فى إيطاليا ـ مثل ما صادف أمها الشاعرة المزاجية يوما ما والذى كانت لوسى وليدته (كما تكتشف فى نهاية الفيلم).

تحب لوسى شابًا إيطاليًا، يدعى أنه يبادلها الحب لأن حلمه الوحيد هو السفر إلى أمريكا! فهى «كارته الأخضر» لدخول أرض الأحلام التى يحلم بها كل شباب إيطاليا، بل كل شباب العالم!

أمريكا، حلم شباب التسعينيات مثلما كانت اليوتوبيا حلم شباب الستينيات!

ولكن ماذا يحدث إن لم يجد شاب التسعينيات أمريكية تحبه ولم تكن هناك بطاقة خضراء تنتظره؟ هل يموت حلمه هو الآخر، وهل من الممكن أن نعيش بالرغم من المسافات التى تفصل بيننا وبين الحلم، أو بمعنى آخر أن نعيش فى حالة مؤقتة من اليأس ولا نموت؟

سؤال يطرحه البرتو مورافيا فى بداية قصته الرائعة (١٩٣٤)، والتى تدور أحداثها فى كابرى مع بدايات تورط إيطاليا فى الحرب العالمية الثانية.

وهى نفس الفترة التى تدور فيها أيضا أحداث فيلم «فنجان شاى مع موسولينى» للمخرج الإيطالى زفاريللى والذى أنتج فى العام الماضى (١٩٩٩)، ويحاول «زفاريللى» فى هذا الفيلم أن يجيب عن سؤال مورافيا بطريقته الخاصة، نعم من الممكن أن نعيش فى يأس ولا نتمنى الموت، عندما يتحول اليأس إلى نوع من العناد المتحضر أو الرفض الشيك! .. كيف؟ هذه هى قصة الفيلم!

القصة فى الواقع حقيقية وهى زفاريللى نفسه عندما كان صبيًا فى فترة الحرب، قصة طفولة ممزقة بين كل هؤلاء الذين يريدون وضع أيديهم على الجمال، وكل منهم يرى أنه يملك الأيديولوجية المناسبة لتحقيقه، تدور أحداث الفيلم فى توسكانا أيضًا، وفى فلورنسا بالذات عندما تقع ثلاث سيدات إنجليزيات فى غرام توسكانا ويقررن البقاء فيها لتكملة حياتهن هناك.

ثلاث سيدات فى خريف العمر، الأولى هى «جوان بلورايت(*)» التى فقدت فى الحرب العالمية الأولى الرجلين الوحيدين فى حياتها ـ الأب والحبيب ـ فكان عزاؤها السفر إلى إيطاليا التى أحبتها من فرط حبها لشكسبير، فلقد نسج الكثير من أحداث مسرحه الشعرى فى أرجائها!

تعمل «جوان بلورايت» سكرتيرة لصاحب محل أقمشة فى فلورنسا يتاجر فى الصوف والتويد الإنجليزى، له ابن (زفاريللى أو لوقا كما يسمى فى الفيلم) لا يناديه أبوه باسمه ولكن بلقب «غير الشرعى»، وتحاول سكرتيرته الإنجليزية أن تفهمه تكرارًا بأنه لا يوجد فى الدنيا أطفال غير شرعيين، فقط آباء غير شرعيين!، ولكنه لا يريد أن يستوعب هذا، يضع ابنه فى ملجأ ومع ذلك يقول لسكرتيرته كل صباح أنه يريده أن يصبح «جينتلمان إنجليزيًا كاملاً» فى يوم من الأيام!، فينتهى الأمر بأن تأخذه السكرتيرة الإنجليزية رحمة به من أجل أن تربيه وترعاه!

تجلس معه كل مساء لتقرأ له حكايات شكسبير من خلال تلك الكتب المجسمة للأطفال (والتى كنت أحبها كثيرًا وأنا صغيرة)، تفتح الكتاب فيظهر مشهد الفراندة الشهير فى روميو وجولييت وتقرب الأباجورة إليه كى يبدو القمر فى صفحة الكتاب ساطعًا وتعيش مع الطفل كلمات جولييت لروميو: «أرجوك لا تقسم على حبك لى بالقمر، أخشى أن يكون مثله متغيرًا يتضاءل فى مداره مع الأيام!».

ويشارك جوان بلورايت فى تربية الطفل باقى السيدات، «جودى دينش» التى تعشق الفن وتقوم بترميم بعض جداريات الكنائس والتى تأخذ الطفل يوميًا لزيارة جوهرة الفن الإيطالى «متحف الأوفيتس» مرورًا بأكاديمية الفنون فى فلورنسا ليتأمل عبقرية مايكل أنجلو فى تمثاله الشهير «دافيد».

و«ماجى سميث» الإنجليزية الثالثة.. أرملة السفير البريطانى السابق والتى ترى أن دورها فى الحياة أن تجعل البشر متحضرين مثلها! ولهذا فكل ما تقوم به تجاه الطفل ينحصر فى تعليمه آداب التعامل فى الأوساط الراقية!

وسرعان ما تتغير الأحوال، يعلو نجم ألمانيا ويخبو نجم بريطانيا ويهدد شبح الحرب إقامة السيدات الثلاث فى فلورنسا.

يستغنى تاجر الأقمشة عن خدمات سكرتيرته الإنجليزية وعن التويد الإنجليزى وعن شكسبير ويقرر أنه يريد لابنه أن يكون الآن «الجينتلمان الألمانى الكامل»! يأخذ الطفل من سكرتيرته الإنجليزية ويبعث به للدراسة فى النمسا.

تبدأ أعمال العنف والشغب الموجهة إلى الجالية البريطانية وتصر ماجى سميث أرملة السفير السابق بأن موسولينى لا يعرف شيئًا عن تلك الهمجية والفوضى وتطلب لقاء معه لتحكى له عن معاناتهن ويستقبلها «الدوتشى» بترحاب يحقق من خلاله خبطة إعلامية! يطمئنها بأن الأمن والأمان سوف يعودان إلى فلورنسا وأنها وباقى السيدات الإنجليزيات فى حمايته الخاصة، وتظهر صورتها فى اليوم

التالى فى الصحف وهى تتناول فنجان الشاى مع موسولينى!

وما هى إلا أيام قليلة بعد هذا اللقاء التاريخى مع موسولينى، حتى تواجه أولئك السيدات قرار ترحيلهن إلى بريطانيا أو تحديد إقامتهن تحت عين السلطات الإيطالية إن رفضن الرحيل.. ويفضلن بالفعل البقاء ويقررن أنه لن يفرض أى واقع مهما كانت مرارته عليهن، ولن تتحكم الظروف فى اختيار نوع أو أسلوب حياتهن، وتحتجز السلطات الإيطالية السيدات الإنجليزيات فى مكان لا يليق أبدًا بهن، خاصة بأرملة السفير البريطانى ولا بوعود موسولينى لها بأنها فى حمايته الخاصة!

ويستمر الوضع بصورته المهينة، حتى تأتى «شير» الأمريكية الثرية إلى فلورنسا لتعلم بما حدث للسيدات الإنجليزيات، فلقد كان لها معرفة سابقة بهن حيث كانت تأتى كثيرًا لفلورنسا لشراء أعمال فنية للجاليرى الذى تملكه فى نيويورك، وكانت تربطها علاقة صداقة مع أم الطفل لوقا (زفاريللى) قبل أن تموت.. تصل شير إلى محطة القطار فى فلورنسا فى نفس اليوم الذى يعود فيه لوقا (زفاريللى) من النمسا ليلتحق بأكاديمية الفنون هناك، هذا بعد أن حددت الأمريكية «شير» جزءًا من ثروتها لتضمن له الأمان الاقتصادى وتعهدت أيضًا بكل مصاريف تعليمه.

وتعمل شير على نقل السيدات الإنجليزيات إلى فندق فخم تتحمل هى أيضًا مصاريف إقامتهن فيه، ولكن الأمور تزداد تعقيدًا بالتدخل الأمريكى فى الحرب، وتصبح شير هى الأخرى مهددة أكثر منهن (فهى يهودية الأصل) خاصة بعد ما سلبت كل أموالها هناك.

يستغل لوقا (زفاريللى) الوديعة التى تركتها له شير من أجل ضمان مستقبله ليساعدها ويساعد بقية السيدات وتنتهى أحداث الفيلم لصالح السيدات، أو لصالح ما هو جميل وإنسانى فى أى واحد فينا.

تستمر جوان بلو رايت فى تعليم الشعر للأطفال، وجودى دينش فى ترميم الجمال فى كنائس إيطاليا، ولكن هل من الممكن أن أنهى الحدوتة التى يلعب الجمال دور البطولة فيها وتلعب كل من أمريكا وإيطاليا دورى السنيدة بدون أن أذكر مصر!! (اعذرونى)!

نعم تأتى إيطاليا لمصر لترميم أول بيوت الجمال فى الدنيا، جاءت بنقود أمريكية لتنقذ المكان الذى يخلد إليه الجمال، بيت أخروى، مقبرة، هى مقبرة جميلة الجميلات نفرتارى.

تلك المقبرة التى تعتبر أجمل مقابر الملكات، بل ربما أجمل مقابر مصر القديمة جمعاء، وهى تحفة فنية عمرها يزيد على الثلاثة آلاف عام، اكتشفها العالم الإيطالى «أرنستو شيباريللى» عام ١٩٠٤، ومنذ لحظة اكتشافها وهى فى حاجة إلى ترميم!

أخذت عملية ترميمها ستة أعوام بدأت فى عام ١٩٨٧، وحرص فيها علماء الترميم على الحفاظ على الجمال كما كان، تكلف الترميم ثمانية ملايين دولار تحملها معهد «بول جيتى» الأمريكى.

وبول جيتى صناعى أمريكى اهتم كثيرًا بالآثار المصرية القديمة وأيضًا اليونانية والرومانية وقضى حياته فى جمع الكثير منها، وكان هذا نواة متحفه الذى يضم مجموعة فنية نادرة، ولقد أوصى بول جيتى بإنشاء معهد خصص له جزءًا كبيرًا من ثروته من أجل الحفاظ على تلك الآثار القديمة.

هل الخلاصة إذاً من هذه الحدوتة الطويلة هى تقديم الشكر والتبجيل لحامية الإنسانية وراعية الجمال فى العالم.. أمريكا، والتى لن تستوى الحياة بدونها! بالطبع لا.

لا شك أن القوة الاقتصادية مهمة جدًا، ولكنها لا تكفى وحدها، لا بد أن يكون هناك من يعشق شكسبير ويريد أن يعلم الشعر للأطفال، ولا بد أيضًا أن يكون هناك من يحب فنانى النهضة فى إيطاليا ويؤرقه الخوف من احتمال زوال إبداعاتهم بعوامل الزمن والتعرية.

وفوق كل هذا لا بد من إدراك أزلية الجمال الذى هو جزء لا يتجزأ من إنسانية البشر، هذا الجمال الذى عاش به أناس منذ آلاف السنين لنعيش نحن به الآن بعد أن رحلوا.

لن يعود الجمال أبدًا بالحسرة ووضع الأيادى على الخدود، ولن يعود أيضًا بهجرة الفكر والعيش فى الماضى، ولا باستمرار الحرب مع طواحين الهواء.

يقول «فاروق جويدة» فى إحدى قصائده:

لماذا نكره الأحياء والموتى
ونكره كل ما فينا
كأن الأرض لم تنجب
سوى زمن يعادينا.

سيعود الجمال، إذا لم نستسلم لكراهية أنفسنا وكراهية العالم من حولنا، سيعود الجمال بالإصرار عليه ورفض القبح الإنسانى، بكل أشكاله.

سيعود بمواجهة النفس، وبالتعامل مع الرمال المتحركة، بالتمرد البناء، التمرد المتعقل، التمرد المتحضر، التمرد الشيك، الذى يمكن بالفعل أن يعيد خلق الجمال.

يقول «كارولوس فونتيس(**)» - الأديب المكسيكى عن علاقته بأمريكا:

هل كان هذا الماضى فعلاً حقى..
وهل حلمى هو حلم بلد حقيقى
أم أنه فعل سياسى
بلدى، قد تحدد عمره كتب التاريخ
ولكن مازال البحث مستمرًا
ولن أهدأ..
إلا إذا أدركت هذا القدر المشترك
هذا المصير، الذى يجمعنا مع مجتمع آخر
مجتمع الزمن الحقيقى
مجتمع أمريكا
التى أقنعتنى بضرورة أن أكون
وأن أكون، بكل شراهة
أن أحيا من أجل المستقبل
مستقبلاً معجونًا بكبرياء حقيقى
تمتد جذوره قرونًا منسية
وقرونًا قادمة
سوف أحقق هذا
إذا نجحت الآن
فى اصطياد تلك اللحظة. ■

هامش

* أسماء السيدات الإنجليزيات والسيدة الأمريكية هى أسماء الممثلات الحقيقيات اللاتى لعبن هذه الأدوار. ومن الجدير بالذكر أن الثلاث: جوان بلو رايت، وماجى سميث، وجودى دينش من أقطاب التمثيل فى بريطانيا وحاصلات على لقب «سيدة الإمبراطورية» وهو لقب مماثل للقب «فارس» الذى يمنح للرجال.

** «ذكرت فى مقدمة كتاب كارلوس فونتيس: «أنا والآخرين».



ثلاث صور من غزة

صلاح عبدالصبور

- ١ -

لم يكُ فى عيونه وصوته ألمْ
لأنه أحسّهُ سنهْ
ولاكَهُ.. استنشقه سنهْ
وشاله فى قلبه سنهْ
وطالتْ السنونَ أزْمنَهْ
فأصبحت آلامُه- فى صدْرِه- حقدا
بل أملاً ينتظر الغدا

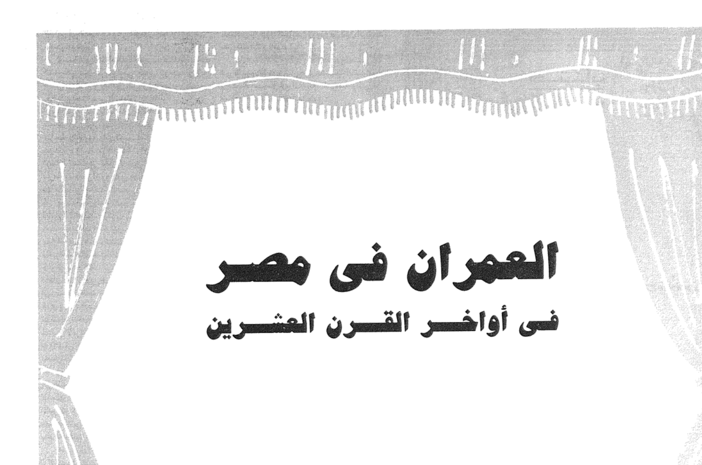
-٢-

يا أيها الصغارْ.. عيونُكُمْ تحرقنى بنارْ
تسألنى أعماقُها عن مطلعِ النهارْ
عن عودةٍ إلى الديار
أقول.. يا صغارْ.. لننتظر غداً
لو ضاع منا الغد، يا صغارُ.. ضاعَ عُمْرُنا سدى

- ٣ -

كانت له أرض وزيتونهْ
وكرمةٌ، وساحةٌ، ودارْ
وعندما أوْفَتْ به سفائنُ العمرِ إلى شواطىء السكينة
وخطَّ قبره على ذُرى التلالْ
انطلقت كتائبُ التتارْ
تذودُهُ عن أرْضه الحَزينَة
لكنّهُ خلفَ سياَجِ الشوك والصبّارِ ظل واقفاً.. بلا ملال
يرفضُ أن يموتَ قبلَ يومِ ثارْ
يا حُلْمَ يومِ الثّار





العمران فى مصر فى أواخر القرن العشرين

أبو زيد راجح

[الفصل الأول : «أحداث حول عام ١٩٩٩»]

المشهد الأول :

الجرائد اليومية تعلن على كامل صفحاتها وفى ملاحق خاصة عن إنشاء أحياء سكنية عالية المستوى تتكون من فيلأت فخمة ذات حمامات سباحة خاصة ومقامة وسط حدائق غناء. وكل مجموعة من هذه الفيلأت خططت لتشكل دائرة حول مساحة خضراء كبيرة تتوسطها بركة صناعية . وقد صممت الفيلأت بطرز معمارية متنوعة وجذابة . وتحتوى هذه الأحياء بجانب الفيلأت على عمارات فاخرة ذات وحدات سكنية واسعة وتحيط بها أيضا مساحات خضراء كبيرة . وقد زودت هذه الأحياء بكل ما يحتاجه ساكنوها من مراكز تجارية وترفيهية ونواد وملاعب وعلى الأخص ملاعب دولية للجولف. كما خصصت بها أماكن لممارسة رياضة ركوب الخيل لهواة هذه الرياضة . وجاء فى هذه الإعلانات أن ساكنى هذه الأحياء سوف يستمتعون هم وأسرهم برغد العيش بعيدا عن ضوضاء المدن وتلوثها وزحامها . وأطلقت عليها أسماء أجنبية لها سحرها مثل: بيفرلى هيلز ودريم لاند وجولف السليمانية . ولم يقف الإعلان عن هذه الأحياء المتميزة على الجرائد والمجلات بل أعدت حملات مكثفة بالتليفزيون شارك فيها كبار الممثلين والممثلات للإعلان عنها.

المشهد الثانى:

معرض كبير لمشروعات الأحياء الفاخرة الجديدة يقام فى المركز الدولى للمؤتمرات بمدينة نصر ويعد إعدادا جيدا. ويحضر افتتاح هذا المعرض جمع كبير من كبار المسئولين فى الدولة. أخذ المسئولون ينتقلون من مشروع لمشروع ويقوم المستثمرون أصحاب هذه المشروعات بشرحها لهم على ماكيتات مجسمة وعلى لوحات رسم ملونة بمناظر للفيلأت والعمارات وهى متناثرة على المساحات الخضراء وتتخللها البحيرات والملاعب ويبينون مزاياها وما سوف تحققه لقاطنيها من حياة رفيعة المستوى. وينقل التليفزيون على الهواء مباشرة تفاصيل هذه الزيارة التى استغرقت ما يقرب من ساعتين ويشاهدها أبناء مصر فقراؤهم وأغنياؤهم.

المشهد الثالث:

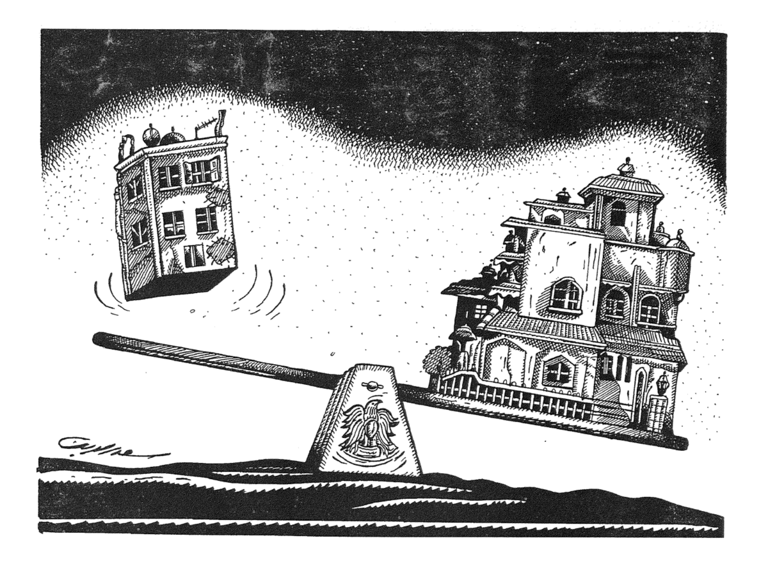
يستضيف أحد أصحاب هذه المشروعات نفس كبار المسئولين لزيارة ومعاينة مشروعه على الطبيعة . ويرى مشاهدو التليفزيون هؤلاء المسئولين وهم يتنقلون بين أرجاء هذا الحى الفاخر الفسيح معجبين كل الإعجاب بمساكنه وملاعبه وخدماته التى لا يوجد لها مثيل إلا فى أماكن محدودة على الكرة الأرضية والتى لا يقصدها إلا أثرياء العالم ومشاهيره. وتستمر هذه الزيارة ساعتين ويشاهدها أيضا أبناء مصر فقراؤهم وأغنياؤهم. ربما كانت المرة الأولى التى يشاهدون فيها هذا الوافد الجديد الذى كثر الحديث عنه أخيرا والمسمى بالجولف، وهم لا يفهمون لهذه اللعبة معنى أو هدفًا إلا أنها قد تندرج تحت باب التسلية التى يمارسها مجتمع الرفاهية أو مجتمع التخمة فى أوقات فراغهم.

شاهد المتفرجون هذا الفصل باندهاش شديد وقد أثارت مشاهده فيهم الكثير من التساؤلات التى لا يجدون لها جوابا. فهل حققت مصر كل احتياجاتها الأساسية من مسكن وملبس وعلاج وكل احتياجاتها الثقافية والتعليمية حتى تسعى إلى تحقيق احتياجات الرفاهية بإقامة مثل هذه الأحياء. وهل يعيش بين ظهرانيهم هذا الكم الهائل من الأثرياء والمليونيرات القادرين على امتلاك مثل هذه القصور والعيش فيها . ولماذا تبارك الدولة إقامة هذه الأحياء بهذه الكثرة فى شرق القاهرة وغربها ويقوم كبار المسئولين بزيارتها والتجول فيها، وفى ذلك إعلان بطريق غير مباشر عنها فى الوقت الذى لم تطأ فيه قدم أى من هؤلاء المسئولين أحياء الفقراء والأحياء العشوائية ليروا بأعينهم كيف تعيش غالبية المصريين. ألم يكن من الأجدى صرف المليارات التى أنفقت على هذا الإسكان الفاخر فى إقامة إسكان أكثر تواضعا لفقراء مصر وما أكثرهم وعلى الأخص هؤلاء الذين يشاركون الموتى سكناهم والأسر الكثيرة التى تحشر كل منها حشرا فى غرفة واحدة ضيقة مظلمة وتشترك مع عدة أسر أخرى فى دورة مياه واحدة.

[الفصل الثانى «أحداث حول عام ١٩٨٠»]

المشهد الأول :

مجموعة من الخبراء يبلغ عددهم حوالى أربعين خبيرا فى كل مجالات الإسكان تجتمع حول مائدة مستديرة بالقاعة الرئيسية بوزارة الإسكان . تكونت هذه المجموعة الممتازة فى عهد رئيس الوزراء النابه دكتور مصطفى خليل والدكتور مصطفى الحفناوى



وزير الإسكان بهدف وضع سياسة قومية للإسكان وتحديد احتياجات مصر من الإسكان حتى عام ٢٠٠٠ . استمر عمل هذه اللجنة ما يقرب من عام، وكونت فيما بينها مجموعات عمل كل منها تبحث جانبًا من جوانب الإسكان المتعددة. انتهت اللجنة من عملها فى الميعاد المحدد لها بوضع سياسة متكاملة للإسكان فى مصر وخطط مرحلية لتنفيذها، وأصدرت دراساتها وتوصياتها فى عدة مجلدات . أسفرت الدراسة عن أن حاجة مصر من الوحدات السكنية حتى عام ٢٠٠٠ تبلغ ثلاثة ملايين وحدة نصفها خصص لمحدودى الدخل والنصف الآخر خصص للشرائح الاجتماعية الأخرى وعلى الأخص الطبقة الوسطى من المجتمع .وقد تحددت فى هذه الدراسة كميات مواد البناء اللازمة لتنفيذ هذه الخطة والتمويل المطلوب لها وكذلك حجم العمالة ونصيب الحكومة والقطاع العام من ناحية والقطاع الخاص من ناحية أخرى فى تنفيذها. كذلك شملت الدراسة الأراضى والمرافق اللازمة لهذا الكم من الوحدات السكنية. وقد أطلق على هذه الدراسة «الخطة القومية للإسكان حتى نهاية القرن العشرين».

المشهد الثانى:

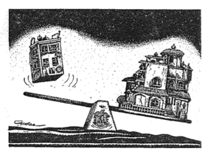
تجتمع مجموعة من خبراء التخطيط الفرنساوية على درجة عالية من الكفاءة والخبرة استقدمتهم الحكومة المصرية للاشتراك مع خبراء الهيئة العامة للتخطيط العمرانى لإعداد مخطط عام لإقليم القاهرة الكبرى وقد شارك بعض من هؤلاء الخبراء الأجانب فى تخطيط إقليم باريس. ويمر التخطيط الحضرى عادة بثلاثة مراحل : التخطيط الاستراتيجى وتحدد فيه أهداف ومبادئ التخطيط، ثم التخطيط الهيكلى وفيه توضع الخطوط العريضة للتخطيط شاملة مواقع الأحياء والمجاورات والطرق والشوارع الرئيسية ومحاور الامتدادات فى المستقبل ثم، التخطيط التفصيلى وفيه تحدد الكثافات البنائية والسكانية والارتفاعات واستعمالات الأراضى للأنشطة السكنية والصناعية والتجارية والمالية والمهنية وغالبا ما يقن هذا التخطيط حتى يكون بمنأى عن عبث العابثين من ذوى السلطة والنفوذ. ولا توجد مدينة فى عالم الغرب إلا ولها مثل هذه التخطيطات. أما القاهرة العاصمة التاريخية فلم يكن لها تخطيط يحدد هيكلها العمرانى ولذا فقد اختلطت فيها الأنشطة وارتفعت فيها الأبراج واختفت المساحات الخضراء العامة والخاصة وامتدت عشوائيا فى كل اتجاه وارتفعت فيها الكثافات السكانية حتى صارت من أعلى كثافات مدن العالم. وبمعنى آخر فقد تشوهت القاهرة وفقدت طابعها المعمارى والعمرانى الأصيل. بعد ثلاث سنوات من العمل الدءوب أتم خبراء التخطيط الفرنساوية والمصريون وضع استراتيجية لتخطيط القاهرة تتمثل فى ثلاثة محاور؛ أولها إقامة عشرة تجمعات حول القاهرة لإسكان محدودى الدخل وذلك للحد من امتداد الإسكان العشوائى والتهامه الأراضى الزراعية الخصبة، وكذلك ينقل إليها سكان الإسكان الهامشى وسكان المقابر وبعض الأنشطة الحرفية والصناعية وذلك بهدف تخفيف الكثافة السكانية داخل المدينة . وثانيها إنشاء طريق دائرى حول القاهرة الكبرى أسوة بطريق باريس الدائرى وثالثها تقسيم القاهرة إلى قطاعات متجانسة يكتفى كل قطاع ذاتيا بأنشطته الحياتية الأساسية.

المشهد الثالث:

تكلف وزارة التعمير والإسكان عدة مكاتب عالمية بوضع سياسة قومية للتنمية الحضرية على مستوى الجمهورية وشاركت المكاتب الأجنبية مجموعة من المكاتب المصرية مشهود لها بالكفاءة والخبرة. درست هذه المجموعة المدن المصرية الحالية دراسة متعمقة شملت تاريخها وخصائصها وأنواعها وأحجامها ومعدل نموها كما درست ظاهرة التحضر فى مصر وتضخم بعض المراكز الحضرية الكبرى.وقد حددت احتياجات مصر مستقبلا من المدن والمجتمعات الجديدة ثم درست البدائل المختلفة للتنمية الحضرية وأساليب امتداداتها. وانتهت الدراسة إلى التوصية بأن أنسب البدائل للتنمية الحضرية فى مصر هو الامتداد التدريجى من الحيز المعمور الحالى فى الوادى والدلتا إلى الصحراوات المجاورة على الجانبين . وستمد المدن الحالية المجتمعات الجديدة المجاورة لها بما تحتاجه من عمالة ومرافق وبذلك فإنها ستكون أقل تكلفة من المجتمعات التى تنشأ بعيدا فى قلب الصحراوات إذ أنه يصعب تزويدها بالعمالة والمرافق إلا بتكلفة باهظة. كذلك أوصت الدراسة بجانب الزحف التدريجى للحيز الحالى بتنمية أقاليم تنموية مثل إقليم سيناء وإقليم بحيرة السد العالى والساحل الشمالى وساحل البحر الأحمر . وصدرت هذه الدراسة فى عدة مجلدات تحت عنوان «التنمية الحضرية فى مصر».

المشهد الرابع:

قام البنك الدولى بالاشتراك مع الهيئة العامة لبحوث البناء والإسكان بإجراء دراسة مستفيضة لمستقبل قطاع التشييد فى مصر حتى عام الفين. وشملت الدراسة الوضع الراهن لشركات المقاولات العامة والخاصة والمناط بها



تنفيذ مشروعات الدولة فى كافة المجالات من حيث أحجامها وأنواعها وكفاءاتها الفنية وهياكلها الإدارية والمالية ونوعيات العمالة بها وقدراتها فى استخدام تكنولوجيات البناء الحديثة. وانتهت الدراسة إلى أن شركات المقاولات فى مصر فى حاجة ماسة إلى تطوير جذرى على كافة الجبهات. ويتمثل الإصلاح الذى اقترحه خبراء البنك الدولى والخبراء المصريون فى العمل على الارتقاء بمستوى العمالة الفنية وتدريبها على استخدام المعدات الحديثة وتنفيذ المنشآت بدرجة عالية من الجودة وفى هذا السبيل أقترح إنشاء مراكز تدريب عالية المستوى. كذلك شمل الإصلاح ضرورة استخدام التكنولوجيات الحديثة والآلات والمعدات المتطورة فى عمليات البناء. وعرض البنك الدولى تمويل شراء هذه المعدات. وأوصت الدراسة بإعادة الهيكلة الإدارية والمالية لشركات المقاولات وتشجيع المنافسة ومنع الاحتكار فى هذا القطاع الهام كما أوصت بإنشاء مركز معلومات على مستوى عالمى لخدمة شركات المقاولات. وبمعنى آخر فإن الهدف من هذا المشروع كان تأهيل شركات المقاولات المصرية لتنفيذ مشروعات العمران بدرجة عالية من الكفاءة الفنية وكذلك إعدادها لكى تقف على قدم المساواة مع الشركات العالمية فى نهايات هذا القرن.

المشهد الخامس:

قام البنك الدولى بالتعاون مع الهيئة العامة لبحوث البناء والإسكان مرة أخرى بدراسة ظاهرة الإسكان العشوائى فى مصر والتى بدأت تظهر مثل البثور على وجه المدن المصرية. ويطلق الإسكان العشوائى على الإسكان الذى بنى بدون تراخيص بناء وعلى مواقع غير مخططة. وقد فتحت هذه الدراسة الباب على مصراعيه على عالم غريب غير مألوف من بيئة عمرانية متردية تنقصها الخدمات الاجتماعية من مدارس ومستشفيات ومراكز بوليس ومطافئ؛ وكذلك تنقصها الخدمات البلدية من نظافة وجمع قمامة. ويبلغ عرض الشوارع بها من مترين إلى ثلاثة أمتار وبالتالى فلا تستطيع العربات الدخول إليها. وقد أقيمت مبانيها بدون قيم معمارية وتنقصها التهوية والإنارة الطبيعية. والمجتمع العشوائى يعانى من الكثير من الأمراض البدنية والنفسية وتعتبر الأحياء العشوائية مرتعا خصبا للجريمة بكل أنواعها خصوصا الجرائم الاجتماعية كما تعتبر وكرا للتطرف والإرهاب. ويسكن المناطق العشوائية المهاجرون من الريف إلى الحضر بحثا عن عمل بعد أن ضاق بهم العيش فى قراهم وكذلك تسكن بها الشرائح الاجتماعية ذات الدخول المحدودة. لقد تناست الدولة محدودى الدخل طويلا فأخذوا الأمر بأيديهم وحلوا مشكلتهم السكانية بأنفسهم بطريقة بدائية وبدون اتباع أية قواعد للتخطيط والعمران. وقد تم حصر الإسكان العشوائى وتبين أنه يمثل ٨٤٪ من مجموع الإسكان الذى بنى فى القاهرة فى فترة الستينيات وقد بنى على الأراضى الزراعية المحيطة بالمدن وفى الفراغات الخالية داخلها. ولسرعة انتشار هذا الإسكان فقد سمى بالإسكان السرطانى. وتعيش مجتمعات هذه الأحياء تقريبا خارج النطاق الرسمى للدولة.

لقد سعد المتفرجون بمشاهدة هذا الفصل وأيقنوا أن مصر أخيرا قد وضعت قدمها على الطريق الصحيح وأنها بدأت فى استخدام العلم والبحث والدراسة والتخطيط فى تحديد مشاكلها العمرانية وإيجاد الحلول الملائمة لها. وفى سبيل ذلك لم تكتف بالخبراء المحليين من أبنائها بل استقدمت خبراء متخصصين من بلاد الفرنجة ليشاركوا خبراءها فى هذه الدراسات وهو أمر لا بأس به بل هو مطلوب. وقد سبق أن استخدم الوالى محمد على الكبير الخبراء الأجانب فى بناء دولته ونجح فى ذلك نجاحا كبيرا، كما سار على طريقه حفيده الخديوى إسماعيل فاستعان بالمخططين الفرنساوية فى تخطيط قاهرته. فما أشبه الليلة بالبارحة. لقد وضعت خطة قومية للإسكان حتى نهاية القرن وأعدت دراسة للتنمية الحضرية على مستوى الجمهورية ووضعت استراتيجية للتخطيط الحضرى لإقليم القاهرة الكبرى حيث يعيش ربع سكان الجمهورية. كما أعدت دراسة لتطوير الجهاز التنفيذى الذى سيقوم بتنفيذ هذه الخطط والدراسات. كما حددت أبعاد مشكلة من أهم وأخطر المشاكل الاجتماعية والإسكانية فى مصر وهى مشكلة الإسكان العشوائى. وبعد إتمام هذه الدراسات والخطط لم يبق إلا أن تنفذها مصر حتى تتبوأ مكانا مرموقا بين الدول التى تأخذ بأسباب الحضارة المعاصرة.

[الفصل الثالث

«أحداث ما بين ١٩٨٠ و١٩٩٩»]

المشهد الأول:

تقوم وزارة الإسكان والمرافق والمجتمعات الجديدة بدراسات لم يعلن عنها وتتم فى صمت وفى النهاية تصدر تباعا عدة قرارات أصدق ما توصف بها أنها قرارات انقلابية.

أول هذه القرارات خاص بالتجمعات العشرة المقترح إقامتها حول القاهرة. لقد غيرت الوزارة الهدف الأصلى من إقامة هذه التجمعات فبدلا من أن تخصص لسكن محدودى الدخل للحد من انتشار العشوائيات على الأراضى الزراعية وبدلا من أن تستخدم لتفريغ القاهرة من بعض الأنشطة ومن سكان المقابر والمساكن الجوازية كما كان مقررا لها من قبل، بدلا من ذلك فقد خصصت لسكنى الشرائح فوق المتوسطة والعليا من المجتمع. لقد أعيد تخطيطها وقسمت إلى قطع كبيرة وطرحت هذه التقسيمات للبيع فاقبل عليها المشترون إقبالا شديدا وهم فى أغلبهم القادرون من المجتمع والمصريون الذين عملوا فى بلاد البترول أو فى بلاد الغرب لمدد طويلة وكونوا مدخرات كبيرة. وقد سعوا للحصول على هذه المواقع إما لإقامة مساكن لهم أو لاستغلالها كنوع من الاستثمار العقارى الأكثر عائدًا من الاستثمار فى أى مجال آخر. وأغلب هذه التقسيمات لم تصل إليها بعد المرافق الأساسية من مياه وصرف وكهرباء وطرق ولا يعلم أحد متى تصل إليها هذه المرافق الحيوية.

أما القرار الثانى فهو تخصيص مساحات كبيرة تقدر بآلاف الأفدنة لبعض كبار رجال الأعمال الذى يعملون فى الصناعة لإقامة الأحياء الفاخرة التى ظهرت فى مشاهد الفصل الأول، لقد امتد اهتمام رجال الأعمال هؤلاء من الصناعة إلى الاستثمار العقارى ذى الربح الوفير. وقيل إن هذه المساحات قد خصصت لهم بسعر زهيد وهو خمسة عشر جنيها للمتر المربع ثم حصلوا على قروض من البنوك لتمويل إنشاء هذه المشروعات على أساس أن سعر المتر ٣٥٠ جنيها، أى أن تمويل الأحياء الفاخرة المخصصة لعلية القوم إنما تم عن طريق مدخرات المصريين البسطاء فى البنوك. وهذا القرار شأنه شأن القرار الأول إنما يعنى انحياز وزارة الإسكان لسكنى الشرائح العليا من المجتمع بدلا من الاهتمام بسكنى الشرائح الدنيا منه.

أما القرار الثالث فهو الإعلان عن إنشاء مدينة شرق الطريق الدائرى تسمى «بالقاهرة الجديدة» على مساحة بلغت ٤٥٠ ألف فدان ويمكنها أن تستوعب ما يقرب من خمسة ملايين نسمة يضافون إلى الاثنى عشر مليونا من سكان القاهرة الكبرى الحاليين وهذا يعنى تغيير المسار السكانى من الاتجاه نحو الانتشار من المراكز الحضرية الحالية إلى الاتجاه نحو مزيد من التركيز فيها. إن التوجه القومى العام يسعى إلى توزيع الاستثمارات على أقاليم مصر المختلفة وتنميتها مثل إقليم جنوب الصعيد وسيناء والوادى الجديد لخلق فرص عمل بها تحد من هجرة السكان إلى المراكز الحضرية الكبرى وعلى الأخص إقليم القاهرة. ومشروع إنشاء القاهرة الجديدة بالحجم المعلن عنه يسير عكس هذا التوجه العام ومثل هذه الإضافة الكبيرة من السكان والأنشطة سوف تضاعف من المشاكل العمرانية للمدينة والتى تعانى منها حاليا أشد المعاناة.

المشهد الثانى:

على أرفف مكتبة وزارة الإسكان وضعت عدة مجلدات تشتمل على دراسة الخطة القومية للإسكان حتى عام ٢٠٠٠ ودراسة مستقبل التشييد فى مصر ودراسة التنمية الحضرية على المستوى القومى ودراسة استراتيجية تخطيط إقليم القاهرة الكبرى. ومن الواضح أن هذه المجلدات قد تجمعت عليها طبقة رقيقة من الأتربة الناعمة مما يؤكد أنه لم يلمسها أحد منذ وقت طويل. فقد طويت صفحة الخطة القومية للإسكان يوم أن ترك الدكتور مصطفى خليل رئاسة الوزراء والدكتور مصطفى الحفناوى وزارة الإسكان. ولم يعد أحد يلتفت إليها أو حتى يتذكرها فكانت الخطة الأولى والأخيرة من نوعها وذهبت توصياتها أدراج الرياح. أما نوعية الوحدات السكنية التى أنشئت فى مصر منذ إعداد الخطة وحتى عام ١٩٩٩ فلا علاقة لها بنوعيات الإسكان التى أوصت بها هذه الخطة. فمعظم ما أنشئ كان إسكانا متوسطا وفوق المتوسط وأقل القليل كان لإسكان ذوى الدخول المحدودة بخلاف ما جاء بتوصياتها التى أعطت اهتماما كبيرا لإسكان هذه الشريحة التى تمثل فى الواقع نصف المجتمع.

أما دراسة مستقبل التشييد فى مصر فقد طويت أيضا هى الأخرى وبقيت شركات المقاولات على حالتها المتردية من حيث كفاءتها الفنية وانخفاض مستوى العمالة بها وعدم قدرتها على الأخذ بأسباب تكنولوجيا البناء الحديثة. وقد تدهورت هياكلها المالية حتى أصبحت الآن مثقلة بديون باهظة بلغت عدة مليارات من الجنيهات وبالتالى فلا يمكنها أن تكون ندا لشركات المقاولات الأجنبية التى بدأت تغزو بشدة الأسواق المصرية. وبعد انتهاء الدراسة عرض البنك الدولى تمويل شراء المعدات الحديثة اللازمة لتطوير أداء شركات المقاولات المصرية، ولكن بقى هذا العرض دون أن يجد من ينظر إليه.

أما استراتيجية تخطيط القاهرة الكبرى والتى أعدها الخبراء الفرنساوية مع الخبراء المصريين فلم تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام. لقد كان من المفروض أن تتحول هذه الاستراتيجية إلى تخطيط هيكلى. وهذا بدوره يتطور إلى تخطيط تفصيلى يصدر به تشريع يحميه من التغيير والتبديل حسب أهواء السياسة أو المال. بقيت القاهرة كما

كانت دائما مدينة بلا تخطيط ، مدينة بلا حول ولا قوة أمام عوامل التشوه وأمام عشوائيات القرار مثل تغيير الغرض من إنشاء عشرة تجمعات حول القاهرة لإسكان ذوى الدخول العالية بدلا من إسكان محدودى الدخل ومثل إقامة مدينة جديدة ذات خمسة ملايين نسمة بجانب المدينة الحالية ذات الاثنى عشر مليون نسمة.

أما دراسة التنمية الحضرية على المستوى القومى والتى أوصت بالامتداد التدريجى للعمران فلم تلق قبولا من المسئولين فى وزارة التعمير حينئذ التى كانت تنتهج فى إنشاء المدن والمجتمعات الجديدة منهجا آخر، إذ كانت تأخذ بمبدأ القفز إلى الخارج بدلا من الزحف التدريجى الآمن.

المشهد الثالث:

بعد نشر الدراسة الأولى للعشوائيات توالت الدراسات العلمية لهذا الموضوع الخطير والتى قامت بها الجامعات ومراكز البحوث ولكن ظل الأمر محصورا بين الأكاديميين لسنوات طويلة ولم يلتفت إليه أحد من المسئولين أو صانعى القرار إلا عندما تبين لهم أن مرتكبى الجرائم السياسية من الإرهابيين يتخذون من المناطق العشوائية أوكارا لهم وهذا ما حذرت منه الدراسات العلمية جميعها الاجتماعية والهندسية إذ أنها أكدت من سنوات طويلة أن الأحياء العشوائية أرض خصبة للجرائم بكل أنواعها وعلى الأخص الجرائم الاجتماعية وأنها تمثل قنابل موقوتة قابلة للانفجار وهذا ما حدا بأحد الباحثين لان يقول بأن القاهرة مع هذا الكم الهائل من المناطق العشوائية أصبحت مدينة بركانية تعيش فوق فوهة بركان . وأمام تفشى ظاهرة الإرهاب فى هذه الأحياء اضطرت الحكومة إلى اتخاذ قرارات عاجلة لمواجهة هذا الموقف فرصدت مليارات الجنيهات لتحسين هذه العشوائيات فمدت المرافق إلى بعضها وشقت الطرق بداخلها وزودتها ببعض الخدمات الاجتماعية . ولكن هذه الإجراءات وغيرها هى إجراءات علاجية محدودة الأثر وليست إجراءات وقائية ، فما زالت أسباب قيام العشوائيات وامتدادها قائمة وكان من الأجدى وقف الامتداد العشوائى أولا وذلك بإتاحة مواقع ومساكن لمحدودى الدخل بشروط ميسرة ثم ثانيا محاولة تحسين البيئة العمرانية للأحياء القائمة، وبدون مثل هذه الخطة لمواجهة المشكلة من جذورها ستظل العشوائيات من أهم وأخطر المشاكل الاجتماعية التى ستواجهها مصر فى المستقبل القريب والبعيد.

المشهد الرابع:

توقف اهتمام الدولة بإسكان محدودى الدخل منذ أمد بعيد واتجهت الدولة إلى الاهتمام بالإسكان المتوسط وفوق المتوسط منذ بداية الستينيات وحتى الآن فاقامت له الأجهزة الإدارية من شركات وهيئات لإنشائه وإدارته ورصدت له مليارات الجنيهات لدعمه. وبعد أن تم توفير ما تحتاجه هذه الفئات من إسكان أصبح لديها مخزون سكنى كبير منه غير مستخدم يقدر بنحو مليونى وحدة سكنية . وفى السنوات الأخيرة أبدت الدولة اهتماما واضحا بالإسكان الفاخر. وظل محدودو الدخل وهم نصف المجتمع بلا رعاية تذكر وظلت ١٨٪ من الأسر المصرية بالمدن تعيش فى غرفة واحدة وظلت مئات الألوف من الأسر تتخذ من المقابر مقاما لها.وبعضها ضاق بها الأمر فاقامت من ألواح الخشب ومن الورق المقوى ومن أكياس البلاستيك شبه غرف فى أزقة وحوارى الأحياء الشعبية لتأوى إليها. ولم تقم الدولة حتى الآن بإعداد سياسة واضحة لإسكان محدودى الدخل تشتمل على تحديد الفئات الاجتماعية المستهدفة وأنماط الإسكان الملائمة لها والمواقع اللازمة لإقامة هذا الإسكان مع ترشيد الدعم وتوجيهه لمستحقيه . إن ما تعمله الدولة الآن فى هذا المجال ليس إلا مشروعان أحدهما أطلق عليه إسكان الشباب والآخر أطلق عليه إسكان المستقبل . أما إسكان الشباب فقد أعلن أن ما سوف توفره الدولة سنويا للشباب سيكون فى حدود ٦٠ ألف وحدة ، هذا بينما عدد الأسر المكونة حديثا فى مصر يزيد على ٦٠٠ ألف أسرة سنويا . وبدراسة أنماط هذا الإسكان وتكلفته ، فإنه سيذهب حتما إلى أغنياء الشباب وليس إلى فقرائهم. أما إسكان المستقبل فقد ترك لأريحية رجال الأعمال ولتبرعاتهم إن شاءوا أقاموه وإن شاءوا توقفوا عنه. كل ذلك لا يغنى عن ضرورة تبنى الدولة لسياسة قومية تلبى حاجة نصف المجتمع من السكن والعيش الآمن.

[المشهد الخامس والأخير:]

يظهر شبح مارى أنتوانيت وهى تقول: لماذا يشكو المصريون من أزمة الإسكان . لماذا لا يذهبون ليعيشوا فى بيفرلى هيلز ودريم لاند ويقضون أشهر الصيف فى مارينا ومرابيلا وفينسيا. ■



قصيدة: وتريات ليلية

مظفر النواب

من باع فلسطين وأثرى بالله
سوى قائمة الشحاذين على عتبات الحكام
ومائدة الدول الكبرى؟
فإذا أجن الليل
تطق الأكواب بأن القدس عروس عروبتنا
أهلاً أهلاً
من باع فلسطين سوى الثوار الكتبة؟
أقسمت بأعناق أباريق الخمر وما فى الكأس من السم
وهذا الثورى المتخم بالصدف البحرى ببيروت
تكرش حتى عاد بلا رقبة
أقسمت بتاريخ الجوع ويوم السغبة
لن يبقى عربى واحد إن بقيت حالتنا هذى الحالة
بين حكومات الكسبة
القدس عروس عروبتكم
فلماذا أدخلتم كل زناة الليل إلى حجرتها
ووقفتم تسترقون السمع وراء الأبواب
لصرخات بكارتها
وسحبتم كل خناجركم . . وتنافختم شرفا
وصرختم فيها أن تسكت صونًا للعرض . . فما أشرفكم
. . . .
لست خجولاً حين أصارحكم بحقيقتكم
. . . .
تتحرك دكة غسل الموتى أما أنتم
لا تهتز لكم قصبة





حان وقت إخضاعه للتحليل النفسى

نظريات فرويد

خليط مثير من أنصاف الحقائق والبدع!

كولين ماكجين

إذا كانت نظريات فرويد ضعيفة الأساس إلى هذا الحد، فلماذا لا يزال يتمتع بكل هذه الشعبية؟ من أين تأتى جاذبيته التى لا سبيل إلى إنكارها؟ إنه كاتب شديد الغواية للغاية، يزاوج بين التوسل والوعيد، قادر بسهولة على جعل القارئ يشعر بأنه كئيب وظالم فى أحكامه وخائف من الحقيقة



شهدت نيويورك مؤخرا معرضين من وحى فرويد: «فرويد، الصراع والثقافة»، برعاية مكتبة الكونجرس، والذى أقيم بالمتحف اليهودى والثانى: «السريالية، نظرتان خاصتان» بمتحف جوجنهايم، وهو ما يشير إلى أن فرويد لا يزال موضع اهتمام وتقدير كبيرين. ويهدف المعرضان إلى توصيل أفكار فرويد الأساسية عبر أقوى تأثير بصرى - لم يقتصر هذا على معرض السريالية، بل امتد كذلك إلى معرض مكتبة الكونجرس، الذى تضمن صورًا سينمائية وأفلاما منزلية عن فرويد نفسه، وتذكير بأعماله، وعروض فنية مستمدة من مقولاته.

والحقيقة أن أثر فرويد على الفن كان دائما أكبر من أثره على العلوم. وإن كان معرض السريالية لا يسعى إلى التأكيد على عبقرية مقولات فرويد، والصور (بريشة ماجريت ودالى، وغيرهما) يمكن أن يكون لها قيمتها الفنية التى لاشك فيها بعيدا عن حقيقة هذه النظريات. وكان معرض فرويد: الصراع والثقافة قد أثار قدرا من الجدل خلال فترة الإعداد له، أساسا بسبب ما اعتبره البعض تسليمًا بنظريات فرويد، وهو ما دعا إلى إضافة مقالات لمنتقدى فرويد المعاصرين إلى الكتاب (فرويد: الصراع والثقافة) المصاحب للمعرض.

لكن ذلك الجدل لم يكن أكثر من كونه الأحدث فى تاريخ الخلاف المتصل بالتحليل النفسى، والذى بدأ على يد عديدين من الزملاء الأقرب إلى فرويد نفسه، ولاشك فى أن أعماله ستظل تثير الجدل لسنوات قادمة. ويعود هذا إلى الصورتين شديدتى التضارب لوضعية فرويد كمفكر ومجدد: هل هو عالم شجاع مثير للإعجاب تحدى الأفكار التقليدية، فأصبح من ثم عرضة للتشهير، أم هو مؤسس انتهازى لمذهب غريب الأطوار على قدر ضئيل من المصداقية الفكرية أو بدون أى قدر منها؟ أم أن الحقيقة قائمة فيما بين هذين النقيضين؟

إننى لست مهتما بالإجابة عن هذا السؤال. فأنا، مثل كثيرين من أطفال القرن العشرين، تشربت المعرفة الفرويدية من الثقافة، وفى سنى المراهقة بهرتنى كتابات فرويد. لكنى لم أخضع فى حياتى للتحليل النفسى، ولا - على عكس فلاسفة جيدين كثيرين - حددت موقفى من صحة نظريات فرويد المنشورة. وكتاب فرويد: الصراع والثقافة يتيح لى الفرصة لإعادة قراءة أعمال فرويد بعين نقدية. وما يلى تقييم لأفكار فرويد من منظور آمل أن يكون شاملا.

[١]

لكى نفهم المبتكرات الفكرية التى قدمها فرويد لدراسة العقل البشرى فإن علينا أن نفهم الطريقة العادية فى تفسير السلوك الإنسانى، لأن البنى التفسيرية لفرويد امتداد أساسى لهذه الطريقة العادية. وجوهر فهمنا السيكولوجى العادى يدور حول مفهوم الدافع: الرغبة، والاحتياج، والتوق، والعلة. فنحن نفهم الفعل إذا فهمنا الدافع وراءه. ودوافع الفعل عادة ما تكون واضحة، حيث إن الفعل بحد ذاته عادة يشير إلى الدافع إلى حدوثه. لماذا أدفع النقود لموظف الخزينة فى السوبرماركت؟ لكى أتمكن من شراء الطعام ومن ثم تناوله. ونحن، بصفة عامة، نتحرك فى اتجاه الوفاء بحاجاتنا المعلنة. وأحيانا ما يكون الدافع وراء الفعل مبهما، مثلما عندما ترانى أفتش بعصبية فى درج عن نقود تركتها فيه ولا أجدها الآن. فالدوافع هى حالات عقلية داخلية ترتب الفعل وتضفى عليه معنى ما، أى أن الفعل تُدرك عقلانيته على ضوء الدافع الذى أدى إليه.

ومن الواضح أن لدينا أنواعا كثيرة ومتعددة من الدوافع، وهى التى تقدم تفسيرا لما نفعل. والفعل، بالأساس، محاولة لتلبية الرغبات. ونحن، فوق هذا، على بينة من دوافع أعمالنا: فنحن كائنات مدركة لذاتها، وعلى دراية بالحالات العقلية الداخلية التى توجهنا. وهكذا، فإننا نتمتع بقدر كبير من فهم أنفسنا: نحن نعرف تفسير أفعالنا لأننا، ببساطة، على إدراك بدوافعنا. وكما نقول، فإن هذه الدوافع واعية. وهذا ملمح غريب من ملامحنا كبشر: الأشياء لا تعرف ما الذى يجعلها تتصرف على النحو الذى تصرفت به - مثال ذلك الكواكب أو النباتات. ونحن، بالطبع، ليس لدينا تفسير كامل لكل ما نأتى به من أفعال. فكلنا مررنا، على سبيل المثال، بخبرة نسيان الأشياء أو فقدها بلا مبرر، وقد نرد ذلك إلى الدخول فى عمليات غير واعية. لكننا نعرف عادةً الجانب الرئيسى للتفسير السيكولوجى لأفعالنا. فنحن نمتلك معرفة ذاتية بدوافعنا.

ومن الضرورى، بالنسبة لمفهوم السيكولوجية الإنسانية عند فرويد، التمييز بين هذين الملمحين من ملامحنا العقلية - وجود الدوافع وإدراكنا لها. فمن الممكن أن تكون هناك دوافع للفعل تعمل داخلنا ونحن على غير دراية بها. وعن طريق فصل الدافع عن الوعى الذاتى، تحديدا، استطاع فرويد توسيع مجال التفسير القائم على الدافع بطريقة جذرية. ففكرته المتصلة باللاوعى هى فكرة وجود مخزون للدوافع التى تفسر الأفعال وتجعل لها معنى، وإن كانت لا تشكل جزءا من الفهم الذاتى لدى الشخص نفسه. وهناك ثلاثة أنواع رئيسية من الخبرات يرتكز إليها هذا التوسيع للتفسير القائم على الدافع، يستغلها فرويد: الأحلام، وزلات اللسان أو التصرفات غير المتعمدة التى يطلق عليها الهفوات -para praxes، والأعراض العصابية.

وبالنسبة لكل من هذه الخبرات، يكرر فرويد الحديث عن إضفاء المعنى على ظاهرة تبدو بلا معنى - تلك التى لا تبدو أنها تمثل دافعا معروفا من دوافع الفاعل. فعندما نفحص حلما أو زلة لسان أو عرضا عصابيا، مثل وسواس غسل اليدين، عادة ما نكون غير قادرين على تبين الدافع وراء تكرار ذلك - فليس هناك رغبة أُشبعت. إن الأمر يبدو بلا معنى أو جدوى أو مبرر. والشخص الذى مر بهذه الخبرات نادرا ما يمدنا بالدافع وراء هذه الوقائع الغريبة. ومقولة فرويد الأساسية هى أن ذلك هو مظهر سطحى: هناك، فى الواقع، دوافع تكشف المعنى الكامل لهذه الأحداث التى تبدو عشوائية، لكن الفاعل غير واع بها. وكل أفكار فرويد الأساسية تنبع من هذه الفرضية الجوهرية - شمولية التفسير القائم

على الدافع. وضعف أفكار فرويد وعدم مصداقيتها يكمن، فى رأيى، فى منطلقها الأساسى هذا. أضف إلى هذا أن فرويد لم يعد إلى مناقشة هذه الفرضية بجدية على الإطلاق؛ فمن الواضح تماما بالنسبة له أن الفعل الإنسانى دائما ما يتعرض لقدر من العقلنة. وعليه، فإن مبدأه المرشد الأساسى هو: إشباع الرغبات هو منشأ كل منتج عقلى.



ودعونا نتأمل نظرية فرويد الخاصة بالأحلام. إنها تتألف من عدد من الفرضيات الشديدة الارتباط ببعضها البعض: النوم انسحاب مرغوب من العالم. فنحن نريد أن نظل نياما فى مواجهة الاضطرابات الداخلية والخارجية. ووظيفة الأحلام هى الإبقاء على النوم. إن لدينا رغباتنا التى يمكن أن تقلق النوم، والأحلام تجعلنا قادرين على تحقيق هذه الرغبات فى الخيال دون الاضطرار للاستيقاظ. لكن ليس من الواضح دائما أى من الرغبات تلك التى يحققها هذا الحلم أو ذاك. ولتحليل الحلم، ينبغى أن تكون الرغبة غير واعية، وأن لا تظهر ضمن مكونات الحلم. ومن هنا، ينبغى أن يكون للحلم محتوى كامن، وظاهر فى الوقت ذاته.

لكن لماذا هذا التمييز بين محتوى الأحلام؟ لأن بعض الرغبات، حسبما يرى فرويد، مرفوض من العقل الواعى للفاعل، بسبب طبيعتها الجنسية. ومن ثم فإن مبدأ كبت هذه التابوهات يستبعد من الأحلام، ويتلاشى «الرقيب» الذى هو جزء من مساحيقنا الخارجية، ويجرى إشباع الرغبة بشكل رمزى ومشوه. ولهذا، لابد أن تتضمن الأحلام رموزا لموضوعات الرغبات المكبوتة. وهذه الرغبات نابعة من الطفولة ـ من فترة الخبرات المكبوحة الآن بأمان، فى معظم الأوقات على أقل تقدير ـ وتعكس الأحاسيس الجنسية لتلك الفترة. وهكذا، فإن الأحلام هى بالأساس إشباع مشوه لرغبات الطفولة المقموعة.

إن ما يدعم هذه النظرية هو افتراض أن الأحلام إشباع ثابت لا يتغير للرغبات؛ أفعال وراءها دوافع ـ كما هو الحال بالنسبة للرغبة فى ممارسة الجنس مع الأم. و«تفسير» الحلم معناه استشفاف هذا الدافع غير الواعى. لكن هذه النظرية تثير عددا من الأسئلة المزعجة: لماذا توقظنا الأحلام فى بعض الأحيان إذا كانت وظيفتها الإبقاء علينا نائمين؟ كيف يمكن للحلم أن يشبع الرغبة فى نوم قد يكون مضطربا دون عمل أى شىء بالفعل لإشباعها ـ الرغبة فى الطعام أو الجنس، على سبيل المثال؟ وما الحال بالنسبة لأحلام القلق الشائعة التى تحوى أشياء مخيفة، غير مرغوب فيها؟

والباعث على هذه التساؤلات هو ما يعتقده فرويد بأن إشباع الرغبات يعتمد دائما على محتوى الأحلام: الرغبة فى النوم هو السبب الذى تبدأ به الأحلام فى الحدوث؛ والأحلام يفترض أنها تشبع الرغبات عن طريق الإيهام بإشباعها؛ ولابد أن تكون هناك رغبات غير واعية وراء حتى أكثر أحلام القلق وضوحا. لكن أيا من ادعاءات فرويد هذه لا تلقى القبول فعليا. فمن المؤكد أننا نستطيع النوم دون أن نحلم ـ وهو ما يحدث غالبا ـ لدرجة أننا نادرا ما نحتاج إلى الأحلام لمجرد البقاء نائمين (أم أننا، عندما لا نحلم، تصاب رغباتنا غير المشبعة بما يشبه الخمول؟). إن الأحلام قد تكون ضرورية لصحتنا العقلية، لكن ليس

لقدرتها على جعلنا ننام بحد ذاتها. ومن الغريب أن نفترض أن مجرد إشباع الرغبات بالطريقة التى تقوم بها الأحلام قد أشبعها بالفعل. فاندماجى فى حلم يقظة حول مائدة عامرة وأنا أشعر بالجوع يمكن أن يزيد من شعورى بالجوع، بدلا من أن يقلله. ألا تشعل أحلام اليقظة الجنسية الرغبة الجنسية بدلا من أن تشبعها؟ إن الحلم بأن رغبة ما قد تحققت وتحقيق الرغبة فى الحلم ليسا الشىء نفسه.



ثم، لماذا الإصرار على أن كل الأحلام هى أحلام لرغبات مشبعة فى وقت يبدو كثير منها غير مشبع بوضوح؟ إن هذا الإصرار هو الذى يؤدى بالناس إلى البحث عن الرغبات اللاواعية ورمزية الحلم، وغيرها. فلماذا لا نتقبل، ببساطة، أن بعض الأحلام تمثل رغبات واعية وبعضها الآخر يمثل مخاوف واعية؟ فالناس تحلم بأنها نجحت فى امتحان المدرسة وكذلك بالرسوب فيه. ومن الممكن أن يروا أنواعا من الأحلام أكثر غموضا وعلاقتها بحياة اليقظة عند صاحبها وخبراته الماضية غير واضحة على الإطلاق. فلماذا، على سبيل المثال، نحلم أحيانا بامتحانات المدرسة التى أخفقنا فيها بعد مرور زمن طويل عليها؟ هل يعود هذا إلى حالة حالية من القلق ارتبطت بمثال مبكر لها؟

لكن لماذا يجب أن نتخذ من الطبيعة المحيرة للكثير من الأحلام دليلا على رغبات خافية تم إشباعها؟ إننا يجب، حقا، أن نكف عن ترديد القول بأن وظيفة الأحلام هى الاحتفاظ بالنوم عن طريق إشباع الرغبات؛ ألم نتوصل للتو إلى أمثلة مضادة واضحة لهذه النظرية على هيئة أحلام القلق البسيطة؟ إن نظرية فرويد تفرض على الأحلام وحدة سيكولوجية لا تتحقق لها على الإطلاق.

ولنا أن نتساءل أيضا: لماذا تكون آلية القمع ضعيفة إلى هذا الحد أثناء النوم فى الوقت الذى تكون غاية فى القوة خلال ساعات اليقظة؟ علينا أن نتوقع أن آلية قمع ذات كفاءة تمنع، ببساطة، الاتصال بين الوعى واللاوعى؛ لكنها، أثناء النوم، تفقد، بصورة غامضة، قبضتها الحديدية وتترك الأشياء، التى من الطبيعى أن تقمعها، تمر. هل معنى هذا أن الرقيب نفسه قد دخل فى سبات أثناء النوم فسمح بالمرور لرغبات كان من الطبيعى أن يمسك بها ويقمعها؟

ومرة أخرى نقول إن هذه المشكلة ناجمة عن افتراض فرويد لضرورة وجود رغبة وراء كل حلم، وهو ما يضطره إلى التسليم بأن الرغبات غير الواعية تتجلى بصورة جزئية فى محتوى الحلم. فليست الأحلام هى التى تقودنا بإصرار إلى فكرة اللاوعى، بل إن الفكرة تُفرض علينا بمجرد أن نفترض ضرورة وجود رغبة مدفوعة وراء كل حلم، سواء كانت واضحة أمام الفاعل أم لا. إننا لن نكون بحاجة إلى اللاوعى لتفسير أحلام القلق إذا ما اعتبرنا الحلم، ببساطة، يتعلق، مثلا، بشىء يثير قلقنا، وليكن اجتياز امتحان ما. فالمخاوف تفترس العقل فى النوم واليقظة على السواء؛ وأحلام القلق، من ثم، ليست وسيلة إشباع لبعض الرغبات الخفية البعيدة. إنها الخوف نفسه يسيطر على عقولنا.

ولناخذ أحلام الحيوان: فرويد يفترض أنها لا تتضمن رغبات جنسية مكبوتة من الطفولة، فهل تتعلق كلها، من ثم، بالرغبات الواعية التى يشبعها الحيوان بصورة رائعة؟ من الواضح أن هذا قول غير صحيح: المسألة يمكن أن تتضح، على سبيل المثال، من سلوك كلب نائم يحلم بشىء يسبب له القلق، ومن السخف أن نفترض أنه حتما مجرد محتوى لحلم ظاهر يخفى رغبة لا واعية يشبعها الحيوان بواسطة الحلم. لماذا لا ينطبق أمر كهذا علينا؟ وعلينا أن نلاحظ مرة أخرى أننا إذا ما قبلنا بالتولد التلقائى للأحلام فإن الحاجة للاوعى تزول؛ فلا شىء فى الأحلام نفسها يجبرنا على القبول باللاوعى وآليته القامعة. وذات مرة روت لفرويد إحدى مريضاته أحد أحلام القلق التى تنتابها ويتصل بشىء تتمنى نسيانه بشدة، وهو ما يجعل نظريته حول إشباع الرغبات بالحلم خاطئة. وكان رده أنها حلمت بذلك الحلم لدحض نظريته، ولكون رغبتها فى مضايقته رغبة غير واعية. ومن الواضح أن هذه ليست طريقة جيدة لإثبات أن الأحلام دائما ما تمثل إشباعا لرغبات غير واعية.



ولا ينبغى أن نخلط بين اللاوعى الفرويدى وبين الذكريات القابلة للاستدعاء preconscious- وهو التعبير الذى يستخدمه للإشارة إلى تلك الحالة العقلية حين تكون الذكريات غير حاضرة فى الذهن الآن لكن من الممكن استدعاؤها عند الحاجة - أو بين ذلك النوع من العمليات العقلية دون الواعية subconscious التى يفضلها علم الإدراك الحديث، مثل العملية التى يتم عن طريقها تحويل أنماط الضوء والظلمة إلى صور بصرية مفهومة. والحقيقة أن كل حالات الأداء العقلى تشهد عمليات غير واعية، حيث يعمل العقل بطريقة لا واعية لتوليد حياتنا العقلية الواعية. وفى حالة الفهم الواعى للكلام، على سبيل المثال، يرى ناعوم شومسكى بصورة مقنعة أن رؤوسنا تحوى نظاما غير واع ومعقد البنية لقواعد النحو. والذاكرة نفسها تعمل فى إطار عمليات لا ندركها عن وعى. لكن هذه العمليات غير الواعية تختلف فى نوعها عن مفهوم فرويد عن اللاوعى. فاللاوعى الفرويدى هو بالأساس منظومة من الرغبات والذكريات والمشاعر المكبوتة بشكل فعال - تلك المتهمة بـ«التأثير السلبى»، الذى يعنى به فرويد القمع الشعورى لنوع أو آخر منها. ولقد اعتدنا فكرة الكبت هذه التى نميل إلى التسليم بها كآلية عقلية راسخة، برغم ما يكتنفها بالفعل من صعوبات.

كلنا، بالطبع، على علم بالفعل العقلى لقمع الرغبة، وإحباطها. وهذا يحدث عندما تكون لدينا رغبة (واعية) فى أن نرغب، لا أن نحصل - مثل الرغبة فى تناول كمية كبيرة من الآيس كريم الممزوجة بالرغبة فى ألا تكون لدينا هذه الرغبة. لكن ليس هناك ما هو غير واع فى أى من هذا: نحن نعرف ما نرغب فيه ونشرع فى قمعه، ومنعه من العمل ونحن على علم بذلك. فالحياة العقلية عامرة بمثل هذه الأفعال المحكمة لقمع الرغبة. لكن القمع الفرويدى لا يعنى شيئا من هذا؛ إنه معنى بأن يكون غير واع تماما. فمقولة فرويد ترى أنه عند الشعور بأن الرغبة أو الذكرى غير محببة أو مخجلة أو تتعارض مع غيرها من الرغبات، فإن هناك آلية فى رؤوسنا تعمل على جعلنا على غير وعى بهذه الحالة العقلية.

إن الكبت والجنس يتلازمان بقوة عند فرويد. ومجمل نظريته عن التطور الجنسى تقوم على الادعاء بأن الطفل كائن جنسى تعرض لكبح طبيعته الجنسية على يد قوى أبوية بالأساس. وهنا نلتقى بالمراحل الشفاهية والشرجية والتناسلية الشهيرة، وعقدة أوديب، والقلق الخصيى، والحسد القضيبى



إنها فكرة محيرة للغاية عندما نتعامل معها عن قرب. فليس صحيحا، فى المقام الأول، أن الرغبات والذكريات غير السارة تخضع للقمع كأمر مفروغ منه. فكلنا لنا ذكريات مؤلمة ورغبات مخجلة واعية، وهى راسخة ومؤلمة. فلماذا يُقمع البعض دون الآخر، من منظور فرويد؟ إن وجود«أثر سلبى» لا يمكن أن يكون السبب. وفى حدود ما توصلت إليه من تاملاتى الخاصة، من المستحيل تماما بالنسبة لى أن أسلم بأن تلك الحالات العقلية المزعجة لا واعية - ليت هذا كان ممكنًا!

ومن المفترض، عند فرويد، أن الأطفال على وجه الخصوص ماهرون فى التعامل مع عملية القمع. لكن لماذا ينجزون بسهولة ما أعجز عن تحقيقه أنا البالغ؟ هل أنا لا أسيطر غالبا على حياتى العقلية أفضل من الطفل؟ إننى على يقين من أننى نسيت كثيرا مما عرفت، لكن علىّ أن أقرر أننى لم أعرف رغبة أو ذكرى واحدة قُمعت، بالمعنى الفرويدى. وليس لدى الدليل، سواء من الفجوات الظاهرة فى ذاكرتى أو من شهادة الآخرين، على أننى عانيت مثل ذلك النسيان المدفوع. وسوف يرد الفرويديون بأن إعلانا كهذا يتجاهل الجوهر، وأن ما أقمعه لا يمكن، بشكل عام، تذكره، إلا فى حالة الخضوع للتحليل. على أن التساؤل بشأن الكبت ليس بهذه البساطة. فلا ينبغى، بالطبع، أن نخلط بين كونى أعرف أننى نسيت شيئا وبين كونى أتذكر بالفعل ما لايزال منسيا. ومن الممكن تماما الحصول على دليل مباشر على انحرافات الذاكرة المتنوعة الأشكال، ومن ثم معرفة أن شيئا ما جرى نسيانه. افترض، على سبيل المثال، أن كلينا رأى نفس الفيلم وأنك لازلت تتذكره بعد مرور الأعوام وأنا لا؛ فعليك حينئذ أن تخبرنى أننى لابد وقد نسيت ما تذكرنى بملاحظته، وهكذا أعلم بأننى نسيت أننى شاهدت الفيلم.

ما أود قوله إذن هو أننى لم أعرف، من جانبى، حالة يمكن فيها أن نعزو مثل انحراف الذاكرة هذا، بصورة جزئية، للكبت. فبعض الذكريات والرغبات تذوى مع مرور الزمن، والبعض ينسحب إلى المركز؛ لكننى لا أعرف حالة كان لى فيها رغبة أو ذكرى وأنها مكبوتة الآن بصورة آمنة. ومن المؤكد أن الكبت لو كان يتمتع بخاصية الانتشار، كما يقترح فرويد، فعلى أن أفكر من حين لآخر:«يرتبط (س) دائما عندى بذكرى سيئة، لكنى لا أتذكرها الآن بصورة من الصور» - تماما كما أعرف الآن أن معرفتى باللغة الإيطالية كانت جيدة دائما لكننى أتذكر القليل منها اليوم. والحقيقة أن الذكريات المؤلمة تبدو بالنسبة لى ذات إلحاح خاص وحضور واع.

ولا أجد أن الرغبات الجنسية وحدها هى التى أفضل عدم كبتها، أو مجرد قمعها (فى أفضل الأحوال)، أى الحيلولة بينها وبين التحقق. إننى أتشكك فى مجمل فكرة الكبت الفرويدى وأراها محض خرافة، بالرغم من شعبيتها. لكن إذا كان الكبت فرضية غير مؤكدة، فيكون الحال كذلك، من ثم، بالنسبة للاوعى الفرويدى، حيث إنه يُعرف بأنه حصيلة ما جرى كبته: فكرة إناء الفقاقيع

العقلي نصف المغطى خرافة أيضا. فالفقاقيع كلها تخرج بمجرد تكونها.



وهناك - ثانيا - مشكلة مفاهيمية عميقة تتعلق بفكرة الكبت اللاواعي بحد ذاتها، كما ألمح سارتر منذ وقت طويل في الوجود والعدم. ففرويد يعتقد بوجود وكالة خاصة للكبت متجذرة في مكان ما من الجهاز العصبي. وعلى الرقيب أن يتحرى عن الرغبات الواجب كبتها وتلك المسموح لها بالوصول إلى الوعي، كما هو الحال عندما يعمل لتقرير محتوى الأحلام. لكن كيف يتأتى للرقيب القيام بهذه العملية وهو نفسه ليس واعيا بالرغبات التي يتولى كبتها؟ فالرقيب في الحياة الواقعية على دراية بما يمرره وما يمنعه، أما رقيب فرويد فمن المفترض أنه يعرف، إلى حد ما، ما يمنع ولا يعرفه في ذات الوقت. وهكذا، تبدو فكرة الكبت مشوشة. وهذا الجدل بشأن تناقضات الرقيب يقوم، فيما يبدو، على التحليل المنطقي البحت. لكنك كلما تأملتها كلما تبينت أن فكرة الكبت اللاواعي مستحيلة: أنت لا يمكن أن تكبت شيئا لا تعلم بوجوده، لكنك إذا علمت بهذا الوجود فإنه لا يعود لا واعيا. وإذا كان لابد أن يعرف الرقيب محتوى اللاوعي، فما هو دور الكبت - إذا لم يكن إعاقة مثل تلك المعرفة؟ أم أن الرقيب نفسه له آلية قمع تحميه في مواجهة الرغبات التي يقمعها؟ لكن السؤال نفسه يثور، من ثم، مرة أخرى بشأن هذا الرقيب داخل الرقيب. ففكرة اللاوعي لا يمكن أن تنسجم مع فكرة الرقيب، وبالتالي مع المفهوم الفرويدي الخاص بالكبت.

على أن المفترض في الكبت، تحديدا، هو أن يساعد على إبراز اللاوعي. فليس هناك لاوعي فرويدي بدون كبت، لكن الكبت يستلزم وعيا، إذن فالمفهوم ينطوي على تناقض. وقد تعتقد أن باستطاعتك تفادي هذه المشكلة من خلال التمييز بين الأنا - الذات الواعية - والرقيب، حتى يصبح الأخير على وعي بالرغبات المكبوتة دون الأول. لكن الرقيب في خدمة الأنا، يحميها، بحيث لا يمكن فصله عن أولوياتها. فماذا عن حماية الأنا من هذه الحالات العقلية غير السارة إذا كان على الرقيب أن يتحمل عبء إدراكها على أي حال؟ ناهيك عن الطبيعة الغريبة لنظرية المراكز المتعددة للوعي القزمي في رأس كل شخص.

ثم هناك أيضا إمكان خطأ الكبت، الذي يعترف به حتى فرويد نفسه. ما كل هذا الضعف في أداء الكبت؟ إنه قادر على جعل الرغبات غير واعية، لكنه يعجز عن منعها من الانفجار في الأحلام وزلات اللسان والعصاب.

الإجابة الوحيدة التي يفهمها فرويد - عن هذا السؤال هي أن الرغبات اللاواعية تتمتع بنوع من الطاقة العقلية تضغط من أجل التنفيس، مثل البخار في حلة ضغط غير محكمة الإغلاق. لكن هذا النوع من النموذج الطاقي ليس أكثر من مجاز (Metaphor) بأي وحدات يمكن قياس مثل هذه الطاقة؟)، وهو يستدعي، في كل الأحوال، السؤال حول الطريقة التي يمكن للكبت بواسطتها استدعاء بعض هذه الطاقة من مثل هذه الرغبات الممنوعة، لكن ليس بما يكفي لإبقائها تحت السيطرة. كيف يتمتع هذا الكبح بتلك القوة المدهشة لتحويل حالة عقلية واعية إلى غير واعية ولا حيلة له في منع تلك الحالة العقلية من الوقوع في زلات اللسان؟ أنا شخصيا وجدت أن بإمكاني أن أمنع حالاتي العقلية الواعية، بسهولة تامة، من الوقوع في زلات اللسان، وإن كنت عاجزا تماما عن جعلها لا واعية. إن قوة الرقيب الكابح وترديه غريبة ولا تفسير لها، وتمليها النظرية الدوجماتية بأكثر مما تمليها الملاحظة الفعلية والترابط المنطقي الداخلي.



[٢]

إن الكبت والجنس يتلازمان بقوة عند فرويد. ومجمل نظريته عن التطور الجنسي تقوم على الادعاء بأن الطفل كائن جنسي تعرض لكبح طبيعته الجنسية على يد قوى أبوية بالأساس. وهنا نلتقي بالمراحل الشفاهية والشرجية والتناسلية الشهيرة، وعقدة أوديب، والقلق الخصيي، والحسد القضيبي، وفترة الحضانة - أي «سيكودراما» الحياة الجنسية المبكرة للطفل التي يترتب عليها إما حياة جنسية صحية وناضجة، أو عصابية. وعند قراءة شرح فرويد نفسه لأسباب اقتراح هذه النظرية المعقدة، يصطدم المرء دائما بالتضليل اللغوي، والقفزات التخمينية غير الحذرة، والانحراف غير القابل للتصديق للكثير من ادعاءاته.

وليس القول بأن الطفل نشط جنسيا هو سبب الهجوم؛ إنه اهتزاز النظرية التي يروج لها فرويد، والتي تفتقد أي دليل مقنع على ادعاءاته الجريئة. وأحد ادعاءات فرويد الحاسمة هي أن الأعضاء التناسلية ليست الموضع والموضوع الوحيد للإشباع الجنسي للطفل: الفم والشرج أيضا متهمان جنسيا.

والاعتراض الطبيعي على هذا الادعاء، الذي يتوقعه فرويد في نقاشاته، هو أنه يبدو وكأنه يخلط بين المتعة بشكل عام وبين متعة الجنس تحديدا. فإذا سلمنا بأن الطفل يحقق المتعة عن طريق الفم والشرج، أثناء الرضاعة والتنظيف، فلماذا الإصرار على تسمية ذلك متعة جنسية، خاصة أن الأعضاء التناسلية، في تلك المرحلة، لا تكون قد ارتبطت بعد بأحاسيس الطفل ونشاطاته الجنسية؟ والوصف البديل الواضح هو أن الفم يفي بالمتعة المصاحبة للأكل، والشرج بالمتعة المصاحبة للتبرز. وهذه المتع لا تكون ذات طبيعة جنسية في مرحلة البلوغ، فلماذا تكون كذلك في مرحلة الطفولة؟ إنها حقا متع مرتبطة بأعضاء جسمانية، لكنها ليست متعا جنسية تحديدا بأي معنى من معاني الكلمة.

وفرويد لا يفسر لنا أبدا، بطريقة مقنعة، لماذا يعتبر هذه النشاطات الشفوية والشرجية مراحل في التطور الجنسي: أفضل ما يمكن أن تتوصل إليه هو هذا الاقتراح الكسيح بأن الأطفال يبدون وكأنهم بلغوا قمة النشوة - or-gasm بعد الانتهاء من عملية الرضاعة. ومن الصعب أن يكون مرد الأمر ذلك أن الفم والشرج يمكن أن يكونا متأهبين خلال فترة البلوغ الجنسي، حيث إن فرويد على قدر من الحساسية يجعله يدرك أن هذا لا يمكن أن يكون جزءا من عالم الطفل؛ فادعاؤه بالأحرى هو أن الطفل عندما يرضع أو يخضع للتنظيف يمارس جنسا غير عضوي. وفرويد يرفض، ببساطة، التمييز بين المتعة الجنسية وغيرها من المتع التي تستند إلى أساس جسدي، مضحيا، على ما يبدو، رغبة في الوحدة النظرية (كما يفعل بالنسبة لإشباع الأحلام والرغبات).



ويرى فرويد أن الأطفال يدخلون مرحلة الكمون الجنسي كنتيجة للكبح، وقد تتلازم معها عقدة أوديب السيئة السمعة. وهو يستشهد بفقدان ذاكرة الطفولة - نسيان الإنسان للسنوات الأولى من حياته - كدليل لتأكيد فكرته المتعلقة بالكبت، دون أن يلاحظ أن معظم ذكرياتنا عن هذه الفترة لن تكون من ذلك النوع الذي يدعو إلى القمع. فمن المؤكد أن الطفل ليس لديه من الأسباب ما يجعله يقمع كل الخبرات التي مر بها خلال الثلاث سنوات الأولى من حياته. وعقدة أوديب التي يقال أنها تعجل بهذا الكبح المزعوم لها من الرسوخ النافذ عن الطفولة والجنس ما يجعل من الصعب الآن التراجع عنها وفحصها بصورة نقدية؛ لكن إذا ما فعلنا هذا، أعتقد أن الدهشة ستصيبنا عندما نكتشف أنها تقوم على غير أساس. فهل صحيح أن الأولاد الصغار لديهم الرغبة - الرغبة الواعية - في إقامة علاقات جنسية مع أمهاتهم ويعتقدون بأن آباءهم ينوون خصيهم لكبح هذه الرغبة؟ ما هو الدليل على صحة اقتراح مثير كهذا؟ (لاحظ أن كل هذه الأفكار والانفعالات يفترض أن يكون الطفل واعيا بها؛ وهذه الحالات العقلية لا تنتقل إلى اللاوعي إلا مع ظهور القلق من الكبح). والمطلوب هنا، على أقل تقدير، هو تقص امبريقي دقيق لرغبات ومخاوف الأطفال من الذكور، بحيث يكون قابلا للتعميم بيسر من حيث المبدأ. فلا يكفي أن نقيم هذه المقولة على اعترافات مرضى العصاب البالغين في فيينا أوائل القرن أمام محللهم النفسي المسلم به نظريا.

وبالنسبة للادعاء بأن الفتيات الصغيرات يعانين من الحسد القضيبي وما يترتب عليه من استياء من الأم التي لم توفر لهن قضيبا، وتحول التركيز الجنسي على الأب، فإن ذلك يجب أن يكون على رأس أكثر الأفكار المطلوب مراجعتها حيث إنها محل تبن جاد من قبل أناس أذكياء. ومرة أخرى نتساءل: ما هو الدليل الدامغ على شيء كهذا من خلال ملاحظة أطفال من الإناث؟ فرويد لا يقدم هذا الدليل. ولماذا لا نفترض أن الأولاد يعانون، بدلا من ذلك، من الحسد الثديي؟ أو من الحسد المهبلي - البظري؟ لماذا هذا التفكير في القضيب باعتباره كنز الكنوز؟ وهل تبدي إناث الحيوان نفس مشاعر الانسحاق هذه تجاه الأعضاء الذكرية؟

كان يمكن لفرويد، في سعيه للخروج بنظرية عن التطور الجنسي، أن يقدم عملا جيدا لو أنه اهتم أكثر بسيكولوجيا الحيوان؛ فعلى الرغم من اعترافه بالداروينية إلا أنه يفترض مسبقا وجود انقطاع جذري بين سيكولوجيا الإنسان وسيكولوجيا الحيوان، خاصة فيما يتصل بالجنس. ومن المؤكد أن من المعقول جدا أن نفترض أن البنات والصبيان يدركون، باعتبارهم جنسين

برغم سيطرته على عقلية القرن العشرين، وكل ما أبدى من حداثة وإلحاد وشك، فإن نظريات فرويد لا تزيد على كونها أسطورة أخرى تضاف إلى غيرها من الأساطير المتصلة بالطبيعة الإنسانية. خليط مثير من الحقائق وأنصاف الحقائق، والبدع المضللة



مختلفين، أن من الطبيعى أن تكون لهم أنواع مختلفة من الأعضاء الجنسية؛ وأن البنات لسن خصاة castrati بطبيعتهن، يصبن الأولاد بالخوف من الخصى والاستياء من عجزهم. وفرويد يستحق التقدير على إبلاغنا بأن الأطفال كائنات جنسية، لكن لا ينبغى أن نملأ رؤوسهم بأفكار إيروتيكية لا تتوصل إليها عقولهم البسيطة ولا دليل يدعونا إلى الاعتقاد بمعرفتهم لها. ولا من المعقول أن نفترض، كما فعل فرويد، أن تلك الأوضاع النفسية المدعاة تقف وراء أشكال العصاب. وهنا يسرف فرويد مرة أخرى فى التعميم: نعم، الانضباط الجنسى الزائد والصدمات النفسية يمكن أن تؤدى إلى العصاب فيما يأتى من العمر، لكن هذا لا علاقة له بالادعاء بأن كل الكوارث العقلية لها جذورها الجنسية التى ترجع إلى مرحلة الطفولة.

فرويد يستحق التقدير على إبلاغنا بأن الأطفال كائنات جنسية، لكن لا ينبغى أن نملأ رؤوسهم بأفكار إيروتيكية لا تتوصل إليها عقولهم البسيطة ولا دليل يدعونا إلى الاعتقاد بمعرفتهم لها. ولا من المعقول أن نفترض، كما فعل فرويد، أن تلك الأوضاع النفسية المدعاة تقف وراء أشكال العصاب



وماذا عن الهو idوالأنا والأنا العليا ـ أليست اكتشافات مهمة؟ إن عرض فرويد لهذا التقسيم الثلاثى داخل العقل يبدو متهافتا للغاية: إنه يتحدث عنها كما لو كانت ثلاث ذوات كاملة داخل العقل، تتنافس كل منها لجذب الانتباه، كما لو أن العقل ساحة حقيقية لفرقاء متحاربين. لكن هذا شىء لا يمكن أن نقبل به إلا على سبيل المجاز. فنحن بالفعل نتمتع بمخزون من الغرائز والميول الفطرية (الهو)، وذات تستجيب للواقع الخارجى وتساومه (الأنا)، وضمير يتحكم فى إحساسنا بالقيمة الأخلاقية (الأنا عليا). وقول كهذا قد يساعد بعض الناس، لكن، من الواضح، أنه لا يضيف شيئا جديدا أو مهما: بالطبع، يتمتع الكائن الإنسانى بمجموعة من الرغبات الفطرية وأخرى من المعتقدات الأخلاقية، التى يمكن أن تتصارع مع بعضها البعض، وكذلك بذات تراقب مثل تلك الصراعات.

ولفرويد بعض الأفكار المميزة حول محتوى وتكون هذه الأجهزة العقلية، أقل ما توصف به هو أنها مبتذلة. فهو يفترض أن غرائزنا تضم غريزة للموت وكذلك للحياة، وهذا من الصعب تصديقه على أساس بيولوجى، حيث يصعب على حيوان يحمل غريزة للموت أن يحسن الأداء فى لعبة البقاء والتكاثر. وهل يفترض أن تحمل حيوانات أخرى غريزة الموت تلك؟ وبالنسبة لرغبتنا فى تدمير الذات، إلى أى مدى يمكن اعتبارها جزءا من مواهبنا الغريزية البيولوجية؟ ومن الأشياء التى لا يمكن الوثوق بها عند فرويد كذلك نظريته الخاصة بالضمير، وبالتحديد اعتباره آلية داخلية ناتجة عن المحرمات الأبوية والمجتمعية. فهذا قد ينطبق على المرحلة قبل العقلانية من نمو الطفل؛ إذ من الواضح أن التحريم والعقاب فى الطفولة له أثره الكبير على تكوين شخصيتنا. لكن من المؤكد أن ذلك ليس مسئولا عن كافة الاختيارات الأخلاقية للكائنات الناضجة المولعة بالتفكير، التى يتطلع معظمنا إلى الوصول إليها. إن ملكتنا الأخلاقية متحررة من النفوذ الأبوى بأكثر مما يسمح فرويد، وهو ما يجعلنا، عادة، نرفض فى مرحلة البلوغ الأخلاقيات التى يفرضها علينا آباؤنا وجيلهم. ومرة أخرى، نجد فرويد يتجاوز ويتعسف فى إدخال كل شىء فى إطاره النظرى الضيق. وعلى عكس رأى فرويد ليس صحيحا أننا لا نريد أن نصدق نظرياته؛ كل ما فى الأمر أننا لا نرى سببا للقبول بها.

وإذا كانت نظريات فرويد ضعيفة الأساس إلى هذا الحد، فلماذا لا يزال مفكرا يتمتع بكل هذه الشعبية؟ من أين تاتى جاذبيته التى لا سبيل إلى إنكارها؟ إنه كاتب مغو للغاية، يزاوج بين التوسل والوعيد، قادر بسهولة على جعل القارئ يشعر بأنه كئيب وظالم فى أحكامه وخائف من الحقيقة. كما أنه كاتب ملهم: يبدو وكانه يفتح ثغرة فى عالم الدراما والبناء غير المرئى، طبقة من الحياة الإنسانية شديدة الخفاء؛ ونبدو، فى ظل تقصيه الدقيق، أكثر عمقا مما نعتقد. كما أنه يقدم لنا زخما من المعرفة التفسيرية الشاملة: نرى فى شىء ما أنه محير ولا معنى له، ثم يتبين أن قدراتنا التفسيرية أكبر بكثير مما نتوقع ـ هو جعلنا على هذا القدر من المعرفة بالناس.

كما أن تركيزه على الجنس، بحد ذاته، أمر مضلل. فقد لاحظ ويتنجشتاين أن الصورة البغيضة التى قدمها فرويد للروح الإنسانية تتمتع بجاذبية لا سبيل إلى إنكارها. فالفكرة فيها ما يلح على أننا جميعا تمور بداخلنا دوافع صامتة ملحة، لا نكف عن محاولة احتوائها. وإنه لشىء جذاب أن نعتقد أننا نكافح قوى الكبح الجنسى وانعدام الأمانة ـ كما لوكان الاختلاف مع فرويد إقرارا للرؤية التصحيحية للسيكولوجيا الإنسانية التى كانت تروج لها الأخلاق الفيكتورية الوجدانية. ففرويد يجعلنا نشعر باننا مشاركون فى حقيقتنا المظلمة المهتزة، وأرواح شجاعة فى عالم أعمى. كل شىء جذاب، ومحكم وينتشر باتساع العالم. لكن برغم سيطرته على عقلية القرن العشرين، وكل ما أبدى من حداثة وإلحاد وشك، فإن نظريات فرويد لا تزيد على كونها أسطورة أخرى تضاف إلى غيرها من الأساطير المتصلة بالطبيعة الإنسانية ـ خليط مثير من الحقائق وأنصاف الحقائق، والبدع المضللة. ■

ترجمة: بدر الرفاعى

تجلت فيها أشواق مصر القديمة

الموسيقا والألحان القبطية

حسين عبد البصير

من ضمن مفردات المرحلة القبطية الحضارية المضيئة، الموسيقا الكنسية القبطية الأرثوذكسية، والتى أبدعها الإنسان المصرى؛ ليمارس عليها طقوس التعبد والتدين، المتضمنة عادة النص (قبطيا أو عربيا) مصحوبا بلحن موسيقى. وتحتل هذه الموسيقا مكانة متفردة بين موسيقات العالم الكنسية



تمتاز التجربة الحضارية المصرية بالثراء والتراكم والتعدد؛ فبعد أن أُسدل الستار على حضارة المصريين القدماء عقب دخول الإسكندر الأكبر مصر عام ٣٣٢ ق.م، ثم تحولها التدريجى إلى مملكة بطلمية يحكمها الغرباء (٣٠٥ ق.م - ٣٠م)، بدأت شخصية مصر الثائرة تستتر حينًا وتظهر أحيانًا، وتجلت عبقريتها فيما يمكن أن أسميه بـ «بعث أشواق مصر القديمة»، كمحاولة جادة للرد على المستعمر الذى أراد طمس شخصية مصر الحضارية العريقة.

وكان من نتائج هذا التوجه، أن حاول المصريون خلال هذه الحقبة الدخيلة على حضارتهم، التعبير عن أنفسهم بما يؤكد خصوصيتهم فى مواجهة الاقتلاع الذى أراد العصف بهم وبتاريخهم وحضارتهم، وكانت اللغة أول مظاهر هذا التعبير الجديد عن الذاتية المصرية الصميمة، فى أصعب مراحل احتكاك المصريين بمستعمر قوى وعنيد وطويل الإقامة؛ بحسب اللغة أحد أهم المكونات الأساسية لأية حضارة، خصوصًا الحضارة المصرية الموغلة فى القدم، فتحولت اللغة المصرية القديمة من آخر أشكالها الخطية: الخط الديموطى (أى الخط الشعبى) إلى الخط القبطى (وليس اللغة القبطية كما يُكتب عادة)، والذى يعد المرحلة النهائية من تطور اللغة المصرية القديمة، وقبل دخولها مرحلة الأفول بمجىء «الفتح العربى» وتوارى لغة أهل البلد الأصليين إلى مرحلة أشد خفوتا، فى مقابل ازدهار لغة الوافد القادم من شبه جزيرة العرب، وسيادة اللسان العربى بين المصريين: مسلمين ومسيحيين. وتم التعبير عن القبطية بأحرف الألفبائية اليونانية مضافًا إليها سبعة أحرف مأخوذة من الديموطية المصرية، تخصها وتلتصق بها، وليس لها ما يقابلها من الناحية الصوتية فى اللغة اليونانية وهى الأحرف التالية: (شا، ف، خا، ح، جا، ك، ديت). واضطر المصريون إلى ارتياد هذا السلوك حتى يحدث نوع من التفاهم بينهم وبين المستعمر اليونانى الوافد الجديد.



ولعل أبرز ميزات القبطية، هو احتواؤها حروف الحركة التى لم تكن موجودة من قبل فى اللغة المصرية القديمة؛ مما ساعد إلى حد كبير فى التوصل إلى أقرب صيغة أو قراءة للنطق الصحيح لمفردات اللغة المصرية القديمة. وتعددت لهجات القبطية من صعيدية إلى بحيرية وفيومية وأخميمية. وتؤرخ بدايتها عادة فى القرن الأول قبل الميلاد. وعاشت حتى بعد دخول الإسلام أرض مصر وتحول اللغة الرسمية إلى العربية، وبقيت كلغة للصلوات وللترتيلات المقدسة فى الكنيسة القبطية. وتعنى كلمة «قبطى»، «مصريًا»، على عكس ما يشيع حاليا من إطلاقها على مسيحيى مصر فى أدبيات العصر الحديث، فهى تشمل المصريين: مسلمين ومسيحيين، وجاءت من التعبير المصرى القديم، «حوت كا بتاح» (ويعنى اسم معبد الإله «بتاح» فى مدينة «منف» الفرعونية العريقة)، والذى تحول عند الإغريق إلى: «آيجوبتوس»، وإلى «آيجيبتوس» عند الرومان، وجاءت منها تسمية مصر فى اللغات المعاصرة مثل: Egypt, Egypte, Aegypten, Egitto, فى اللغات الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية على الترتيب.

ومن ضمن مفردات المرحلة القبطية الحضارية المضيئة، الموسيقا الكنسية القبطية الأرثوذكسية، والتى أبدعها الإنسان المصرى؛ ليمارس عليها طقوس التعبد والتدين، المتضمنة عادة النص (قبطيا أو عربيا) مصحوبا بلحن موسيقى. وتحتل هذه الموسيقا مكانة متفردة بين موسيقات العالم الكنسية: إذ هى ذات صبغة مصرية خالصة تبعت من الأرض المصرية معبرة عن الإنسان المصرى الذى عاش عليها فى بيئة ملأت صدره بفيض من الإيمان العميق بدينه ووطنه، وجاش بها صدره كاشفًا عن حالة من الوجد الصوفى قلما أن تتكرر مع شعوب أخرى. فجاء تميزها عن نظائرها الأخريات مثل الموسيقا العربية والعبرية والأرمنية واليونانية والتى تزخم بها المنطقة قاطبةً. وتمثل الألحان والموسيقا القبطية التراث الروحى العظيم الذى قامت عليه الكنيسة المصرية العريقة منذ دخول المسيحية أرض مصر فى القرن الأول الميلادى وإلى الآن؛ أى أنها استمرت حية فى صدور المصريين أكثر من عشرين قرنًا من الزمان.

والكتاب الذى نعرضه مجلد ضخم (يقترب من ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير)، جاء ثمرة جهود سنوات طوال من العمل الدءوب المستمر، بلغت أكثر من سبعين عامًا، قضاها العلامة المصرى الكبير الدكتور راغب مفتاح - رئيس قسم الموسيقا والألحان فى المعهد العالى للدراسات القبطية فى القاهرة - فى تجميع وتصنيف الموسيقا الكنسية القبطية الأرثوذكسية، هذا فضلاً عن أنه أفنى حياته فى خدمة الموسيقا القبطية بكل ما تعنى الكلمة من معان فى محراب الموسيقا القبطية منذ شبابه الباكر إلى أخريات حياته العلمية الحافلة.

وقد بدأ التفكير فى هذا المشروع العملاق، حينما لاحظ راغب مفتاح منذ حداثته، الحاجة إلى حفظ تراث الكنيسة القبطية الموسيقى من الضياع، وشرع من فوره فى البحث عن المرتلين الأكفاء الذين يحفظون الألحان، وقام بتسجيلها موسيقيًا، وتدريب مرتلين جدد، وهكذا تحولت هذه الألحان من مرحلة «الشفاهة» المتداولة من جيل إلى آخر عبر القرون العديدة والطويلة إلى مرحلة «الكتابة» الثابتة ضبطًا وتدوينًا.

ويعتبر عام ١٩٢٦م، هو نقطة البداية الحقيقية نحو تسجيل هذا التراث الضخم، حين شرع راغب مفتاح فى رحلة البحث عن مرتلين أكفاء يحفظون ألحان الكنيسة بطريقة موثوق بها. وفى عام ١٩٢٨م، جاء إلى مصر الدكتور «إرنست نيولاند سميث»، أحد أبرز موسيقيى الأكاديمية الامبراطورية الموسيقية فى لندن، بدعوة من «مفتاح»؛ ليقوم بتدوين موسيقا الألحان القبطية والليتورجية (النص القبطى). ووقع اختيار «نيولاند سميث» على المعلم «ميخائيل جرجس البتانونى» من بين المرتلين؛ ليرتل الليتورجية كاملةً، وفيما بين الأعوام ١٩٢٨ - ١٩٣٦م، كان قد فرّغ ١٦ مجلدًا مع التسجيلات الحية التى تضمن أحدها «ليتورجية القداس الباسيلى».

وعيب على مدونات «نيولاند سميث» - على أهميتها القصوى - أنها جاءت خالية من الزخارف الموسيقية، وأصبحت - فيما بعد -

---

The Coptic Orthodox Liturgy of St. Basil

(الليتورجية القبطية الأرثوذكسية للقديس باسيليوس)

Ragheb Moftah

AUC Press,1998, 697p.

مجرد وسيلة هادية للعلماء؛ ليتمكنوا من استخدام هذه التسجيلات كأساس صحيح لمدوناتهم اللاحقة، مع إمكانية إعادة الاستماع لهذه التسجيلات بسرعات بطيئة بغية إعادة إنتاج التدرجات الفعلية فى الأنغام الموسيقية.

وبحلول عام ١٩٥٤، أسس قسم الموسيقا فى معهد الدراسات القبطية وترأسه «مفتاح»؛ تكليلاً لجهوده الدءوب فى حفظ التراث الموسيقى القبطى من الضياع ولفت الأنظار لذلك، وتم أيضًا افتتاح استوديو خاص بالتسجيلات. وبدأت إجراءات تجميع التسجيلات من الموسيقا الكنسية على قدم وساق.

وعادةً، يتم أداء صلوات الليتورجية القبطية ملحّنة، وليتورجية القديس «باسيليوس الكبير» هى الأكثر شيوعًا بين مسيحيى مصر واستخدامًا طوال العام، فيما تُستخدم الليتورجية الخاصة بالقديس «أغريغوريس» فى الأعياد الأربعة الكبرى: أعياد الميلاد، والغطاس، والقيامة، وعيد الخمسين (البنديكستى) أو حلول الروح القدس. وعلى عكس الليتورجيتين الأخريين، لا تستخدم الليتورجية الثالثة الخاصة بالقديس «كيرلس» إلا نادرًا؛ وذلك نظرًا لضياع موسيقاها تدوينًا وشفاهة بالمثل.

وتأتى محاولة «راغب مفتاح» هذه لتكون هى المرة الأولى التى يتم فيها نشر موسيقا ليتورجية القديس «باسيليوس الكبير» كاملةً، بعد أن كانت تتداول شفاهة من قبل.

يعتبر القديس «باسيليوس الكبير» (٣٣٠ - ٣٧٩م) أحد آباء الكنيسة البارزين فى عصره. وعلى كونه راهبًا ناسكًا، فقد كان لاهوتيًا حازمًا وأسقفًا من الطراز الأول. وقام خلال حياته القصيرة برحلات عدة إلى سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى، وكان اهتمامه الأول ينصب دائمًا على الرهبان ومجامعهم، وقوبلت ليتورجيته بالتقدير الوافر والاحترام اللائق، وتعد أساس الصلوات فى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية. فعلاوة على استخدام الموسيقا والنص فى الأعياد الكبيرة فى الكنيسة، فإن كل يوم من أيام التقويم الكنسى يحمل تذكارات لأحد القديسين أو أهم الأحداث فى تاريخ الكنيسة، مثل يوم ٢٢ طوبى فى التقويم القبطى الموافق ٣٠ يناير، وهى ذكرى نياحة القديس الأنبا «أنطونى» العظيم (٢٥١ - ٣٥٦م)، أول رهبان المسيحية، فيؤدى الألحان الكاهن ومساعده والشمامسة والشعب بقيادة كورس الشمامسة، فيما تضاف بعض القطع للألحان فى الخدمة الأساسية فى حالة حضور البطريك أو الأسقف.

ويعد طقس ليتورجية القديس «باسيليوس»، إحدى ثلاث ليتورجيات يضمها كتاب الصلوات فى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية المعروف بـ«الخولاجى» (نشر جمعية أبناء الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، القاهرة، ١٩٦٠، الطبعة الثالثة، المعتمدة من قداسة البابا «كيرلس السادس»، بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية آنذاك). و«الليتورجية» هى اللهجة البحيرية فى «القبطية» وأضيفت الترجمة العربية فى بداية الفتح العربى لمصر، وتنقسم حاليًا كل صفحة من صفحات الكتاب «الخولاجى» إلى عمودين: أحدهما للقبطية، والآخر للعربية، ويستخدم الكاهن إحداهما بالتبادل مع الأخرى ضابطًا اللحن مع النص.

وكانت النصوص الأولى لليتورجية مكتوبة باللغة اليونانية، ثم تُرجمت إلى القبطية فالعربية. وكُتبت المخطوطات القبطية القديمة دون تنسيق، وفى مرحلة مجهولة من تاريخها، أعيد تنسيق المخطوطات فى مقاطع أو أجزاء قصيرة تحوى جملتين أو أربع.

وتتكون «الليتورجية» من ثلاثة أجزاء رئيسية هى: صلوات الاستعداد، وقداس المعوظين، والتقديس أو الأنافورا، ولكن أداء الليتورجية يتم كوحدة كاملة متكاملة للصلاة والشكر دون فصل بينها، ويؤدى الكاهن عددًا كبيرًا من الصلوات سرًا، فيما يقود الشماس الشعب لأداء الألحان. ويحتوى قداس المعوظين على قراءات من النصوص المقدسة القبطية والعربية والترجمة الإنجليزية للنصوص من ترجمة «الملك جيمس الحديثة New King James Version»، وهى الترجمة المفضلة لدى قداسة البابا «شنودة الثالث»، بابا الإسكندرية وبطريرك الكرسى المرقسى للكنيسة القبطية فى مصر.



أما بخصوص الموسيقا، فيقوم الكاهن والشماس بأداء ألحان طقوس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، وتؤدى الموسيقا بالأسلوب «اللحن المفرد Homophonic Style» وينفذ دون مصاحبة أية آلات موسيقية، وتتميز بشيوع استخدام عنصرين موسيقيين هما: «الميلزما» و«الزخارف». و«الميلزما» عبارة عن امتداد لحنى لحرف متحرك خلاف الكلمة بعكس مد مقاطع النص فى اللحن الأساسى. وبعض الزخارف تشكل جزءًا من اللحن نفسه، وهى الزخارف التقليدية، وأضاف الكاهن المرتّل بعضها الآخر، حسب أسلوبه الزخرفى الخاص. ويحتوى كل لحن على عدد من النغمات بدرجات معروفة، ويُعرف كل مرتل بأسلوبه المميز الذى يطوع اللحن لإمكانيات أداء حنجرته الصوتى.

وتؤدى أواشى الكاهن والنصوص الكتابية وتنبيهات الشماس بلحن آخر، أما معظم ألحان الشعب التى يقودها كورس الشمامسة، فتؤدى بإيقاع عادى منتظم. وعادة يتكون كورس الشمامسة من الرجال فقط، ويصطفون فى صفين متقابلين، وتؤدى بعض الألحان بالتبادل بين الجهتين القبلية والبحرية.

والآلات الوحيدة المستخدمة الآن، هى زوج من الصنوج يعرف فى اللغة العربية بـ«الناقوس»، والمثلث المعروف بـ«التريانتو»، وتحدد الحواشى والألحان المصحوبة بالصنوج، ويعزف على هذه الآلات اثنان من الشمامسة بضروب إيقاعية مركبة تعطى أساسًا قويًا لألحان كورس الشمامسة وأصوات الشعب.

ولن أجد أفضل مما أختم به حديثى عن الليتورجية القبطية الأرثوذكسية وموسيقاها، سوى بنص من ضمن نصوصها الثرية والعذبة المعنى فى الوقت نفسه، حتى نستطيع تفهم روح هذا الدين ومحتواه الروحى وقيمه الإيمانية. يقول الكاهن ضمن ما يقول فى صلاة الاستعداد: «أنت يا رب، علمتنا هذا السر العظيم الذى للخلاص، أنت دعوتنا، نحن الأذلاء غير المستحقين عبيدك، لنكون خدامًا لمذبحك المقدس. أنت يا سيدنا، اجعلنا مستوجبين، بقوة روحك القدوس، أن نكمل هذه الخدمة لكن بغير وقوع فى دينونة، أمام مجدك العظيم، نقدم لك صعيدة البركة، مجدًا وعظم بهاء فى قدسك.. اذكر يا رب ضعفى أنا المسكين، فاغفر لى خطاياى الكثيرة».

وهكذا، لم تندثر الموسيقا فى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وليتورجيتها؛ لأنها تحمل الإيمان والاتباع لهذه الجماعة المسيحية عبر العديد من القرون الطويلة؛ فالاستمرارية والتواصل صفتان ملازمتان لكل شأن من شئون الحضارة المصرية العريقة.

نظرات في

"شعريات عربية"

حسين الواد

من الأحداث البارزة في مجال الدراسات الأدبية بتونس إقدام الأستاذ توفيق بكار على نشر أعماله الكاملة، فقد صدر منها الجزء الأول في شهر أبريل ٢٠٠٠ موسوما بـ«شعريات عربية» من عمل دار الجنوب بتونس في ١٥٣ صفحة.

والذين لهم اطلاع على واقع الدراسات الأدبية بتونس ومتابعة لها يدركون، لا محالة، ما لهذا الحدث من أهمية ومدى القيمة التي يكتسبها.

فالأستاذ توفيق بكار وجه ثقافي بارز في تونس، إلا أنه وإن كان مشهورا معروفا في الأوساط الجامعية ولدى المثقفين، لا يكاد يعرف له القراء - عدا بعض المقالات - كتبا منشورة يمكن أن تتجلى فيها القيمة التي يستمد منها مكانته، ويستدل بها على عمق تأثيره في الثقافة الأدبية بتونس وفي التعامل مع عيون التراث الأدبي العربي وروائع نصوصه المعاصرة.

والأستاذ بكار كان قد أمضى عمره المهني مدرسا بالجامعة التونسية، تخرجت عليه أجيال وأجيال من الأساتذة والباحثين، وأسهم، إسهاما فعالا، رفقة زملائه الأساتذة مؤسسي هذه الجامعة، في إرساء تقاليد جامعية في التدريس والدراسة والبحث والتأطير تجاوز إشعاعها حدود البلاد التونسية.

ثم إن هذا الأستاذ قد اختار أن يكون مثقفا مهتما اهتماما كبيرا بالأدب التونسي المعاصر وبما يجري في ما يصطلح عليه بالساحة الثقافية، فكتب عن القصاص من أمثال علي الدوعاجي والمسعدي والبشير خريف وعن الشابي وشعراء الطليعة والشعر الحديث، وترجم نصوصا عديدة من هذا الأدب إلى اللسان الفرنسي، ودرّس أعمالا جديدة كثيرة ما كانت لتلقى، لولا إصراره وكفاءته، طريقها إلى الجامعة، وعقد بين أصحابها وبين الطلبة حلقات نقاش، ونشط منابر كثيرة اعتنت بدراسة الأدب التونسي المعاصر والحديث فتناولته بالدرس والتقييم ولفتت الأنظار إلى ما فيه من كنوز بعد ما كان يقابل بالاستهانة والازورار متى لم يشك في وجوده أصلا.

والأستاذ بكار يقترن ذكره بالمناهج الحديثة في الدراسات الأدبية، فمن السنة ١٩٦٩ بدأ قسم العربية بالجامعة التونسية ينفتح على علم اللسانيات وعلى الاتجاهات الجديدة في التعامل مع الأدب، وأول بحث جامعي في هذا المجال أنجزه صاحبه (صاحب هذا المقال) بإشراف الأستاذ بكار. كان ذلك سنة ١٩٧٢، فكان أول استعمال للمناهج الحديثة في العالم العربي في ممارسة نص قديم، نعني الدراسة التي صدرت تحت عنوان «البنية القصصية في رسالة الغفران»، إلى جانب دراسة أخرى وضعها، في التاريخ نفسه، الأستاذ سالم ونيس عن قصص البشير خريف القصيرة.

وعندما تقرر إدراج المناهج الحديثة في الدراسة الأدبية مادة من المواد المقررة كان الأستاذ بكار هو الأستاذ الذي عهد له زملاؤه بتدريسها. لم يكن بعض الأساتذة من مؤسسي الجامعة التونسية راغبين آنذاك في أن يأخذ تعليم العربية بها بهذه «البدع» التي يقوم بين الأوروبيين أنفسهم حولها جدال كبير، إلا أن ثقتهم في كفاءة زميلهم وتقديرهم لأخلاقه العلمية العالية، قد يسر لهذه المؤسسة الفتية أن تستقبل المناهج الحديثة مهيئة بذلك لروادها من الطلبة فرصة الاطلاع على النصوص المؤسسة في لغتها الأصلية لاستعمالها في ممارسة الإبداع الأدبي، واختبارها على الأعمال العيون في الأدب العربي قديمه وحديثه. وكان لذلك، في نطاق التكوين المؤهل للحصول على الأستاذية والتكوين المؤهل لمزاولة البحث العلمي، آثار طيبة على الدراسات الأدبية بتونس.

لهذه الأسباب، ولغيرها مما لم أذكره إذ السياق ليس سياق وضع ترجمة شخصية لهذا الأستاذ، أعتبر إقدامه على الشروع في نشر أعماله الكاملة، ما نشر منها في المجلات والصحف وما لم ينشر، حدثا مهما. والذي يعرفه، أهل الثقافة في تونس، أن من دروسه ما عمد بعض المتهافتين على الربح المادي ممن درسوا عليه إلى انتحالها وإظهارها ولو كان ذلك على حساب الالتزام الأخلاقي.

ومع أني أعرف جل هذه الأعمال، فقد سبق لصاحبها أن هم بإعدادها للنشر في بعض السلاسل التي أدرتها، وسبق أن نظرت في الكيفيات التي يمكن أن تجتمع بها بين دفتي كتاب، فإني قد اطلعت على الجزء الأول منها بكثير من الاهتمام والفضول.

أما الاهتمام فيعود إلى السنوات التي كان يشرف فيها على بحثيَّ الجامعيين الأولين. كان قد أتعبني، وإني لمدين له بذلك، عندما كان يحرص على مناقشة التصور العام والأفكار وجزئيات التركيب. فهذه فكرة لم تأخذ حظها من الدرس، وهذا رأي في حاجة إلى مزيد من التثبت، وهذه جملة رديئة ركيكة. وهذا لا يقال هكذا في العربية.

وأما الفضول فمن معرفتي بأنه كان يتهيب النشر ويخشاه. وكأنه كان ينظر دائمًا إلى قول ابن المقفع، إن اللفظة تمتلكها ما دامت في الضمير، فإذا نطق بها اللسان ملكتك. فالنصوص تظل لديه مدة ينقحها ويراجعها ويعيد فيها النظر، دون أن تصل إلى الفوز برضاه.

كنت أتساءل عن الصيغ التي ارتضى أن يطيرها في الناس لأعمال فرغ منها ولمّا، منذ أكثر من ربع قرن من الزمان؟



يستوقفك، أول ما يستوقفك، من هذا الجزء الأول، قول صاحبه في الفاتحة التي خصه بها: «هذه نصوص من شعرنا، قديمه وحديثه، شدتني كلها بشيء فيها من سرها، وسحرها، معنى، أو رنة، أو صورة، أو فاتن من لعب الفن ماكر (..) امتحنت بها وفيها، مناهج النقد الحديث، فأربت على كل منهج، وتمنعت لا ترضى غير قراءة من وحيها، تلائم روحها».

فهذه الفاتحة تستوقف باقتضابها، إذ الاقتضاب من شأنه أن يستغرب من أستاذ أمضى سنين طويلة يدرس العوامل التي أسهمت في نشأة النقد الأدبي الحديث ويعرف فيها بالمنهج الشكلاني والبنيوي الاجتماعي والبنيوي اللساني وبالإنشائية، واقفا، متريثا عند حركة الشكلانيين الروس ومدرسة براغ وعند قولدمان ولوكاتش وجاكوبصون وبارت وتودوروف وجان جينيت وكلود بريمون وجوليا كريستفا وبيار ماشيري، معرجا على ميشال فوكو وأمبرتو أيكو ويوري لوتمان.

فما الذي حمله على العزوف عن وضع المقدمات التمهيدية التي تعرض لهذه المدارس وتلك الاتجاهات والنزعات بالتعريف في النظرية والإجراء والنتائج؟ وخاصة أن المادة موجودة لديه أغلبها محرر تحريرا كاملا أو جزئيًا.

وإنك لتستعرض الكتاب من أوله إلى آخره فلا تصادفك فيه فقرات طويلة يتحدث فيها المؤلف عن المناهج الحديثة مكاسب نظرية ومزايا إجرائية ونتائج خطيرة تمكن منها. وفي ما عدا الصفحات الخمس التي سماها «مدخلا نظريا» في مستهل التحليل الأول، فإنه يبدو حريصا على ألا يتحدث عن المناهج الحديثة حديث المنظر لها.

ويرجع هذا، في ما أقدر، إلى ما لا يقل عن أمرين اثنين: الأول أن صاحب هذه القراءات لا ينظر إلى المناهج إلا من حيث هي وسائل يستعين بها النظر في ممارسة النصوص. فالنص يستدعي المنهج وليس المنهج هو الذي يتسلط على النص. ثم إن المناهج في نظره، إرث إنساني عام لا يلغي بعضها بعضا إلغاء تاما، ولا تهم من حيث هي في تجادلها بقدر ما تهم من حيث ما يمكن أن نصل إليه منها. لذلك لم يكن ولوعا بالدخول في نقاشات نظرية حول المناهج الحديثة أيها أصلح بأدبنا العربي.

أما الأمر الثاني فيتعلق بالأعمال التي يشرحها نفسها، فهذه نصوص قد اختبر بها المناهج الحديثة، وإذا بالمناهج الحديثة تضيق عن تلك النصوص مثلما ضاقت عنها من قبل سائر المناهج التقليدية والعتيقة.

ووراء هذا الموقف تكمن تلك القضية الأم، قضية النصوص الإبداعية البديعة وهي تفيض دائما عن كل قراءة، فالنص الفذ هو النص الذي لا تستهلكه القراءات. وكان بالنصوص الروائع طاقات شتى مقدرة فيها فنيا لا ينجز منها القارئ إلا اليسير الذي يؤهله له زمانه أو تتطلبه منه ومنها الحال.

وهذا الموقف، وإن كانت مناهج حديثة كثيرة قد بنت عليه كيانها النظري والإجرائي، قريب مما كان قد ذهب إليه ابن خلدون في مقدمته، متى أحسنا تدبر كلامه. قال ابن خلدون متحدثًا عن علم الأدب: «هذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور» (ص ٥٥٣، طبعة مصطفى محمد. القاهرة. د. ت).

فأمر النصوص الإبداعية إلى التراكم أقرب منه إلى أي شيء، وليس النص من الشعر الجاهلي بأقل تحريكا للضمائر المثقفة المرهفة من النص الحديث والمعاصر مَتى توافرت في كل منهما الجودة.

إذا كان هذا بعضًا من شأن النصوص، فما شأن القراءة التي تخرج بها من الصمت إلى النطق، ومن الكمون إلى التوهج والفعل؟

يجيب الأستاذ بكار عن هذا السؤال إجابتين متكاملتين.

الأولى يلفت النظر إليها الشاهدان اللذان

شعريات عربية
توفيق بكار
دار الجنوب: تونس، ١٥٣ صفحة، ٢٠٠٠



صدر بهما هذا الجزء الأول من أعماله. أخذ الشاهد الأول عن عبد القاهر الجرجاني، وأخذ الثاني عن رومان جاكوبصون.

وإذا كانت بين العالمين الكبيرين حرمة من نسب مردها العناية بالتفقه في «فن الأقاويل» وحرمة من إبداع مردها أن كلا منهما وضع في المجال الذي يعنى به جهازًا نظريًا فذا، فإن الجمع بينهما جمع بين فذاذة الشرق وفذاذة الغرب وفذاذة القديم وفذاذة الحديث، وإنها لتتجسم في أن كلا منهما قد جعل استغراق الإنصات إلى النصوص في صمتها الناطق بالآسر من أسرار جودتها الفنية وبكل ما يهم الإنسان في وجوده ومصيره، في صدارة الأولويات. والإنصات إلى ذلك الصمت الناطق في النصوص البديعة هو الذي فطن له علماء الدراية ودأبوا على الأخذ به. يلقى منهم الخلف باكتشافه ما كان قد اكتشفه السلف، فاطرد في التحاليل التي وضعها الأستاذ بكار على النصوص التي انتقاها ذكر أعلام أئمة ممن كان لهم تأثير بالغ في الدراسات الأدبية والبلاغية من القدامى والمعاصرين شرقا وغربا.

أما الجواب الثاني فهو هذه القراءات التي أقامها على محاورة النصوص، وهو «السامع المحترف» الذي يعتقد أن «النص الأدبي لا يأخذنا إلا ليردنا إلى ما حواليه، ولا يدخلنا إلى ذاته إلا ريثما يخرجنا منها إلى غيره عبر كافة جدلياته» (ص ١٠٦).

فالنص الأول قصيدة تنسب إلى عنترة بن شداد العبسي مطلعها:

يا طائر البان قد هيجت أحزاني
وزدتني طربا يا طائر البان

وأما النص الثاني فقصيدة لبشار بن برد طائرة الصيت في المنتقيات والمنتخبات والاختيارات والمقررات المدرسية ذكر فيها مجلسا غنائيا ومطلعها:

وذات دلّ كأن البدر صورتها
باتت تغني عميد القلب سكرانا

وأما النص الثالث فمقطوعة أو قصيدة تتكون من أبيات سبعة للحسن بن هانئ أبي نواس مطلعها:

نضت عنها الرداء لصب ماء
فورّد وجهها فرط الحياء

وليس النص الرابع سوى بيت واحد من قصيدة لأبي الطيب المتنبي شهيرة.

أما مطلع القصيدة فهو:

ملومكما يجل عن الملام
ووقع فعاله فوق الكلام

وأما البيت فهو:

ذراني والفلاة بلا دليل
ووجهي والهجير بلا لثام

وأما النصان من الشعر الحديث فأولهما لأبي القاسم الشابي وهو «صلوات في هيكل الحب». ومطلعه:

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام
كاللحن كالصباح الجديد

والثاني قصيدة لمحمود درويش عنوانها: «لحن غجري».



بين هذه النصوص الستة أكثر من جامع. فهي، وإن تباعدت أزمان إنتاجها واختلفت ثقافات مبدعيها، تلتقي أولا في دورانها في فلك الغناء والتغني والطرب، إذ هي إشادة بالصبابة وأوجاعها وبالجمال ترتل له «الصلوات» وبالأنا تنتشي منه بالامتلاء أو يشجيها اغتصاب الأوطان. إنها قصائد وجدانية لا أثر فيها للحكمة أو المديح أو الهجاء أو الإخوانيات ... محورها الأنا صب بالحب شهيد وعاشق لما في الوجود مشتاق منه إلى اللوعة والوجد، تهزه المواجد والمواجع هزا.

ثم إنها من ذلك الكلام الذي لا نفع ولا ربح ولا غاية ظاهرة لا لقائله ولا لمتلقيه منه، غير ما يجده فيه المبدع من قدرة على إبداع الفن ترتفع به إنسانيته وترقى إلى مصاف الإبداع ويلقاه فيه متقبله من إمتاع جمالي.

أليس أن الفن يعرف، من بين ما يعرف به، بأنه غير غائي وغير استعمالي وغير نفعي ولا يأتي عليه الاستهلاك. فهو ليس بضاعة من البضاعات أو منتوجا صناعيا من المنتوجات التي تشبع من جوع أو تكسو من عرى أو تحمي من ضرّ أو تروى من ظمأ. وإذا كان كثير من الناس ممن لم يتبينوا للفن وظيفة في الوجود ولم يروا له فيه غاية خاصة به، قد حادوا به إلى ساذج الالتزام فحشوه مذاهب وأيديولوجيات ومرغوا جلاله في وحل المصالح وقضاء الأوطار، فالذنب ليس للفن ذنب، إذ هو ذنب الذين لم يعرفوا لوجوده وجوبا فجعلوه بهلوانا يلعب لهم ما شاءوا من الأدوار. وليس يعقل أن تجهد الشعوب في الولع بالفن وتعنى فيكون ولعها به من العبث أو من هوس الترف. وليس يعقل أيضا أن تكون الفنون غائية نفعية أو مفهومية وللغائيات النفعية والمفاهيم مجالات خاصة بها.

هذه النصوص التي تجمع بينها قواسم مشتركة أخر واجهها قارئها بطرائق في الإنصات إليها من اقتراحها، وهي طرائق يجمع بينها أيضا أكثر من جامع.

فهي تشترك، من بين ما تشترك فيه، في أنها تعتمد للشعر ذلك المفهوم الذي يعده كائنا من كلام تحكمه في علاقة بعضه ببعض الأحكام التي تحكم نظام اللغة، وتحكمه في علاقته بالعالم والوجود. الأحكام التي تحكم علاقة نظام اللغة بالعالم والوجود، ولكن الشعراء وهم «جهابذة الكلام» يتصرفون، إلى ذلك، في اللغة التي يستعملونها أو «يتلاعبون بها» تلاعبا هو كاللعب وإن كان جدا في جد. وهذا المفهوم الذي اشتهر منتسبا إلى المناهج الحديثة منذ شرع أصحابها في تساؤل الأدب والشعر عما إذا كان لهما كيان في استعمال اللغة خاص بهما، إنما يضرب، في الحقيقة، بجذور عميقة في التاريخ. يدل على ذلك، من بين ما يدل عليه، أن الأذهان اللطيفة لم تفتأ، منذ شغلت بالكلام على جمال الكلام، تجهد في وضع الصيغ المفهومية تطلب بها النفاذ إلى الكيفية التي يكون بها الكلام الجميل، في آن واحد، من الكلام وبائنا عنه بأسرار ما فيه من جودة وجمال. ومن أقرب الصيغ (وهي كثيرة) التي وضعها العلماء في مختلف الأزمان ومتباعد الأمصار، إلى روح المناهج الحديثة وأمتنها صلة بالكلام الذي حلل به الأستاذ بكار النصوص التي حلل، نذكر، على سبيل التمثل، ما ذهب إليه الشيخ الرئيس ابن سينا في ما تحدث به عن الخطابة والشعر فقال: إن الشعر «هو الكلام على ما وجوده في اللغة فقط». يعني بذلك أنه كلام على ما ليس له وجود على الحقيقة. ولكن الكلام على ما ليس له وجود على الحقيقة، وهذا من إعجاز الشعر وسحره الحلال، مؤثر فعال في كل ما له في الوجود وجود على الحقيقة.

قد أقام الأستاذ بكار كلامه على هذه النصوص على التجاوب الشديد مع مقالة الشيخ الرئيس ابن سينا ومقالات أعلام آخرين جاءوا بعده من قبيل رولان بارط ورومان جاكوبصون وبول فاليري فقال في سياق الحديث عن قصيدة عنترة: «ومما زاد في وحدة المعنى والمغنى أنه لم يحدث في هذه القصيدة سوى الخطاب، وهو مزدوج، خطاب مبطن في خطاب: مناجاة العاشق لطيره ومناشدة الشاعر لغيره، وهو إلى ذلك، إلا في البيت الأول، خطاب إنشائي وليس خبريا، لا يحاكي شيئا صار بل شيئا حبذا لو يصير» (ص ٣٣). وقال متحدثا عن قصيدة بشار: «مجلس القصيدة بلا ريب، من محض الاختراع، قوامه الكلام، ولا مرتب لشئونه إلا ضوابط النظم من بحر وحرف ومن بيان. فن من قريحة هو لا شيء من حقيقة. وإن يكن له عيار فجمال الإنشاء، ولا يهم بعده ما قد يكون فيه، أو لا يكون، من مطابقة الحال إن كانت حال. فمتى كان الشاعر، أي شاعر، موكلا بحكاية الواقع فنطالبه بالوفاء» (ص ٣٨ - ٣٩).



وتشترك القراءات التي وضعها صاحبها لهذه النصوص، من بين ما تشترك فيه أيضا، في أنها ترى القارئ المختص لنصوص الأدب مدعوا لأن يعتبرها أندادا يحاورها محاورة الأنداد للأنداد. فالنص الجيد، إذ يبهرك بقوة الفن فيه، يدعوك إلى تساؤله عما بهرك به مثلما بهر غيرك وفاز بإعجابك مثلما فاز بإعجابهم، وعما جعل الشعوب، في مختلف الحضارات ومتباعد الأصقاع، تنتقي من كلامهما كلاما تمحضه الهوى فيسهر منها من يسهر الليالي في حفظه والحفاظ عليه. ومثلما كان النص الجيد «إنتاج اللسان والذهن والوجدان ونتاج تجارب شتى وجودية واجتماعية وسياسية وثقافية»، ينبغي أن تكون قراءته باللسان والذهن والوجدان وشخصية القارئ من حيث هو ابن من أبناء عصره منغرس في حضارة ينتمي إلى ثقافة ويحمل هوية.

فالقراءة التي يتضمنها هذا العمل «قراءة خلاقة» (ص ١٠٧)، وهي، لدى المختص الذي يتحمل مسئولية تنشئة الأجيال التنشئة التي تشدهم إلى أصولهم الثقافية وترسخهم في هويتهم الحضارية، وتزودهم بالعلم ليتربى منهم العقل وتهذب النفس ويرهف الإحساس، تحتاج

كتاب الزاوية



البيان قبل الأخير

سميح القاسم

يا أيّها الآتون من عذابِكُم
عودوا على عذابنا
عودوا إلى صوابنا
الشَّمْسُ فى كتَابنا
فأىُّ شىء غيرَ هَذا الليل فى كتابِكُم
يا أيّها الآتون من عذابكُم
لا . . لا تعدّوا العشرَةْ
وغازلوا قاذفةً . . وعاشروا مدمِّرهْ
وأتقنوا المكائدَ المُحكَمة المدبَّرَةْ
خُذوا دمى حبرًا لكم
ودبَّجوا قصائدَ المديحِ فى المذابح . . المُظَفَّرةْ
وسمِّموا السنابلْ . . وهدِّموا المنازلْ
وأطلقوا النارَ على فَرَاشَة السلامْ . . وكسِّروا العظامْ
لا بأس لو تصيرُ مزهريةً
عظامُنا المكسَّرَةْ
لا . . لا تعدّوا العشرَهْ

* * *

مَنْ أوصَدَ السِّحرَ على قلوبكم؟
مَنْ كدَّسَ الألغازَ فى دروبكم؟
مَنْ أرشَدَ النصل إلى دمائنا؟
من دَلَّ أشباحَ الأساطير علَى أسمائِنا؟
من أشعَلَ الفتيل؟
من لاطَمَ القتيل بالقتيل؟
لا تسألوا . . لا تَقْبَلوا
لا تعبَأوا بالدمعة المفكِّره
ولا تعدّوا العشرَةْ









إلى منهج صارم وإلى قدرات توليدية إبداعية.

ومن هنا اتجهت القراءات التى وضعها صاحبها على هذه النصوص إلى اعتماد الإجراء المخبرى الذى يهتم فيه القارئ بكل ما فى النص من دقائق يذكرها ذكرا علميا واصفا. فهو إزاء هذه العناصر المادية التى تتكون منها النصوص يتخذ الموقف الذى يتخذه العلماء من الظواهر التى يدرسون فيتأملونها ويذكرون الخصائص التى يبصرونها فيها. وفى هذا القسم من قراءته يتنزل وقوفه على القوافى والبحور والإيقاعات وعلى اللغة أصواتا ومفردات وتراكيب وعلى ما يقوم بينها من علاقات التناظر والتنافر.

إلا أن للقراءة، فى عمله، وجها آخر يتمثل فى الإفصاح عما يحدث به النص القارئ ويحدث به القارئ النص. وفى هذا الموطن يسترسل القارئ مع ثقافته ويغرف من شخصه ومن عصره ومن وحى النص، فيدعو السؤال السؤال ويستدعى الجواب الجواب، وتعود للنصوص أرواحها. وإذ كانت الثقافة العربية الإسلامية تنتهك من أبنائها جهلا، والجهل أم الكبائر، ومن خصومها تشكيكا فيها وطمسا لمحاسنها، جرت على لسان المؤلف فى تضاعيف تحاليله عبارات منها، متحدثا عما فى بعض التحديث من خرق: «وما عجبى، مرة أخرى، إلا من رءوس المحدثين اليوم، اتهموا القصيدة العربية، أول ما طلعوا، بأنها شعر أبيات، تعوزها «الوحدة العضوية» فى التركيب، وبأن خيالها «لفظى بيانى» لا «فنى أسطورى» كخيال اليونان، ورتيبة اللحن لوحدة القافية، لا تعرف التاليف السنفونى كشعر الغرب.



رب «حداثة» تعمى وتصم. أم بات ازدراء الذات عندنا، شرطا واجبا لكل دعوى من دعاوى التجديد؟» (ص ٨٧).

ومنها، مشيرا إلى العولمة وما يثار حولها من ضجيج، فى سياق الحديث عن الشعر العربى الذى ترقى إنسانيته المحلية إلى الإنسانية الكونية، إن «مادته البشرى الحميم، ولا عربى إلا الإهاب، وبعض الألوان وكل اللسان. فما انتظرت لغتنا عولمة المتعولمين من أعقاب هذا الزمان لتعبر عن الإنسانى الشامل وبقحها من اللفظ» (ص ٥١).

والذى يشرّع لهذه القراءة، أن صاحبها يعتبر: «الشعرمن اللغة بلا ريب، ولكنه نظام فوق نظامها، تعبير بالدرجة الثانية، كلام مخصوص ينطلق من الكلام العام ويتجاوزه فينفيه ليكون. هو «لغة فى اللغة» كما يقول فاليرى، إحداهما مقيدة بضابط المعجم وضوابط الصرف والنحو وليس للأخرى من قاموس إلا لا نهاية الدنيا ولا لها من نحو إلا تلاقى عناصرها بصدفة الخلق» (ص ١٠٩).

يمكن للناظر فى هذه القراءات أن يتفق مع صاحبها فى الوصف الذى تحدث به عن النصوص فى مظهرها المادى الملموس فى أبنيتها، وليس هذا بالموطن الذى يفترق فيه أهل النظر، ويمكن له أيضا أن يتفق معه فى التخريجات الإيحائية والدلالية التى تهمس له بها تلك النصوص، كما يمكن له ألا يتفق معه فى هذا الموطن بالذات مع هذا الموقف أو ذاك، ولكن الذى لا شك فيه أن النصوص، بهذه الطريقة فى التحليل والفهم، تكتسب حياة تخرج بها من الوجود «المتحفى التراثى» من حيث هى وثائق شاهدة على التاريخ، إلى الوجود الفاعل فى صنع التاريخ. فالإبداع على الإبداع فى هذا الكتاب إبداع، فيه من موضوعية الأدوات الفنية، وهى موضوعية نسبية، أشياء، ومن ذاتية المبدع، وهى ذاتية نسبية أيضا، إذ هى أيضا موضوعية، أشياء.

لهذه الأسباب، مفردة ومجتمعة، يتراءى شروع الأستاذ توفيق بكار فى نشر أعماله الكاملة، حدثا، فى واقع الدراسة الأدبية، مهمًا، بصرف النظر عن اتفاق القارئ معه أو اختلافه معه. فالدرس الأدبى، فى بلادنا العربية، ما رفع منه لواء الأخذ بالمناهج الحديثة وما ظل منه يدور على نفسه فى مجال الدرس التاريخى، يفتقر، فى معظمه، افتقارا شديدا إلى النظر الجاد والواعى إلى طبيعة المواضيع والمسائل والقضايا التى يعنى بها، ذلك أنه، كثيرا ما يخلط، خلطا عجيبا، بين المنطق والغاية والموضوع والمنهج والمسلمة والاستدلال والكلام العادى والكلام الأدبى الفنى والواقع والخيال والمجاز والحقيقة، وينتج، فى الغالب دائمًا، خطابا عقيمًا تافه العبارة يتبرأ بعضه من بعض وتصدأ له الأذهان والأذواق. والذى لا شك فيه أن إظهار الأعمال المؤسسة مما يساعد الأذهان على اختصار المسافة إلى ما ينفع فى تقويم الفكر فى اللسان وتهذيب الوجدان. ■



هيكل يقود عملية منظمة لترشيد الوعى العربى

كعادته جاد علينا الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل فى الشهور الأخيرة بسلسلة من المقالات البالغة الأهمية حول الأوضاع العربية والمصرية، هى ومضات حق استلهمت التاريخ واستشرفت المستقبل.

وأعتقد أنه قد آن الأوان أن تقوم دعوة قومية وعربية لإنشاء «مؤسسة أو معهد هيكل للدراسات المصرية والعربية» تواصل وتطور العطاء الفذ الذى أثرى به هيكل- ولايزال- الحياة السياسية فى مصر والعالم العربى على مدى نصف قرن. ففى العشرين سنة الأولى كان فى الطليعة من قيادة الثورة، رفيقاً لقائدها، مشاركاً فى بلورة توجهاتها وفى كثير من الأحيان فى صناعة قرارها، إلى أن رحل القائد بعد أن صرعته مؤامرة الإمبريالية والصهيونية، وانكسر الحلم الوطنى المصرى وتعطل المشروع الوطنى العربى. فراح هيكل- منفردًا- على مر الثلاثين عامًا التالية يقود عملية علمية ومنظمة لترشيد الوعى الوطنى العربى والمصرى ويفتح عيون مواطنيه على دقائق التاريخ الدامى للمنطقة العربية مفندًا ما فعله الغرب بالعرب وما فعله العرب بأنفسهم، ومحللاً لدقائق الصراع، وواضعًا العلامات على الطريق لمن يريد أن يرى ومن يريد أن يسمع.

وأهمية دور الأستاذ هيكل تكمن فى أمرين، أولهما أنه يتعامل مع تفاصيل تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى بمنهج علمى وعقلانى وبأسلوب موسوعى يعتمد فيه على الوثائق المحلية والدولية وعلى أرشيفه الضخم فتحققت لإسهامه بذلك مصداقية يندر تحققها فى عالمنا العربى.

أما الأمر الثانى فذلك أنه مع موضوعية التناول يرتكز الأستاذ هيكل فى رؤاه وتحليلاته على المعطيات الأساسية لأهداف الدور المصرى والطموح العربى كما أفرزتها تجربة ثورة يوليو من خلال تفاعلاتها فى مصر وفى العالم العربى والعالم الخارجى وفى ضوء الدروس المستفادة من محنة الهزيمة وتراجع الانتصار.

وهكذا لايزال الأستاذ هيكل يحاول إرساء المفاهيم لما يجب أن ترتكز عليه إستراتيجيتنا فى الصراع مع العدو الصهيونى ويمكن القول فى هذا المجال أنه بذلك يؤطر الأساس المعرفى إن صح التعبير لاستمرار ثورة يوليو ولكن باستنارة من التاريخ ومن التجربة وفى إطار تراث هذه الثورة المتحرك.

إن المسيرة مستمرة والقضايا التى فجرتها ثورة يوليو لم تمت مع جمال عبدالناصر وإنما تثبت الأيام أن ما واجهته لازال خطراً تاريخياً يحدق بالأمة وليس مجرد خطأ تاريخى وقع فيه الزعيم. من هنا فإن استمرارية هذا الجهد الفريد تصبح واجبًا قوميًا، فمصر لازالت تعانى من مشاكل التنمية والتطور ولازالت مستضعفة فى مقابل الجبروت الأمريكى والصلف الصهيونى.

ولازال دورها فى المنطقة يقابل كثيرًا بالتشكيك، بينما لازال العالم العربى محاصرًا ومستهدفًا.

ورغم مرور ثلاثين عامًا على رحيل عبدالناصر فلازالت قضاياه وأحلامه هى التعبير الحقيقى عن قضايا وأحلام الأمة، ولازالت هناك أسئلة وقضايا كثيرة وهامة تحتاج للمعالجة بمنهج الأستاذ هيكل وأسلوبه المتميز والذى أصبح مدرسة يجب أن يتخرَّج فيها جيل جديد من الباحثين والدارسين يتناول تلك القضايا ويتابع المسيرة مع الأستاذ.

إن مؤسسة هيكل للدراسات المصرية والعربية ستساعد على ترسيخ هذه المبادىء وتزويد العالم العربى بالأساسيات الإستراتيجية لإدارة الصراع وستكفل الاستمرار لمنهج هيكل ولفكر وتراث ٢٣ يوليو.

وإنى أتوجه إلى «وجهات نظر» لكى تتبنى هذه الدعوة وتطرح القضية لحوار بنَّاء يبلور الأفكار التى عبَّرت عنها ويطورها.

دكتور صلاح الدين رشوان أبوالفضل
استشارى الطب النفسى- بريطانيا



لماذا لا يكتب الأستاذ هيكل سيرته الذاتية؟

لقد أعجبتنى مجلتكم الموقرة التى جاءت بعد طول غياب وأيضًا بعد طول انتظار للقارئ العربى، وليس للقارئ المصرى فقط. جاءت هذه المجلة لكى تسد فراغًا ثقافيًا كان شاغرًا قبل صدورها.

فقد جاءت المجلة تحمل أعدادها آراء كثيرة ورؤى جريئة ومستنيرة يحكمها التعدد والاختلاف في وجهات النظر لكوكبة من الأقلام العملاقة.

وأعتقد أن أغلبها قد انتزع ليس حب القارئ المصرى، بل القارئ العربى علي كل الأرض العربية من سباته العميق وأيقظه علي بعض، بل كل ما يموج به العصر من حقائق ومتغيرات وتيارات مختلفة ورؤى جديدة.

فضلاً عن عروض الكتب في شكل عروض موجزة وقراءات جديدة، فإننى أقدم بالغ شكرى وتقديرى لكل القائمين علي هذه المجلة.

وفقكم الله جميعًا لخير كل العرب والمثقفين والباحثين وأسال الله أن يلهمكم السداد والتوفيق دائمًا.

كما أننى أهيب بالسيد الأستاذ محمد حسنين هيكل أن يكتب سيرته الذاتية، كما كتب الدكتور / طه حسين، والدكتور / زكي نجيب محمود، وكثيرون غيرهم.

مهندس / عصمت السروجى
كلية الهندسة جامعة الزقازيق

«وجهات نظر» واحتياجات القراء

عندما طالعتنا «وجهات نظر» لأول مرة ومن بعدها مرات عدة، لمسنا شيئًا جديدًا يغزو طموحنا الثقافى والفكرى وبمستوى رفيع عز نظيره، ويثرى مفكرتنا السياسية بوقائع كانت فى حينها تتحكم في رسم مستقبلنا، والذي هو حاضرنا اليوم الذى نعانى فيه «الأمرين»، تلك الوقائع التى ما كانت طبيعة الظروف وعلى امتداد نصف القرن المنصرم لتسمح بكشف سرائرها مما تركنا وبشكل دائم في وضع معلوماتى متخلف خلق لنا إشكالية فى وعينا السياسى ورمى بنا في العديد من المطبات المفصلية التى ولدت عندنا بالتالى حالة من الإحباط وعطلت فينا القدرة علي الحركة.

وبقينا نتهافت علي شراء «وجهات نظر» أو تصويرها وكأنها وجبة إفطار لصائم في رمضان، نقرؤها بعناية فائقة ونتمنى لو كانت قد عاصرت مسيرتنا الجماهيرية منذ عدة عقود كأحد المصادر التثقيفية والتوعوية في وقت كنا فيه بأمس الحاجة إلي ذلك.

وبالطبع ما زلنا ننتظر نهاية الأسبوع الأول من كل شهر لنلتقى بـ «وجهات نظر» لنرى ما استجد من الفكر والثقافة والسياسة.

ولكن علي عكس ما تمنينا، فقد فاجأتنا «وجهات نظر» بمجموعة أعدادها الأخيرة، خاصة عدد سبتمبر «أيلول» ٢٠٠٠، بموضوعات لا تمت إلى هذه الحقبة الزمنية بصلة، وكأنها مقتطفات من أدبيات صحفية كتبت في الماضى، فلا أعتقد أن قصة «طلاق امبراطورة» وفاروق ومعاطف فوزية على سبيل المثال قبل ما يربو علي النصف القرن، تهم القارئ العربى الآن.

ولا أعتقد أن «آخر أيام نيتشه» قبل قرن ونصف من الزمن تجيب على التساؤلات التى تؤرقنا حول أوضاع أمتنا في الوقت الحاضر، ولا أعتقد بأن «أغانى الحب والزواج في حياة المصريين» مادة تناسب «وجهات نظر» بكل المعايير.

ولا أعتقد أيضًا أن معظم ما جاء في هذا العدد هو ما كان القارئ العربى المهتم من المحيط إلي الخليج يتمنى أن يجده في «وجهات نظر».

إننا في الوطن العربى - ولا أزعم باننى أعلم منكم في هذا المجال - وبحكم الظروف القاسية التى تمر بها أمتنا من تمزق واختراق وانحدار نحتاج وبشكل ضرورى ودورى إلي المزيد من الوعى السياسى والقدرة علي قراءة الظروف علي ضوء المعطيات القومية والإقليمية والدولية في جميع المجالات، خاصة السياسية منها والاقتصادية والثقافية والمجتمعية، وهذا لا ولن يتأتى إلا بالجهود والخبرة من أهل العلم والمعرفة القادرين علي العطاء.

إننا بحاجة إلى جسور ثقافية وتربوية تربط الماضى بالمستقبل لتنير الطريق أمام الجيل الصاعد كي لا تضلله أشباح ما يسمونه بالحداثة والعولمة والاحتكار.

إننا بحاجة إلى دراسات وأبحاث فيها رؤى واضحة تكمن فيها القدرة علي استنهاض الطاقات الدفينة في أبناء شعبنا، والتى جمدتها القوى المعادية.

إننا بحاجة إلى استعادة الثقة بالنفس والعمل علي تجميع مكونات هويتنا القومية قبل أن يعفى عليها الزمن.

إننا بحاجة إلى من يتكلم لغتنا ويسهم، بل ويثرى حوارنا ويعيش معاناتنا، ولا أبالغ إذا قلت بأنه يكاد لا يخلو بيت أو متجر أو مطعم أو مقهى أو مكتب أو حتى صالون حلاقة من حديث في السياسة أو الاقتصاد أو إسرائيل أو العولمة أوالخصخصة أو النفط أو التضامن العربى أو الديمقراطية إلي ما هنالك من القضايا الساخنة علي امتداد الوطن.

إننا نقدر لكم هذا الجهد الكبير الذى تبذلونه فى إصدار «وجهات نظر»، ولكن في الوقت ذاته نرجو ألا يغيب عن بالكم أن الإصدارات الصحفية إنما هى ملك للقراء وقراؤنا في هذه المرحلة المأزومة من تاريخنا المعاصر يتلهفون دائمًا لقراءة المزيد من البحث حول القضايا الساخنة ودور الأنظمة في معادلة التخلف التى تعانى منها أمتنا وأنجع السبل للخلاص من ذلك.

د. خليل حمدى
علوم سياسية ـ الأردن



** منذ صدور العدد الأول لمجلة «الكتب وجهات نظر» حرصت إدارة التحرير على أن تحدد أهدافها.. مؤكدة أنها ليست مجلة سياسية فحسب، ولا هى ثقافية فقط، ولا هى مقصورة على ما يثار من موضوعات تشغل المفكرين وأهل الصفوة.. بل هى مزيج من ذلك كله. تستهدف إشباع حاجات مختلفة، تنهض بوعى القارىء وتكون ساحة تفاعل بين القيم: القديمة والجديدة، الوافدة والأصيلة، الماضى والحاضر. وحرصت المجلة أكثر من ذلك- فيما صدر من أعدادها حتى الآن- على أن تواكب الأحداث قدر ما تستطيعه مجلة شهرية، وأن تستجيب لحاجات أجيال تتباين ثقافاتها واهتماماتها.. وسوف تواصل «وجهات نظر» هذه السياسة، دون أن تضيق بالنقد والتوجيه، فهى بالفعل ملك لقارئها كما يقول القارىء العزيز.

«وجهات نظر»

عـــــروض مـــوجـــزة

كتب عربية

جنوب السودان.. آفاق وتحديات

چون قاى نوت يوه

عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠، ٢٦٧ صفحة، ٢٥ جنيهًا



يصور البعض مشكلة جنوب السودان وكأنها حرب بين المسلمين فى الشمال، والمسيحيين فى الجنوب، ويتغافلون - ربما دون قصد - عن الأبعاد التاريخية والثقافية للصراع، مضافًا إليها البعد الاقتصادى بطبيعة الحال، فالجنوب يحتوى على معظم الأراضى الخصبة، ويحوى فى جوفه ذهبًا وبترولاً، وفى مراعيه ثروة حيوانية هائلة تحفها أنهار عديدة لا يتوقف جريانها.

والجنوب على لسان قادته لا يسعى إلى الانفصال، بل يريد أن يحيا فى ظل وحدة ڤيدرالية حقيقية، متمتعًا بقسط من الحكم الذاتى يحفظ له تميزه ويصون إرثه الثقافى وتراثه، وبفعل الفشل المتوالى فى حل مشكلة الجنوب، فتح الباب على مصراعيه لتدخلات أجنبية وأطماع من جهات عديدة، تريد أن تستثمر ورقة الجنوب، لتعبث بأمن السودان واستقراره عبر رؤيتها الضيقة المغرضة للصراع بوصفه صراعًا دينيًا.

والمؤلف مثقف من أبناء الجنوب، يدعو منذ البداية لحوار جنوبى جنوبى، يقضى على النزاعات القبلية ويحد من تطلعات زعماء صغار تقف حائلاً دون موقف موحد للجنوب، وإن كان يرى أن الحركة فى جنوب السودان يميزها غياب البعد الأيديولوجى الذى يغفل الواقع البشرى وتطلعات الإنسان البسيط، ويشير إلى الواقع الجديد الذى أفرزته اتفاقيتا أسمرا فى يونيو ١٩٩٥، والخرطوم فى أبريل ١٩٩٧، وكلتاهما أكدت على حق تقرير المصير لشعب الجنوب، وهو ما يعنى احتمال انفصال الجنوب فى حالة إجراء استفتاء صحيح، فماذا سيكون شكل دولة الجنوب، وكيف ستقيم علاقاتها، وماذا ستكون أولوياتها فى مجال السياسة الخارجية، وما هى فرص التنمية المتاحة لها.

هذه الأسئلة وغيرها تبقى أفقًا مفتوحًا لاجتهادات أبناء الجنوب أنفسهم، ومنهم أكاديميون ودارسو علوم سياسية كما هو حال مؤلف الكتاب، وربما تكون مشكلة الصراع الآن، هى اتساع رؤية العقيد «چون قرنق» الذى ساهم فى تأسيس الجيش الشعبى لتحرير السودان، فقد أعلن «قرنق» أن هدفه هو تحرير السودان كله، وليس الجنوب فقط، بالسعى إلى إقامة «سودان جديد» عماده العلمانية والديمقراطية والوحدة والاشتراكية، فى الوقت الذى تمسك بزمام الأمور الآن فى السودان سلطة تزعم انتماءها لمبادئ الإسلام، وتؤكد عزمها على بسط شريعته على كل أرض السودان وخارجه إن أمكن.

أسئلة عديدة يطرحها المؤلف الذى يميل منذ البداية لحق الجنوب فى الانفصال، ويدعو إلى حوار شمالى جنوبى سيكون شاقًا بالتأكيد، بالنظر إلى هذا التنوع فى بلد يضم نحو ١٩ مجموعة عرقية رئيسية وما يقارب ٥٩٧ قبيلة بما يعنيه ذلك من تنوع فى اللغات واللهجات، والتمايز بين ذوى الأصول العربية والأفريقية من زوايا التاريخ ومشاعر الانتماء والهوية، مضافًا إليها التمايز بين من يدينون بالإسلام ومن يدينون بالمسيحية، والأخيرون ترتفع نسبتهم وفقًا للجنوبيين إلى نحو ٢٠٪ من إجمالى السكان، فيما تقف بهم تقديرات الشماليين عند ٨,٢٪.

□ □ □

مصر القديمة.. التاريخ الاجتماعى

ترجمة: لويس بقطر

مراجعة: مختار السويفى

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠، ٤٢٣ صفحة، ٢٤ جنيهًا



يعالج هذا الكتاب نمو المجتمع المصرى منذ عصور ما قبل التاريخ، متتبعًا أوجه نشاطه وآدابه، مستفيدًا من نماذج العمران وفنون الصناعة التى تطورت عبر هذه الحقبة الزمنية، وحتى مجئ الإسكندر المقدونى.

ساعد وادى النيل بما احتضنه من سهول خصبة على استقرار الإنسان فى هذه المنطقة من العالم، وما أن وصلنا إلى نهاية ما قبل الأسرات، حتى كان السكان يعتمدون كليًا على الزراعة والرى فى إنتاج طعامهم، وقد جرى هذا فى مصر العليا بصورة أسرع مما جرى فى الدلتا، مما شجع على نمو سكانى هائل، أما جنوب مصر العليا، فقد شجع اقترابها من مصادر الثروة المعدنية فى الصحراء الشرقية على نمو مجتمع متشابك العلاقات، ويرى بعض الدارسين أن الذهب مثلاً صار سلعة مهمة فى التجارة مع جنوب غرب آسيا، وقد شجع التبادل التجارى على نشوء مراكز اقتصادية وسياسية مهمة، وفتح الباب فى الوقت نفسه لبروز صراعات بين هذه المراكز رغبة فى حماية التجارة مع فلسطين ودول جنوب غرب آسيا، وعرفت مصر منذ وقت مبكر حكومة مركزية قوية، وحدد البلاط الملكى المقاييس الحضارية للبلاد، وصار الملك هو المنبع الأساسى للسلطة، وكانت هذه التقاليد هى التى حمت مصر أثناء فترات الغزو الأجنبى وانعدام الاستقرار الداخلى لأكثر من ثلاثة آلاف سنة، وهو ما يعده المؤلف، أكبر إنجاز فى عصر مرحلة ما قبل الأسرات.

وحين وصلنا إلى عصر الدولة القديمة والدولة الوسطى، كانت أركان الدولة توطدت ومعالمها اتضحت تمامًا، ويشير المؤلف فى هذا الجزء إلى مسألة مهمة، إذ اتضح له أن المؤسسات الخيرية كانت جزءًا أساسيًا من المجتمع المصرى القديم، كان الهدف منها أن تضمن المحافظة على مراكز العبادة التى تضم تماثيل للآلهة والملوك، كانت عبارة عن صناديق ينفق منها على الأشخاص العاملين فى هذه المراكز، وقد ضمت المؤسسات الخيرية إلى نفوذها معابد الأهرام، ويشير المؤلف إلى أن هذه المؤسسات إلى جانب تدعيمها للمعابد الإقليمية، صارت ركنًا من أركان السلطة المحلية.

وفى فصل تال، يتحدث المؤلف عن فلسفة الحياة عند المصريين، كما تبدت له من نقوش وعمارة وفنون الدولة الحديثة، ولا يرى فى تلك الفلسفة تغييرات جوهرية عما كانت عليه فى الدولتين القديمة والوسطى، فالتقاليد مثلت عنصرًا مهمًا للغاية فى حياة الناس، وتمتعت مصر بوحدة حضارية ولغوية ربطت ماضيها بحاضرها، تدعمها عقيدة دينية راسخة ومتميزة، وساهمت كثافة السكان فى خلق بيئة مواتية لتبادل وتوصيل الأفكار، وتمتع النظام الحكومى بسلطة هائلة حققت نوعًا من الاستقرار ارتضاه الناس ودافعوا عنه، وقد كان النظام الدينى وما تميز به من أساطير وشعائر تغلغلت فى كل طبقات المجتمع المصرى، مصدرًا أساسيًا لما اتسمت به فلسفة الحياة عند المصريين من تماسك.

ويكشف المؤلف فى الفصل الأخير الذى يتناول السنوات من ٦٦٤ ق.م، وحتى ٣٢٣ ق.م عن الوسائل التى واجهت بها المدينة المصرية ظروف اندحارها وتحولها إلى مستعمرة أو مقاطعة فى إطار الامبراطورية الإيرانية، كانت هذه الوسائل مزيجًا من الإذعان والمحافظة على الروح القديمة، وكانت التغير الأساسى فى نهاية هذه المرحلة، يتصل بصورة الملك الذى لم يعد إلهًا منزهًا عن الخطأ، بل كيانًا ربما ارتكب أفعالاً لا ترضى عنها الآلهة، وهو ما كان له تأثيره على المدنية المصرية إجمالاً.

□ □ □

الفردوس الدامى.. ٣١ يومًا فى الجزائر

نورى الجراح

بيروت، رياض الريس للنشر، ٢٠٠٠، ٤٦٥ صفحة، ٤٨ جنيهًا

نوري الجَرّاح

الفردوس الدامي

عين المثقف تلتقط ما وراء الحدث، فما بالك بعين الشاعر؟

المؤلف، وهو شاعر سورى معنى بثقافة أمته وتحولاتها فى زمن التحولات، زار الجزائر وتجول بين مدنها: قسنطينة وتيبازة وعنابة والجزائر العاصمة، قابل أناسًا عاديين، بشرًا ممن ينعكس عليهم الواقع الجزائرى المحبط والدامى نقصًا فى الرزق وتضييقًا فى العيش، ومثقفون ممن يعايشون هذا الواقع بوطأته التى تنالهم قبل غيرهم، بدأ المؤلف رحلته فى عام ١٩٩٨، أى بعد عشر سنوات من اندلاع الأزمة الدامية فى الجزائر، والتى بدأها شبان «الحيطيست»، وهى تسمية لهؤلاء الذين كانوا يسندون ظهورهم إلى الحائط طوال النهار فى شوارع الجزائر يائسين بلا عمل ولا أمل فى أى شىء، اندلعت الأزمة فى ٥ أكتوبر ١٩٨٨، وكل من التقاه المؤلف من مثقفين جزائريين، يحمل السلطة مسئولية اندلاع العنف فى البلاد الذى كانت حصيلته الأولى من القتلى حسب البيان الرسمى فى ١١ أكتوبر ١٦١ قتيلاً و١٤٥ جريحًا، فيما أكدت مصادر المستشفيات أن القتلى جاوزوا الخمسمائة، أما الجرحى فبالآلاف ويبقى الفساد أحد عوامل الأزمة ومحركها.

ملاحظة لافتة يرصدها المؤلف فى تجواله بالشارع الجزائرى الذين يملك تراثًا من الوطنية والمقاومة يشهد به العالم، فيما تغمره مشاعر من الولاء والاستلاب تجاه المستعمر «فرنسا» ولغته، وهو ما يطرح بقوة إشكاليات الهوية والذات الثقافية فى مواجهة الآخر، الذى يشير بعض المثقفين الجزائريين إلى دوره فيما جرى ويجرى.

كان منطقيًا والحال هكذا، أن يتعاظم دور التيار الإسلامى الأصولى فى مواجهة حالة الاستلاب الحضارى التى يعيشها الشارع الجزائرى، وقد فجر فوز جبهة «الإنقاذ» فى الانتخابات البلدية، ثم

عـــــــروض موجـــــــزة

التشريعية عداءً سافرًا تجاهها، إذ تم إيقاف المسار الانتخابى ووضع قيادات الجبهة فى السجن ليتخذ الصراع مسارات جديدة دموية، تلعب فيها أطراف عديدة داخلية وخارجية، ليصل الحال إلى ما آل إليه الآن، وتتحول «عروس المتوسط» إلى مرتع للنار والدم.

الشارع الجزائرى المنقسم بين أغنية «الراى» بشكلها البذئ العنيف الذى يدور حول الحرمان العاطفى والكبت الجنسى، وخطاب الجماعات الإسلامية المتشدد الذى يوسِّع دوائر المحرمات، ويحيل حياة الناس إلى كابوس يومى، يغوص فيه المؤلف برؤاه الشعرية واهتماماته الثقافية، يحضر ندوات، ويقابل عشرات الروائيين والصحافيين والشعراء والمسئولين، ويقدم سجلاً بالشهداء من رجال الإعلام فى الصحافة المكتوبة والمسموعة والمرئية، ليقدم عبر ذلك كله سببًا أكيدًا - وإن كان لا يحظى بمكانة يستحقها فى تحليلات الإعلام - للأزمة فى الجزائر، إنه الفراغ الثقافى الهائل الذى عاناه، ويعانيه المواطن الجزائرى.

□ □ □

سيكولوجية السياسة العربية - العرب والمستقبليات

محمد أحمد النابلسى

بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٩٩، ٣٧٥ صفحة



علم المستقبليات حديث نسبيًا، وتطبيقاته فى مجالات العلوم الإنسانية ما زالت فى طورها الأول، فهل يعنى هذا العلم بالاحتمالات والظنيات، أم بالإمكان الاعتداد بقياساته بعيدة المدى؟

أطروحات عديدة ظهرت فى الآونة الأخيرة تختص فى معظمها بعلم السياسة، ربما كان أشهرها أطروحة «نهاية التاريخ» لفوكوياما و«صراع الحضارات» لصمويل هنتنجتون، المؤلف يعرض لهما إضافة إلى دراسات أخرى بينها «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» للمفكر الفرنسى روچيه جارودى، أكثر من ثلاثين كتابًا من أهم الكتب فى الفكر السياسى المعاصر. يحللها المؤلف ويبدى فيها رأيًا نقديًا، مخصصًا بعض فصول كتابه لدراسة سيكولوچية السياسة العربية والشائعات، مشيرًا إلى الصراع العربى الإسرائيلى وعبثية الخطاب العربى العاجز عن التواصل فى زمن العولمة.

إن علم المستقبليات كما يقدمه المؤلف ويسعى إلى تعريفه، يبحث عن قوانين للمصادفة، فالحوادث التى تتكرر لا تحدث اعتباطًا، ومن ثم لا بد من البحث عن قوانين حاكمة تحكم هذا التكرار، من ناحية ثانية، وفيما يتصل بالسيكولوچيا. يعرض المؤلف فى فصوله العشرة لإساءة استخدام السيكولوجيا فى السياسة، خصوصًا فى مجالات الجاسوسية والشائعات والانتخابات والشعارات والإحصاءات ذات الأهداف المسبقة، ويقدم المؤلف أمثلة تطبيقية على هذه الاستغلالات.

لكن ثمة خطرًا - أو جانبًا سلبيًا على الأقل - لبعض تطبيقات علم المستقبليات، فالاستنتاجات الخاطئة لهذا العلم - وهذا أمر وارد حتمًا - تؤثر على الحاضر وتوجهه وفقًا لتصوراتها الخاطئة تلك، ولأن علم المستقبليات يرتبط أساسًا بالمعلومات، فثمة من يروج إلى أن من يملك المعلومات يملك الحقائق ويملك القدرة، بالتالى على التنبؤ بالمستقبل، وهى مقولة يرفضها المؤلف الذى يعطى أهمية أكثر لحسن توظيف المعلومات، وليس كميتها، ومن ثم، فإن عصر المعلومات سيكون ملكًا للقادرين على الاستفادة من المعلومة بتصنيعها، ثم توظيفها فى الاتجاه المناسب.

أفكار عديدة يطرحها المؤلف تحت عنوانه الكبير الذى مزج بين السيكولوچية والمستقبليات، وناقش تحته تحولات النظام العالمى الجديد فى السياسة والاقتصاد وغيرها.

□ □ □

لورانس.. ملك العرب غير المتوج

مايكل أشر

ترجمة: فاطمة نصر

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٠، ٥١٠ صفحات



«إن أفضل وسيلة لإخفاء الحقيقة، الإتيان بتعبيرات محيرة ومتضاربة ومضللة».

هذه واحدة من تعبيرات «لورانس» التى وردت فى أوراقه ونقلها عنه مؤرخوه وكاتبو سيرته، والتى مثلت برأى المؤلف دستور حياته.

كان «نيتشه» فيلسوف لورانس المفضل، هو الذى قال: إن كل روح عميقة تتطلب قناعًا، وقد ارتدى لورانس قناع المفارقة، فكان عزوفه عن الشهرة والأضواء، يخفى ميلاً شديدًا إليهما، وربما ذلك ما أضفى على سيرته تلك الهالة الأسطورية، التى دعمها لورانس بأكاذيب عديدة تضمنتها رسائله إلى أصدقائه ومجايليه.

زار المؤلف الأماكن التى زارها لورانس، واطلع على ما كتبه هو وما كُتب عنه، ووجد فى المحصلة، قدرًا لافتًا من التناقض، هدفه إضفاء بطولة زائفة على لورانس الذى كان مثليًا ومازوكيًا وغريب الأطوار وعميلاً للمخابرات البريطانية، وهى صفات سعى المؤلف إلى تأكيدها وإبرازها ليخدش الأسطورة، وليتحول «لورانس» من قائد مغوار ومحارب شجاع ناصر الهاشميين منذ ثورة الشريف حسين أمير الحجاز فى العام ١٩١٦، كى يتحرروا من قبضة الحكم التركى، وخاض معارك واجه فيها خطر الموت فى سبيلهم، إلى مجرد فتى شاذ يعانى فصامًا، ويحمل ميولاً استعراضية، وإن تخفَّت تحت قناع زائف من التواضع الجم.

يتوقف المؤلف مثلاً عند خطابين أرسلهما لورانس إلى اثنين من أصدقائه تناول فيهما حادثة واحدة، تحدث فى أحدهما عن ركوبه جمالاً، وفى الآخر صارت الجمال بغالاً، ويستنتج من هذا التناقض أن لورانس كاذب.

وفى موضع ثانٍ يخبرنا المؤلف أنه قطع مسافة فى الصحراء سالكًا نفس الطريق الذى سلكه لورانس دون نوم أو راحة، فوجد أن رواية لورانس كاذبة لكونه تفوق سرعته بمقدار الضعف عما استغرقته الرحلة من المؤلف برغم ثبات المسافة، وحين رفض لورانس الأوسمة والنياشين التى منحها له الملك چورج الخامس فى احتفال رسمى بقصر باكنجهام، لاعتراضه على اتفاقية «سايكس بيكو» التى رآها ظالمة للعرب، فإن المؤلف لا يرى فى هذا الموقف سوى «مبالغة استعراضية».

وسياحته المرهقة سيرًا على الأقدام فى صحراء شبه الجزيرة كذبة أخرى، فقد كان لدى لورانس دائمًا من يخدمونه ويرافقونه فى رحلاته تلك بعكس ادعاءاته، كما أن ارتداءه الزى البدوى - إلى حد أنه حضر به مؤتمر الصلح فى باريس عام ١٩١٩ - وإتقانه العربية كأهلها، فليس سوى جزء من إتقانه لدوره كضابط مخابرات ناجح.

أما اعتزازه بالأمير فيصل ابن الشريف حسين وملازمته له، فليس سوى انعكاس لميله نحو الجمال الذكورى، الذى رأى فى فيصل تمثيله الحقيقى، وكان أسلوبه للتوحد مع العرب عبر معاشرتهم ومحاكاة طريقتهم فى العيش والحياة، هو طريقه المضمون للتحكم فيهم، فقد رأى نفسه فى بلاد العرب، وكما يقول المؤلف: «سيدًا فى نظام إقطاعى» باختصار، ثمة ثار بين المؤلف ولورانس، كما يقول الدكتور عاصم الدسوقى فى تقديمه للكتاب، سعى الأول إلى أخذه، حتى أن شجاعة لورانس فى ميادين القتال وقدراته العسكرية التى شهد لها معاصروه، لم تكن سوى طريقة لمواجهة الخوف الشديد من الألم، الذى يرى المؤلف أنه والمازوكية - برغم تعارضهما - لازما لورانس طوال حياته، وهذه من متناقضات شخصيته المركبة.

كان لورانس يملك قصة وحيدة، حاول استثمارها ويضيف إليها ما جعلها دراما بكل المقاييس، لقد حول لورانس حياته كما يقول المؤلف إلى ملحمة، رواها بمهارة وروعة. وأوجد لنفسه ركنًا بين العظماء والفنانين وكتاب العصر، وحين حاول أن ينتمى إلى تلك الفئة بكتابات أخرى لم يحقق نجاحًا من أى نوع، فهل سعى هو إلى ذلك، أم أن المؤلف حمل لورانس أكثر مما يطيق، انطلاقًا من دوافعه الثأرية.

كان لورانس «أكثر بريطانى على قيد الحياة إثارة للاهتمام»، كما وصفته الصحف البريطانية عام ١٩١٩، كان «حديث المدينة»، كما وصفه چورج برنارد شو، وقد وضع ونستون تشرشل كتابه «أعمدة الحكمة» فى مصاف أعظم الكتب الإنجليزية.

فهل كان كل ما فعله لورانس الذى مات فى حادثة دراجة بخارية عام ١٩٣٥، مرجعه رغبته فى أن يصبح «أكثر إنسانية» كما عبر بنفسه؟، أم «استجابة لميوله الاستعراضية العكسية، التى هى التعبير الاجتماعى عن المازوكية»، كما يقول المؤلف؟

يبدو أن كلا التفسيرين صحيح، وتلك غواية التاريخ.

عماد الغزالى

□ □ □

آفاق الفن التشكيلى على مشارف القرن الحادى والعشرين

مختار العطار

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠، ٢٣٠ صفحة، ١٥ جنيهًا



الذين يتابعون ما آل إليه حال الفنون التشكيلية فى السنوات الأخيرة، أدهشهم حتمًا هذا التداخل «المربك» لأجناس أخرى ضمتها فنون الرسم والنحت والتصوير، فلم تعد اللوحة ألوانًا وظلالاً وتعابير فوق مسطح محدد، صارت موسيقى ورقصًا وإضاءة وتمثيلاً وفوتوغرافيا، صار «العمل المركب» عنوان

عـــــــروض مـــــوجـــــزة

المرحلة الجديدة، وأُدخلت خامات هى مما يستخدم فى حياة الناس اليومية، ضمن العمل الفنى، صار التمييز بين الفن واللافن عملية معقدة، خصوصًا أن الاتجاهات المستحدثة تلك، وجدت من يدافع عنها ويفلسف توجهاتها.

يتضمن الكتاب فصولاً أربعة، يعرض المؤلف فى الأول منها لاتجاهات فنية جديدة، انتعشت مع بداية السبعينيات لتزيح من طريقها «فلول الرواد» بحسب تعبير المؤلف، وكانت الانطباعية، هى الإرهاصة الأولى للتطورات المتلاحقة التى تشهدها فنون التشكيل فيما بعد، فمعها، بدأ إهمال الموضوع والتركيز على سطح اللوحة وكيفية تلوينه، ويعتبرها المؤلف، الجذر الحقيقى لأحدث الاتجاهات التصويرية التى اتخذت شكلها النهائى مع نهاية السبعينيات. وهو فن «المنيمال» ويعنى: أبسط أنواع الرسم التجريدى وأكثره اختصارًا واختزالاً.

وكان عقد السبعينيات هو الذى شهد تبلور ما اصطلح على تسميته بالفن الحديث، ورتبت مدارسها الفنية بحسب ظهورها على النحو التالى: الفن التجريدى التعبيرى، الفن الجماهيرى أو البوب آرت، الفن البصرى أو الأوب آرت، الفن المتحرك، الفن الإدراكى، الفن الأرضى، الفن الجسدى.

هذه المدارس، انخرط فيها مخضرمون وشباب، لكن بقيت أسماء كبيرة مثل سلڤادور دالى فنان السريالية الأشهر، يبدع وفق خياراته حتى وفاته قبل سنوات. ومع تلك المدارس ظهرت توجهات أخرى يشير المؤلف إلى بعضها ويحلل طرائقها فى الإبداع، ومنها التشخيصية الروائية والفن الشبقى والفن السياسى والسوبرياليزم والبنائية، وهى آخر صيحات الفن التشكيلى.

ويقدم المؤلف فى الفصل الثانى من الكتاب ما يشبه «جولة المعارض» فى مصر وخارجها، وهى مقالات نقدية يمكن اعتبارها نماذج تطبيقية لبعض المذاهب والمدارس الفنية.

وفى فصل بعنوان «مداخل الحداثة التشكيلية يتناول المؤلف مفاهيم الأصالة والمعاصرة فى الفن، ويعرض لبعض إشكاليات الفن الحديث، ويؤكد فى دراسة عنوانها «بانوراما الفن المصرى الحديث» أن هذا الفن غابت عنه الهوية فى الآونة الأخيرة، إذ صارت السمة الغالبة للإبداع المصرى تتفق مع المفاهيم الغربية من حيث البعد عن الطبيعة، فقد صار أكثر اهتمامًا بالشكل، وتغافل إلى حد بعيد المضمون الاجتماعى والإنسانى.

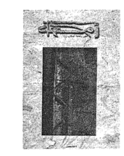
ويخصص المؤلف الفصل الأخير من كتابه لعمليات «القرصنة»التى تتعرض لها عشرات المتاحف فى العالم كله، فقد انتعشت مافيا الفنون الجميلة وتعددت أساليبها، صارت كنوز العالم ـ بحسب قوله ـ محاطة باللصوص.

□ □ □

دوريات

أمكنة

العدد الثانى، ٢٠٠٠



لعل أجمل ما فى هذه الدورية موضوعها، الذى يبدو جديدًا ومغايرًا، وعنوانها يشى بما تنطوى عليه صفحاتها التى أخرجت بعناية ودقة بالغتين، فهى تعنى بثقافة المكان، وتذكرنا بمقولة بديعة للأديب الكولومبى الأشهر حائز جائزة نوبل فى الآداب «ماركيز»، يقول: للأشياء حياتها الخاصة بها، علينا فقط أن نوقظ روحها. فإلى جانب محتواها القيم، وفكرتها البديعة، فإن «أمكنة» تقوم على أقلام شابة واعدة، مواهب فى الكتابة والتصوير والفنون البصرية إجمالاً، تصدر بجهود تعوِّض المحبة والإيمان عوارها، فهل يكفى ذلك لاستمرار مطبوعة بهذا المستوى؟ لا نراهن على الإجابة، ونبقى خارج دوائر التمنى.

تقوم «أمكنة» على جدل الإنسان مع المكان، فيكتب علاء خالد عن حى مارجرجس الشهير بالقاهرة القديمة تصاحبه عدسة سلوى رشاد، فيجرى حوارًا مع عم مكرم أيوب الذى يقيم بالحى منذ أربعين عامًا، فيحكى عن صداقاته القديمة وناس الحى الذى ضم يهودًا عاشوا جنبًا إلى جنب المسلمين والأقباط لعقود طويلة، وحوار آخر مع السيدة عايدة زكى التى تقيم فى الحى منذ نصف قرن وآخرين، والحوارات جميعها تؤكد العلاقة الحميمة التى تربط الإنسان بالمكان، إذ لا يصبح الأخير مجرد وعاء يضم بشرًا يعيشون بين جنباته، فهو جزء أصيل منهم يستحيل فصله عنهم أو نزعهم منه.

تتضمن الدورية أيضًا محورًا تحت عنوان «سيرة الصحراء» يضم مقالات للورانس العرب ومايكل آشر وأحمد حسنين بك وحوارًا مع صبرى موسى، وفى قسم بعنوان «ضرورة الخيال» يجرى محمد أبو النجا حوارًا مع الفنان الكبير حسن سليمان الذى جاوز الخامسة والسبعين ومازال يمسك براية الخيال ويمتشق حسام التمرد.

دراسات عديدة تضمها «أمكنة» التى حررت بلغة حداثية رفيعة، وصيغت موضوعاتها بحميمية تؤكد الجدل بين الإنسان والمكان، وهو جدل يقاوم حالة اليأس الى أشاعت درجات من اللا انتماء بين الأجيال الجديدة.

□ □ □

كتب أجنبية

Life in the Jungle: My Autobiography

(الحياة فى الغابة ـ سيرتى الذاتية)

Michael Heseltine

Hodder, 2000, 304PP., £20.00



ظل مايكل هيزلتاين نائب رئيس الوزراء البريطانى السابق وأحد زعماء حزب المحافظين، يرفض الحديث لأى وسيلة إعلامية بعد هزيمة حزبه فى انتخابات مايو عام ١٩٩٧، أمام حزب العمال، وذلك على أساس أنه سيصدر كتابًا عن سيرته الذاتية، وسيقول فيه كل شىء عن حياته السياسية ومعاركه باعتباره أحد أهم زعماء المحافظين الذين لعبوا دورًا شديد الأهمية فى الحزب وفى الدولة، وكان قاب قوسين أو أدنى من رئاسة الحكومة.

ثم صدر الكتاب فاشبعته الصحف البريطانية نقدًا وتشريحًا، فالكتاب الذى طال انتظاره لم يقل الكثير الذى يمكن اعتباره جديدًا، وأول الانتقادات التى تعرض لها الكتاب أنه يفتقر إلى «الروح»، فهيزلتاين صاحب المشروعات الاقتصادية الكثيرة، لم يكن لديه الوقت للكتابة فعهد إلى صديق له وخريج جامعة أكسفورد مثله، هو الصحفى البارز انطونى هوارد بكتابة الكتاب من خلال الأفكار التى وضعها له، وقد حاول هوارد بامتياز أن يجعل ما هو غير مقروء أمرًا يمكن قراءته، لكنه لا يمكن أن يختلق شيئًا ما دام ليس لديه مادة تدعمه، وقد تحدث هيزلتاين كثيرًا عن حياته خلال الدراسة الجامعية وعمله فى القطاع الخاص قبل أن يدخلنا معه إلى عالمه السياسى الذى للمفاجأة لم يكشف عنه الكثير غير ما هو معروف، لقد ظهر هيزلتاين فى غابة السياسة بشكل مؤثر فى سبعينيات القرن الماضى، ثم دخل الوزارة مع تولى المحافظين السلطة بزعامة مارجريت تاتشر عام ١٩٧٩، وكان من المتميزين بين الوزراء وأطلقت عليه الصحافة لقب طرزان، وهو لقب يناسب «غابة السياسة» لكنه اختلف بشدة مع تاتشر فى النصف الثانى من الثمانينيات وتحداها على زعامة الحزب عام ١٩٩٠، وهو التحدى الذى أجبر تاتشر على الاستقالة من رئاسة الحكومة والحزب، لكنه فشل فى الفوز بزعامة الحزب والحكومة عندما دخل التحدى مرة ثانية بعد استقالة تاتشر ليفوز جون ميجور بالسلطة، وعاد هيزلتاين بعد ذلك إلى الحكومة إلى أن أصبح النائب الأول لرئيس الوزراء قبيل هزيمة الحزب، ودخل فى معارك عديدة، لكن الكتاب لا يكشف الكثير من الأسرار، بل يتجنب الحديث بصراحة عن الخلافات مع تاتشر.

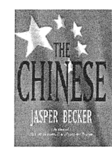
□ □ □

The Chinese

(الصينيون)

Jasper Becker

J murray, 2000, 464pp., £25.00

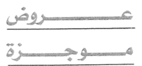


الخلاصة التى يخرج بها قارئ هذا الكتاب هو أنه لا جديد تحت شمس الصين، فسواء كانت تحت الحكم الامبراطورى أو تحت الحكم الوطنى أو الشيوعى، فالنتيجة واحدة، وهى أن الطغيان هو العملة السائدة فى دولة يرجع تاريخها إلى ٤ آلاف عام.

وطبقًا للمؤلف، فإن أحوال الصينيين لم تتحسن سواء بعد انهيار الامبراطورية عام ١٩١٢، أو بعد الثورة الشيوعية عام ١٩٤٩، بل إن الأحوال تسوء ولا فرق بين الموظفين فى العهد الامبراطورى أو فى العهد الشيوعى لأن المتضرر فى الحالتين هم الناس العاديون، وكما نرى فإن هذا الحكم قاس، لكنه يأتى من متخصص فى الشئون الصينية يعمل مديرًا لمكتب إحدى الصحف الغربية فى بكين، وقد سبق للمؤلف أن وضع كتابًا بعنوان «أشباح جائعة.. سر المجاعة الصينية»، وهو فى هذا الكتاب يستأنف القصة متحدثًا عن عصر ما بعد «ماو» بعد أن أشبع حكم «ماو» نقدًا فى الكتاب الأول.

ويقول جاسبر بيكر إن أحوال المواطنين العاديين فى الريف لم تتحسن، بل إن الامتيازات التى كانوا يحصلون عليها فى عهد «ماو» مثل الرعاية الصحية والتعليم، توقفت بعد إصلاح دينج شياو بنج، كما أن النهضة الاقتصادية العملاقة فى الصين التى يتحدث العالم عنها فاسدة، ويقول: إن على المرء أن ينظر بشكل معمق، فالمشروعات معظمها مدينة وعلى وشك الإفلاس، وهناك مشروعات أخرى تحرم العمال من أبسط حقوقهم.

أما الأقليات، التى سافر المؤلف إلى مناطقها وتعرف على مشاكلها عن قرب، فهى محرومة من أى نوع من الحقوق.



ومواطنوها يبلغ متوسط دخل الواحد منهم ٢٠ دولارًا فقط في العام. والحكومة المركزية في بكين غير مهتمة في الأساس بحل مشاكلهم.

هل بالغ المؤلف في تصوير مشاكل الصين.. ربما. فالمشاكل التي يقول إنه كصحفي يعانيها قد تجعله يقسو في حكمه على الأوضاع، ويكفي أنه يقول: إن الأمر يستغرق يومًا، لكي تتمكن من إجراء مكالمة تليفونية واحدة، فالبيروقراطية لا تزال لها الكلمة العليا في الصين.

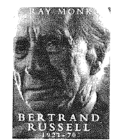
□ □ □

Bertrand Russell, 1921-1970: The Ghost of Madness

(برتراند راسل ١٩٢١-١٩٧٠: شبح الجنون)

Ray Monk

Jonathan Cape,2000, 574pp., £25.00



يشن مؤلف الكتاب راي مونك، وهو أستاذ بريطاني للفلسفة هجومًا صاعقًا على الفيلسوف البريطاني الشهير برتراند راسل، فهو من وجهة نظره لم يفعل شيئًا ذا قيمة خلال أعوامه الخمسين الأخيرة. لقد تناول مونك حياة راسل قبل عام ١٩٢١ في كتاب سابق، ويعد الكتاب الجديد هو الجزء الثاني بشأن سيرة حياة راسل، لكن الكتاب ليس سيرة حياة عادية بقدر ما هو نقد مرير لأفكار راسل وآرائه السياسية وحياته الخاصة. فالمؤلف يعتقد أن راسل ليس سوى كاتب متوسط المستوى وسياسي فاشل وساذج وهو بارد الإحساس وزوج غير آدمي وأب سيئ غير قادر على الحب. ويقول مونك أن راسل لم ينتج شيئًا مفيدًا خلال تلك السنوات من ١٩٢١ حتى ١٩٧٠، أي عام وفاته، وكل ما سبق تهم خطيرة تتعلق بأحد أبرز رموز الفلسفة في العصر الحديث والفائز بجائزة نوبل.

ويتناول الكتاب ٣ مجالات رئيسية لنشاط راسل، الأول: هو أفكاره الفلسفية، حيث يجادل مونك أنه ليس هناك جديد في هذه الأفكار وأن مؤلفات راسل التي وضعها منذ بداية القرن وحتى ١٩٢١ تمتاز بأصالتها وجديتها بعكس ما تلاه، ثم يكتب مونك عن حياة راسل الزوجية الفاشلة (تزوج مرتين بعد ١٩٢١) ويقال إنه كان على علاقة بزوجة ابنه، أما أنشطة الفيلسوف السياسية فكانت مثار انتقاد، فقد وقف ضد التسلح وانضم للجنة مكافحة التسلح النووي وشارك في مظاهرات عديدة مناهضة للتسلح النووي وللولايات المتحدة.

وقد يتفق أو يختلف البعض حول ذلك النشاط أو التوجه إلا أن المشكلة أن مؤلف الكتاب يتخذ من كل ذلك ذريعة للهجوم الشديد على راسل، بل إنه حاول في الكتاب تأويل كتابه لاتهامه بأنه معاد للسامية.

□ □ □

Burt Lancaster: An American Life

(برت لانكستر: حياة أمريكية)

Kate Bufard

Alfred A.Knopf, 2000,447PP., £27.50



معظم مشاهدي السينما الأمريكية يعرفون النجم الأمريكي الشهير برت لانكستر القوي الذي بدأ حياته كلاعب سيرك، ثم تحول إلى هوليوود ليصبح واحدًا من أهم نجومها.

ويتناول الكتاب أدق التفاصيل في حياة لانكستر، الذي يقترب حاليًا من عامه الثمانين، ومثل في أكثر من ٧٠ فيلمًا، وقد أشاد كثيرون بقدرات لانكستر والتزامه، إلا أن الكتاب يقتبس عن المخرج سيدني بولاك قوله إن عظمة لانكستر تكمن في أنه عرف من هو وماذا يساوي أكثر من ممثل أمريكي آخر.

ولم يكن لانكستر يتردد في رفض أي عمل لا يروق له رغم أن ذلك يمكن أن يضر بمسيرته الفنية.

بعد دراسة قصيرة في جامعة نيويورك ترك لانكستر الجامعة ليعمل في السيرك مع صديق طفولته نيك كوكيا، وفي عام ١٩٤٥، وبعد أن انضم لمدة قصيرة إلى الجيش عمل في مسارح برودواي لتلتقطه هوليوود، وسرعان ما أصبح بطلاً سينمائيا. وقد رفض لانكستر بطولة فيلم «عربة اسمها الرغبة» رغم أن الفيلم حقق شهرة كبيرة إلا أنه لم يندم على قراره، لكن أراد أن يلعب بطولة فيلم «الأب الروحي» وفاز بالرهان مارلين براندو.

ويقول الكتاب: إن الفرق بين لانكستر وبراندو أن الأول لم يشوه سمعته وعمله، بل ظل ملتزمًا بمهنته وهو دائمًا يفتخر بكونه ممثلاً، وله رأي جيد بشأن السينما فقد قال ذات مرة: كلنا منسيون عاجلاً أم آجلاً، لكن الباقي هو الأفلام.

وعلى عكس الممثلين الذين نفختهم الأنا أو أضاعهم الفشل فإن برت لانكستر لا زال يعمل ويتمتع بصحة جيدة، وهو يتبع نصيحة زوجته بأن يعمل في فيلم واحد في العام.

□ □ □

Own Goal: How Egotism and Greed Are destroying Football

(كيف تدمر الأنانية والطمع كرة القدم)

Simon Freeman

Orian Publishing Co., 2000, £9.99



ينظر كثيرون إلى كرة القدم على أنها لعبة مجنونة، وهذا ليس بجديد إلا أن الأمر كما يقول مؤلف هذا الكتاب زاد بشكل مثير، بحيث وصل الجنون إلى ذروته، فالأرقام الفلكية التي يتم بيع اللاعبين بها وانتقالهم من نادٍ إلى آخر لا يمكن تصديقها، كما أن المدربين يجري طردهم من وظائفهم خلال أسابيع، ففي حمى الرغبة في الفوز، يتم تحميل المدربين المسئولين، ولذلك فإن من النادر أن يبقى مدرب لفترة طويلة في عمله.

أما سلوك الجماهير، خاصة في بعض دول أوروبا مثل بريطانيا وألمانيا وتركيا، فقد تحول إلى العنف بصورة غير مسبوقة، ولم تنفع حتى الآن كل الإجراءات المشددة، بل والقمعية في بعض الأحيان في إعادة النظام والأمن إلى ملاعب كرة القدم، ويتناول الكتاب قضية النجوم في عالم كرة القدم فهم حسب رأي المؤلف ليسوا قدوة بأي حال من الأحوال والأمثلة لا تعد ولا تحصى على سلوك سيئ لكثير من النجوم داخل وخارج المستطيل الأخضر، ثم إن النجوم الأجانب الذين تشتريهم الأندية يحرمون البراعم المحلية الصغيرة من النمو والظهور، وقد قضى هؤلاء النجوم أو كادوا على مدارس تنشئة اللاعبين، فالأندية تحتاج إلى اللاعب الجاهز، وليست على استعداد لإضاعة الوقت والمال في تربية لاعبين جدد.

ويحتشد الكتاب بأسرار كثيرة بعضها غير سار وغير أخلاقي عن سلوك اللاعبين، فالمؤلف الذي كان رئيسًا لقسم التحقيقات في صحيفة صنداي تايمز البريطانية تابع عن قرب عالم كرة القدم في بلاده وفي أوروبا وأخرج لنا هذا الكتاب المثير.

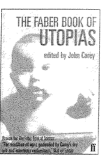
□ □ □

The Faber book of Utopias

(كتاب فابر للمدن الفاضلة)

Edited by John Carey

Faber and Faber, 2000, £9.99



يطوف بنا مؤلف الكتاب في عوالم المدن الفاضلة التي تصورها المفكرون والفلاسفة الغربيون في أذهانهم، ثم وضعوها في كتب ظلت على مدى مئات السنين تثير الحنين والشوق إلى هذه المدن.

لقد حرم أفلاطون في مدينته الفاضلة الشعراء من دخولها، كما أن جيرار وينستانلي زعيم حركة الخناجر الأوروبية في القرن السابع عشر، قال إنه يجب إعدام كل المحامين وإبعادهم عن المدينة الفاضلة.

ويبدأ جون كاري تاريخه للمدينة الفاضلة من ٢٠٠٠، قبل الميلاد.

وهو يقول إن المدينة الفاضلة قديمة قدم الإنسان الذي كان يحلم بمكان لا وجود فيه للحقد أو الضغينة يسيطر عليه العقلاء والمفكرون.

وكان لفظ «يوتوبيا» أو المدينة الفاضلة قد نحته المفكر الإنجليزي الشهير توماس مور عام ١٥١٦، عندما وضع كتابًا تحت اسم «يوتوبيا».

وقد أخذ مور تلك الكلمة من اللغة الإغريقية، وهي تعني «لا مكان» أي أنه لا مكان في الأرض لمثل هذه المدينة.

إلا أن «لا مكان» سرعان ما تحولت إلى «مكان جميل» استخدمه الأدباء والمفكرون في أعمالهم مثل عمل جورج أورويل الشهير «١٩٨٤».

ويعرج كاري في كتابه على المؤلفات التي تناولت أو تحدثت عن المدينة الفاضلة مثل مؤلف رديارد كبلنج «كتاب الغابة».

كما يتضمن الكتاب حديثًا عن الشعراء الذين تصوروا المدينة الفاضلة. وبالطبع فإن المؤلف تحدث فقط عن المدينة الفاضلة من وجهة نظر غربية، فليس هناك في كتابه مكان لوجهات نظر أخرى مع أن هناك مؤلفين كثيرين من حضارات أخرى تحدثوا أيضًا عن المدن الفاضلة.

□ □ □

اجتماع

التحولات فى الشخصية المصرية

عزة عزت

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٠

بسبب التغييرات الانقلابية التى شهدتها مصر فى ربع القرن الأخير، حدثت تحولات فى الشخصية المصرية طال أحيانًا بعض ثوابتها. فهل ما زال المصريون على ما كانوا عليه قبل هذه التحولات، ما الذى تغير، ما الذى استمر، هذا ما تناقشه المؤلفة، مستندة إلى ملاحظات شخصية وبحوث ميدانية، ومتابعة للأمثال الشعبية بوصفها تعبيرًا دقيقًا عن قناعات الشخصية وأسلوبها فى التكيف فى مرحلة زمنية معينة.

■■■

The Unexpected Legacy of Divorce: A 25 Year Landmark Study

(الميراث غير المتوقع للطلاق: دراسة فارقة على مدار ٢٥ عامًا)

Judith Wallerstein, Julia Lewis, and Sandra Blakeslee

Hyperion, 2000, 347 PP., $24.95

هذا هو الجزء الثالث من دراسة بدأت عام ١٩٧١، تبحث حالة ٦٠ أسرة بعد وقوع الطلاق فيها، متتبعة أثر الطلاق على مستقبل الأبناء. فى عام ١٩٨٩ كتبت المؤلفتان جوديث والرستين وساندرا بليكسلى عن حالة هؤلاء الأبناء بعد ١٠ إلى ١٥ سنة من حدوث الطلاق، وكيف أن نصفهم اتسم فى مرحلة المراهقة بالقلق والغضب وتواضع مستوى النجاح العلمى. ولكن فى دراستها هذه تستنتج والرستين شيئًا آخر لم يكن ببالها، وهو أن الأثر الرئيسى للطلاق لا يظهر على الأبناء فى مرحلة الطفولة أو المراهقة، وإنما يظهر فى سن النضوج ومرحلة تكوين أسرة وعلاقات رومانسية جادة. فقد وجدت المؤلفة فى هؤلاء الأبناء الذين تتراوح أعمارهم الآن بين أواخر العشرينيات وأوائل الأربعينيات أن ٦٠٪ منهم لم يتزوج مطلقًا، أما المرتبطون منهم فيجدون مشاركة الحياة مع شخص آخر أمرًا فى غاية الصعوبة.

■■■

Changed Identities: The Challenge of the New Generation

(هويات متغيرة: تحدى الجيل الجديد)

Mai Yamani

Brookings Inst Press, 2000, 176PP., $19.95

دراسة عن جيل الشباب فى المملكة العربية السعودية أعدتها الباحثة السعودية المتخصصة فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية «مى يمنى». فقد حاولت التعرف على رؤية الشباب أنفسهم من خلال مقابلات شخصية مع شباب سعودى تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٣٠ عامًا ويشكلون نصف عدد السكان فى المملكة ومعظمهم من الطبقة المتوسطة الحديثة وبعضهم من الأسرة المالكة - ووجدت أنهم يختلفون عن جدودهم الذين عاصروا الحياة البدوية، كما يختلفون عن آبائهم الذين تعودوا على الوفرة الاقتصادية، حيث يوجد لديهم شعور بأن هذه الوفرة بدأت تنتهى. وأغلبهم يريد مساحة أوسع للتعبير وقيودًا اجتماعية أقل، كما ينتقدون انتشار نظام «الواسطة» الذى توزع عن طريقه الوظائف. ولكنهم أيضًا رغم سفرهم واطلاعهم على الخارج لا يريدون التخلى عن الدين والتقاليد، ولكنهم يرغبون فى تفسير أكثر ليبرالية للإسلام.

تاريخ وآثار

الأرقام العربية

جريتا حيدر

الكويت: دار سعاد الصباح، ٢٠٠٠

حول أصل الأرقام التى نستخدمها اليوم، هل هى عربية أم أجنبية، ثمة اختلافات فيما يتصل بأصول هذه الأرقام توردها المؤلفة وتقدم وجهة نظرها فى القضية.

■■■

أهل الكهف.. قراءة فى مخطوطات البحر الميت

هالة العورى

بيروت: دار رياض الريس للنشر، ٢٠٠٠

وثائق قمران وفلسطين دونت تحت الاحتلال الرومانى، وكانت المفارقة أن اكتشافها جاء بعد ألفى عام، وفلسطين ترزح تحت الانتداب البريطانى والاستيطان الصهيونى على أشده، وهذا الكتاب يعرض لسيرة هذه المخطوطات ومحتوياتها التى فجرت خلافات حادة فى الأوساط الدينية انطلاقًا من حقيقة تهويد المسيحية فى بلاد الغرب.

■■■

الجمال والتجميل فى مصر القديمة

محمد فياض وسمير أديب

القاهرة: دار نهضة مصر، ٢٠٠٠

كانت المصريات هن أول من استخدمن الكحل للعيون، والينسون لتعطير الفم، كما استخدموا أملاح الحديد وغيرها لتجميل البشرة وتلوينها، كما افرطت المرأة فى استخدام الحلى المصنوعة من الذهب لتبرز مفاتنها.

■■■

نظرات فى آرنولد توينبى

السيد أمين شلبى

القاهرة: دار قباء، ٢٠٠٠

ارتبط اسم توينبى بعمله الضخم «دراسة للتاريخ» الذى يقدم رؤية بانورامية للتاريخ ومفهومًا شاملاً للوجود الإنسانى، وهذا الكتاب لا يسعى لانتقاد أو إعادة قراءة ما كتبه توينبى، إنما يبحث فى مصادره ومكوناته الفكرية، التى مكنته من تتبع الحضارات القديمة والمعاصرة وملاحقة تطوراته، وكذلك فيما وجه إليه من نقد، ومكانته فى التاريخ الثقافى والإنسانى.

■■■

قبيلة شمر.. متابعة وتحليل

هشّال بن عبد العزيز الخريص

المؤلف

توزيع: دار الساقى، ١٩٩٩

تاريخ لمسيرة هذه القبيلة وعاداتها وتقاليدها وجذورها الأصيلة الممتدة فى منطقة الجزيرة العربية منذ العصر الجاهلى، ثم العهد النبوى، فعهود الفتوحات الإسلامية، وقد تعرضت هذه القبيلة للتمزق فيما تلى ذلك من عهود، لكن بقيت سماتها الأصيلة تلف كل المنتسبين إليها، وهى الشموخ والتواضع والرفق والمروءة، إنها السمات العربية الأصيلة التى يسعى المؤلف إلى استعادتها فى الجسد العربى عبر دراسته لتاريخ قبيلة شمر.

■■■

The Last Kaiser: William the Impetuous

(القيصر الألمانى الأخير: ويليام الطائش)

Giles Macdonogh

Weidenfeld & Nicolson, 2000, 544 PP., £25.00

حول الامبراطور الألمانى الأخير الذى يلام على وقوع أوروبا كلها فى الحرب العالمية الأولى. ويعتبره المؤرخون الأوروبيون نموذجًا ساخرًا لمآسى الحكم بالوراثة. «لولا أنه ورث العرش كان لا يمكن أن يتولى مثل هذا الشخص أى منصب مهما كان» هكذا يقول مؤلف هذا الكتاب فى مجال استعراضه لتصرفات ويليام الثانى وسمات شخصيته التى اتسمت بالضعف والتردد والعجرفة فى آن واحد.

■■■

Valley of the Golden Mummies

(وادى المومياوات الذهبية)

Zahi Hawass

Auc press, 2000, 211pp, L.E.175, $49.50

يعد الاكتشاف الحديث لوادى المومياوات الذهبية بالواحات البحرية أهم كشف أثرى منذ مقبرة توت عنخ آمون. فلم يحدث أن وجد هذا العدد الهائل من المومياوات فى مكان واحد؛ عشرة آلاف مومياء لعائلات كاملة ومجوهرات وخزفيات واقنعة مرصعة من العصر الرومانى. هذا الكتاب الذى كتبه الدكتور زاهى حواس قائد عملية التنقيب، يتحدث عن الحياة والعادات والمعتقدات الدينية التى ارتبطت بهذا المجتمع. كما يحتوى الكتاب على أكثر من ٢٥٠ رسمًا وصورة فوتوغرافية، أغلبها لم ينشر من قبل.

■■■

The Pre - Islamic Middle East

(الشرق الأوسط قبل الإسلام)

Martin Sicker

Praeger Pub, 2000, 240pp., $65.00

يتناول المؤلف التاريخ السياسى للشرق الأوسط من العصور العتيقة وحتى الفتح العربى من منظور سياسى / جغرافى. ويحاول التدليل على أن العوامل الجغرافية والدينية التى يخضع لها القرار السياسى كانت دائمًا وراء تقديم حلول عسكرية للمشاكل السياسية.

ومن اللافت أن المؤلف بجانب تدريسه للعلوم السياسية بجامعة جورج واشنطون يعمل مستشارًا فى حكومة الولايات المتحدة، كما شغل فيها مناصب تنفيذية عليا.

تراجم وسير

العقد الفريد (١٩٤٢-١٩٥٢) عشر سنوات مع حسن البنا

حسان حتحوت

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠

سيرة ذاتية للدكتور حتحوت الذى عرفه الأطباء أستاذًا متميزًا فى طب النساء، وعرفه أهل القلم كاتبًا متميزًا وشاعرًا مجيدًا، وعرفه الإسلاميون الحركيون معلمًا جمع - كما يقول عنه الدكتور محمد سليم العوا - بين السعى الدءوب لنصرة الإسلام وفكرته والفقه العميق بتنزيل أحكامه على واقع الناس. يقدم الكتاب رؤى عميقة كتبها المؤلف لعديد من القضايا التى ما زالت تشغلنا حتى اليوم مثل العلاقة بين الإسلام والديمقراطية، والعلاقة بين الحركة الإسلامية والحكم، إنها تجربة خصبة فى العمل الإسلامى والحركى معًا.

■■■

سيرة السيد يعقوب المصبح

توفيق خليل

عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠

حوارات أجراها المؤلف مع صاحب السيرة، أضاء جوانب كثيرة من حياته وروافده الثقافية والإنسانية.

■■■

فن الترجمة

محمد عنانى

القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، ٢٠٠٠

بعض حصاد التجارب التى مرَّ بها دارس مارس الترجمة على مدى أكثر من ثلاثة عقود، تصدى فيها لنصوص فى المسرح والشعر والرواية والنقد وغيرها، وهذا الكتاب لا يقدم آراء نظرية، وإنما تطبيقات عملية لمشكلات الترجمة، إنه كما يقول المؤلف، فى صلب عملية الترجمة.

■■■

وليم سليمان قلادة.. مدرسة الوطنية المصرية

مقالات ودراسات

القاهرة: أصدقاؤه وتلاميذه، ٢٠٠٠

بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لرحيل المستشار الدكتور وليم سليمان قلادة، يقدم أصدقاؤه وتلاميذه مجموعة من الدراسات تتناول جوانب مختلفة من حياته. فيكتب المستشار طارق البشرى «وليم قلادة الذى عرفته»، ويكتب أنور عبد الملك «المواطنة فى القلب»، ويكتب محمد سليم العوا «فى وداع وليم سليمان قلادة».

بين المشاركين فى الكتاب الأنبا موسى ورفعت السعيد ونبيل عبد الفتاح وجمال الغيطانى ورشدى أبو الحسن وموريس أسعد. والمقالات جميعها تتناول سيرة الدكتور وليم وعطاءه الوطنى والإنسانى.

Hegel: A Biography

(هيجل: سيرة حياة)

Terry Pinkard

Cambridge University Press, 2000,780 PP., $39.95

فى مجال عرضه لحياة الفيلسوف الألمانى ويلهايم فريدريش هيجل (١٧٧٠-١٨٣١) يتناول المؤلف وهو فيلسوف أيضًا، الأسباب التى جعلت الفلسفة تحتل تلك المكانة المركزية فى ألمانيا مع بداية القرن التاسع عشر.

Doris Lessing: A Biography

(دوريس لسنج: سيرة حياة)

Carole Klein

Caroll & Gral, 2000,283 PP., $26.00

سيرة الروائية الإنجليزية الشهيرة صاحبة روايات «المفكرة الذهبية» ١٩٦٢، و«الطفل الخامس» ١٩٨٨، والإرهابى الطيب ١٩٨٥. وقد ولدت الكاتبة فى روديسيا البيضاء فى أفريقيا قبل أن تغادر إلى إنجلترا عام ١٩٤٩. ومعروف عنها تأثرها الشديد بالصوفية، وعشقها للقطط واهتمامها أخيرًا بالخيال العلمى.

Bellow: A Biography

(بيلو: سيرة حياة)

James Attas

Ranelom House, 2000,686 PP., $35.00

قصة حياة الأديب الأمريكى الحاصل على جائزة نوبل فى الآداب سول بيلو، والذى لا يزال على قيد الحياة فى سن الخامسة والثمانين. يكتبها المؤلف جيمس أتلاس فى شكل دراسة موسعة، حيث قام بمقابلة كل معارف سول بيلو وقرأ كل أعماله محاولاً تقديم تحليل لشخصية الأديب بكل جوانبها السيكولوجية الغريبة التى تفسر الطريقة التى عاش بها الأديب حياته، وعلاقاته بزملائه، وعلاقاته بزوجاته، كما يحاول ربطها بنوعية الشخصيات التى ظهرت فى أعماله الروائية.

Einstein in Love: A Scientific Romance

(إينشتاين محبًا: قصة حب علمية)

Dennis Overbye

Viking, 2000,416 PP., $27.95

حتى وقت قريب، لم يكن معروفًا الكثير عن حياة إينشتاين المبكرة، ولكن منذ عشر سنوات تقريبًا، ظهرت فى المزادات الرسائل الشخصية المبكرة لإينشتاين الصغير. وظهر فيها خيانته لزوجته الأولى وخيانته لزوجته الثانية أيضًا وإهماله لأولاده.

كاتب هذه السيرة الجديدة لإينشتاين، وهو يعمل محررًا علميًا لجريدة نيويورك تايمز، لا يكتفى بكتابة تفاصيل حياة إينشتاين الخاصة، وإنما يعرض أيضًا الصعوبات الرياضية والمفاهيم التى واجهت إينشتاين فى طريقه لإبداع نظرياته العلمية التى حولت فهمنا للعالم، كما يربط بين مراحل عمله ونشاطه ومراحل الاضطراب فى حياته. فقد تبين أن عظمته كانت تتجلى فى الظروف الأسرية المنهارة.

Greek Fire: The Story of Maria Callas and Aristotle Onassis

(حريق يونانى: قصة ماريا كالاس وأرسطو أوناسيس)

Nicholas Gage

Khopf, 2000, 384pp., $26.95

حول قصة غرام مغنية الأوبرا الاسطورية ماريا كالاس بالمليونير اليونانى أوناسيس والتى استمرت حتى أثناء زواج أوناسيس من جاكلين كينيدى. الجديد فى الكتاب هو أن ماريا التى فشلت فى الإنجاب من زوجها العجوز، أنجبت سرًا طفلاً من أوناسيس ولكنه لم يعش سوى ليوم واحد، ولولا موته لكانت أصبحت هى السيدة أوناسيس بدلاً من جاكى.

تعليم لغات

الألمانية فى الفندقة والسياحة

عليا عزت عياد، ماجدة عبد المنعم حسين

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

يشكل السياح الألمان نسبة كبيرة من مجمل عدد السياح القادمين إلى مصر على مدار العام، يقدم المؤلفان دليلاً لاستخدام الألمانية ببساطة، أهم العبارات المستخدمة فى حجز الطيران والفندقة والمطاعم وغيرها، مما يفيد المرشدين والمتعاملين مع السياح عمومًا.

Rick Steve's French Phrase Books Dictionary

(قاموس وكتاب ريك ستيفز للعبارات الفرنسية)

Rick Steves

Avalon Travel Publishing, 1999, 180pp., $6.95

من أكثر الكتب شعبية وسهولة فى مجال تزويد المسافر إلى فرنسا أو المتعامل مع فرنسيين بالعبارات والكلمات اللازمة للتفاهم والتخاطب بغير بذل جهد كبير. كذلك يقدم للمسافرين إلى فرنسا خرائط للطرق والسكك الحديدية.

تنمية

تجارب ناجحة للتنمية فى مصر

نجوى عبد الله سمك

القاهرة: مركز دراسات وبحوث الدول النامية، ٢٠٠٠

يقدم هذا الكتاب خلاصة ندوة أجراها المركز حول تجارب ناجحة فى التنمية تعرض فيها لبعض الشركات المصرية التى حققت طفرات جيدة وأغلبها شركات صناعية للتأكيد على دور الصناعة فى تحقيق التنمية فى الدول النامية ومنها مصر بطبيعة الحال، شارك فى الندوة أكاديميون ورؤساء شركات وممثلون عن وزارة الصناعة فى مصر.

Woman and Human Development The Capabilities Approach

(النساء والتنمية البشرية: منهج القدرات)

Martha C. Nussbaum

Cambridge University Press, 2000, 312PP., $24.95

تدافع المؤلفة عن مبدأ النسوية العالمية، حيث ترى المساواة قيمة عالمية فى مقابل ادعاءات النسبية الثقافية، وتدعو الحركات النسائية الأمريكية للاهتمام بقضية المرأة فى العالم الثالث.

وهى تتبنى فى نظريتها منهج القدرات الذى وضعه عالم الاقتصاد البريطانى - الهندى الأصل - أمارتيا سين، والذى يعنى أن السياسة الاجتماعية يجب أن تركز على تنمية القدرات البشرية لكى توظفها فى مواجهة الحياة. وفى تطبيقها لنظريتها الليبرالية هذه على مواقف محددة فى الهند، أثناء دراستها لمشروعات المرأة التنموية هناك، توصلت إلى مجموعة من القدرات البشرية الأساسية التى تحتاج إلى رعاية اجتماعية لتحقيق التنمية الشاملة فى النهاية: منهما الحياة والصحة والتكامل الجسدى والإنجاب الاختيارى والمشاركة السياسية والمساواة فى حقوق العمل وحقوق الملكية.

رواية وأدب

الغلامة

عالية ممدوح

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٠

ليست تجربة امرأة بعينها، إنما هى مسيرة النساء والرجال المضطهدين فى أقبية التعذيب والمعتقلات، وإن كانت تعكس عذاب المرأة فى بنى اجتماعية وسياسية وحزبية يديرها ويسيطر عليها الرجال.

أنا هى أنت

إلهام منصور

بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٠

سهام بطلة الرواية تعرضت للاغتصاب على يد أبيها فى سن الطفولة، مما دفعها منذ وقت مبكر إلى إقامة علاقات مثلية شاذة مع مثيلاتها من النساء. رواية صدامية على كل حال، وزمنها هو زمن الحرب الأهلية فى لبنان.

سمر الليالى

نبيل سليمان

اللاذقية: دار الحوار، ٢٠٠٠

رواية جديدة للروائى صاحب المشروع اللافت فى مسار الرواية العربية، تدور داخل سجون النساء والأحاديث المتبادلة عن المنظمات السياسية التى يحلم أعضاؤها وهم شباب فى عمر الزهور بتغيير العالم، ونشر رؤاهم فى الإصلاح والتقدم.

Eclipse

(خسوف)

John Banville

Picador, 214pp, 2000, £15.99

الرواية الأخيرة للكاتب والناقد الأيرلندى الشهير جون بانفيل المعروف بمفرداته ولغته الدقيقة.. تدور حول ممثل مسرحى فى منتصف العمر يترك عرضاً كلاسيكياً فى منتصفه ويذهب لمنزل طفولته ليتوقف عن «التمثيل» ويبدأ فى أن «يكون» فقط. الرواية تبحث المساحة التى تقع بين كل من الحلم، والمظهر السطحى، والواقع الحقيقى.

I Saw Ramallah

(رأيت رام الله)

Mourid Barghouti

Translated by Ahdaf Soueif

Forword by Edward said

AUC Press, 2000, 180 pp., L.E60/$17.95

قرأ الجمهور العربى رواية الشاعر الفلسطينى المعروف مريد برغوثى «رأيت رام الله» عندما نشرت لأول مرة فى القاهرة عام ١٩٩٧ والآن- وفى وقت مناسب تماماً- تظهر الترجمة الانجليزية للرواية وقامت بها الروائية المصرية التى تعيش فى إنجلترا أهداف سويف. كما قام المفكر الأمريكى الجنسية الفلسطينى الأصل إدوارد سعيد بكتابة المقدمة.

الرواية وهى الأولى لمؤلفها - تروى من خلال مذكراته الشخصية عن عودته لموطنه فى فلسطين المحتلة فى زيارة عام ١٩٩٦ بعد ثلاثين عاماً من الشتات والغربة.

سياسة

حكاية فيصل

خالد زيادة

بيروت: دار النهار، ٢٠٠٠

كان الأمير فيصل ابن الشريف حسين هو الذى حمل راية الثورة العربية بعد والده الشريف حسين الذى قاد الثورة العربية فى الحجاز ضد الحكم التركى عام ١٩١٩، وقد كان يراه «لورانس» كما جاء فى مذكراته البطل المؤهل لتحقيق حلم التحرير، هذا الكتاب يروى حكاية فيصل وصراعه فى مواجهة الأطماع الإنجليزية والفرنسية، وما آل إليه هذا الصراع.

صناعة الهولوكوست

نورمان فنكلشتاين

ترجمة: جعفر هادى حسن

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٠

حوّل اليهود معاناتهم التى عانى مثلها

وربما أضعافها على يد النازى، شعوب عديدة فى أوروبا، إلى وسيلة مستمرة للابتزاز، سواء من مضطهديهم أو غيرهم، وتحولوا هم أنفسهم إلى نازيين جدد، هذا الكتاب يكشف عملية صناعة الهولوكوست وتضخيمها لكسب تعاطف الرأى العام العالمى وابتزازه، والتعمية على الممارسات الوحشية التى يمارسونها فى الأراضى العربية المحتلة.

■■■

فى انتظار المخلص

رءوف مسعد

القاهرة: مدبولى، ٢٠٠٠

عن زيارة المؤلف إلى إسرائيل، وهى الرحلة التى تفاوتت ردود أفعالها إلى حد الغضب والاتهام بالخيانة لدى الرافضين، بحثًا عن حلول بديلة، واختيارًا للوعود الوهمية المسفوحة عبر وسائل الإعلام، كانت رحلة المؤلف.

■■■

كردستان ودوامة الحرب

محمد إحسان

لندن: دار الحكمة، ٢٠٠٠

تحليل للظرف الدولى الذى أفرزته التجربة الكردية فى إطار المنطقة الآمنة الجديدة، وتقييم لمسيرة التجربة وآفاق نجاحها، ودعوة لاستنفار الطاقات من أجل صياغة السلام فى كردستان العراق.

■■■

وصيتى

أنور السادات

القاهرة: المكتب المصرى الحديث، ٢٠٠٠

لعب السادات دورًا بالغ التأثير فى مسيرة المنطقة، منذ تولى الحكم عقب وفاة الرئيس عبد الناصر، فى هذا الكتاب أهم أفكاره التى ساهمت فى تغيير وجه الحياة فى مصر والمنطقة العربية كلها.

■■■

Failed Crusade: America and the Tragedy of PostCommunist Russia

(الحملة الصليبية الفاشلة: أمريكا ومأساة روسيا ما بعد الشيوعية)

Stephen F.Cohen

W.W Norton & Company, 2000. 304 PP., $21.95

يتحدث المؤلف عن الكارثة الاقتصادية والاجتماعية التى تعم روسيا منذ بداية التسعينيات، والتى وصلت حدها الأقصى فى الكارثة المالية عام ١٩٩٨، ويلقى المؤلف اللوم على الولايات المتحدة وخبرائها ومثقفيها الذين أوقعوا روسيا فى هذا المأزق، بسبب نصائحهم الخاطئة المدفوعة بروح الانتصار.

■■■

Sale of the Century: Russia's Wild Ride From Communism to Capitalism

(صفقة القرن: رحلة روسيا الجامحة من الشيوعية إلى الرأسمالية)

Shrystia Freeland

Crown Business, 2000. 305 PP., $27. 50

المؤلفة عملت رئيس مكتب مجلة «الفاينشنال تايمز» فى موسكو لعدة سنوات، وتعتمد فى كتابها على مدى معرفتها بالاقتصاد والمجتمع الروسى.

تفسر فريلاند كيف ضعفت روسيا بسبب بيع الشركات الوطنية الكبيرة على أيدى المصلحين الجدد فى الحكومة لمجموعة صغيرة من كبار رجال الأعمال.

تقول فريلاند: «سرقت روسيا فى وضح النهار عن طريق رجال أعمال لم يخرقوا أى قوانين، وبمساعدة الإصلاحيين الشبان أصدقاء الغرب فى الكريملن»

■■■

This House Has Fallen:Midnight in Nigeria

(هذا المنزل قد سقط: منتصف الليل فى نيجيريا)

Karl Maier

Public Affairs, 2000, 237pp., $26.00

ولدت أزمة نيجيريا منذ تخطيطها أثناء الاستعمار البريطانى، فقد رسمت حدودها حول عدد من المجموعات العرقية المتباينة: الهوسا والفولانى فى الشمال، واليوروبا فى الغرب، والإجبو فى الشرق، إلى جانب القبائل الأخرى التى تمثل أقليات ثانوية. وبعد سلسلة من الحكومات الدكتاتورية العسكرية التى قمعت الشعب لم يعد أحد يتوقع لها أن تصبح قوة أفريقية عظمى، بل تستغلها الولايات المتحدة الآن لتقوم بدور الشرطى الفاسد فى غرب أفريقيا. ولكن وكما يقول مؤلف الكتاب مازالت نيجيريا مهمة، من الناحية الاقتصادية، فهى الشريك التجارى الرئيسى للولايات المتحدة فى أفريقيا وخامس مصدر للبترول لها. كما تعتبر سوقًا مستقبلية هائلة بهذا الحجم الكبير والمتنوع من سكانها.

■■■

From Herzel to Rabin: The Changing Image of Zionism

(من هرتزل إلى رابين: الصورة المتغيرة للصهيونية)

Amnon Rubinstein

Hdmes & Meier, 2000, 283pp., $32.59

يعمل آمنون روبنستين أستاذًا فى الحقوق، وهو أيضًا عضو بارز فى الكنيست الإسرائيلى، كما عمل وزيرًا للتعليم أثناء حكومة إسحق رابين فى منتصف التسعينيات. ويقوم فى كتابه هذا بتتبع تاريخ الفكر الصهيونى والمراحل المهمة التى شكلته وأعادت صياغته. وهو يعترف بأن اليهود اليوم يتمتعون بالثقة والقوة أكثر من أى وقت مضى. فهم مندمجون تمامًا فى المجتمعات التى يعيشون فيها ويؤثرون سياسيًا وأكاديميًا واقتصاديًا.

أما عن الصهيونية داخل إسرائيل فهى متشعبة، وتختلف حدتها وصياغتها من مجموعة لأخرى. فالأرثوذوكس المتشددون يعتبرون الهولوكوست عقابًا من الله على الصهيونية ويرفضون مبدأ الدولة الإسرائيلية ويرفضون الانضمام للعسكرية ومع ذلك هو من أكثر المعادين للعرب. ومن ناحية أخرى هناك الأكاديميون أصحاب تيار «ما بعد الصهيونية» الذين يلومون اليهود على كل شىء ويبرئون العرب تمامًا، ويريدون إزاحة الصبغة اليهودية عن إسرائيل، كذلك هناك المجموعات القومية الدينية المتطرفة والتى تعتقد فى التفوق اليهودى وترغب فى سحق العرب. أما المؤلف نفسه فيؤمن بالمشروع الصهيونى ويرغب فى حياة متمدنة فى إسرائيل تجمع ما بين اليهودية المعتدلة والتسامح الليبرالى مع الآخر.

شعـــــر

القصيدة الحديثة فى الخليج العربى

مجموعة من الكتاب والنقاد الخليجيين

البحرين: إدارة الثقافة والفنون، ٢٠٠٠

مجموعة من الدراسات تلقى أضواءً على مسيرة القصيدة الحديثة فى منطقة الخليج العربى، كتبها نقاد خليجيون خبروا هذا الشعر وتعمقوا فيه وغاصوا فى جمالياته.

■■■

السيدة البيضاء فى شهوتها الكحلية

جوزف حرب

بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٠

ديوان جديد تحتل المرأة فيه ركنًا مهمًا، بوصفها ملهمة ومصدرًا للإبداع، الذى يخاطب أحيانًا أقصى درجات الطهر والصوفية فى الإنسان، وأحيانًا شهوانيته ورغباته الجسدية.

علوم وتكنولوجيا

الثورة الجينية.. الفكرة والإعصار

محمد عفيفى

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف تاريخ الثورة الجينية واكتشاف التركيب الأساسى للحامض النووى «دنا»، وكيف تطورت استخدامات هذا الفرع العلمى فى علاج العديد من الأمراض، ثم تطوير استخدامه فى مجالات الهندسة الوراثية وكشف الخريطة الوراثية للإنسان، كما يتعرض المؤلف للجوانب الأخلاقية والدينية المرتبطة بالموضوع.

■■■

Heroes, Rogues and Lovers: Testosterone and Behavior

(أبطال ومتشردون وعشاق: التستوستيرون والسلوك)

James Mcbribe Dabbs

Mcgraw lhill, 2000, 284 PP., $24.95

بغير هرمون التستوستيرون يصبح الجميع إناثًا، بالرغم من أن الإناث أيضًا لديهم نسبة من هذا الهرمون. ولكن الدراسة التى يقوم بها المؤلف تركز على تأثير الفرق فى نسبة تواجد هذا الهرمون بين الرجال على شخصياتهم وسلوكهم فى الحياة ونجاحهم المهنى.

ويخرج المؤلف بنتائج عديدة من تجاربه، منها أن مستوى التستوستيرون لا يظل ثابتًا، فهو يقل بنسبة ٥٠٪ على مدار حياة الشخص ويكون أعلى فى الصباح، كما يتأثر بالفصول وخبرات الحياة المختلفة. كذلك تؤدى المشاعر الإيجابية والأفكار الإيجابية إلى ارتفاعه، بينما ينخفض بالأفكار والمشاعر السلبية أو الانهزامية.

ومع ارتباط هذا الهرمون بصفات الشجاعة والإقدام والعنف والسيطرة إلا أنه فى عصرنا الحالى المتمدن يرتبط ارتباطًا عكسيًا بالنجاح المهنى والاجتماعى على عكس العصور الأولى من التطور البشرى.

■■■

Computers Ltd: What They Really Can't Do

(الحاسبات الآلية «محدودة»: ما لا تستطيع أن تفعله)

David Harel

Oxford University Press, 2000, 240 PP., $25.00

المؤلف عالم رياضيات فى معهد وايزمان للعلوم بإسرائيل، ويقوم فى كتابه بشرح المشاكل الرياضية التى لا «ولن» يستطيع الحاسب الآلى أن يحلها أبدًا. وذلك راجع للنظرية الرياضية التى يقوم عليها أصلاً الحاسب الآلى.

■■■

Genes, Peoples, and Languages

(الجينات والشعوب واللغات)

Laigi Laca Cavalli - Sforza

Penguin, 2000, 240 pp., £ 18.99

كتاب جديد لعالم الأحياء الإيطالى الشهير «كافالى» الذى كان أول من استخدم شفرة الـ DNA فى معرفة الصفات المميزة لشعوب العالم المختلفة ومسيرة هجراتهم عبر آلاف السنين. فبالرجوع إلى الآثار واللغويات والجينات، يؤكد كافالى النظرية القائلة بأن الإنسانية بدأت منذ عشرة آلاف سنة فى أفريقيا ثم إلى آسيا ثم إلى بقية العالم. كذلك فإن اكتشافاته العلمية لها مغزى سياسى، حيث توصل إلى عدم وجود أساس جينى وراثى للتصنيف العرقى أو اللونى بين البشر. وإنما أفضل الطرق فى تحديد الأصل الجينى هى مقارنة فصائل الدماء، والتى تفسر الفروق الثقافية واللغوية بين البشر. والواقع أن كل التساؤلات التى يثيرها كافالى لها أهمية سياسية واجتماعية وعلمية: متى وأين نشأ البشر؟ كيف انتشرت المجتمعات الإنسانية عبر القارات؟ كيف أثرت الابتكارات الثقافية فى نمو وانتشار الشعوب؟ ما هى الصلة بين الجينات واللغات؟

■■■

Secrets and Lies: Digital Security in A Networked World

(أسرار وأكاذيب: الأمن الرقمى فى عالم متشابك)

Bruce Schneier

John Wiley & Sons, 2000, 432 pp., $29.99

المؤلف خبير فى أنظمة أمن الحاسبات الآلية، أما الكتاب فموجه لكل من يتعامل مع الحاسب الآلى فى التسوق عبر الإنترنت أو فى التجارة الإلكترونية.

فقد اكتشف بعد سنوات من الخبرة

والتمرس في هذا المجال أنه لا يوجد نظام آمن تمامًا، وأن الأنظمة الآمنة للحاسبات الآلية تعتمد فقط على التقليل من المخاطرة. ويعدد الكتاب الأنواع المختلفة من الهجوم والتلصص والتخريب التي قد تصيب أنظمة الحاسبات الآلية الشخصية.

كذلك يعرض للأنواع المختلفة الموجودة من أنظمة الأمن وإمكانياتها المتنوعة. وأخيرًا يقدم نصائحه للشركات فيما يمكنها أن تقوم به من اجراءات حمائية.

فكــــر

أمتنا بين قرنين

يوسف القرضاوي
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠

ماذا سيكون حال المسلمين في الألفية الجديدة؟

سؤال يتبادر، بل ويشغل ذهن كل مسلم، وخصوصًا أن الألفية الثانية مضت، والمسلمون فيها في ذيل قافلة العالم، يستهلكون ولا ينتجون، يستوردون ولا يبدعون، يقلدون ولا يجددون.

المؤلف يرى بحصافة تلك المعاني، لكنه لا يشارك المتشائمين انقباضهم، ويرى أن ثمة مسحة من الأمل والتفاؤل تشير إليها مبشرات دينية ودنيوية، لكن تحقيق هذا الأمل يستلزم عملاً دءوبًا حتى تتحول الأحلام إلى حقائق.

■■■

أيديولوجيا الحداثة بين المثاقفة والفصام الحضاري

عريجوا مارشو
دمشق: دار الأهالي، ٢٠٠٠

يركز المؤلف على الآليات التي تشكل أيديولوجيا الحداثة العربية، باتجاهاتها العلمانية والليبرالية والقومية والماركسية، متسائلاً عن كيفية النهوض الحضاري، سواء اعتمادًا على هذه الآليات أو خروجًا عليها جميعًا.

■■■

توظيف المحرم

سليمان حرتيانى
دمشق: دار الحصاد، ٢٠٠٠

عن الدور السلبي الذي ينتج عن توسيع دائرة التحريم خصوصًا في مجال الحريات الفردية، ثمة ثوابت لا يجوز إغفالها، لكن توظيفها في خدمة أغراض ضيقة تسعى إلى وأد الإبداع وحصار المبدعين، هو ما يفرضه المؤلف.

■■■

ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق

يوسف القرضاوي
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠

ما هي الثقافة التي نرجوها لأمتنا، حتى تتجاوز أزمتها الحضارية، هل هي ثقافة منفتحة بلا حساب على العالم كله؟ هل هي ثقافة منغلقة على ماضيها وتراثها؟ هل هي ثقافة تأخذ من الطرفين بحساب، هذه الدراسة تؤصل للمعنى الثالث شرعيًا، وتؤكد أن الثقافة التي نحتاجها تأخذ من العالم بما لا يمس جوهرها وثوابتها الأصيلة.

■■■

حديث صحافي مع الإمام علي بن أبي طالب

رياض نجيب الريس
بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٠

يحاول المؤلف من خلال حواره المتخيل مع الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أن يزيل نغمة التشاؤم الجاثمة على صدور الشعوب العربية، ويكشف مواضع الخلل التي تقود إلى مزيد من الركود والتخلف، سعيًا إلى النهوض بالأمة.

■■■

دفاعًا عن إدوارد سعيد

فخري صالح
عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠

تحاملت بعض الكتابات، وأكثرها لا يخفي نوازعه الصهيونية ضد المفكر الفلسطيني الكبير، المؤلف يرد على هذه الدعاوي ويؤكد الدور المهم الذي لعبه إدوارد سعيد في نصرة القضية الفلسطينية والوقوف بقوة في وجه الدعاوى الصهيونية.

■■■

وليمة للإرهاب الديني

حلمي النمنم
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٠

يتضمن الكتاب ملفًا عن واحدة من القضايا الفكرية التي أثارت ردود أفعال هائلة في مصر أخيرًا، إذ كانت القاهرة مسرحًا لسجال فكري حول رواية الأديب السوري «حيدر حيدر» وليمة لأعشاب البحر، التي وصفها بعضهم بالإلحاد، فيما اعتبرها البعض تنتصر لقيم الإسلام في العدالة والحرية الفكرية والمساواة، والمؤلف يعرض لكافة وجهات النظر حول الرواية، وينتصر لوجهة النظر الثانية.

■■■

يا فؤادي

محمد سويد
بيروت: دار النهار، ٢٠٠٠

نداء آس ربما على زمن بيروت الذي ولّى، وقت أن كانت بحق عاصمة للثقافة والفنون في الشرق العربي، حتى جاءت الحرب الأهلية فبدلت أحوالها، وتأثرت فنونها من سينما ومسرح وإبداع أدبي تحت وطأة هذه الحرب الغاشمة، لكن ها هي بيروت تنهض لاستعادة مكانتها ودورها.

■■■

The Missionary and the Libertine: Love and War in East and West

(المبشر والفاسق: الحب والحرب في الشرق والغرب)

Ian Buruma
Random House, 2000, 319pp., $25.95

يعد الكاتب إيان بوروما من المستشرقين المعاصرين، وينصب اهتمامه بالتحديد على بلاد شرق آسيا. فقد أمضى معظم حياته دارسًا ومتجولاً في أنحائها خاصة في اليابان. وفي هذا الكتاب يكتب بوروما عن ثماني دول آسيوية؛ حول رؤى المثقفين والساسة الآسيويين للشرق والغرب ورؤى الكتّاب والساسة الأمريكيين والأوروبيين عن آسيا.

واستنتاجه الأساسي في الكتاب أن الغرب ما زال يرى الشرق من خلال القوالب التقليدية، وأن آسيا متأثرة بعمق بالغرب، ولم تعد مختلفة كثيرًا عنه. أما مسألة «القيم الآسيوية» فهي مقولة روجها السياسيون الآسيويون المتسلطون لكي يفلتوا من محاسبة الغرب لهم على حقوق الإنسان.

■■■

The Way of All Flesh: A Celebration of Decay

(احتفاء بالاضمحلال)

Midas Dekkers
Farrar, Straus and Giroux, 2000, 288pp., $25.00

يقدم لنا ميداس دكرز عالم الأحياء الهولندي كتابًا يحمل فكرة جمالية وطبيعية فريدة، فهو ينتقد البلاد الصناعية الحديثة التي لا تسمح بترك الأشياء تذبل وتضمحل بلطف. فالبناء القديم يجب تجديده أو هدمه، والإنسان العجوز يزرع شعرًا ويحقن بالكولاجين. وعلى العكس يحب «دكرز» الوجوه المسنة، حيث إنها أكثر تشويقًا وتحمل الكثير من الحياة التي عاشها أصحابها. وكذلك المنازل العتيقة. وهو يرى أن تساقط الكائنات سواء كانت عضوية أو غير عضوية يشجع على تفجر النماء الجديد. كذلك يعدد «دكرز» في كتابه الحقائق العلمية عن عمليات التحلل المستمرة التي تحدث من حولنا كل يوم؛ التحلل الطبيعي في الهواء الذي تستنشقه والماء وتحلل أجسامنا وجلودنا اليومي.

الكتاب يحمل دعوة لأن نتخذ موقفًا أكثر حكمة فيما يتعلق بحقيقة الموت الذي هو جزء من الحياة نفسها ووجه آخر لها.

فنــون

غواية الصور

زينات بيطار
بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠

شهدت الفنون التشكيلية دومًا ثورات وانقلابات، بات فيها الحديث كلاسيكيًا والمعاصر متحفيًا، وكانت ثورات الفنون ومدارسها ومذاهبها الفنية، مواكبة، وربما سابقة على تحولات أخرى في السياسة والاقتصاد والأوضاع الاجتماعية، والآن تتعايش كل هذه المدارس معًا، ويعايشها المتذوق وفق رؤاه وتفضيلاته الجمالية.

■■■

الفن الإسلامي في المصادر العربية.. صناعة الزينة والجمال

شربل دانمر
الكويت: دار الآثار، ٢٠٠٠

لم ينطلق الفن الإسلامي من فراغ، بل كان تعبيرًا عن فلسفة واضحة ورؤى متميزة للكون والحياة وموقع الإنسان منهما، وهكذا كان فيما يتصل بصناعة الزينة والجمال.

■■■

موسوعة عناصر العمارة الإسلامية

يحيى وزيري
القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠

كان للمسلمين وسائلهم في إضفاء طابع خاص على عمارتهم في شبه جزيرة العرب، وتطورت هذه الوسائل والطرز المعمارية من العهد النبوي إلى عصور الخلافة واكتسبت سمات جديدة، دون أن تغفل سماتها الأصلية الأساسية.

نقد أدبي

العين والإبرة

عبد الفتاح كيليطو
ترجمة: مصطفى النحال
مراجعة: محمد برادة
المغرب: دار الفنك، ٢٠٠٠

يزيح المؤلف الستار عن ألف ليلة وليلة، ويقدم اجتهاده فيها بيانيًا وجماليًا، بما يعني أن ألف ليلة وليلة، ذلك الأثر الأدبي الخالد، ما زالت قادرة على إثارة الجدل والإلهام لدى المبدعين والشعراء والنقاد مهما مضى عليها من زمن.

■■■

النص وتجليات التلقي

سالم خدادة
الكويت: مركز النشر العلمي، جامعة الكويت، ٢٠٠٠

بتطور نظريات النقد الأدبي، صار للتلقي دور أكثر فعالية عن ذي قبل، صار المتلقي مشاركًا أصيلاً في عملية الإبداع مما حرك سواكن النشاط اللغوي، وضاعت مستويات النص وجمالياته حسب فعالية واندماج المتلقي.

■■■

لونجين والجرجاني

عدنان عبد الله
أبو ظبي: مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٠

عرض للجهود النقدية للناقدين اللذين ينطلقان من مواقع فكرية وجغرافية مختلفة، لكنهما متشابهان في بعض الطروحات ويختلفان قطعًا في أخرى، المؤلف يعرض لبعض كتاباتهما ويحلل ما انتهيا إليه.

■■■

وأد مقومات الإبداع

إبراهيم البليهي
السعودية: سلسلة كتاب المعرفة، ٢٠٠٠

للمبدع دور لا يغفل في النهوض بمجتمعه والأخذ بيد ناسه في دروب الرقي والتقدم، وللظروف المجتمعية واستعداد الناس للتفاعل مع رغبة المبدعين دورها أيضًا، عن الإبداع والمناخ الذي ينشطه ويدفعه يدور الكتاب.

■■■



سلام يقتل السلام

خمسون عاماً من الأكاذيب المصنوعة، والاتفاقات المضروبة، والوعود المنكوثة، والخداع السافر للشعوب، هى الحقبة الزمنية التى تغطى تاريخ الأحداث الدامية فى الشرق الأوسط.. والتى راح ضحيتها مئات الألوف من الضحايا والشهداء، وأهدرت على عتباتها آمال أجيال تلو أجيال، وأهرقت على رمالها دماء العُزَّل والأبرياء.. ثم ضاعت فى خضم ذلك أوطان ومقدسات، وضاعت معها القدرة على مواجهة الحقائق بلا مواربة ولا ادعاء.

تتراءى لنا جميعاً تفاصيل هذه القصة بجلاء كامل، مع الأحداث التى أمسكت بخناق العالم العربى خلال الأسابيع الأخيرة. وهو يرى كيف وصل الزحف اليهودى المخطط، والمدعوم بقوى خارجية مهيمنة، إلى محاولة وضع يده على بيت المقدس بعد أن وضع يده على أوطان عربية عديدة، من خلال مؤامرات تبدأ خيوطها من تل أبيب إلى واشنطن. تمتد بكل الحرص فوق الفضاءات الملغومة لدول عربية غارقة فى شئونها وشجونها الصغيرة، عاجزة عن قراءة التاريخ واستخلاص عبره، مسرفة فى حسن الظن بزعمائها وبنفسها وبالآخرين، مستكينة لأوضاع مهترئة لا تملك تغييرها أو الفكاك منها.

وحين خطا الإرهابى العتيق اريل شارون بأقدامه النجسة فوق أرض الحرم الشريف، كانت كل مشاعر الإحباط المتراكمة عبر سبع سنوات من الجرى وراء سراب السلام، والغيظ المكظوم من مسلسلات الخداع التى وقع فيها قادتهم وأوقعوهم فيها، والدماء التى راحت هدراً تحت وطأة القمع ووراء أسوار السجون، قد فاقت درجة الاحتمال لدى الملايين، ليس فقط من أهالى الأرض الفلسطينية المحتلة، ولكن أيضاً من جماهير الشعوب العربية والإسلامية.. التى اكتشفت فجأة أن خطط السلام التى جرى التفاوض حولها كانت قائمة على شفا جرف هار.. فانهار به فعلاً.

وعلى الرغم من أن انفجار مشاعر الغضب والسخط قد عبرت عن نفسها فى البداية فى صورة مظاهرات عادية قرب الحرم الشريف. لا تختلف كثيراً عن تلك المظاهرات التى وقعت فى شوارع بلجراد ضد ميلوسوفيتش وباركتها وسائل الإعلام الغربية واحتضنتها، إلا أنها بالنسبة للمحتل الإسرائيلى كانت بمثابة تمرد لا يصح السكوت عليه، ولا ينبغى أن يمر بسلام حتى لا تهتز سيطرة الوضع الإسرائيلى المفروض على القدس وما حولها. وهى المشكلة التى برزت بالغة الصعوبة والاستعصاء فى مفاوضات كامب ديفيد قبلها بأيام قليلة، وكانت سبباً فى فشلها على الرغم من الضغوط والجهود التى مارسها الرئيس الأمريكى كلينتون.. فقوبلت مظاهرات الاحتجاج الفلسطينية بكل ما تميزت به قوات الأمن الإسرائيلية المدربة من وحشية وقسوة، لتنطلق بذلك دائرة عنف دامية، استخدمت فيها القوات الإسرائيلية الرصاص المطاطى وغير المطاطى والقنابل، فى مواجهة متظاهرين عُزَّل لم يجدوا بين أيديهم ما يدافعون به عن أنفسهم غير سلاحهم القديم من الطوب والحجارة.. ليتصاعد العنف بعد ذلك إلى حرب صريحة بالطائرات والدبابات ضد الفلسطينيين فى غزة والضفة لتكون بذلك نهاية مرحلة، وبداية مرحلة.. نهاية مرحلة سلام زائف مسموم، استخدم فى قتل مبدأ السلام العادل الذى حلمت به الشعوب العربية طوال الحقبة الأخيرة منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣.

فى كل مراحل الصراع العربى- الإسرائيلى، كان هدف السلام العادل الشامل هو الهدف النبيل الذى تسعى إليه الشعوب العربية.. فلم تكن هذه الشعوب مهيأة لصراع دموى طويل، يطرح حقها فى الوطن الذى تعيش فيه منذ آلاف السنين موضع التساؤل أو يولد لديها الحاجة لإثبات حقها فيه.. وذلك فى مواجهة جماعات يهودية استيطانية، تميز تاريخها بالانعزالية والعنصرية والتعصب، ونجحت فى أن تصبح جزءاً من الامبريالية العالمية، تعبر عن التراث الفكرى الاستعمارى الغربى وتصبح شريكاً فاعلاً فى وضع استراتيجياتها العالمية، وقد أثبتت أحداث التاريخ أن ثمة اتفاقاً جوهرياً فى نظرة الغرب والصهيونية العالمية إلى عالمنا العربى.. فالشرق الأوسط لا يعدو أن يكون فى نظر الغرب والصهيونية مصدراً هائلاً للمواد الخام الرخيصة وعلى رأسها النفط، ومجالاً خصباً للاستثمارات، وسوقاً استهلاكية، وقاعدة استراتيجية فى مواجهة الأعداء القائمين أو المحتملين فى آسيا (روسيا أو الصين). ومن ثم فقد اعتبرت الصهيونية فلسطين «أرضاً بلا شعب» أو مساحة من الفراغ يمكن ملؤها، وساعدتها الامبريالية العالمية على تحقيق أهدافها الأسطورية التوراتية التى اعتبرت فلسطين أرض الميعاد.

ومنذ بدأ الصراع على فلسطين بوعد بلفور الذى أعطت بريطانيا بمقتضاه لليهود الحق فى إقامة دولتهم.. وقع العرب ضحية سلسلة طويلة من الألاعيب والخداع السياسى لم تتوقف، لأن الشعوب العربية لم تنجح فى اكتشافها وتعريتها لأسباب عديدة.. ليس أقلها ما كانت تعانيه من سيطرة الاستعمار والتخلف الاقتصادى والسياسى والثقافى. وظن العرب فى وقت من الأوقات أن هذه الدولة «المزعومة» مآلها إلى الزوال والتفكك، لأنها قامت على خليط متناثر من الأجناس واللغات، ولن يكتب لها الاستمرار إلا بفضل المساعدات الخارجية التى تدفقت عليها من أمريكا وأوروبا. وهو مالم يحدث حتى الآن.

وفى كل المواجهات والحروب التى وقعت بين الدولة اليهودية والدول العربية، والتى كانت دائماً ما تنتهى بهدنة مؤقتة، تكون إسرائيل بفضلها قد توسعت ووطدت أركانها وأعادت بناء قواتها العسكرية مستعينة بمهاجرين جدد.. كانت أدوات الصراع تزداد تقدماً وتعقيداً، لتفرض إسرائيل بقوة السلاح- مدعومة بتأييد غربى مطلق- ما يعجز العرب عن الدفاع عنه أو استرداده.. وظل الخطأ القاتل الذى ارتكبه العرب مرة بعد أخرى على مدى الخمسين عاماً الماضية، هو القبول بالتفاوض مع إسرائيل، بطريقة مباشرة أو بالوساطة، فى ظل الاحتلال، على أمل تحقيق تسوية سلمية. وقد رفضت إسرائيل دائمًا أن تسحب قواتها من أى أرض احتلتها عسكريًا، نتيجة للمفاوضات أو الاتفاقات.. وذلك باستثناء حالة واحدة عندما انسحبت من سيناء فى أعقاب حرب أكتوبر ٧٣، لأسباب استراتيجية وعسكرية ودولية بالدرجة الأولى، تتعلق بالخطط الدفاعية عن إسرائيل نفسها.



لم يتغير التفكير العربى كثيرًا عبر مراحل الصراع المختلفة. وظل أسلوب التفاوض فى ظل الاحتلال هو آخر ما تبقى من أساليب الصراع المعتمدة عند العرب، بعد أن أعلنت الدول العربية الكبرى - وعلى رأسها مصر - أن السلام خيار استراتيجى، وأن حرب أكتوبر آخر الحروب، وعندما كف الفلسطينيون عن الانتفاضة الأولى التى انطلقت عام ٨٧، وذلك فى أعقاب حرب الخليج، لم يكن السلام الذى سعوا إليه فى مدريد وأوسلو هو سلام الشجعان، بل سلام المتعبين الضائعين.. بعد أن تفككت الجبهات العربية، وانهارت الروح المعنوية، وغابت القيادات ذات الوعى والبصيرة.. كما أن الظروف العالمية نفسها تغيرت تغيرًا جذريًا بانتهاء الحرب الباردة، وصعود نجم الهيمنة الأمريكية.

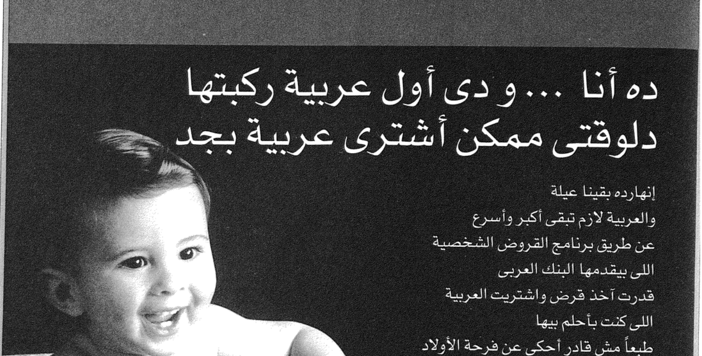
وغنى عن البيان أن مفاوضات أوسلو وما أعقبها من جولات تفاوضية بين الفلسطينيين وإسرائيل، ذرعت العالم طولاً وعرضًا، كانت تتم بين طرفين غير متكافئين، تحت وطأة احتلال إسرائيلى شبه كامل للأراضى الفلسطينية، ومن ثم فلا بد أن تسفر عن اتفاقيات مليئة بالثغرات والحيل والخدع اللفظية. وأن ينجم عنها ذلك النوع من السلام المراوغ الذى يفتقر إلى روح السلام الحقيقية، والذى نجحت إسرائيل فى استخدامه لتحقيق أغراضها كاملة، فقضت بذلك على مفهوم السلام القائم على العدل وجعلت منه نكتة ومدعاة للسخرية.

وهكذا فإن ما حدث فى القدس أخيرًا، وما أعقبه من انفجارات شاملة للأوضاع فى الأراضى الفلسطينية، فاجأت الكثيرين وأذهلتهم بما انطوت عليه من عنف وقسوة، هو النتيجة الطبيعية لسلام مسموم.. ظل الشعب الفلسطينى يتعاطاه طوال السنوات السبع الأخيرة. وقد ظن الإسرائيليون والأمريكيون - بل وبعض القيادات الفلسطينية والعربية - أن اعتياد الجسم الفلسطينى لهذه الجرعات المحسوبة من سموم السلام، كفيل بتحصينه ضد الثورة على الاحتلال الإسرائيلى، وترويضه للقبول بالأوضاع المهينة التى فرضت عليه. وربما كان أكثر ما أثار دهشة الإسرائيليين أنفسهم، هو الانتفاضة العنيفة التى صدرت عمن يسمون عرب إسرائيل أو عرب الداخل.. هؤلاء المليون فلسطينى الذين عاشوا جنبًا إلى جنب كمواطنين للدولة الإسرائيلية.

بعض الذين يفكرون فى نموذج «حزب الله» فى لبنان، لا بد أن يقودهم التفكير إلى ما يسمى «تاريخ الوقائع البديلة»، فيما لو اختلف سياق الصراع الفلسطينى - الإسرائيلى، على نحو يتيح للفلسطينيين أن يقاوموا وينزلوا من الضربات الموجعة بقدر ما ينزلها بهم الإسرائيليون، على نحو ما يحدث فى لبنان.

وفى أحداث العنف الأخيرة، كانت المبررات التى ساقها باراك لتعليل الضربات الوحشية التى وجهها إلى المظاهرات السلمية للانتفاضة الفلسطينية هى أن هذه هى اللغة التى يفهمها الفلسطينيون.. فمتى يدرك الفلسطينيون ومعهم شعوب العالم العربى حاجتهم إلى لغة مشتركة يفهمها الإسرائيليون؟

سلامة أحمد سلامة


ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد
إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخذ قرض واشتريت العربية
اللى كنت بأحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الفسح فى العربية الجديدة
معلهش ... أصلى راكن صف تانى


www.arabbank.com


البنك العربي


أكبر شبكة مصرفية عربية